سيكولوجية الشخصية

دراسة الشخصية وفهمها

تأليف

دكتور صلاح مخيمر
عبده ميخائيل رزق

سيكولوجية الشخصيّة

تأليف

دكتور صلاح مخيمر عبده ميخائيل رزق

١٩٦٨

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

مقدمـــة

كتاب في « الشخصية » هو ، بالضرورة كتاب بداية وكتاب نهاية في مجال دراسة الظواهر النفسية . لقد ولى ، منذ وقت طويل ، ذلك العهد البائد بتصوراته الميكانيكية ، ومفاهيمه الجزيئاتية ، هذه التي كانت تفرض على الشخصية أن تحتل الفصل الأخير من كتب علم النفس .

كان على الظواهر النفسية الأخرى أن تسبق ، وكان على الشخصية أن تأتي لاحقة عليها ، لأنها لم تكن في وهم الواهمين شيئا يزيد على مجرد حصيلة تنتج من الإضافة الصرفة للظواهر النفسية الأخرى .

كل ذلك قد مضى ، ولم يعد من الممكن اليوم لباحث من البحاث أن يمسك بظاهرة نفسية في معزل عن سياقها ، وبعيدة عن إطارها — الكل . ذلك أن الظاهرة النفسية ليست غير جزء عضوى تستحيل دراسته إلا بالرجوع إلى السياق الحي الذي تنتمي إليه ، وإلا في إطار الكل الذي تدخل ضمنه . وليست الشخصية غير هذا الكل الذي نفترضه ، لنرد إليه كثرة المسالك في تباينها ، وتعدد الظواهر النفسية على اختلافاتها .

وإذا كان العلم في معناه الحق لا يعدو أن يكون رداً لكثرة الظواهر إلى وحدة التصور ، ووحدة المبدأ ، ووحدة القانون ، فإن علم النفس ما كان يمكن أن يقوم بغير هذا التصور الأم ، تصور الشخصية ، الذي ترد إليه جميع الظواهر النفسية ، فتتخذ دلالاتها من خلاله ، وتتضح بالرجوع إليه .

من هنا كانت « الشخصية » بالضرورة تصور البداية وتصور النهاية فى دراسة الظواهر النفسية .

ولما كانت الشخصية — الكل تعد بدورها جزءاً عضويا ينتمى إلى عديد من الأكلال الاجتماعية ، فإن تصور الجماعة يغدو بدوره تصور البداية وتصور النهاية فى دراسة الظواهر النفس — اجتماعية .

هذه النظرة الكلية قد فرضت نفسها علينا فى تناولنا لموضوع الشخصية ، ومن ثم لم نطل الوقوف عند الطبيعية التجريبية ، ولم نمعن كثيراً فى مساربها القياسية . وكان هذا منا ولاشك لحساب النظرة الكلية الفهمية بنزعتها الإنسانية وطرائقها الكلينيكية ، هذه التى تمضى بالقارىء إلى الأعماق واللب ، دون أن تحصر نظراتها فى آليات الإنسان الإنتاجية .

١٥ أكتوبر ١٩٦٨

صلاح مخيمر　　　　عبده ميخائيل رزق

المحتويات

القسم الأول

فى علم النفس .. تياراته ومناهجه

الفصل الأول

تيارات علم النفس ومدارسه

أولا : علم النفس الوصفي

عادة مايسمى بعلم النفس التقليدى أو الكلاسيكى أو علم نفس الظواهر الشعورية أو التجارب الحية . وجرت العادة على النظر إلى الدراسات النفسية المنصبة على ظواهر الشعور على أنها موضوع ما يسمى بعلم النفس الكلاسيكى . ونعنى بهذه الدراسات الأبحاث التى تحصر همها فى الظواهر الشعورية مستخدمة فى ذلك طرقاً مختلفة من معرفة الذات — تدخل جميعها تحت المنهج المعروف باسم الاستبطان introspection .

وعلى الرغم من اتساع المعارف والمناهج فقد كان وما يزال البعض يتمسك بطريقة الاستبطان فيحاول عن طريقها حل جميع المشكلات إلى حد أن مشكلة معرفة الغير ترجع فى رأى هذا البعض إلى مجرد معرفة للذات نقيس عليها لنفهم الغير .

وأتباع هذا التيار وهم أصحاب الاتجاه الكلاسيكى يعرفون علم النفس على أنه علم الظواهر الشعورية من حيث هى ظواهر تعزل وتقطع عمداً من سياقها لتخضع لما يتوهمونه من تحليل علمى لها . فالإدراك ظاهرة شعورية ، ولقد افترض علم النفس الكلاسيكى وجود الإحساسات sensations كعناصر أولية وأولى ينتهى إليها التحليل آخر ما ينتهى ، فهى أشبه بشىء بهذه الذرات التى كان ينظر إليها علم الفيزياء على أنها آخر ما ينتهى إليه العلم فى تحليله الجسم إلى جسيمات فجزيئات قبل أن يصل إلى ذرات . ومعنى هذا أن الإدراك كظاهرة شعورية إنما كان يبدو لأصحاب

هذا التيار على أنه حاصل جمع إحساسات يضاف بعضها إلى بعض[1] . فالإدراك هنا من حيث هو كل إنما ينظر إليه على أنه كل إضافى ، ينتج من مجرد إضافة الأجزاء بعضها إلى البعض . ومثل هذه النظرة تنظر إلى الكل على أنه مجرد حاصل جمع لأجزائه تماماً كما يه آلة من الآلات تستطيع أن تنزع منها أى جزء لتحل محله بديلا . مثل هذه النظرة تعرف فى علم النفس بالنظرة الميكانيكية .

إن الاتجاه الكلاسيكى هو الذى هيمن على ميدان علم النفس منذ نشأته فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكانت هذه الدراسة — كما رأينا — تقنع بالظواهر الشعورية مستندة فى ذلك إلى ما يتوهمونه من تعارض أساسى بين الظواهر الشعورية والظواهر المادية . فالظواهر الشعورية تتميز فى رأيهم بأنها تستحيل معرفتها على الغير . فالظاهرة الشعورية لا يدركها غير صاحبها أى لا يدركها غير الشخص الذى يعد مسرحاً لها فتجرى داخله . هذا إلى أن الظواهر الشعورية تستحيل على القياس . ولكننا إذا نظرنا إلى هذين الأمرين وجدنا أن الظواهر الشعورية وإن حدثت داخل الشخص فإنها تتبدى مع ذلك بصورة أو أخرى خلال السلوك . فهى تترجم عن نفسها بمظاهر خارجية متاحة للملاحظة .

ومهما يكن من أمر فإن النظرة الكلاسيكية تتعرض للنقد لما تتسم به الظواهر الشعورية من جزئية وتحيز . فالتجارب الشعورية ليست هى كل شىء؛ إنها على وجه الدقة ليست غير لحظات من الوجود الفردى لا تعبر إلا عن وجه من أوجه الشخصية . فدلالات الكثير من مسالكنا تتخطى التجربة الشعورية . ومعنى هذا أننا لو اقتصرنا على التجارب الشعورية لما أمسكنا إلا بوجه واحد من أوجه الشخصية ، فتفوتنا بذلك أوجه أخرى قد تكون أكثر أهمية من الأوجه الشعورية . وما أكثر ما يستشعر

---

(١) نزعة ميكانيكية ، إضافية ، جزيئاتية ، دراتية .

الإنسان فى تجربته الشعورية وكأنه مدفوع إلى مساعدة هذا الجار أو ذاك بدافع المروءة بينما يكون فى الحقيقة مدفوعاً فى الأعماق بدوافع أخرى لا يشعر بها ، أو قل دوافع لا شعورية . ذلك أن حاجة الشخص الحيوية إلى أن تكون له عن نفسه صورة يرضى عنها ، تحول بينه وبين أن يرى الدافع الحقيقى الذى يدفعه ، فيرى بدلا منه فى تجربته الشعورية دافعاً آخر يتفق مع ما يرغبه لنفسه من حميد الصفات (صورة دفاعية) .

أما فيما يتصل بما تتوهمه هذه النزعة الكلاسيكية من استحالة قياس الظواهر الشعورية ، فإن هذا الزعم إنما يستند إلى ما افترضته هذه النزعة من وجود الإحساسات .

ولقد اضطلع « برجسون » بتفنيد هذا التصور ودحضه ، كما اضطلعت نظرية الجشطلت ببيان أن الإدراك معطيه أولى . ومهما سرنا بالتحليل فليس وراء الإدراك غير إدراك ، أما الإحساسات فليس لها من وجود[1]. ومهما يكن فإن الظواهر الشعورية وإن لم نستطع قياسها بطريقة مباشرة فإننا كثيراً ما نستطيع ذلك عن طريق نتائجها . ولقد أجريت كثير من التجارب على الحيوان لمقارنة شدة الدوافع وتحديدها تحديداً كمياً بالرجوع إلى شدة الصدمة الكهربية التى يرتضى الحيوان أن يعانيها وهو يجتاز الشبكة الكهربائية إلى هدفه . فقد كشفت هذه التجارب مثلا أن الحيوان يرضى بأن يعانى من أجل صغاره مالا يرضى أن يعانيه من أجل الطعام ، ويرضى من أجل الطعام ما لا يرتضى تحمله من أجل الحاجة الجنسية .

فالتعريف الكلاسيكى ونعنى به تعريف علم النفس على أنه علم الظواهر الشعورية إنما يعرض نفسه للنقد ، وإن كان أبرز ما يعاب عليه ينحصر فى عزله للظواهر الشعورية عن الظواهر البدنية والبيئية . فالمعطيات الشعورية

---

(١) پول جيوم ، علم نفس الجشطلت ، ترجمة المؤلفين ، سجل العرب ١٩٦٣ ، فصل ٣ ، ٤ .

فى حقيقة الأمر لا توجد فى انعزال ، ولا يمكن تصورها إلا ضمن بيئة وفى جسم هو بمثابة الدعامة للشعور .

وعلى أية حـــال فإن دراسة الظواهر الشعورية قد عرفت الكثير من التقدم فى مراحل تطورها . فلقد قام « وليم جيمس » عام ١٨٩٠ و « بيرجسون » عام ١٨٨٩ بنقد هذا التحليل الذى يعزل الظواهر الشعورية من أجل دراستها ، فلا يتنبه إلى أن الاقتطاع المصطنع على هذا النحو لهذه الظواهر يفسدها . فإنما هى ما هى عليه بالرجوع إلى سياقها . لقد نادى البعض بضرورة التنبه الى أن هناك فى الحقيقة تياراً متصلا من الظواهر الشعورية المتداخلة والمتشابكة بعضها بالبعض الآخر . ولم يقنع «برجسون» بذلك بل راح ينقد منهج الاستبطان كاشفاً عما ينطوى عليه من تزييف للوقائع ، وذلك لأن الاستبطان يقتضى من صاحبه أن يضطلع بدور مزدوج : فيعيش الظاهرة فى تقائيها ويضطلع فى الوقت نفسة بملاحظتها : إنه فى نفس الوقت ملاحظ (بكسر الحاء) وملاحظ (بفتح الحاء) . وفى كل دور من هذين الدورين ما يتعارض ولا شك مع الدور الآخر . فكيف للشخص أن يعيش مثلا الغضب فى صورة طبيعية وهو يضطلع فى الوقت نفسه بالملاحظة الهادئة الموضوعية لهذا الغضب . إنه ليستحيل عليه أن يجمع بين هذه الذاتية وتلك الموضوعية فى نفس الوقت . هذا وقد أسهمت دراسات الاستبطان التجريبى ، وخاصة عمليات الفكر ، على يدى الفريد بينيـه سنة ١٩٠٢ ومدرسة ڤرتسبورج إسهاماً كبيراً فى تطوير النظرة الكلاسيكية ، وذلك بما أدخلته من مفاهيم التجريبية والقياسية .

أما الفلسفة الظاهرياتية والوجودية فقد أتاحت أمرين هامين نستطيع أن نتبينهما فى مؤلفات سارتر وميرلوبونتى وشلر وهسرل وغيرهم . فلقد حرصت هذه الفلسفات على أن تضطلع بوصف صادق دقيق للظواهر الشعورية

مع حرصها على ما يعرف باسم قصدية الشعور intentionalité . ويعنى هذا أن الشعور يقصد دائما — أى يتجه إلى — شىء ما ، وهذا الشىء ليس بالشعور . وهكذا يجد الشعور مكانه فى العالم بعد عزلته عنه. فما دام الشعور شعوراً بموضوع آخر خارج عنه فإن دراسة الظاهرة الشعوريه تستلزم دراسة الشخص من حيث هو شعور بموقفه ، بعالمه ، أو قل تستلزم دراسة الحقل النفسى ، أى الشخص فى الموقف . ولقد توجت فلسفة شتيرن Stern هذا التقدم بما أتاحته فى « الفلسفة التى تتخذ الشخصية محورها» Personalisme من تصورات جديدة عن الشخص والعالم الشخصى والتجربة الحية Erleben . حقاً إن الظواهر الشعورية تيار متصل تتشابك فيه التجارب ، ولكن وإن كان من غير المشروع لنا أن نقطع فى صورة عمدية وكيفما اتفق ضمن هذا التيار ، فإننا نستطيع مع ذلك لأسباب تتصل بالدراسة أن نقطع ضمن هذا التيار قطاعات طبيعية مهتدين فى ذلك بالوصلات والتمفصلات الطبيعية .

ومعنى هذا أننا نستطيع ضمن تيار الظواهر الشعورية أن نعزل إلى حين وبدافع من الدراسة وحدات طبيعية أو قل تجارب حية تتميز بشىء من الاستقلال النسبى فتبرز محددة رغم اشتباكها واندماجها فى السياق الشعورى المتدفق .

يتضح من هذا كله ما طرأ من تطور على التقليد المتبع فى علم نفس الظواهر الشعورية . فقد غدت التجارب الشعورية تحظى بوصف أصدق وأدق مع وضعها فى إطارها وإعادتها إلى سياقها .

ثانياً: التحليل النفسى

عرض تاريخى :

يبدو التحليل النفسى من حيث هو تيار فكرى مذهباً يتميز بما اتخذه فى بداية الأمر من موقف سلبى تجاه علم نفس الظواهر الشعورية . ويرمز مصطلح التحليل النفسى إلى منهج البحث ووسيلة العلاج التى ابتدعها « فرويد »، هذا إلى نظرياته فى الغرائز والشخصية . فالتحليل النفسى يشير أولا إلى منهج للبحث فى العمليات النفسية هذه التى تكاد تستعصى على أى منهج آخر. والتحليل يشير أيضاً إلى طريقة لعلاج الاضطرابات العصابية استناداً إلى منهج البحث السابق. والتحليل يشير ثالثاً إلى هذه المعارف النفسية التى تأتلف فى جهاز نظرى جديد عن الغرائز و نضجها وعن الجهاز النفسى (الشخصية).

ظهر التحليل النفسى فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر نتيجة أبحاث ووقائع كثيرة تتعلق بالتنويم المغناطيسى والتجوال النائم والهستيريا، هذا إلى نظريات فلسفية (من قبيل مانجده عند شوبنهاور) مهدت له. فى الحالة الشهيرة تحت اسم أنا (بروير وفرويد) كان العلاج بالكلام أثناء التنويم المغناطيسى. وكانت تختفى الأعراض المرضية عند التذكر « الانفعالى » للمناسبة التى ظهرت فيها الأعراض لأول مرة . وكانت طريقة هذا العلاج التطهيرى تعتمد على التنويم للكشف عن المواقف الصادمة المولدة للأعراض ، وذلك فى حركة تبدأ من الحاضر متجهة أكثر فأكثر إلى الماضى . وقد حظى التنويم فى فرنسا بدراسة سيكولوجية عند شاركو وأتباعه ، وبدراسة كلينيكية تنصب على الآثار العلاجية عند برنهايم وأتباعه، وجاء جانيه فقرر تأثير الذكرى المنسية للأحداث المرتبطة بالانفعالات العنيفة فى تكوين المرض. فانفصال الذكرى فى رأيه إنما يرجع إلى عملية آلية تنتج عن « الضعف

النفسي». فهو لم يصل إلى مفهوم ديناميةالصراع وعملية الكبت مما سيأتي به « فرويد » [١]

انتهى « فرويد » في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر إلى التحليل النفسي وذلك بعد عدة محاولات . فقد بدأ بالعلاج التطهيري مع بروير وكان يستعين بالتنويم في الكشف عن ذكرى الحادثة الصادمة كشفاً يحقق الإفراغ الانفعالي . ولكن التنويم المغناطيسي كان ممكناً فقط بالنسبة إلى البعض،وكان أثر التطهير إلى حين . ومن هنا التجأ « فرويد » إلى اليقظة وإلى الإيحاء للمريض أثناءها حتى يتذكر . واصطدم فرويد بمقاومة المريض أي بهذا الكبت الناشيء من موقفه الدفاعي بإزاء النزعات غير المباحة ،ومن هنا برزت ضرورة تدريب المريض على الإقلاع عن كل موقف نقدي والالتزام بالخواطر التلقائية الواردة (قاعدة الاستدعاء الطليق) . كان على المريض أن يفصح عن كل مايحضر بخاطره مهما كانت طبيعته مما يتيح انطلاق الانفعالات الوجدانية المكبوتة ، ومما يسنح للمعالج استناداً إلى الحتمية النفسية بتفسير المواد التي تخطر في تتابعها. هذه الطريقةهي ماأسماها «فرويد» بالتحليل النفسي. واكتشف «فرويد» بعد ذلك ظاهرة الطرح (التحويل) يسلك المريض — بدلا من التذكر — تجاه المعالج على نحو ما كان يسلك إبان الطفولة تجاه الأبوين. والمريض بذلك يعيش ماضيه من جديد في الحاضر فيتيح للمعالج أن يمسك بماضيه ويتيح لنفسه فرصة أن يتعلم السيطرة على هذه المواقف والانفعالات، هذه التي عجز في الماضي عن السيطرة عليها مما ألجأه إلى كبتها .

عرف التحليل الكثير من الأنصار في الأعوام العشرين الأولى من هذا القرن من أمثال يونج وبلويلر وجونز وأبراهام وفرنزي، ورحبت به ألمانيا وشجعته أمريكا وإنجلترا . وتتميز هذه الفترة بالاهتمام المتزايد بالمقاومة

---

(١) انظر مقدمة كتاب : علم الاجتماع عند ماركس الشاب، تأليف جيرفيتش ، ترجمة المؤلفين ، الأنجلو .

والطرح، وبتحديد الأمراض التى يصلح لها التحليل النفسى، وازدياد أهمية العقدة الأوديبية ولكن هذه الفترة قد شاهدت أيضا بداية الاهتمام بسيكولوجية الأنا، وشاهدت انشقاق أدلر ويونج عن أستاذهما فرويد، فقد اهتم أدلر بالعدوان والأنا أكثر من اهتمامه بالجنسية واللاشعور، بينما اهتم يونج باللاشعور الجمعى والتفسير الرمزى لعقدة أوديب. ومن الناحية العلاجية انتقل الاهتمام عند كل منهما إلى الصراع الراهن بدلا من الصراع الماضى كمحور للتحليل.

وجاءت المرحلة الثانية مع عام ١٩٢٠ عندما اضطلع فرويد بتعديل فى نظرية الغرائز والجهاز النفسى. وكانت التعديلات خطيرة فى آثارها، فلم يعد التفسير يتمثل فى صراع بين الغرائز وإنما فى دفاع الأنا ضد الحوافز الغريزية والانفعالات. ولم تعد الحوافز جنسية فحسب فهنالك الحوافز العدوانية أيضا؛ هذا إلى الأهمية المتزايدة التى يوليها التحليل النفسى لدفاعات الأنا والعدوان مما يختلف تماما عن الصورة الجامدة الشائعة بين العامة والتى تتوهم التحليل النفسى نظرية جنسية شاملة ترد كل شىء إلى الجنس وتقتصر على اللاشعور.

أما الاتجاهات الحالية فى التحليل فتنقسم الى ثلاثة رئيسية:

فالاتجاه الأول يحاول أن ينفذ إلى ماض أقدم وإلى لا شعور أعمق مما يتضح فى المدرسة البريطانية التى تتبع تعاليم أبراهام وميلانى كلاين. واتجهت الأهمية إلى صراعات مبكرة جعلت من الصراعات الأوديبية بالمعنى الفرويدى أمراً سطحيا.

وأما الاتجاه الثانى فيهتم بالصراعات الحالية مابين الفرد وبيئته. ممايتضح عند «كارين هورنى»؛ فالعصابى فى رأيها ينحصر صراعه فى أنه يرغب فى أسلوب سلبى من الاستقبالية بينما يجد من حوله عالما عدائيا يضطره إلى اتخاذ أسلوب الدفاع، بالانسحاب من العالم أو الوقوف ضده.

أما الاتجاه الثالث فهو اتجاه السنة الفرويدية وينحصر فى دراسة وظيفة الأنا فى صلتها بعالم الحوافز الغريزية وفى صلتها بالعالم الخارجى . وخير من يمثل هذا الاتجاه أنا فرويد حين تشير إلى تشابه ميكانيزمات الدفاع التى تستخدمها الأنا مع العالمين .

وهكذا استحال التحليل النفسى مع التطور إلى دراسة تستهدف الشخصية فى كليتها ؛ فى صلاتها مع العالم الخارجى وفى صلاتها مع نفسها . فالدلالات الشعورية لا تستبين فى انعزالها وإنما تتكشف فى صلاتها الدينامية . وإننا لنعلم مثلا صعوبة التعرف على العدوان فى أغلب صوره، فهو يتبدى فى الميكانيزمات الدفاعية كالإسقاط إلى الخارج فى حالة « البارانويا » كما يتبدى ممتزجاً فى الحوافز الليبيدية (السادية والمازوشية) ، أو منعكساً على الأنا (مرض السوداوية) . وإذا كان التحليل النفسى فى بدايته قد أغفل دراسة الشعور فذلك انما يرجع إلى اهتمامه الشديد بدراسة القلق (الهيلة) وباختصار فإن تقدم التحليل النفسى قد تمخض عن إعادة الشعور واحتضانه ضمن مجمل السلوك والشخصية الإنسانية .

نظرية التحليل النفسى فى الغرائز :

فى نظريته الأولى :

يميز فرويد من ناحية الغرائز الجنسية التى يطلق اسم الليبيدو على مظاهرها الدينامية وتستهدف المحافظة على النوع ، ويميز من ناحية أخرى غرائز الأنا التى تقف فى وجه الإشباع الجنسى وتضطلع بالدفاع (الكبت) استناداً إلى وجدان القلق أو الإثم أو إلى المثل الخلقية والجمالية للأنا. وغرائز الأنا هذه تستهدف المحافظة على الفرد .

وعادة ما تتعرض الغرائز الجنسية للكبت فى سنوات الطفولة. وتتميز

النزعات المكبوتة بالدينامية بمعنى أنها تجاهد من أجل التسلل إلى الشعور مما يتحقق فى الأحلام والأعراض العصابية .

وفى عام ١٩١٤ اكتشف فرويد النرجسية بمعنى أنه اكتشف الطبيعة الجنسية لبعض النزعات التى كانت تنتمى إلى غرائز الأنا . ومن هنا قام برد الغرائز الجنسية وغرائز الأنا إلى وحدة واحدة هى غرائز الحياة .

وفى النظرية الثانية :

يميز فرويد غرائز الحياة هذه من ناحية وغرائز الموت والتدمير من ناحية أخرى . لقد كان فى النظرية الأولى يعتبر العدوان والتدمير تابعاً للغرائز الجنسية وينتج عن إحباطها . ولكن الخبرة الكلينيكية ، نبهته إلى الطابع الأساسى الأولى الحيوى للعدوانية والتدمير . وقرر فرويد أن غرائز الحياة تستثمر طاقتها فى الذات أو تسقطها على الموضوعات الخارجية ؛ وكذلك غرائز الموت فهى تستثمر طاقتها فى الذات أو تسقطها على الموضوعات الخارجية. وكل سلوك عيانى يمثل ائتلافا من النوعين فهو نرجسى وموضوعاتى، وهو ليبيدى وتدميرى .

وإذا كانت غرائز الحياة تستهدف البناء وإقامة الوحدات ، فغرائز الموت تستهدف الموت وتفكيك الوحدات .

ولكن غرائز الحياة ترتد مع غرائز الموت إلى وحدة مبدأ الثبات : فإذا كانت الأولى تستهدف خفض التوترات التى يعيشها الكائن فإن الثانية تستهدف توتر الحياة ذاتها .

مراحل النمو هى مراحل نضج الغرائز :

تنحصر الفكرة الرئيسية فى النمو فى وجود مناطق شبقية (لذة شهوية) فى البدن يتمخض تنبيهها عن إشباعات ليبيدية . وتتغير المنطقة الشبقية

المهيمنة تبعاً للسن ومستوى النمو، فتتغير بالتالى علاقات الكائن مع ذاته ومع العالم (مراحل تطور العلاقة مع الموضوع) .

المرحلة الفمية الاستقبالية (المصية) :

تحتل الأشهر الستة الأولى من الحياة وفيها يكون المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الفم، وأسلوب التعامل هو الإدماج بالمص . وفى هذه العملية الاستقبالية يتحقق إشباع ليبيدى يوصف بالفمية . وعندما يعانى الطفل الإحباط فإنه يمنح نفسه إشباعا ليبيديا فميا ذاتيا بمصه لأصبعه .

المرحلة الفمية السادية (العضية) :

وتحتل النصف الثانى من السنة الأولى ، ويكون فيها المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الفم وأسلوب التعامل هو الإدماج التدميرى بالأسنان لموضوع الحب (ثنائية العاطفة) . وفى هذه الفترة يمكن القول بأن جميع عمليات الطفل الحسية والحركية « تعض على العالم » تنتزع منه لتحتفظ بما تنتزعه . وهذه السادية تجد ما يدعمها فى التوترات الناشئة عن التسنين ، وفى الإحباطات الناشئة عن الفطام، وفى الصراعات المتصلة بتحقيق الرضاعة دون عض . وتعمل مشاعر النقمة على الأم ، وأحاسيس الغضب الكظيم العاجز ، على دخول المازوشية إلى المسرح إلى جانب السادية . تتميز هذه المرحلة إذن بتناقض العاطفة، وبالسادية المازوشية ، وبالنرجسية لاهتمامات الطفل المنصبة على جسمه .

المرحلة السادية الأستية :

وتحتل العامين الثانى والثالث ، وفيها يكون المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الأست ، وأسلوب التعامل هو « الإمساك » الليبيدى بالعمود البرازى أو «قذفه»، ويتحقق الإشباع الليبيدى بتهييج الأغشية المخاطية للأست

وبتفريغ المادة البرازية. وحيث أن المادة تتعرض لاحتجازها أو قذفها فإن الطفل يمارس بذلك تناقض العاطفة، وحيث أن عمليات الإخراج تنطوي على دلالة تدميرية، وحيث أن العضلات العاصرة تتيح للطفل أثناء تعلم النظافة إمكانية معارضة الكبار فإن هذه المرحلة تتميز بالسادية؛ وكذلك تتميز هذه المرحلة بالجنسية الثنائية حيث لم تتمايز بعد الذكورة والأنوثة.

المرحلة الذكرية (الأوديبية) :

وتحتل العامين الرابع والخامس وفيها يكون المحور الرئيسي للتعامل مع العالم هو عضو التذكير قضيبا كان أم بظراً . ويكون أسلوب التعامل شبيها بالحياة الغرامية للكبار . فالإشباع الليبيدى يتحقق بصفة أساسية بالاستمناء المنصب على العضو الجنسى تصحبه التخيلات .

ويعيش الصبى عقدة أوديب الموجبة إذ يشتد حبه للام ويعيش صراعاً ما بين حبه لوالده المستند إلى التطابق وكرهه لوالده المستند إلى الامتيازات التى ينفرد بها هذا الوالد . ويكتشف الاختلاف بين الجنسين ويؤدى به قلق الخصاء إلى التنازل عن رغبته فى أن تكون له الأم دون شريك . هذا فى الحالات السوية . أما إذا اتجه الصبى فى حبه لوالده منافسا فى ذلك الأم فتلك هى عقده أوديب السالبة التى تتمخض عن الجنسية المثلية .

والبنت فى الحالات السوية ينتهى بها الأمر إلى أن تعيش عقدة أوديب الموجبة . فهى تبدأ المرحلة كالصبى تشتهى بيظرها الأم . ولكنها تتبين الاختلاف بين الجنسين فينتهى بها موقف الخصاء هذا إلى أن تحقد على الأم متحولة عنها إلى الأب . وفى هذا ماينقل الليبيدو من البظر إلى المهبل ويحول جنسية البنت من الذكورة إلى الأنوثة ويجعل من وحمة القضيب رغبة فى الحصول على ابن ذكر من الأب .

مرحلة الكمون :

وتحتل الفترة مابين السادسة والبلوغ . وفيها تضعف الحوافز الغريزية بفعل الأوضاع الثقافية ويسقط حجاب من النسيان (امنيزيا الطفولة) . ينسى الطفل الانحراف المتعدد الأشكال ، ويستدخل المبادىء الأخلاقية جاعلا منها سدوداً حاجزة فى وجه الغرائز . ومن هنا فعندما تعود الغرائز الجنسية إلى الظهور مع البلوغ تفاجئها هذه السدود الأخلاقية التى لم تعرفها فى الماضى. وخلال مرحلة الكمون لا تتلاشى الغرائز الجزئية وهى النزعات الفمية والاستية والسادية والمازوشية والاسكوبتوفيلية والاستعراضية ، بل تتكامل فى الحالات السوية تحت رايه الجنسية التناسلية التى يعد الجماع أداتها التنفيذية إلى الإفراغ.

* * *

ومراحل النمو هذه ترتبط عند فرويد ارتباطاً وثيقاً بنشأة الأمراض النفسية . فعندما يعانى الطفل إفراطاً أو تفريطاً فى الإشباع فى مرحلة من المراحل فإنه يعانى التثبيت عندها. هذا التثبيت الغريزى هو الذى يتيح عودة النزعات المكبوتة، وهى النزعات المميزة لهذه المرحلة التى تم عندها التثبيت . ويحدث ذلك عندما يواجه الفرد موقفا يناله بالإحباط الشديد ، فيكون بالتالى نكوصه إلى نقطة التثبيت ليجيب على الموقف الذى عجز عن مواجهته كراشد ، باستجابة طفلية يكرر فيها الماضى . ذلك هو صميم الأمراض العصابية والانحرافات الجنسية .

هذه النظرية التى قدمها فرويد عام ١٩٠٥ ولحقت بها التعديلات بعد ذلك إنما تقدم خطوطاً عريضة لبعض المحطات الرئيسية التى يمر بها النمو . وليست هذه المراحل نتاجا حتميا لعليه بيولوجية داخلية بل إنها تتوقف إلى حد كبير على نوعيه التأثيرات البيئية عامة والثقافية خاصة على نحو ما تتجسد

هذه وتلك فى الإطار الأسرى ، من حيث هو مسطح ثقافى محلى يتحدد بدرجة كبيرة بالرجوع إلى الوالدين كممثلين للمجتمع وكعميلين للثقافة ، لهما فهمهما الخاص وشخصيتاهما المتميزتان .

تبيئة الغرائز :

إن التطور الذاتى للغرائز بصورة داخلية ومن تلقاء نفسها مسألة يستحيل التسليم بها فى حالة الإنسان ، فلا بد من تعديل التطور الغريزى على نحو يسمح للأفراد بالتكيف مع الأهداف النوعية لمجتمعهم . ذلك هو ما يمكن التعبير عنه بالانتقال من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع أو بعملية التطبيع الاجتماعى ، وما يلحق بها من تطابقات أو ما يعرف بالعمليات الثانوية أو ما يسميه البعض بالتعليم والبعض بالتربية . صحيح أن مصدر الغرائز ثابت ولكن موضوعها وأهدافها ينفتحان فى مرونة للتأثيرات البيئية . فالفطام إزاحة من الثدى إلى البزازة فإلى الطعام . والعقوبة البدنية يمكن أن تقلب السادية إلى المازوشية . والتصعيد اعلاء لموضوع الغريزة وهدفها إلى ما يعد أكثر سموا من الناحية الاجتماعية فلا يكون الهدف جنسيا . وعليه فالغرائز وإن قامت بدور تكيفى عند الحيوان فإنها تعجز عن ذلك عند الإنسان؛ فلا بد إذن من التطبيع الاجتماعى والتعلم . وفى هذا ما يجعل مسئولية التكيف وظيفة للأنا ومن هنا فإن فرويد يرجع الحضارة وتطورها إلى هذا التطبيع الاجتماعى الذى ينال الغرائز ، فينقلها من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع . فالعلم ترجمة نموذجية لمبدأ الواقع . وليست التربية غير تراجع مطرد لمبدأ اللذة أمام مبدأ الواقع . وأما الفن فنمط فريد يصالح ما بين المبدأين . فالفن بعد عن الموضوعية إلى ذاتية تتحول بمشاركة الناس إلى موضوعية جديدة .

نظرية التحليل النفسى فى الشخصية :

فى نظريته الأولى :

يقتصر فرويد على تقديم الكيفيات الثلاث التى تتخذها العمليات النفسية ، فهناك العمليات الشعورية وشبه الشعورية واللاشعورية ، وإذا كانت العمليات شبه الشعورية كامنة إلا أن صاحبها يستطيع بشىء من الجهد أن يستحضرها إلى الشعور ، ولكن هذا يستحيل بالنسبة إلى العمليات اللاشعورية لأن ميكانيزمات الدفاع تقف فى وجهها كقوى كابتة تحول بينها وبين أن تخرج إلى الشعور .

وكان فرويد يتصور الصراع على أنه صراع ما بين العمليات الشعورية والعمليات اللاشعورية حتى تبين عن طريق الخبرة الكلينيكية ، أن ما هو لا شعورى ليس بالضرورة مكبوتاً مما يتضح بشكل بارز فى حالة القوى الكابتة التى تعمل على نحو لاشعورى ، مما مهد لنظريته الثانية فى تركيب الجهاز النفسى .

وفى نظريته الثانية : (عام ١٩٢٣)

يقرر فرويد فى كتابه « الأنا والهى » أن الجهاز النفسى يشتمل على ثلاث منظمات فرعية : الهى والأنا والأنا العليا .

جهاز الهى :

يمثل الصورة الأولى للجهاز النفسى والمادة الأولية التى يتمايز منها الجهازان الآخران — ويشتمل على القوى الغريزية وعلى المكبوتات التى تلقى بها فيه القوى الكابتة . وحفزاته دينامية تجاهد للحصول على الإشباع بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى . فمبدأ اللذة هو الراية المهيمنة فى تجاهل للواقع وللزمان وللعلاقات العلية المنطقية .

جهاز الأنا :

وينشأ اشتقاقا من جهاز الهى عند مواجهته للواقع ، ويشتمل فى جانبه الشعورى على كل ما نشعر به من إدراكات وعواطف وانفعالات إلخ ؛ بينما يشتمل فى جانبه شبـــه الشعورى على الذكريات والمعارف العاديه، أما جانبه اللاشعورى فيضم ميكانيزمات الدفاع التى هى القوى الـكابتة . وجهاز الأنا يعمل تحت راية مبدأ الواقع إذ يضطلع بتحقيق التـكيف ما بين الشخصية والعالم الخارجى ؛ وداخل الشخصية ما بين حاجاتها المتصارعة . كذلك تضطلع الأنا بتنظيم الوصول إلى الشعور والسماح ، بالتعبير الحركى فهى تتحكم فيما ينبغى إدراكه أو فعله . كما تضطلع الأنا بتوجيه وجدولة الدوافع وأوجه النشاط وتعديل مستوى الطموح . وهى فى هذا كله تسعى إلى تخطى خفض التوترات إلى تحقيق الإمكانيات . ولـكنها فى وظائفها هذه تتعرض لارتشاحات الهى والأنا العليا مما قد يرغمها على العمل فى اتجاه غير ملائم أو يـكفها عن العمل .

جهاز الأنا العليا :

ينشأ اشتقاقا من الأنا ، بمعنى أنه تعديل للأنا يتم عن طريق مباطنة أساليب الـكبت والصورة المثالية للوالد من نفس الجنس إبان التطابقات التى تحدث عند تصفية الصراع الأوديبى، مما يتمخض عن نشأة الضمير الخلقى . وأما المثل الأعلى للأنا فصورة معدلة للوهم الطفلى فى تملك القدرة المطلقة وقد اعتملت بفعل التطابقات اللاحقة . وإذا كان الضمير الخلقى هو المرجع فى تقدير الذات ومشاعر الإثم والتقزز والخزى فإن المثل الأعلى للأنا يعد المرجع لمشاعر الـكفاية والرضى عن الذات . وتضطلع الأنا العليا بوظيفة هامة . إذ أن تحالفها مع الأنا هو الذى يضمن الدفاع ضد الغرائز . ولـكن يتبدى نشاط الأنا العليا بشكل بارز فى حالة ما تـكون فى صراع مع الأنا فتعمل على إنماء مشاعر الإثم والاشمئزاز الخ ، بحيث تجعل الحياة فى بعض الحالات جحيما لا يطاق (كما فى السوداوية) ؛ ذلك أن الأنا العليا حين لا تـكتمل نشأتها على نحو صحيح يغلب عليها المنطق الفج وتتسم بالسادية فى تعاملها مع الأنا .

زوايا الرؤية فى التحليل النفسى :

هناك ثلاث زوايا للرؤية أو وجهات للنظر هى : الدينامية والاقتصادية والطوبوغرافية . ولقد فرغنا من الحديث عن وجهة النظر الطوبوغرافية حين عرضنا لتركيب الجهاز النفسى بأجهزته الفرعية للحفز والفعل . وكل صراع هو فى نهاية الأمر صراع بين الأنا والهى ، تقف فيه الأنا العليا فى صف الأنا أو فى معارضة لها . وتعرف وجهة النظر هذه بالتصور البنيوى .

ووجهة النظر الاقتصادية تعنى الناحية الكمية للقوى الداخلة فى الصراع . فحسبما يكون كم الطاقة الداخلة فى هذه القوى تتحدد نتيجة الصراع . وكلما تعادلت القوى كان الصراع مستعصياً على الحل . ولكن التحليل النفسى لا يملك حالياً وسيلة لقياس القوى النسبية للحفزات .

أما وجهة النظر الدينامية فتعنى فهم الدوافع من حيث هى قوى مصطرعة تتمخض عن محصلة (مسالك أو ميكانيزمات دفاعية) . ويعد هذا المفهوم بمثابة المبدأ الأول من مبادىء المنهج الكلينيكى . وبديهى أن القوى المصطرعة هى الحاجات الغريزية من ناحية والاجتماعية من ناحية أخرى . ولكن فرويد يدمج ضمن هذه الزاوية الدينامية ما ينتمى حقا إلى الزاوية النشوئية التكوينية . فوجهة النظر التكوينية هى هذه التى تفسر خصائص الشخصية وأنماط السلوك بإرجاعها إلى التطور بمراحله المتعاقبة من النمو .

ولقد رأينا كيف أن فرويد قد قدم منذ عهد مبكر وصفاً لمراحل تطور الغرائز ومراحل تطور العلاقة مع الموضوع . ومن هنا يغدو ممكنا فهم أى سلوك من المسالك أو عرض من الأعراض المرضية أو خاصية من خصائص الشخصية بحسبانها ارتقاء أو نكوصا . ولقد مضى أبراهام فى هذا الاتجاه لحاول أن ينسب الأمراض العصابية والذهانية المختلفة إلى نقط تثبيت رئيسية فى التطور . فالحصار فى رأيه نكوص إلى المرحلة السادية الاستية . والهوس الاكتئابى نكوص إلى المرحلة الفمية .

ثالثا ـ نظرية الجشطلت

لم يدخر سبيرمان جهداً فى تسخيف نظرية الجشطلت ، فوصفها بأنها أشبه ما تكون بغير المتخصصات من الخادمات ، تخدم كل شىء فى علم النفس والفلسفة ، ولكنه عاد مع ذلك فاعترف لها بشىء من الاستقرار . إذ أقر بأن مبادئها الرئيسية توجد فى أبحاث اهرنفلز ، وأنها لم تتغير منذ ذلك الحين .

ولعل أهم ما يميز نظرية الجشطلت ـ كرد فعل لعلم النفس الوصفى ـ أنها نظرية تشتغل « بالوحدة الكلية » [1] . وتبدأ منها متجهة إلى الأجزاء . ولكن لا بد لنا من أن نتبين الطريقة الخاصة التى تتناول بها هذه النظرية « الوحدة الكلية » . فلقد اضطلع فرتهايمر ـ وهو المؤسس الحقيقى لنظرية الجشطلت ـ بإعادة صياغة نظرية « الكل ـ الأجزاء » بمعنى أنه أعاد النظر فى طبيعة الصلة التى تربط الكل بالأجزاء . فقد كان « الترابط » association بين العناصر المنعزلة عن طريق التجاور أو التلازم أو التشابه هو الوسيلة الوحيدة ـ فيما مضى ـ لتحقيق « الانتظام » فى الكل. كانت العناصر تبدو وكأنها العماء . وكان ولا بد ـ فى رأى القدامى ـ من ترتيبات طوبوغرافية (خارجية) لهذه العناصر بأن « ينضاف » بعضها إلى البعض ، وأن « يتراص » بعضها إلى البعض لينشأ من ذلك الانتظام الذى يتبدى فى الكل . لقد كانت « لوحة التوزيع التليفونية » هى الصورة لهذا التصور الخاص بالانتظام ، بمعنى أن الأسلاك والارتباطات والوصلات هى التى كانت تسمح للانتظام بأن يتحقق . وباختصار ، كان الانتظام يأتى

---

(١) يتوهم البعض أن مفهوم « الوحدة الكلية » (الجشطلت) يقتصر على الإدراك، مع أن نظرية الجشطلت ترى أن كل ظاهرة حية ، فسيولوجية أو نفسية أو اجتماعية، هى جشطلت، بل إن بعض الظواهر الفيزيائية هى جشطلتات .أنظر جيوم، علم نفس الجشطلت ، ـ حل العرب.

من خارج . أما فكرة الانتظام الذاتي الذي يعد خاصية أولى من خصائص الكل ، وبدأ من أبعاده ، فإنها لم تظهر إلا مع نظرية الجشطلت .

وكما اعترض فخنر Fechner على طريقة الفلاسفة في العمل فحسب «من أعلى الى أسفل » أي من الكل إلى الأجزاء ، فكذلك اعترض فرتها يمر على طريقة العلماء في العمل فحسب « من أسفل الى أعلى » ؛ أي « من الأجزاء إلى الكل » . أن نظرية الجشطلت تعمل على الأخص « من أعلى إلى أسفل » ولكن الحركة « من أسفل إلى أعلى » ليست بمستبعدة . فثمة في الحق حركة ديالكتيكية من الذهاب والمجيء ما بين الكل والأجزاء ، وهي حركة تثرى النظرة الإجمالية الكلية الأولى عن « الكل » مما يتيح حيناً الإمساك بالوحدة في تكثرها ، وحينا بالكثرة في توحدها .

ونستطيع أن نتنبأ بالتصورات الأساسية التي يستخدمها منهج الجشطلت: أكلال (جمع كل) عيانية تتمايز متناحية ، تفرض نفسها وتعمل كوحدات وظيفية . أكلال لها خصائصها الخاصة بها من حيث هي أكلال وليست بجرد جمع لخصائص الأجزاء . وسلسلة من التأثيرات البينية تستند الى قوانين الشبه والقرب والكل فتحيل الأجزاء «الكسر» إلى أجزاء «عضوية» ضمن الوحدة الكلية . أكلال منتظمة انتظاماً تلقائياً تحافظ على اتزانها وتعمل ما أمكن للإبقاء عليه ضدما يتهددها من تغيرات وإلا فإنها تتبدل تبدلا وضعياً ، بمعنى أنها تبدل المستوى أو العناصر دون أن تتبدل في انتظامها كوحدة كلية لها خصائصها المميزة .

وسنعرض في اختصار لبعض هذه التصورات الأساسية :

١ — *الجشطلتات أكلال عضوية لا هي متجانسة ولا هي إضافية :*

ليست جميع الأكلال بالضرورة جشطلتات . فهنالك أكلال ، هي مجرد أكوام لا تملك الخصائص المميزة للأكلال الحقة ، وتلك هي التي يطلق

عليها هيلسون « الأكلال الإضافية » تمييزاً لها عن « الأكلال العضوية » التى هى الأكلال الحقة . وليس فى هذه التفرقة أيضاً ما يكفى . ذلك لأن الأكلال العضوية ، وإن لم تكن بأكلال إضافية فهى ليست أيضا بأكلال متجانسة . وهكذا نجد أن الأكلال الحقة تجد مكانها بين قطبين أقصيين : قطب الأكلال المتجانسة ، الغير المتعضية أى التى لا تشتمل على أعضاء متمايزة ضمنها ، وقطب الأكلال الإضافية التى هى مجمع أجزاء . وإذا كان الكل المتجانس لا يعدو فى الحقيقة أن يكون مجرد جزء ليس غير ، فإن الكل الإضافى ليس فى الحقيقة غير جزء يتكرر . والأمر يختلف عن ذلك تماما بالنسبة إلى الأكلال العضوية. فالكل العضوى ليس مجرد حزمة. إنه أكثر من أن يكون مجرد إضافة Und ، إنه ليس مجرد حاصل جمع لأجزائه لا ولا حتى حاصل جمع هذه الأجزاء وما بينها من صلات، وإنما هو نتاج تفاعل هذه الأجزاء أو قل هو هذه الأجزاء وقد نظمها التفاعل وحدة كلية واحدة.

٢ — الجشطلتات وحدات متناهية لها خصائصها الكلية المميزة :

تتبدى الأكلال العضوية قبل كل شيء فرديات عيانية ، تتبدى متناحية عما حولها وما يحيط بها، وتتبدى متمفصلة فى داخلها فالكل العضوى يتحتم عليه أن يكون متناحياً بالنسبة إلى حقله ، بمعنى أن يبرز متميزاً عنه ، ومنسلخا منه (١) ، كما أنه ينبغى أن يشتمل على أجزاء يمكن تمييزها .

فالكيانات المتميزة هى وحدات متناحية . وليس فى هاتين الكلمتين «وحدات» و«متناحية»، ما يشير إلى طابعين أو عمليتين مختلفتين. فالأمر يتعلق بعملية واحدة، تبدو من ناحية تناحيا ، وتبدو من الناحية الأخرى توحداً.

---

(١) أنظر : جييوم : علم نفس الجشطلت ، فصل٣ ، قانون الشكل — الأرضية، حيث يستحيل الإدراك مالم يتحقق انسلاخ صيغة عن القاع أو تناحى شكل عن الأرضية . (سجل العرب ١٩٦٣) .

وذلك لأن توحد بعض العناصر إنما هو تتاح لها بالنسبة إلى سائر العناصر الأخرى .

والأكلال لا تفرض نفسها فحسب كوحدات متناحية ، ولكن لها أيضا خصائصها المميزة. إن هذه الخصائص لا تكمن في أي جزء من الأجزاء ولا هي حاصل جمع خصائص الأجزاء ، وإنما هي تنبثق مع الكل ، كما أنها تخصصه ككل وتفرده تماما . هذا وإن التوحد المتناحي هو الذي يكسب الكل طابعة العياني .

٣ — الجشطلتات وحدات متمفصلة :

تثير هذه الخاصية مشكلة التحليل — تحليل الكل إلى أجزاء — وشرعية هذا التحليل . ويرى جييوم أن التحليل الذي يتلاءم مع نظرية الجشطلت هو ذلك الذي يقتصر على تمييز أعضاء طبيعية للكل ، هذه التي تكون داخل الأكلال الضعيفة وحدات جد متميزة . ولقد قرر هيلسون استحالة تحليل الأكلال إلى « أجزاء » و « وعلاقات » بين الأجزاء ، وهو يعني هنا الأجزاء التعسفية والكسر . فنظرية الجشطلت لا تقر في تحليلها الا الأجزاء الحقيقية «العضوية » (وتسمى بالألمانية Tiele) وهي التي تضطلع في الكل بوظائف معينة . ومعنى هذا أن نظرية الجشطلت لا تقر الكسر (وهي التي تسمى بالألمانية Stück) لأنها أجزاء تعسفية ليس لها من فردية. وهذا التحليل الى أجزاء حقيقية ليس فحسب شرعياً ، ولكنه كما يقول كوهلر طريقة في العمل جد ضرورية في علم نفس الجشطلت .

يستبين من هذا النقاش مفهوم التمفصل. فالأكلال متمفصلة بمعنى أنها غير متجانسة بل تنطوي على أجزاء أو أعضاء طبيعية، لها وظائف محددة، وتكون داخل الأكلال وحدات في المرتبة الثانية . ولنتنبه الى أن هذه الأجزاء الأعضاء ليست بالكسر المقتطعة تعسفا ، وإنما يتعين وجودها وتتعين حدودها الطبيعية تماما وفي نفس الوقت الذي يتعين فيه وجود الكل وتتعين حدوده الطبيعية .

٤— قانون العضوية Membership

أن الجزء العضوى ليس ما هو الا بفضل دوره فى الكل . والحق هو أن خصائص أى جزء من الأجزاء الأعضاء انما تتحدد عن طريق صلات هذا العضو مع الكل الذى يعمل فيه وضمنه . « فنفس » الجزء — إن جاز القول — يمكن أن تكون له خصائص مختلفة فى أكلال مختلفة . وهذا الأمر مألوف عند الكيميائيين منذ وقت طويل .

وقانون العضوية ينص على أن الجزء فى الكل أى ضمن الكل هو شىء مختلف تماما عنه وهو منعزل (كسرة) ، وعنه وهو فى كل آخر ، وذلك نظراً للخصائص التى يكتسبها هذا الجزء من مكانته ووظيفته فى كل كل من الأكلال .

٥ — قانون الامتلاء Pragnanz

إن الامتلاء هو هذا الاتزان الدينامى الذى يتم تلقائياً نتيجة التأثيرات البينية للقوى المختلفة . فالأكلال جميعاً فى الواقع لها أو تميل إلى أن يكون لها انتظام بعينه . ومعنى هذا أنه « إذا طرأ تغير على عامل من العوامل المحددة للاتزان ، فإن الاتزان يتبدل بطريقة تميل إلى إزالة أثر هذا التغير » (مبدأ لوشاتليه فى الفيزياء) . فالكل العضوى يميل تلقائيا بقدر ماتسمح الظروف إلى البنية الأكثر اتزانا (قانون أحسن صيغة ممكنة) . إن هذا الاتزان التلقائى والانضباط الذاتى هما محور الأهمية فى قانون الامتلاء .

* * *

تلك خلاصة عاجلة عن نظرية الجشطلت . وإذا كان البعض لا يميل إلى أن يتحدث اليوم عن نظرية الجشطلت كتيار مستقل بين تيارات علم النفس ومدارسه ، فإنما يرجع ذلك إلى أن نظرية الجشطلت قد « بلغت من النجاح حد الموت » . فليس من شك فى أن نظرية الجشطلت من حيث هى

تيار مستقل إنما تختفى بقدر ما تحتل التصورات الجشطلتية مكان التصورات التقليدية . وليس هذا الموت الذى يتمخض عنه النجاح غير بداية الحياة الحقة . وإذا كان التحليل النفسى قد أبرز بشكل حاسم مفهوم « الوظيفية » وما للسلوك بل واضطرابات السلوك من دلالة ، فإن نظرية الجشطلت كان لها الفضل فى توجيه الاهتمام إلى مفهوم « الوحدة الكلية» ملتقية مع التحليل النفسى عند مفهوم « الدينامية» من حيث هو تفاعل وصراع بين القوى المختلفة .

رابعا : النظرية السلوكية

تبدو النظرية السلوكية فى نشأتها وكأنها رد فعل عنيف تجاه علم نفس الشعور ، مما يتضح فيما تنزع إليه السلوكية الواطسونية من خفض للسلوك إلى الوجه الفيزيائى وقصره عليه . فقد أغفل واطسون الظواهر الشعورية بحسبانها مادة لا تصلح للدراسة العلمية ، ونظر إلى علم النفس على أنه علم السلوك ، قاصراً هذا اللفظ على المسالك الخارجية الصريحة المتاحة للملاحظة والعمليات الفسيولوجية التى تخضع أيضا للملاحظة بل والقياس. كان حريصا على أن يجعل من علم النفس علما بالمعنى الفيزيائى الرياضى لكلمة العلم أكثر من حرصه على تبين الموضوع الحقيقى لعلم النفس والبحث عن المنهج الملائم لهذا الموضوع. أنه لم يبحث لموضوع علم النفس عن منهج يلائمه ، وإنما استعار من علوم الفيزياء منهجا وراح يبحث لهذا المنهج عن موضوع ملائم فى علم النفس. ومثل هذا التصور الذى يقصر السلوك على مجرد الظواهر الفيزيائية فحسب انما هو تصور جزئى يغفل ما للسلوك من بنية منتظمة (مفهوم الوحدة الكلية) وما ينطوى عليه السلوك من دلالة (مفهوم الوظيفية) .

اضطلع برجسون بنقد النزعة الذرية atomism فى علم النفس ونعنى بذلك النزعة التى تنظر إلى الظاهرة النفسية بحسبانها جمعاً من الذرات . ويتضح ذلك فيما يذهب اليه واطسون من تصور للشخصية كحاصل جمع للعادات وللعادة كسلسلة من الأفعال المنعكسة الشرطية التى هى بمثابة الجزيئات . وهكذا فالسلوك بالنسبة إليه مكتسب.

فإذا نظرنا الى ما تنطوى عليه هذه النزعة من إغفال للانتظام البنيوى لوجدنا فى الحقيقة أن المسالك وحدات كلية لها بنياتها [illegible] (١) . وبوسعنا

---

(١) انظر فى سيكولوجية التعلم كيف انتهت الدراسات إلى المكتشف عن أن السلوك الذى يتم تعلمه ليس تتابعاً آليا لبعض الحركات وإنما هو انتظام بنيوى يجيب على الانتظام البنيوى الذى يتحقق فى الإدراك ابتداء من عماء العناصر فى الحقل .

من هذا الوجه أن نتحدث عن تيار من المسالك تماما كما فعل جيمس وبرجسون فيما يتصل بتيار الظواهر الشعورية . فالكائن البشرى لا ينفك لحظة من لحظات وجوده عن السلوك ؛ سيان كان ذلك فى اليقظة أو النوم . وعليه فإن السلوك يتميز بالوحدة والاستمرار والاتصال . ولكن نظراً لأننا لانستطيع أن نتناوله فى إجماله الكلى نجدنا مضطرين إلى أن نقطع فيه بعض الشرائح للدرس . وليس معنى هذا أننا نذهب مذهب النزعة التى تحدد العناصر الأولية فتضيفها وتركبها بعضها إلى البعض. فإننا وان سلمنا بتيار من السلوك فإننا نسلم بإمكان قطع وحدات عضوية لها انتظامها البنيوى وتتحدد تبعاً للفاصل الطبيعية وحدها . وهكذا تتضح الموازاة بين ماانتهى إليه تقدم علم نفس الشعور من ناحية وما انتهى إليه تقدم علم نفس السلوك من ناحية أخرى . فلكى نستطيع وصف التجربة الشعورية ينبغى أن نقطع فيها شرائح طبيعية مما يتضح فى وحدة التجربة الحية . كذلك الحال فيما يتصل بالسلوك فلا بد لوصفه من تحديد قطاع طبيعى يبدأ بدافع يتطور إلى مسلك يستهدف موضوعاً يحقق فيه الهدف وهذا القطاع هو وحدة سلوكية تتمتع على الرغم من تشابكها مع الوحدات الأخرى ضمن تيار السلوك باستقلال ذاتى نسبى . وفى هذا ما يذكرنا بالجشطلت من حيث هى وحدة كلية عضوية بمعنى أنها وحدة متمفصلة تشتمل على أعضاء أو قل وحدات كلية فرعية تتمتع بعض الشىء بالاستقلال الذاتى رغم انتمائها واندماجها فى الوحدة الكلية الكبرى .

كان واطسون يستند فى نظرته الذرية إلى تجارب التعلم التى يجريها على الفئران فى المتاهة . وكانت الفئران تتعلم الطريق الصحيح بعد مرات من التكرار . وكان واطسون يرى فى ذلك عادة قوامها جملة من الأفعال المنعكسة الشرطية المتعاقبة ، حيث تكون نهاية كل فعل منعكس شرطى بمثابة مثير يطلق الفعل المنعكس الشرطى الذى يليه . وهكذا لم يكن التعلم غير سلسلة من الحركات المتلاحقة تتتابع فى آلية تامة .

لكن التجارب التى أجريت بعد ذلك على تعلم الحيونات فى المتاهة لم تلبث أن كشفت عن وجود عوامل هامة . فليس التكرار فى ذاته عامل تثبيت للآلية الحركية بقدر ما هو فرصة متاحة أمام الحيوان كى تتدخل الدوافع أو يتحقق الاستبصار؛ حيث قد تبين أن الحيوان حين يتعلم لابد وأن يصدر فى تعلمه عن دافع ، سيان اتصل هذا الدافع بالثواب أوالعقاب، الأمر الذى اتخذ صورة قانون الأثر عند ثورندايك . ولقد تبين أيضاً أن عملية التعلم لاتنحصر فى تتابع آلى للحركات بقدر ماهى عملية انتظام لبنية الموقف . فالفأر يتعلم المتاهة حيث تنتظم بنية هذه المتاهة بالنسبة إليه كوحدة كلية متمفصلة . ولو أردنا أن نعبر عن ذلك بصورة واضحة لقلنا أن الفأر يتعلم المتاهة حين يمسك بها ككل تضطلع فيه الأجزاء بدورها ضمن جهاز كلى من الأدوار فتصبح هذه الأجزاء أشبه شىء بالنقاط المرجعية التى تهديه فى سيره .ومثل هذا التعلم يستند إلى عملية الاستبصار وليس إلى مجرد حركات آلية متعاقبة . ولقد اتضح هذا الأمر عندما أجريت التجارب على الفئران التى تعلمت السير فى المتاهة فغمرت المتاهة بالماء وكان على الفئران أن تسبح فتستخدم بذلك من الحركات غير هذه التى تدخل ضمن عملية السير، أى تستخدم حركات غير حركات السير التى تدخل تبعاً للتصور الواطسونى ضمن الحركات الآلية فى التعلم السابق .

لقد سبحت الفئران كاشفة بذلك عن استناد التعلم إلى عملية الاستبصار فاتجهت إلى الهدف غير مستعينة بالآليات المتعلمة القديمة . ومعنى هذا كله أن علم نفس السلوك لم يعد اليوم يفصل بين الكائن والموقف . فإن تعلم الكائن ينحصر فى استبصاره بالموقف بمعنى أن تنتظم بنية الموقف بالنسبة إليه . ولنظرية الجشطلت فى هذا التحول فضل لا ينكر .

وفيما يتصل باغفال النظرة الذرية لدلالة السلوك : لقد تبينت السلوكية مع الوقت استحالة المضى فى اتجاهها متجاهلة لهذه الحقيقة، فللسلوك دلالة ومعنى أى وظيفة من حيث أنه يعمل على إنهاء الدافع الذى يدفع الكائن إلى أن يسلك سلوكا

معيناً . فالكائن حين يخرج من حالته السابقة إلى حالة جديدة إنما يفعل ذلك بفضل مايستشعره من دافع أو قل من توتر قضى على حالة الاتزان التى كانت قائمة؛ ومن ثم فإنه يسعى لخفض هذا التوتر وتحقيق الاتزان من جديد. وليس هذا السعى منه لإنهاء التوتر أو إرضاء الدافع أو تحقيق الحاجة والرغبة غير ما نسميه بالسلوك . وفى مثل هذا القول ما يتضمن الاعتراف بالشعور. فإن الكائن يمضى فى السلوك حتى يتم إرضاء الدافع الذى دفعه إلى السلوك. ولقد حاول البعض من أمثال « مان » Munn أن يوفق بين هذه السلوكية التى كانت تقصر موضوع علم النفس على المسالك الفيزيائية والعمليات الفسيولوجية وبين علم النفس الكلاسيكى الذى كان يقتصر فى الدراسة على الظواهر الشعورية فراح يقرر بأن علم النفس أنما هو علم السلوك والتجربة الحية . ولكن الشعور prise de conscience يتم فى ظروف بعينها ، وذلك عندما يختل الاتزان المتحقق ما بين الكائن العضوى وبيئته ، أوقل ما بين الشخص والموقف . عندها يتدخل النشاط الشعورى فيبرز بدلالات محددة. إنها الحاجة للطعام أو الشراب .. الخ تلح طلباً فى الإرضاء. فانبثاق الشعور هو تجربة عقلية تبرز كلحظة ضرورية من لحظات السلوك. والنشاط الشعورى هو سلوك رمزى غير مادى . ومن هنا فإن مفهوم السلوك ينطوى بالضرورة على التجربة الحية . فهو وإن لم يشر إلى الشعور بصورة صريحة فإنه مع ذلك لا يشير إلى استبعاده .

وهكذا فقد انتهت السلوكية فى تطورها إلى أن تنظر إلى السلوك بحسبانه بنية منتظمة وعلى أنه ينطوى على دلالة ومعنى فبالإضافة إلى الاستجابات الفسيولوجية والمسالك الحركة المرئية يستطيع الكائن الحى أن يستجيب تجاه الموقف بمسالك رمزية . فليس الشعور غير خاصية تميز بعض المسالك أو نمطاً بعينه من المسالك .

وعليه يعرف السلوك بأنه جملة العمليات المادية والرمزية فى غير ما استبعاد لاية عمليات فسيولوجية أو خارجية أو شعورية أو لاشعورية. بل إن إستخدام

كلمة «جملة» فى تعريف السلوك على هذا النحو إنما يشير إلى التبعية المتبادلة ما بين هذه العمليات . ويتضح ذلك فى النظرية المحيطية عند «جيمس لانج»، وفى دراسات «كانون» على الغضب عند الحيوان ، وفى الطب السيكوسوماتى الذى هو مزاج من الطب والتحليل النفسى، هذا الذى تنحصر فكرته الأساسية فى وجود «حكمة» للجسم يمكن أن تضطرب عن طريق مؤثر فيزيائى أو عن طريق صراع نفسى . فإن استجابات الكائن العضوى تكون كلا واحداً . ولكننا حين نضطلع بالبحث يتحتم علينا أن ننظر إلى الاستجابة من زوايا مختلفة : ومن هنا يكون تصنيفنا لأنواع من السلوك مجرد تعبير عن إلحاحنا بالاهتمام على هذا الوجه أو ذاك من أوجه السلوك .

تعريف علم النفس وميادينه

يتمتع السلوك بالوحدة والاتصال . فهنالك تيار من المسالك ، والكائن العضوى لا ينفك لحظة عن السلوك. فالنوم سلوك لا يتأتى إلا حين تنخفض التوترات بدرجة كافية ، والأرق سلوك يرجع إلى إلحاح التوتر ، والحلم سلوك يحاول الإبقاء على النوم والمحافظة عليه مما يهدده ، وذلك بخفضه للتوترات عن طريق إشباع وهمى . وإن كان السلوك كما رأينا تياراً متصلا فلا بد مع ذلك لدراسته من أن نعزل فيه قطاعات سلوكية . وكل قطاع من القطاعات يقدم لنا أوجها مختلفة : فوجه يتصل بالدافع ، وآخر يتصل بصياغة السلوك elaboration، رمزياكان أو خارجيا . . الخ ووجه ثالث يتصل ببلوغ موضوع السلوك وتحقيق الهدف . وليس من شك فى أن هذا التقسيم مصطنع فى طابعه ولا يتفق بالتالى مع ما للسلوك من تكامل . ومن هنا ينبغى أن نميز لخسب بين الأوجه العيانية المختلفة للسلوك أو قل بين الأشكال التى يتخذها السلوك . فهنالك سلوك خارجى صريح مرئى حسحركى ، وهناك سلوك رمزى شعورى عقلى .هذا إلى الاستجابات الفسيولوجية والعمليات اللاشعورية ونتاج السلوك فى صورة للشخصية كالعادات أو فى صورة تغييرات بيئية .

يتضح من التيارات الأساسية لعلم النفس المعاصر أنها اتجهت فى تطورها إلى موقف ينطوى على التبعية المتبادلة بينها من حيث التصورات والوقائع. فتيار علم النفس الوصفى قد انتهى إلى إعادة الشعور فى مكانه ضمن العالم المادى أو قل إعادة تكامله . والتحليل النفسى قد نقل اهتمامه من اللاشعور إلى دينامية التأثير المتبادل ما بين الشعور واللاشعور . والنظرية السلوكية تجعل اليوم من الشعور نمطاً معيناً من المسالك أو خاصية تميز بعض المسالك .

تعريف : علم النفس إذن هو علم السلوك بالمعنى الشامل الذى عرفناه لهذه الكلمة .

فروع علم النفس:

وإذا كانت هنالك أفرع مختلفة لعلم النفس فإن ذلك يرجع إلى

(ا) اختلاف الأهداف (ب) أو المناهج ، (حـ) أو موضوعات البحث، (ء أو النظرية المستخدمة .

فمن ناحية الأهداف قد تستهدف الدراسة إرضاء الحاجة إلى المعرفة والفهم فيكون علم النفس النظرى. وقد يكون الهدف التطبيق أو العلاج فيكون علم النفس التطبيقى أو العلاجى إلى غير ذلك . أما من حيث المنهج فمن الممكن أن نتحدث عن علم النفس التجريبى وعن علم النفس العلاجى وعلم النفس الاستبطانى وعلم النفس الكلينيكى . كذلك تختلف الأفرع باختلاف الموضوعات. فمن حيث الموضوع هنالك علم نفس الحيوان وعلم نفس الحياة الاجتماعية وعلم نفس الأطفال وعلم النفس المقارن وعلم النفس المرضى، وعلم النفس التربوى ، والصناعى والحربى والجمالى الخ .

ومن حيث النظريات هناك التحليل النفسى والنظرية السلوكية ونظرية الجشطلت . أما علم النفس الوصفى فهو اليوم أقرب إلى الفلسفة الوجودية منه إلى علم النفس .

ولو تساءلنا أمام هذا التعدد عن إمكانية قيام علم نفس عام لانتهينا الى الإجابة بالإيجاب . فموضوع مثل هذا العلم يشتمل ، بالإضافة الى ما هو مشترك بين الأفرع من مصطلحات فنية ومناهج للبحث ، على إقامة نظرية عامة للسلوك تستعين أكثر ما تستعين بالمنهج المقارن وبالنظرة التكوينية الخاصة بالنشأة . وقد يرى البعض فى ذلك ربطاً لمجال السوية بالميدان المرضى . ولكن الأمر هنا لا يختلف عنه بالنسبة إلى الفسيولوجيا. فليست هناك من حدود بين السوية والمرض، وليس هناك من كائن بغير صراع أو مرض .

علم النفس التربوى (التعليمى)

وحيث أن علم النفس التربوى يعنينا هنا بصفة خاصة فسنقف عنده وقفة قصيرة. يقرر هاريمان أن علم النفس التربوى خليط من المعتقدات ، ومن المعطيات الجزئية السطحية الطابع ، ومن بعض الاستبصارات النفاذة، ومن تكنيك متطور للكشف والتقويم (بمعنى تحديد القيمة) . ويقرر أنه باستثناء الأفكار القليلة المستعارة من علم النفس والسيكوفيزياء ، فإن علم النفس التربوى قد بدأ مع بداية هذا القرن بما لا يكاد يزيد عن بعض المعتقدات البالية المستمدة من الممارسات التعليمية والتى تمخض عنها أسلوب المحاولة والخطأ . ولقد سارع علم النفس التربوى إلى استعارة التكنيكات الرياضية فى التحليل ، من تكنيكات معامل الارتباط الى تكنيكات تحليل المتغيرات ، وقام بتكييف هذه التكنيكات بطريقة فعالة فى استخداماته الخاصة . وفى عملية التكييف هذه تحققت تحسينات عديدة ، كما امتدت حدود بعض الطرائق الرياضية من قبيل التحليل العاملى .

وعلى أية حال ، فإن علم النفس التربوى انما أحرز تقدمه الوحيد فى مجال القياس ؛ ذلك أن علم النفس التربوى لم يكن بحاجة فى هذا المجال الى أن يستعير شيئا يذكر خارج حدود السيكوفيزياء . أن تقدم علم النفس التربوى كعلم إنما يرجع إلى اضطراره إلى ابتكار وتحسين كل وسائله الخاصة بالقياس ، وإلى عزل الخصائص المراد قياسها ، بتطويره لهذه الوسائل القياسية وللتحليل الإحصائى للمعطيات التى تمدنا بها هذه المقاييس . إن المستوى الذى بلغه علم النفس التربوى إنما يتبدى على أحسن نحو فى هذه الدقة التى يتم بها قياس الوظائف العقلية وفى الكفاءة التى يتم بها التحليل الكمى لمعطيات هذا القياس .

وحرى بنا أن لا نقبل هذا المفهوم الأمريكى لعلم النفس التربوى فى بساطة النقل وحرفيته وسلبيته . ذلك أن العملية التربوية ، كميدان للدراسة السيكولوجية ، لا يمكن قصرها بل ويستحيل خفضها إلى مجرد تصورات قياسية ، ومعايير إحصائية . لقد استعاد الفرد وحدته الكلية ضمن بيئته بعد ما ظلت هذه الوحدة مضيعة فى النظرات التربوية القديمة . ومن هنا يتحتم على علم النفس التربوى أن يتخطى إطاره الكلاسيكى الضيق ، وآفاقه القياسية المحدودة ، ناظراً إلى الفرد وإلى العملية التربوية نظرة عيانية وشاملة ، تفتح الأبواب على مصاريعها أمام النزعة الإنسانية والمنهج الكلينيكى .

لقد ولى الوقت الذى كان فيه الأفراد مجرد قدرات ، مجرد ذكاء أو ذاكرة أو قدرة ميكانيكية أو مهارة موسيقية تخضع للقياس والجدولة والتصنيف ، وتتناولها آليات الانتقاء والتوجيه فتحدد للأفراد مصائرهم . ان علم النفس التربوى قد آن له هو الآخر أن يعيد إلى الإنسان انسانيته وأن يتناوله من حيث هو « حامل مشكلة » ، ومن حيث هو وحدة كلية عيانية ومكتملة فى اشتباكها بمواقف الحياة(١) .

---

(١) انظر لاجاش : وحدة علم النفس الأنجلو .

خلاصة

فى مفهوم علم النفس

علم النفس :

هو العلم الذى يدرس السلوك بأوجهه الثلاثة :

أى أنه يدرس السلوك :

من حيث هو : تجارب شعورية .

ومن حيث هو : مسالك حسية حركية خارجية صريحة .

ومن حيث هو : عمليات فسيولوجية .

ويرى البعض أننا يمكن أن نضيف فيها وراء السلوك بأوجهه الثلاثة الدوافع اللاشعورية .

ولم يكن من الممكن لعلم النفس أن يتفق علماؤه على هذا المفهوم قبل أن تمر فترة طويلة يحتدم فيها الصراع بين العلماء وتشتد الخصومة بين المدارس ونحن نلخص هذا التطور من زاويتين :

(ا) زاوية المدارس المختلفة .
(ب) زاوية النزعات الأساسية فى علم النفس .

أولا : من زاوية المدارس المختلفة :

مدرسة علم النفس الوصفى :

مدرسة علم النفس الوصفى أو علم نفس الاستبطان أو التجارب الشعورية أو التجارب الرمزية أو ما يعرف أحيانا بعلم النفس الكلاسيكى

أو التقليدى ، هذه المدرسة تمثل الصورة الأولى التى اتخذها علم النفس عندما استقل لأول مرة عن الفلسفة متخذا صورة العلم ، فقد اتخذ الظواهر الشعورية موضوعا لدراسته. ولكنه كان يدرس هذه الظواهر بعزلها واقتطاعها اقتطاعا تعمديا تعسفيا عن سياقها الحى (الشخص والموقف) .

وتحت راية الميكانيكية السائدة وقتئذ توهمت هذه المدرسة أن الظاهرة الشعورية هى حاصل جمع عدد من العناصر الأولية الأولى . فكل إحساس على شبكية العين يقابل نقطة من نقط المثير ، وحاصل جمع هذه الإحساسات هو الإدراك ، وكأن هذا الإدراك لاعلاقة له بالشخص المدرك ولا بالموقف الذى يعيش فيه :

حاصل جمع الإحساسات هو الإدراك .

وحاصل جمع الإدراكات هو الملكات .

وحاصل جمع الملكات هو الشخصية .

وحاصل جمع الشخصيات هو المجتمع .

ولكن علم النفس الوصفى قد انتهى به تطوره إلى أن يدرس الظاهرة الشعورية ضمن سياقها الحى ، أى من حيث هى تجربة حية يعيشها شخص بعينه فى موقف بعينه .

باختصار فى البداية اقتصرت الدراسة على الظواهر الشعورية فى انعزال عن سياقها ، وتطور الأمر إلى دراسة هذه الظواهر الشعورية فى صلتها بالعمليات الفسيولوجية والمسالك الخارجية والخصائص الموقفية ، بمعنى أنها انتهت إلى دراسة الظاهرة الشعورية ضمن الحقل النفسى بما ينطوى عليه من أوجه التفاعل . بذلك أصبحت النظرة دينامية وامتدت الدراسة النفسية إلى الوجهين الآخرين للسلوك .

المدرسة السلوكية :

أما السلوكية الوطسونية ، فقد أراد لها واطسون أن تكون خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى علم النفس الوصفي ، بمعنى أنه أراد للسلوكية أن تكون علما كعلوم الطبيعة ، لا تتناول إلا الظواهر العيانية — أى هــــذه التى تخضع للملاحظة الموضوعية والقياس الدقيق . كان من المحتم على واطسون إذن أن يقتصر على دراسة المسالك الخارجية الحس — حركية الصريحة وعلى العمليات الفسيولوجية فى استبعاد للظواهر الشعورية التى يصعب بل يستحيل قياسها .

ولم يستطع واطسون أيضاً أن يتجاوز النظرة الميكانيكية . كان الشخص عنده حاصل جمع عادات ، وكانت العادة عنده حاصل جمع أفعال منعكسة شرطية . وهكذا تصلبت الميكانيكية بهذه الشيئية الواطسونية .

ولكن التطور قد أرغم السلوكية بعد واطسون ، وخاصة على يدى كانتور وتولمان على أن تعيد الظواهر الشعورية إلى ترسانة السلوك . ذلك أن السلوك أمر مستحيل بغير دافع . وما الدافع غير حالة من التوتر ، أى لحظة من لحظات الشعور . فالدافع هو تجربة شعورية .

وكذلك فإن السلوكية قد أرغمها التطور على أن تتخلى عن ميكانيكيتها القائمة على رابطة المثير ـ الاستجابة ، فاعترفت بما للسلوك من انتظام بنيوى (مفهوم الوحدة الكلية) بل وبما للسلوك من دلالة (مفهوم الوظيفية) .

باختصار ، اقتصرت السلوكية فى البداية على المسالك الخارجية والعمليات الفسيولوجية ثم اضطرها التطور إلى دراسة الظواهر الشعورية ، وبذلك اكتملت للسلوك أوجهه الثلاثة . كما اضطرها التطور إلى التحول من الميكانيكية إلى الدينامية من حيث هى نظرة جشطلتية ونظرة وظيفية .

مدرسة التحليل النفسى :

مدرسة التحليل النفسى منذ البداية تهتم بالمظاهر الثلاثة المختلفة للسلوك. وكل ماهنالك ينحصر فى أن فرويد كان فى البداية يميل إلى التقليل من أهمية الظواهر الشعورية . كان يعطى الأهمية كلها للظواهر اللاشعورية . ولكنه منذ عام ١٩٢٠ عدل كما نعلم عن موقفه فلم تعد الأهمية كلها للظواهر اللاشعورية وإنما أصبحت الأهمية تتجه إلى التفاعل مابين جهاز الأنا الذى يشتمل على الجانب الشعورى وبين جهازى الهى والأنا العليا وهما جهازان لاشعوريان .

ولقد اتضح هذا الإتجاه بصورة بارزة عند ابنته « أنا فرويد » فى كتابها: « الأنا وميكانيزمات الدفاع » .

وغنى عن البيان أن التحليل النفسى يستند بصفة أساسية منذ البداية إلى مفاهيم الدينامية وصراع القوى والوحدة الكلية العضوية والوظيفية .

مدرسة الجشطلت :

أما مدرسة الجشطلت فمن الواضح أنها منذ البداية تتناول الأوجه الثلاثة للسلوك — ذلك أن الجشطلت هو الوحدة الكلية العضوية الدينامية الوظيفية ، هو الكل الدينامى ، الذى هو نتاج تفاعل الأجزاء من حيث هى أدوار بعينها .

وكل ظاهرة نفسية بل وكل ظاهرة حية هى جشطلت . فالسلوك جشطلت، وبالتالى تستحيل دراسة السلوك إلا حين ننظر إليه على أنه هذا النتاج لتفاعل الأوجه المختلفة : شعورية ، وفسيولوجية، ومسالك خارجية.

وهكذا فإننا نجد اليوم فى جميع المدارس أن مفاهيم الوحدة الكلية ، والدينامية ، والوظيفية قد أصبحت بمثابة مفاهيم أساسية .

ثانيا : من زاوية الاتجاهات الأساسية فى علم النفس

لقد قام لاجاش بمحاولة لتوحيد علوم النفس فرأى أن علوم النفس على اختلافها يمكن بشكل عام أن تدخل تحت عنوانين :

١ – فهناك علوم النفس الطبيعية النزعة .

٢ – وهناك علوم النفس الإنسانية النزعة .

ومن الممكن أن نلخص الاختلافات بينهما على النحو الآتى :

الاختلاف مابين النزعتين الطبيعية والإنسانية

زاوية المقارنة	النزعة الطبيعية	النزعة الإنسانية
أولا من حيث الموضوع	شيئية : تقتصر على المسالك المادية (خارجية وفسيولوجية)	شعورية : تقتصر على الظواهر الشعورية والتجارب الحية
ثانيا من حيث علاقة الكل بالأجزاء	ذراتية : فالكل حاصل جمع أجزائه والأجزاء سابقة على الكل .	وحدة كلية (جشطلت) : فالكل سابق على أجزائه وهو نتاج تفاعل هذه الأجزاء .
ثالثا من حيث الهدف	تفسيرية : تسعى إلى قوانين تشبه قوانين الطبيعة وإلى التصنيف والمنحنيات إلخ (استقراء معمم).	فهمية : تسعى عن طريق الاستقراء المركزى إلى الإمساك بالدلالة المحايثة للسلوك أى وظيفته .
رابعا من حيث المدى	لاتعترف إلا بالمقوم الفسيولوجى .	تمضى إلى الأعماق وتستكشف اللاشعور .
خامسا من حيث نوعية التصور	ميكانيكية : تنكر الغائية والدلالة والوظيفة .	وظيفية : تهتم بالدلالة والقيمة فتجعل من عملية التكيف العملية المركزية فى علم النفس

ولقد انتهى التطور بهاتين النزعتين إلى الاتفاق، وذلك إما بانتصار إحدى النزعتين على الأخرى وإما بتعايشهما المشترك. فمفاهيم الذراتية والكل الإضافي والميكانيكية قد انسحبت تماما أمام مفاهيم الوحدة الكلية والدينامية والوظيفية. أما التفسير والفهم فيتعايشان معا فى تعاون. وأما المسالك الفيزيائية والخارجية والظواهر الشعورية والعمليات الفسيولوجية والدوافع اللاشعورية فقد غدت الأوجه المختلفة للسلوك.

وهكذا فعلم النفس هو علم السلوك من حيث هو مسالك خارجية وظواهر شعورية وعمليات فسيولوجية ودوافع لاشعورية. فأمام طبق من الطعام يشعر الإنسان أنه جائع (ظاهرة شعورية) ويسيل لعابه(عملية فسيولوجية) ويهم بمد يده لتناول الطعام (مسالك خارجية) .

ولكن من المحتمل عندما يتبين صنف الطعام أن يغلب عليه الشعور بالاشمئزاز ويتوقف لعابه عن السيلان وترتد يداه إلى الوراء مشيحا بوجهه عنه ، كل ذلك بالنظر إلى دوافعه اللاشعورية الخاصة تجاه هذا الصنف من الطعام مما قد يرجع إلى تجاربه السابقة وطفولته على وجه خاص.

الفصل الثاني

مناهج علم النفس

هناك منهجان رئيسيان فى علم النفس :

— المنهج الطبيعى وصورته المتطورة هى المنهج التجريبى .

— المنهج الكلينيكى وصورته المتطورة هى التحليل النفسى .

أولا : المنهج الطبيعى :

يضطلع المنهج الطبيعى بدراسة بعض المسالك على نحو ما تتبدى عليه فى صورتها الطبيعية ودون ما تدخل من جانب النفسانى . وهذا المنهج عينه تستخدمه علوم أخرى وخاصة علم النبات وعلم الحيوان .

أهدافه :

(١) ملاحظة المسالك التى لا يمكن استحداثها بطريقة عمدية ، أو المسالك التى يمسخها الموقف التجريبى .

(٢) ملاحظة « الحقل القائم » بمعنى استطلاع حقل الظواهر قبل أية دراسة أكثر عمقا . وكتاب كينزى Kinsey : « دراسة السلوك الجنسى للأمريكيين الذكور » مثلا هو دراسة تصنيفية بصورة أساسية، بمعنى أنه يبحث فى المبادىء التى يمكن أن يتم التصنيف وفقا لها . أن علم التصنيف الحديث هو بصورة أساسية إحصائى . وكثيراً ما يجهل البعض قيمة النهج الإحصائى من حيث قدرته على التمييز بين ما هو خاص وما هو عام ، بين ما هو نادر وما هو شائع .

ان دور المنهج الطبيعى هو الدراسة العامة لحقل قائم بعينه . والدراسة التصنيفية يمكن فى بعض الحالات أن تكفى بذاتها ، ويمكن فى حالات أخرى أن تكون تهيئة لدراسات تفصيلية لاحقة .

ويقرر « مَن » Munn أن الكثير من المسالك الاجتماعية وغير الاجتماعية لا بد ، إذا كان لنا أن ندرسها ، من أن ندرسها على نحو ما تحدث بصورة طبيعية . أن علم الفلك والجيولوجيا يكادان يقتصران على المنهج الطبيعى فى الملاحظة. أما البيولوجيا فهى مضطرة إلى أن تستخدم المنهج الطبيعى بالإضافة إلى مناهج أخرى فى البحث،وذلك لأن من الظواهر البيولوجية ما يستحيل استحداثه فى المعمل ، ومنها ما يتعرض للمسخ إذا استحدث فى المعمل . وهذا ما يصدق أيضاً بصورة خاصة على بعض الظواهر النفسية . فلنفرض أن باحثاً يريد أن يدرس التأثيرات الاجتماعية المتبادلة فى « مجتمع خلو من الثقافة » . فسيكون عليه عندئذ أن يضطلع بدراسة مجتمع حيوانى ، وذلك لأن أكثر الكائنات البشرية بدائية لها ثقافة معقدة . فإذا كان الباحث مهتما بصورة أساسية بتبين الطريقة التى يمكن أن تسلك بها الكائنات البشرية لو أنها جردت من كل شىء إلا طبيعتها الحيوانية،فسيكون على هذا الباحث أن يضطلع بملاحظة الحيوانات الأكثر شبهاً بالإنسان ، ونعنى القرود الراقية .

فى مثل هذه الحالة تستحيل الدراسة المعملية . وحتى لو كانت الدراسة المعملية ممكنة ، فلن تكون النتائج ذات قيمة . فليس أمام النفسانى إلا أن يتجه إلى الغابة . فهنالك يستطيع ، والحيوانات لا تشعر به ، أن يلاحظ علاقاتها الاجتماعية . والباحث الماهر لا يقدم على هذه المهمة قبل أن يتمرس على الملاحظة العلمية ، ويتزود ما أمكن بمختلف المعلومات المتاحة عن الحيوانات التى يريد دراستها . كما أن عليه أيضاً أن يحدد السؤال أو الأسئلة التى يريد من الملاحظة أن تقدم الإجابة عليها ، وعليه ما أمكن أن يأخذ

صوراً متحركة ، حتى يستطيع هو وغيره أن يستعيد ملاحظة سلوك الحيوانات وقتما يريد .

وتحديد الأسئلة سبقاً يعد مسألة هامة ، فما من شخص يستطيع تركيز انتباهه على جميع مظاهر السلوك الاجتماعي في وقت واحد . وقد تكون الأسئلة محل الاهتمام من قبيل : « ما هو العدد الذى تتألف منه الأسرة الحيوانية ؟ » ، « ما هو عدد الذكور البالغين وما هو فى تلك الأسرة عدد الصغار ؟ » ، « هل الاتصالات الجنسية للذكور قاصرة على أناث بعينها أم أنها إباحية ؟ » ، « هل يحدث صراع ثنائى بين حيوان وآخر ؟ » ، « وما الشكل الذى يأخذه هذا الصراع إن وجد ؟ » ، « هل تتعاون الحيوانات ؟ » . وهكذا فإن الباحث يحمل فى رأسه أو على الورق استخبارا تضطلع الملاحظة بالإجابة عليه . وعندئذ تكون ملاحظاته وفقاً لخطة وليست فى يد الصدفة .

ويستخدم المنهج الطبيعى فى الملاحظة فى مجال علم نفس الأطفال ، حيث تستخدم عند اللزوم ألواح زجاجية خاصة يستطيع الباحث ملاحظة الأطفال من ورائها دون أن يتمكن الأطفال من رؤيته . ويمكن لمثل هذه الملاحظة أن تجيب على أسئلة من قبيل : « هل يميل الأطفال بطبعهم إلى الأمانة ؟ » ، « كيف يعبر أطفال العام الخامس عن غضبهم ؟ » ، « ما هو متوسط العمر الذى فيه ينطق الطفل بأول كلمة ؟ » ، أيهما يغلب فى كلام أطفال العام الثالث : الأسماء أم الأفعال ؟ » الخ .

وفى علم النفس المرضى يمكن أن نضع أمام المنهج الطبيعى فى الملاحظة مثل هذه الأسئلة : « ما هى الظروف الاجتماعية التى تسهم فى حدوث المرض العقلى (الجنون) ؟ » ، « ما هى الأنماط الرئيسية للاضطراب العقلى ؟ » .

وهناك فروع أخرى من علم النفس تستعين بالمنهج الطبيعي في الملاحظة بين حين وآخر كلما تطلبت المشكلة ذلك . وبعبارة أخرى فإن هذه الفروع تضطلع أحياناً بدراسة موضوعية ومنهجية للظواهر التي تحدث دون أن يتدخل الباحث في استحداثها . ومع ذلك فإن المنهج الطبيعي في الملاحظة يحاول ما أمكن أن يكمل نفسه بالمنهج التجريبي ، إذ أن هذا الأخير ينطوي على ميزات لا تتوفر لغيره من المناهج .

ثانيا : المنهج التجريبى :

مقدمة :

كيما نكشف عن العلاقات الهامة ما بين طبيعة الكائن العضوى وبيئته وسلوكه فإنه يتحتم إخضاع جميع العوامل الهامة لأدق ضبط ممكن . وبعبارة أخرى يتحتم أن تخضع كل هذه العوامل لتجريب المجرب بحيث يتخذ من كل عامل منها بعد الآخر ، وبدوره ، متغيراً مستقلا (مم) .

إن المجرب لا يستطيع — كما هو الحال فى الملاحظة القائمة على المنهج الطبيعى — أن ينتظر الظاهرة أو السلوك الذى يرغب فى دراسته حتى يتحقق تلقائياً . والملاحظ « الطبيعى » ليست لديه إلا فكرة ضئيلة عن العوامل التى تحكم الظاهرة التى يلاحظها . إنه يستطيع أن يصف السلوك ويسجل شروطه العامة ، ولكن عادة ما يقف به الأمر عند هذا الحد .

إن السلوك إنما يخضع لعدد من العوامل ، ونعنى :

(١) نوع الكائن العضوى ، طفلا أو راشداً أو حيواناً .

(٢) الخبرة أو آليات التعلم المتحققه من مهارات ومعارف .

(٣) الوضع الحالى للكائن العضوى ، كأن يكون جائعاً أو متعباً .

(٤) المثيرات ، من قبيل الموجات الضوئية والصوتية التى توجد ضمن مجال أعضائه الحسية . وباختصار فالعوامل المحددة للسلوك هى النضج والتعلم والدافع والموقف .

وينحصر المنهج التجريبى أولا فى « تغيير » واحدواحد من هذه العوامل كل على حدة ، مع إبقاء العوامل الأخرى ثابتة على حالها . ثم يتم تسجيل الأثر المترتب على هذا « التغيير » .

وعادة ما يتم تحديد نوع الكائن العضوى والخبرات السابقة قبل أن يبدأ التجريب بمعنى الكلمة . ومن ثم فإن العاملين الأساسيين اللذين ينصب عليهما « التغيير » أو « الإبقاء فى حالة الثبات » فى التجربة متى بدأت هما الشروط الفسيولوجية والمثيرات .

ضبـــط العوامل

ضبط المثيرات الخارجية والداخلية :

ماذا نعنى بالمثير ؟ إنه ، من الزاوية السيكولوجية ، يعنى أى عامل خارج الكائن العضوى أو داخله ، يتسبب فى إحـــداث نشاط من أى نوع . فجوانب العالم التى لا تبلغ إلى إحداث نشاط لا تعد مثيرات . والمثيرات الخارجية النمطية هى من قبيل الموجات الضوئية والموجات الصوتية والاتصالات اللمسية ، والمواد ذات الرائحة . أما المثيرات الداخلية النمطية فهى من قبيل نواتج التعب ، وانخفاض نسبة السكر فى الدم ، وتزايد الأدرنالين فى الدم الخ .

ويتم ضبط المثيرات الخارجية باستخدام حجرات مانعة للصوت أو الضوء ، وأجهزة معينة . أما ضبط المثيرات الداخلية فيمكن أن يتحقق عن طريق الحرمان من الطعام أو إعطاء الكافايين أو الحقن بالأدرنالين أو استئصال المعدة (منعا لتقلصاتها من أن تعمل عمل المثيرات) ، أو قطع الحبل الشوكى (منعا للحفزات العصبية فى الجزء الأسفل من البدن من أن تصل وتثير مراكز عصبية فى المخ) ، أو نحو ذلك . ومن الواضح أن وسائل الضبط فى مثل هذه الصورة الأخيرة لا يمكن استخدامها إلا مع الحيوان ، وتعد غير ممكنة بالنسبة للإنسان اللهم إلا فى حالات الحوادث أو المرض . وغنى عن البيان أنه يتم تخدير الحيوانات تجنبا للإيلام .

ضبط الكائن العضوى :

بالإضافة إلى ما يضطلع به المجرب من « تغيير » المثيرات الخارجية أو الداخلية فإنه يمكن «تغيير» الشروط العامة للكائن العضوى . ومن الواضح أن تغيير المثيرات الداخلية يدخل تحت هذا العنوان . بيد أن بعض أشكال الضبط العضوى لا تعد بشكل مباشر نوعا من ضبط المثير ، ولنورد بعض الأمثلة .

(١) ففى حالة الأشخاص الراشدين كثيراً ما يكون من الضرورى خلق تهيؤ أو اتجاه وذلك قبل تقديم المثيرات . ومثال ذلك أن نخبر الشخص أن يتنبه إلى نوع بعينه من المثيرات دون غيره ، وأن يستجيب بطريقة معينة للضوء الأحمر ، وبطريقة أخرى معينة للضوء الأخضر مثلا . كذلك يمكن إخبار الشخص بأننا نجرى الاختبار عليه من ناحية معينة بينما نختبره بالفعل من ناحية أخرى ، أو نخبر الشخص بأننا نجرى حقنه بالكحول بينما نحقنه فى الحقيقة بالماء المعقم . إن الكيميائى والفيزيائى والبيولوجى لا يضطلعون بضبط التهيؤ أو الاتجاه فى المواد التى يجربون عليها ، أما فى الأبحاث النفسية فإن مثل هذه الاتجاهات تعد غاية فى الأهمية ويتحتم أخضاعها للضبط .

(٢) وثمة صورة أخرى من ضبط الكائن العضوى هى ضبط الوراثة . فغالبا ما يميل الباحثون إلى إبقاء الوراثة فى حالة ثبات . لنفرض مثلا أن الباحث يريد أن يتعرف ما إن كان الأطفال يكتسبون المهارات الحركية عند « تدريبهم » عليها فى سن باكرة بأسرع مما يكتسبونها فيما لو ترك الأمر « للظروف » . على مثل هذا الباحث أن يستخدم جماعتين من الأطفال : جماعة تلقت التدريب وجماعة لم تتلق التدريب . والجماعات التى تترك وشأنها يحتمل أن يتم اكتسابها للمهارات بنفس السرعة . وحيث أن معدل النمو فى هذه المهارات يمكن أن يتأثر بالوراثة فينبغى إبقاء الوراثة فى حالة ثبات . ولما كان التوائم المتحدون لهم نفس الوراثة، فإن عامل الوراثة يتم إخضاعه للضبط

وتثبيته(استبعاد فعاليته)باجراء التجارب على هذا النوع من التوائم . وبعد تحديد التوائم المتحدين يشطرون إلى جماعتين فيتم تدريب إحدى الجماعتين بينما تترك الجماعة الآخرى بغير تدريب .

وفى التجريب على الكائنات البشرية أحيانا ما تستخدم وسائل أخرى تحقق للوراثة ضبطا أقل إحكاما ، كما هو الحال فى بعض الدراسات الخاصة بالذكاء ، والتى تستخدم التوائم المتآخين أو الأشقاء .

والتغيير فى عامل الوراثة مع إبقاء العوامل الآخرى ثابتة إنما يتحقق عن طريق التنويع فى التوليد ، مما لا يمكن إتمامه إلا فى الحيوان ، أو هو يتحقق عن طريق انتقاء جماعات بشرية من المعروف أنها ترجع إلى سلالات جد مختلفة .

(٣) وضبط الكائن العضوى قد يتم أحيانا ثالثة عن طريق استئصال بعض أجهزة البدن مثل بعض الأنسجة العصبية أو الغدد أو أعضاء الحس . فى مثل هذه الحالات التى تقتصر بالطبع على الحيوانات ، تستخدم جماعتان ؛ تتعرض إحداهما للاستئصال الجراحى بينما تظل الآخرى على حالها . وغالباً ما يتم إجراء عمليات زائفة على الجماعات التى لم تتعرض للتدخل الجراحى حتى نتيقن من ضبط مختلف العوامل الآخرى بالإضافة إلى العامل الأساسى (كاستئصال أنسجة المخ) موضوع التجريب . ومقارنة أداء جماعة بأداء الآخرى يتيح تحديد الوظيفة التى يؤديها الجزء المستأصل من الكائن العضوى .

المتغير والتوابع والثوابت

المتغير المستقل (م م) :

إن العامل الذى نقوم بتغييره أو تنويعه إنما هو المتغير المستقل (م م) فى التجربة . ومن المألوف أن يشار إلى هذا الشرط أو ذاك من شروط —

الكائن — العضوى » الذى يتعرض للتغيير أو التنويع على أنه « المتغير المستقل » (م م) فى البحث التجريبى . ولا يمكن أن يكون هنالك أكثر من متغير مستقل واحد فى تجربة واحدة ، وذلك لأن المجرب الذى يريد أن يتبين العوامل المحددة للسلوك إنما يتحتم عليه أن يتبين التغيرات التى تترتب على عامل عامل، كل على حدة. فلو افترضنا تغير عاملين معا فلن يستطيع الباحث أن يتبين إلى أى عامل من العاملين ترجع الآثار الناتجة. وعليه يتحتم الإبقاء فى حالة ثبات على جميع شروط الإثارة وجميع شروط الكائن العضوى فيما عدا المتغير المستقل .

المتغيرات التابعة (م ت) :

إن الاستجابات هى المتغيرات التابعة فى التجربة . فبالإضافة إلى تغير شرط من «شروط ـ الإثارة» أو شرط من «شروط ـ الكائن ـ العضوى» ، مع الإبقاء على بقية الشروط فى حالة ثبات، يضطلع الباحث بملاحظة استجابات الكائن العضوى . وفى كثير من الحالات يضطلع بقياس الاستجابات التى نتجت عن التغيير الذى أحدثه . هذه الاستجابات هى المتغيرات التابعة فى التجربة فهى تتبع وتتوقف على العامل الذى قام الباحث بتغييره .

ويمكن تصنيف الاستجابات على الوجه التالى :

(١) السلوك الخارجى: وهو الذى يستطيع أى ملاحظ أن يتبينه مثل اجتياز طريق فى متاهة ، والكتابة على الآلة الكاتبة ، والتحدث، والضغط على مفتاح ، واحمرار الوجه .

(٢) النشاط الفسيولوجى الداخلى: مثل تزايد سرعة ضربات القلب ، وازدياد نسبة السكر فى الدم ، مما يمكن التأكد منه باستخدام الآلات أو الفحص الكيميائى .

(٣) التجربة الحية: وهى التى يصفها الشخص ، ويمكن أن نضع تحت هذا النوع أنشطة من قبيل التفكير والإدراكات البصرية والسمعية، ومشاعر الأسى الخ . . .

وأحياناً ما يكون المجرب مهتما بوجه واحد من هذه الأوجه الثلاثة ، وأحياناً ما يكون مهتما بها جميعاً .

أمثلة توضيحية:

كان هدف هذه التجربة الكشف عن الآثار السيكولوجية — إن كانت هنالك آثار — التى تترتب على تدخين غليون كبير ملىء بالطباق . كان المتغير المستقل (م م) هو التدخين فى مواجهة عدم التدخين. وكانت المتغيرات التابعة هى الوظائف السيكولوجية والفسيولوجية الخطية من قبيل سرعة الجمع ، ومعدل التعلم وسرعة القراءة بصوت مرتفع لكلمات من أربعة حروف الخ .

ولعله من الواضح فى مثل هذه التجربة أن الاستجابات يمكن أن تتعرض لتأثير جملة من العوامل غير عامل تدخين الطباق . مثل هذه العوامل ينبغى إبقاؤها فى حالة ثبات طوال التجربة . ولنفحص بعض هذه الثوابت التى تتميز بالأهمية .

فاتجاه الشخص من التجربة هو واحد من هذه العوامل الهامة. فقد يتوقع — ومن ثم يكون مهيأ — أن يضطلع الطباق بإبطاء استجاباته أو زيادة سرعتها . وقد يكون اتجاه الشخص رغبة قوية فى أن يثبت أن ليس للطباق من تأثير ضار عليه ، ومن ثم فإنه يبذل فى حالة تدخينه جهداً أكبر .

ويبدو مثل هذا الاتجاه مستحيلا على الضبط . ومع ذلك فقد أمكن ضبط هذا العامل بطريقة طريفة وذلك بتقديم غليونين متشابهين تماماً فيما عدا أن أحدهما يعطى هواء دافئاً ، بينما يشتمل الآخر على الطباق . ولقد تم عصب أعين الأشخاص أثناء التجربة . كما حرص المجرب على أحداث نفس الأصوات — كحك الثقاب وتفريغ الغليون الخ — فى الحالتين على

السواء ، كما حرص المجرب على أن يضع بنفسه الغليون فى فم الشخص ويمسك به بنفسه ، وينزعه آخر الأمر بنفسه من فمه ، وحرص المجرب أيضاً على أن يجعل الشخص ينفخ الدخان دون أن « يبتلعه » فى رئتيه ، وعلى أن يمنعه من ابتلاع لعابه إلا بعد مضى بعض الوقت ، كما حرص المجرب على أن يقوم هو بنفسه بالتدخين أثناء الفترات الخاصة بالغليون الخالى من الطباق ، بحيث يشم الشخص رائحة الطباق كعامل ثابت .

وتدل أقوال الأشخاص بعد التجربة على أنهم لم يخطر ببالهم قط أنهم قد دخنوا فى بعض الفترات مجرد هواء ساخن رطب . بل إن أحد الأشخاص كان يقوم بحركات نفخ الدخان فى أثناء تدخينه للغليون الخالى من الطباق .

وكان كل الطباق المستخدم فى التجربة من صنف واحد ، مما تم التحقق منه بالتحليل الكيميائى . فلو لم يتم ضبط هذا العامل لكان من الممكن أن يكون اختلاف النتائج راجعاً لا إلى تدخين الطباق فى ذاته وإنما إلى تباين أصناف الطباق . أما كمية الطباق فكانت ثابتة ، خمسة جرامات .

وأما عن تقبل الطباق واعتياده فقد تم ضبط هذا العامل باستخدام مدخنين متعودين . وهناك جماعة أخرى تتألف من أشخاص لا يضايقهم التدخين وإن كانوا من غير معتادى التدخين ؛ وكانت هذه الجماعة تستخدم لأغراض المقارنة .

أما عن الفروق الفردية كالذكاء وسرعة الاستجابة والجنس والسن الخ . . فقد بقيت ثابتة باستخدام نفس الأشخاص فى حالتى التدخين وعدم التدخين . وكانت درجات الشخص عقب جلسات انعدام التدخين تستخدم وسيلة ضبط بالقياس إلى الدرجات التى يحصل عليها هو نفسه عقب التدخين .

والساعة التى تم فيها التجربة من ساعات النهار يمكن أيضاً أن تؤثر

فى النتائج بشكل ملموس . ولقد تم ضبط هذا العامل بتثبيته ، فكانت جميع التجارب تتم فى نفس الساعة تقريباً ، أى بعد انقضاء ساعة ونصف بعد العشاء .

وكانت جلسات التدخين وعدم التدخين تخضع لمناوبة عشوائية خلال الثمانية عشر يوما التى استغرقتها التجربة .

ولقد لاحظ السيكولوجيون أن الفرد حين يقترب من نهاية مهمة فإنه غالبا ما يضطلع بقفزة النهاية . وعليه كان ولابد من ضبط هذا العامل . ومن هنا فقد قال المجرب للأشخاص بأنه سيحتاج إليهم مدة ٢٠ يوما . ولكنه عقب الجلسة الثامنة عشرة أعلن الأشخاص بانتهاء التجربة . وعندئذ حصل على تقريراتهم اللفظية وتحقق له أنه لم يخطر ببالهم قط ما كان قد أعده من وسائل الضبط . . .

إن النتائج التفصيلية لهذه التجربة لا تعنينا ها هنا بصفة أساسية ، إذ أننا نركز اهتمامنا على المنهج . وعلى أية حال يمكن القول بأن هذه التجربة لم تكشف عن تأثير ذى دلالة لتدخين الطباق فى فاعلية التعلم .

وتقدم لنا هذه التجربة فكرة واضحة عن المنهج التجريبى بصورة عامة وذلك لأنها تنطوى على أهم أشكال الضبط التى يستخدمها الباحثون فى مجال الراشدين . وعلى أية حال فكل تجربة تتطلب وسائل ضبط خاصة بها . ومن ثم فلا ينبغى أن يتبادر إلى الذهن أن كل تجربة لابد وأن تستخدم كل وسائل الضبط السابقة أو معظمها . فعندما يكون التجريب على الحيوان مثلا تقل أهمية معظم وسائل الضبط التى من هذا القبيل . وعلى الضد من ذلك فإن الشروط العضوية — من قبيل الجوع والظمأ وإصابات البدن الخ — مما لا تنطوى عليه هذه التجربة يمكن أن تكتسب أهمية كبرى فى الأبحاث المنصبة على الحيوانات .

مثال :

ما هو دور الدافع فى التعلم ؟

فرض العمل : الإثابة تلعب دوراً فى زيادة الجهد .

تجربة على الحيوانات :

جماعة من الفيران : أما الإثابة فتتمثل فى « طعام » نرمز له بالحرف (ط) ، فى مقابل الجوع الذى نرمز له بالحرف (ج) .

	(ج)	(ط)
الجماعة (١)	+	+
	يتحقق لها « جوع » (ج) ويتحقق لها « طعام » (ط)	
الجماعة (٢)	+	—
	يتحقق لها « جوع » (ج) ولا يتحقق « طعام »	
الجماعة (٣)	—	+
	لا يتحقق « جوع » ويتحقق لها « طعام » (ط)	

بمقارنة الجماعة (١) بالجماعة (٢) حيث المتغير المستقل (م م) أى الإثابة (الطعام) حاضر فى حالة (١) ، ومتغيب فى الأخرى (٢) وحيث الدافع ثابت (الجوع فى الحالتين) فإننا نجد أن الجماعة الأولى « تتعلم » أسرع من الثانية .

بمقارنة الجماعة (١) بالجماعة (٣) حيث المتغير المستقل (م م) وهو الجوع (الدافع) حاضر فى الجماعة (١) متغيب فى الجماعة (٣) ، وحيث « الطعام » (الإثابة) ثابت ، أى حاضر فى الحالتين ، فاننا نجد أن الجماعة (١) « تتعلم » أسرع من الثالثة .

تجربة على الإنسان :

لنأخذ ثلاث جماعات متكافئة من الأطفال ، يتعلق الأمر بتعلم الطريق الصحيح فى متاهة بتمرير الأصبع .

يتمثل المتغير المستقل (م م) فى الإثابة .

وتتمثل المتغيرات التابعة (م ت) فى متوسط عدد الأخطاء التى تحدث فى الخمس محاولات الأخيرة .

الجماعة (١) لا اثابة ، متوسط الأخطاء ٦ر٢ .

الجماعة (٢) إثابة بالثناء ، متوسط الأخطاء ٣ر٢ .

الجماعة (٣) إثابة بالنقود ، متوسط الأخطاء ٧ر١ .

ومن التجربة يتبين أن الإثابة تلعب دوراً فى زيادة الجهد من أجل التعلم ، وأن الإثابة المادية تلعب دوراً أكبر من الدور الذى تلعبه الإثابة المعنوية لدى الأطفال .

صعوبة التجريب على الإنسان ، ومحاولات للحل :

إن السلوك الطبيعى عند الإنسان يختلف عن سلوكه التجريبي بأكثر مما يحدث عند الحيوان . ومن هنا تبرز صعوبات تتعلق بالشخص وتتعلق بالموقف :

(١) ففيما يتعلق بالشخص :

(ا) هناك صعوبات كما سبق أن رأينا فيما يتصل بضبط عامل الوراثة (النضج) وضبط عامل التاريخ الفردى (التعلم) .

(ب) وهناك صعوبات أخرى تتعلق بالدافعية : فاتجاه الشخص إزاء التجربة ينعكس على التجربة ، ومن الممكن أن تتدخل فى التجربة

دوافع عديدة ، قد تكون دوافع متصارعة ، أو دوافع لا شعورية ، أو دوافع معدلة بفعل التعلم .

وتظل نفس الصعوبات فى حالة التجريب على الجماعات البشرية .

(٢) وفيما يتعلق بالموقف :

— نجد صعوبة خلق مواقف تجريبية تكافىء المواقف الطبيعة ، كما أن هناك صعوبة فى أن يكون للموقف التجريبى نفس الدلالة عند جميع الأفراد، فإن دلالة الموقف إنما تتوقف إلى حد كبير على شخصية الفرد الذى يعيش الموقف .

— هذا إلى تعقد الاستجابات وشدة تنوعها .

هل هناك من حل ؟

هناك محاولتان للخروج من هذا المأزق : محاولة غير مباشرة ، ومحاولة مباشرة .

(١) المحاولة غير المباشرة :

أن الملاحظة الطبيعية ، والملاحظة الكلينيكية ، والملاحظة التحليل — نفسية ، والدراسات الأنثروبولوجية كلها ضرورية للحصول على نظرة عيانية وكلية للسلوك البشرى . ولكن النظرية التى تستند فحسب إلى الملاحظة إنما تعوزها الدعامة اليقينية المتينة المستمدة من التجريب .

فالدراسة التجريبية للتعلم مثلا تضطلع بإثبات مبادىء يقينية تصدق على مسالك جزئية وتميل إلى أن تأتلف فى صورة نظرية عامة وشاملة .

وتنحصر المشكلة فى تحديد ما للتشريط حقاً من قيمة فى تفسير السلوك

البشرى . لقد حاول بافلوف أن يتأدى من « علم الأفعـــال المنعكسة » Reflexology إلى « علم ماوراء الأفعال المنعكسة» Meta - reflexology وهو تعميم لتصور الفعل المنعكس . ويتم ذلك بالانتقال المتصل من فعل منعكس شرطى إلى آخر وهكذا دواليك . ولكن تلك سلوكية جزيئاتية. فالفعل المنعكس الشرطى هو بمثابة جزىء تقام ابتداء منه سيكولوجية برمتها .

ولو نظرنا نظرة نقدية إلى الأساس النظرى لهذه المحاولة لوجدناها تنظر إلى الفعل المنعكس الشرطى على أنه وحدة أولية أولى وبسيطة . ولكن الحق هو أن الفعل المنعكس الشرطى يمثل نمط تعلم معقد وحادث من حيث التكوين والنشأة أكثر منه عنصراً أولياً وبسيطا .

هذا إلى صعوبة تطبيق تصور الفعل المنعكس الشرطى على السلوك البشرى : فمن العسير أولا أن نحقق أفعالا منعكسة شرطية عند الراشد السوى، والاستجابة الشرطية بعد ذلك لا تنطوى على إبداع . وأخيراً فإن التطبيق النظرى كله إنما يستند إلى الفعل المنعكس بدرجاته المتعاقبة. ولكننا فى واقع الأمر لا نستطيع أن نتخطى الدرجة الثالثة فى تسلسل هذه الأفعال المنعكسة ، وذلك بسبب ظاهرة الانطفاء .

وإذا كان بافلوف قد أخطأ حين توهم أن الفعل المنعكس الشرطى هو عنصر بسيط للسلوك البشرى ، فإن نظريته مع ذلك تزودنا بمبادىء قيمة فى نظرية التعلم .

واليوم ينظر العلم إلى الفعل المنعكس الشرطى على أنه استجابة معقدة، وعلى أنه ظاهرة تجريبية ، تتحقق فى ظروف مصطنعة[1] .

---

(١) أنظر كتاب وحدة علم النفس للاجاش ، الانجلو ، ص ٥٧ وما يليها (النتائج) .

(٢) المحاولة المباشرة .

لنأخذ تجربة ليفين وليبيت وهوايت : «أنماط السلوك العدوانى فى أجواء اجتماعية تجريبية»[1] كما نتبين منها كيف يمكن تطبيق مبادىء المنهج التجريبي على المسالك البشرية العيانية .

الفرض العام : العدوان هو استجابة للإحباط (وهو مستمد من نظرية فرويد عام ١٩١٥ ، عن الإحباط والعدوان) .

ضبط عوامل التجربة :

وذلك من حيث البيئة الفيزيائية ، ومن حيث تكافؤ الجماعات كوحدات كلية ، ومن حيث تثبيت شخصية القائد الذى ينبغى أن يلعب على التوالى أدواراً مختلفة : دور التسلطى ، والديمقراطى ، والفوضوى . وتنحصر المشكلة هاهنا فى استبعاد شخصية القائد كعامل فعال . وكذلك ضبط أنشطة الأطفال .

المتغير المستقل (م م) :

يتمثل فى الأدوار والاتجاهات التى يتخذها القائد .

المتغيرات التابعة (م ت) :

سلوك الجماعات .

النتائج :

متوسط الاستجابات العدوانية فى الإجتماع الواحد :

---

(١) J. of Social Psychology, 1939.

— فى الجو الفوضوى	٢٨
— فى الجو التسلطى	٣٠
— فى الجو الديمقراطى	٢٠
— فى جو استبداد الفرد (أوتوقراطى)	٢

هذه التجربة ترينا مايمكن أن تكون عليه الطريقة التجريبية المباشرة فى تطبيقها على السلوك البشرى العيانى . فهذه الطريقة تتميز بتعقد عمليات الضبط (ضبط المتغير المستقل م م وضبط النتائج) . إن التحسينات التجريبية قد امتدت هنا أيضاً إلى الأسلوب التجريبى ذاته ، ذلك الأسلوب التى استخدم فى هذه التجربة بصورة فعالة .

الوسائل الإحصائية كامتداد للمنهجين الطبيعى والتجريبى :

يعد التحليل الإحصائى تطبيقا للرياضيات يتيح للسيكولوجى أن يضطلع بتصنيف نتائجه وترتيبها بحيث يستطيع الكشف عن اتجاهاتها الرئيسية وعلاقاتها القائمة . ولقد بدأ علماء النفس يستعينون بالإحصاء فى دراستهم الخاصة بالفروق السيكولوجية . أما اليوم فقد أصبح الإحصاء أداة لاغنى عنها فى كثير من مجالات علم النفس . فالوسائل الإحصائية تقدم عونا للملاحظة الطبيعية وللمنهج التجريبى ، بل وللطرائق الكلينيكية أيضا .

وعند تفسير المعطيات التجريبية ، فغالباً مايشعر الباحث بالحاجة إلى تحديد الاتجاهات السائدة والعلاقات القائمة ، بل وأن يحدد مدى احتمال حصوله على نتائج مشابهة أو مغايرة عند تكراره لنفس التجربة .

والوسائل الإحصائية ضرورية أيضاً لتقنين اختبارات الذكاء واختبارات الشخصية وغير ذلك من الاختبارات النفسية ، وذلك لأن الوسائل

الإحصائية تحدد بالكم مدى العلاقة مابين درجات الاختبار والعوامل الأخرى ، من قبيل النجـــاح فى الامتحانات المدرسية ، والتكيف الاجتماعى إلخ .

وبالإضافة إلى ذلك فإننا نجد أن أداء الفرد فى الاختبارات المقننة إنما يتم تأويله بالاستناد إلى تحليلات إحصائية سابقة للنتائج التى تم الحصول عليها من اختبار عدد كبير من الأفراد . ومعنى ذلك أن نتائج الفرد ، أى الدرجات التى يحصل عليها، يتم تأويلها بالرجوع إلى معايير تمثل «متوسطات» يتم تحديدها باستخدام جماعات كبيرة تعد ممثلة لمجموع السكان .

ثالثا : المنهج الكلينيكى :

تمهيد :

يستخدم المنهج الكلينيكى - فى دراسة حالة فردية بعينها . فهو يستخدم أساساً لأغراض عملية ، ونعنى من أجل تشخيص وعلاج مظاهر الاختلال التى تحمل الشخص على الذهاب إلى الكلينيكى . ولكن هذا لايمنع من وجود هدف علمى . فإن دراسة العديد من الحالات الفردية ومقارنتها بعد ذلك يمكن أن تمدنا بمعلومات نظرية لها قيمة عامة . ولكن الذى يعنينا هاهنا قبل كل شىء هو أن نتبين نوع المعطيات التى يسعى الكلينيكى للحصول عليها ليقيم منها تشخيصه للحالة .

صحيح أن الكلينيكى قد يستعين بالاختبارات المقننة هذه التى تنتمى إلى المنهج التجريبى والتى تعينه على تحديد المشكلة التى أمامه . فلو كان هنالك مثلا طفل متعثر فى دراسته فقد يكون ذلك راجعا لضعفه العقلى ، أو لضعف سمعه ، أو لبطئه فى الاستجابة إلخ . فى مثل هذه الحالة يكون القياس عن طريق الاختبارات المقننة هو الوسيلة اليقينية لتحديد طبيعة المشكلة ومعرفة ما إن كانت ترجع إلى الضعف العقلى أو ترجع إلى قصور حسى أو حركى أو إلى غير ذلك من أشكال القصور العضوى .

ولكن مثل هذه المشكلة يمكن أن ترجع - كلياً أو جزئياً - إلى عوامل أخرى من قبيل نقص التدريب الباكر ، أو سوء الظروف المدرسية ، أو اختلال البيئة المنزلية ، أو العلاقات الاجتماعية المعوقة . وبديهى أن المعلومات الخاصة بمثل هذه العوامل يمكن الحصول عليها عن طريق دراسة تاريخ الحالة case history وعادة ما يتم بناء ماضى الشخص فى صورة

تاريخ حياة biography . والمعطيات الخاصة بتاريخ الحياة يتم الحصول عليها عن طريق المقابلة الشخصية (الاستبار) interview مع الشخص موضوع الدراسة وأحيانا ماتمتد إلى بعض أفراد بيئية . وكثيراً مايستعان بإخصائيين اجتماعيين للحصول على معلومات عن الظروف الاجتماعية الحالية للشخص .

وعادة ما يجد الكلينيكى فى نتائج الاختبارات المقننة ، وفى معطيات تاريخ الحياة ، والمعلومات عن الوضع الاجتماعى الراهن للفرد مايسمح له بتشخيص الأسباب المسئولة عن الاضطراب ، واقتراح وسائل التقويم لاختلالات السلوك . وعلى الرغم من أن إحدى هذه الوسائل الثلاث قد تكون أكثر ملاءمة من غيرها فى دراسة بعض المشكلات السيكولوجية فإن غالبية الحالات تتطلب الاستعانة بهذه الوسائل الثلاث جميعها .

وهكذا فإن المنهج التجريبى والمنهج الكلينيكى والملاحظة الطبيعية كلها تدخل فى البحث السيكولوجى وتلزم له . ولنتناول الآن المنهج الكلينيكى من حيث نشأته وخصائصه وعلاقته الوثيقة بعلم النفس المرضى .

لقد نشأ المنهج الكلينيكى من الإئتلاف مابين تيارين هما : علم النفس الطبى وعلم النفس التطبيقى القياسى النزعة . ذلك أن المرض حالة يستحيل إستحداثها تجريبياً من حيث المبدأ ، ومن هنا كانت ضرورة الالتجاء فى تناولها إلى منهج خاص هو المنهج الكلينيكى .

ويتميز علم النفس الكلينيكى من حيث موضوعه ومنهجه وأهدافه :

فمن حيث الموضوع : نجد أن موضوع علم النفس الكلينيكى هو الدراسة المركزة العميقة لحالة فردية ، أى دراسة الشخصية فى بيئتها . وعلم النفس الكلينيكى يمكن أن يمتد بالدراسة أيضاً إلى جماعات صغيرة ، فهو يدرس

الجماعة من حيث هى حالة فردية[1].

ومن حيث المنهج : تضطلع الملاحظة بالدور الرئيسى فى الدراسة الكلينيكية . ولكن علم النفس الكلينيكى يميل بصورة متزايدة إلى أن يأخذ صورة المنهج الكلينيكى المسلح بالمقاييس المقننة ، حاصراً مع ذلك اهتمامه فى الوحدة الكلية لاستجابات كائن بشرى عيانى برمته فى اشتباكه بموقف . ومعنى ذلك أنه يتناول الشخص من حيث هو وحدة كلية حالية وزمنية فى موقف .

أما من حيث الأهداف . فنجد من الزاوية العملية أن الشخص كيما يتقبل الفحص فلابد وأن يجد فى نفسه مايدفعه إلى ذلك ، وبالتالى فهو حامل مشكلة . ومن هنا تكون الأهداف العملية هى الاستشارة أو العلاج أو إعادة التربية . ومن الزاوية العلمية نجد أن الأهداف العملية لايمكن أن تتحقق إلا بالاستناد إلى معارف علمية سابقة . فالتشخيص ينحصر فى الإمساك بالدلالة الخاصة التى تتخذها علاقة الشخص بالبيئة .

وإذا كان العلم لايكون إلا بما هو عام ، فإن ذلك يتضح من الصلة مابين الدراسة الكلينيكية والدراسة التصنيفية . فالمنهج الكلينيكى يعمل ضمن إطار حددته من قبل الدراسة التصنيفية ، ولكنه يسعى فى ختام عمله إلى أن يعالج بالطريقة الإحصائية النتائج التى يصل إليها .

علاقة علم النفس الكلينيكى بعلم النفس المرضى :

مشكلة التشخيص

إن المرض والسوية لا يتضح أحدهما إلا بالقياس إلى الآخر . فليس من الممكن أن نتصور وجود كائنات بشرية بغير مرض وبغير صراع . ومن هنا فعلم

(١) راجع كتاب المدخل إلى علم النفس الاجتماعى ، للمؤلفين ، فصل ٤ ، الأنجلو .

النفس الكلينيكى ليس غير تطبيق للطرائق التى يستخدمها علم النفس المرضى فى دراسة اضطرابات السلوك ، ولكنه يمتد بها إلى جميع قطاعات النشاط البشرى ، بغض النظر عن اللافتة مرضية كانت أم سوية .

هدف التشخيص :

إن الهدف من التشخيص يعد فى أساسه معرفيا . ولكن يمكن أن ننظر إلى هذا الهدف من الزاويتين : العلمية والعملية . فهدف التشخيص من الزاوية العلمية يتضح حين نضع فى اعتبارنا القاعدة القائلة « إن العلم لا يكون إلا بما هو عام » ، ومن ثم فإن التشخيص لا يكون مجرد كومة من التشخيصات الجزئية المتناثرة بقدر ماهو فعل ختامى تتكامل فيه التشخيصات الجزئية ضمن النظرة الكلية العامة . وبديهى أن الملاحظة تكون من الدقة والعمق بقدر ما تكون « عينة » مسالك الفرد ونشاطه أكثر تمثيلا . أما هدف التشخيص من الزاوية العملية فهو أنه يزودنا بقاعدة للعمل .

مضمون التشخيص :

إن الطب العقلى التقليدى Psychiatry على نحو ما يتضح عند كريبلين مثلا — إنما يشتمل على تصنيف يسمح برد الحالة المرضية إلى هذا الصنف أو ذاك . وذلك أحيانا هو الحال فى علم النفس الكلينيكى حيث نجد الميل إلى الاقتصار على أدراج الشخص ضمن هذا الصنف أو ذاك من أنماط الشخصية[1] . ولكن علم النفس الكلينيكى اليوم يأخذ على عاتقه فى حالة تحديد « برنامج العمل » بما يلائم حاجات الفرد موضوع التشخيص ، ومن ثم ينتهى إلى الإمساك بالدلالة المحايثة الخاصة بالموقف المشكل الذى يعيشه هذا الفرد ، وبالوظيفة المحددة لاضطرابات السلوك عنده .

---

(١) راجع النهج الارسططالى (فصل ٣) . راجع أيضاً مقدمة كتاب الحياة الجنسية للمرأة ، ترجمة المؤلفين ، دار الفكر العربى .

إن التشخيص يمثل ويعبر عن لحظة من لحظات تطور تاريخ شخصية فى علاقتها بالبيئة . ومعنى هذا أن التشخيص قد أصبح ديناميا ينصب على فرد بعينه فى موقف بعينه .فى لحظة بعينها،ولم يعد استاتيا ينحصر فى تحديد النمط بالرجوع إلى تصنيف جاهز .

بنية التشخيص :

ثمة وجهان متنامان للتشخيص : فهنالك من ناحية مماثلة الحالة الفردية وذلك بإدراجها تحت صنف عام استناداً إلى علم النفس النظرى؛ ونجد من ناحية أخرى ملاءمة هذا اللافتة مع الخصائص الفردية للحالة ولأصالتها الفريدة . ومن هنا ينطوى التشخيص على عملية «تأويل»للوقائع والمعطيات interpretation . وفى هذا كله ما يذكرنا بعمليتى « المماثلة » assimilation و « الملاءمة » accomodation كوظيفتين أساسيتين للجهاز النفسى . فالمماثلة تستند إلى الغرائز والعادات وكل ماهو جاهز ومألوف . والملاءمة تستند إلى المحاولة والذكاء وإلى كل ما هو جديد .

فنيات التشخيص :

تتطلب عملية التشخيص توفر نوعين من المعرفة : معرفة بالنظريات ودراية بالفنيات (التكنيكات) ،ونعنى بالفنيات الطرائق التى نحصل بها على المعطيات اللازمة لإقامة التشخيص . وهذه المعطيات بدنية ونفسية ، وتنصب كلها على شخصية الفرد موضوع الدراسة . ويمكن تصنيف هذه المعطيات تبعاً للفنيات المستخدمة فى الحصول عليها إلى ما يلى:

(١) فنيات زمنية (تاريخية) :وهى تشتمل على صنفين أساسيين: الشهادة testimony والوثائق documents . وينبغى التنبه إلى ضرورة النظرة النقدية إلى الشهادة ، وما يمكن أن تنطوى عليه من أقوال ادعائية ، فضلا عما لأحكام الشهود من قيمة نسبية .

(٢) فنيات عالية : (الملاحظة المباشرة) : وتستند إلى الاتصال المباشر ما بين النفسانى والشخص فى صورة المقابلة الشخصية (الاستبار) . وفى هذا المجال يتحتم خلق جو ودى يعين على الفحص . وينصب اهتمام النفسانى على أقوال الشخص وعلى سلوكه فى موقف الفحص. فكل ماينطق به الشخص له أهميته، ولكن لايقل عن ذلك أهمية مايصدر عن «الشخص فى الموقف » من سلوك وما قد ينطوى عليه ذلك من اتجاهات ، مما يذكرنا باختبارات المواقف الاجتماعية [1] .

(٣) فنيات اختبارية . ويتبدى ذلك فى الاتجاه المتزايد إلى الأخذ بالنزعة « الكلينيكية المسلحة » ، بمعنى استعانة المنهج الكلينيكى بالمقاييس المقننة والاختبارات والاستخبارات وما إلى ذلك من الوسائل القياسية للمنهج التجريبى .

(٤) فنيات مساعدة : وذلك من قبيل دراسة الكتابة اليدوية graphology استنادا إلى الوثائق . وهذه الدراسة ينبغى أن ينظر إليها بعين الحذر ، لأن العلم لم ينته بعد إلى أنماط علمية الطابع للكتابة اليدوية .فهذا الحقل مازال قبل ـ علمى فى وضعه الراهن .

وهنالك أيضاً « سيكولوجية أشكال البدن » psychomorphology . وهذه الدراسة تحاول أن تحدد علاقة ثابتةمابين الخصائص البدنية والسمات السيكولوجية . وهذه الدراسة ماتزال هى الأخرى حتى اليوم ظنية فى طابعها .

وعلى أية حال فإن التشخيص الجيد يستند دائما إلى أنواع عديدة من المعطيات . ولكن رسم تاريخ الحياة والملاحظة المباشرة يظلان لب المنهج الكلينيكى . وفيما يتصل بالملاحظة ينبغى أن نتنبه إلى أهمية الملاحظة المتصلة

(١) انظر كتاب سيكولوجية الشخصية ترجمة المؤلفين ، الأنجلو ، الفصل العاشر .

بحيث تنصب الملاحظة على وقائع عيانية تنفذ إلى الدقائق ، ولا تتخذ صورة التقرير الدورى فى شكليته المائعة .

(٥) فنيات التحليل النفسى : وهى فنيات كلينيكية ولا شك . فالتحليل النفسى يمكن من وجه أن يتبدى قريباً من علم النفس الكلينيكى : ذلك أننا نستطيع أن ننظر إلى التحليل النفسى على أنه الملاحظة الكلينيكية لسلوك الشخص و « نتاجاته » اللفظية ، وذلك فى جلسات متساوية الطول وموزعة بطريقة ثابتة على فترة طويلة . ومن وجه آخر يمكن أن يتبدى التحليل النفسى مختلفاً عن علم النفس الكلينيكى : فطرائق الملاحظة مختلفة . ففى التحليل النفسى يتجه جانب كبير من الاهتمام إلى الملاحظة من زاوية خاصة هى زاوية الطرح ، وضمن إطار بعينه هو الحيادية . والشخص فى التحليل النفسى يترك ليحدد بنفسه بنية الموقف ، أما فى علم النفس الكلينيكى فإن الكلينيكى يسعى إلى خلق جو ودى يعين على قيام طرح موجب .

منطق التشخيص ومعاييره :

إن التشخيص الحق لا يقتصر على «رص» معطيات الواقع دون وحدة كلية . فلا بد من «تأويل» معطيات الواقع ، بمعنى إعادة بنائها[1] بناء جديد . فالهدف من التشخيص هو تحديد وتفسير سلوك الشخص فى علاقاته بالبيئة بمعنى فهم دلالة هذا السلوك ووظيفته . وعمل الفكر يتميز بهذه الحركة من الذهاب والمجىء ما بين معطيات الواقع وتأويلها ، أى ما بين كثرة الوقائع ووحدة التأويل .

وهنالك فيما يبدو ثلاث مراحل يجتازها الفكر فى سيره :

(١) تحرير المشكلة : فمن الأيسر الاضطلاع بدراسة تنصب على

---

(١) انظر فيما بعد ، الفصل الثالث ، النهج الجاليلى .

مشكلة صريحة وسؤال محدد عن وجهة بعينها بدلا من الدراسة الفضفاضة التى لا تمايز فيها بؤرة الاهتمام. ومن هنا يتحتم استخلاص «فروض العمل» كيما يمكن صياغة «برنامج العمل».

(٢) دراسة الحالة: وتبعاً للمعطيات التى حصلنا عليها فى المرحلة السابقة التى تعد اللحظة الأولى من لحظات الفكر تتحدد وجهة الدراسة. وفى نهاية كل مسيرة نتوقف لنستخلص ما انتهينا إليــــه، رادين كثرة الوقائع إلى وحدة التأويل، فوقائع جديدة فتأويل أكثر عمقاً وهكذا دواليك. فالتشخيص عملية دينامية يستحيل من الناحية النظرية أن تتوقف.

(٣) إقامة التشخيص: ولكن يأتى وقت، من الناحية العملية يتحتم فيه على النفسانى أن يتوقف وقد استطاع أن يرد كثرة الوقائع والتأويلات إلى وحدة التشخيص، مما يجيب على المتطلبات الملحة للواقع.

وهنالك ثلاثة معايير هى بمثابة مبادىء تحكم إقامة التشخص وهى: مبدأ وفرة المعلومات information ومبدأ التكامل integration أو التماسك cohesion ومبدأ الاقتصاد economy.

فمبدأ وفرة المعلومات يعنى أن درجة اليقين أو الاحتمال فى التشخيص إنما تتوقف على ثراء ودقة المعطيات التى تم جمعها.

ومبدأ التكامل يعنى إقامة وحدة كلية واحدة من المعطيات مما يتطلب الكشف عن العامل المشترك. فالمعطيات التى تم جمعها ينبغى أن تأتلف وتنتظم ضمن الشخصية برمتها، فى وحـــدتها التاريخية، وفى علاقاتها الراهنة بالبيئة.

ومبدأ الاقتصاد يعنى أن أكثر التأويلات معقولية هو هذا الذى يتيح تفسير أكبر عدد من الوقائع بأقل عدد من الفروض.

وهناك بعض المبادىء التى تعد بمثابة معايير ثانوية: ومن قبيل ذلك

معيار الخصوبة ومعناه أن التشخيص ليس له من قيمة إلا حين يأتى بجديد يستنطق الوقائع . وهناك معيار الانتظار بمعنى أن التشخيص لا يعدو أن يكون حكماً مؤقتاً ، ومن ثم يظل النفسانى فى حالة انفتاح عقلى تتيح له أن يعدل تشخيصه إذا ما برزت أية وقائع جديدة . وهنالك أيضاً معيار التقاء الوقائع ؛ فالتأويل الذى ترتد إليه كثرة من الوقائع الواردة فى الأحلام مثلا ينبغى أيضاً أن ترتد إليه كثرة من الوقائع المماثلة فى المسالك اليومية للشخص ، وضمن إطار الطرح العلاجى .

القيمة العلمية للمنهج الكلينيكى ومستقبله :

لقد تعرض علم النفس الكلينيكى للكثير من الانتقادات ، ولعل من أهمها ما يلى :

(١) إن النزعة الكلينيكية لا تستهدف العلم ، وإنما هى فن يتجه إلى التطبيق . بيد أن عمل الكلينيكى إنما يكون من الفاعلية بقدر ما يستند إلى أساس عقلى منطقى صحيح على نحو ما أوضحنا .

(٢) والنزعة الكلينيكية بعد ذلك فى رأى البعض هى حدسية فى طابعها . بيد أن هذا إنما يكون فى البداية . فالضرورة تقضى بالعمل ، ومن ثم يقع على الحدس دور الاستكناه prospection . ولكن هذا النقد يستند إلى ما يتوهمه هذا البعض من أن اليقين العلمى ليس له غير أنموذج واحد هو الفيزيائى الرياضى . إن العلم لا يقوم على استقراء معمم لحالات كثيرة ، وإنما يرتكز بالحرى على استقراء مركزى [1] لعدد من الحالات يمسك بنمط العلاقة الأساسية للظاهرة موضوع الدرس . هذا إلى أن المنهج الكلينيكى فى صورته المسلحة يستعين بالمقاييس المقننة .

(٣) والنزعة الكلينيكية تقتصر فى رأى البعض على الحالات الفردية؛

---

(١) راجع الفصل الثالث : المنهج الجاليلى .

ولكن الحالات الفردية فى الحقيقة هى جزء من «عينة» تسمح بالتعميم وباستخدام الوسائل الإحصائية . ومن هنا يضيف البعض أن النزعة الكلينيكية لا تسمح بالتنبؤ . ولكن تحديد التطور المقبل للمرض prognosis هو ضرب من التنبؤ وإن كان لا يبلغ إلا دقة التنبؤ المعروفة فى الفيزياء، وذلك بسبب تعدد العوامل وتشابكها فى انتشاراتها الفردية الفريدة.

إن ما بلغ إليه المنهج التجريبى من إحكام ودقة مرهفة قد حمل علماء النفس التجريبيين على أن ينظروا إليه وكأنه يغنى عن المنهج الكلينيكى . ولكن الأمر من الناحية النظرية ليس بهذه البساطة . فليس هناك مايغنى عن النظرة الكلينيكية الاستطلاعية فى بداية كل مبحث ، والتكاملية فى نهاية كل مبحث . ناهيك عن أن بعض المسالك العيانية ، كالانتحار وغيرة الحب، تعد مغلقة على غير المنهج الكلينيكى . ومن هنا فإن المنهج الكلينيكى يبدو وكأنه يغنى عما عداه . فجميع مشكلات علم النفس الإنسانى يمكن أن يتناولها المنهج الكلينيكى ، وأن نخلص منها إلى نظرية عامة فى السلوك البشرى ، مما يتمثل بوضوح فى نظرية التحليل النفسى. أما الأبحاث التجريبية فأضيق مدى إذ تقتصر على مسالك جزئية أو قطاعات محددة ، ولكنها تتميز بالصرامة والإحكام . فاستخدام هذه الأبحاث التجريبية لا يمكن أن يغنى عما عداه فى مجال علم النفس ، فإن هذه الأبحاث إنما يأتى دورها فى مرحلة متأخرة نسبيا من مراحل البحث . فالمنهج الكلينيكى كما رأينا ينفرد بالاستطلاع وبدراسة المسالك التى يستحيل استحداثها تجريبياً وبإقامة الوحدة الكلية من المعطيات الجزئية .

إن علم النفس التجريبى يزودنا بمبادىء بسيطة ويقينية يسهل البرهنة عليها . ولكن إذا كان «الشخص» فى واقعيته وبرمته ، ضمن موقفه ، هو موضوع علم النفس ، فلا بد للملاحظة من نظرة فسيحة ، عيانية ، شاملة ومتفهمة ، مما يتوفر للملاحظة الكلينيكية .

خلاصة عن مناهج البحث

نرى مما سبق أنه يتحتم على علماء النفس، كيما يحصلوا على معلومات علمية قيمة عن الظواهر السيكولوجية ، أن يضطلعوا بالملاحظة وفقاً لخطة محددة تنصب على مشكلات محددة . وهذه المشكلات إنما تتحدد عادة فى صورة أسئلة يراد الإجابة عليها . فإذا ما كان السؤال منصباً على تجربة شعورية فإن السيكولوجى يمكن أن يلجأ إلى الاستبطان ، بمعنى أن يطلب من الشخص أن يصف تجربته الشعورية . أما إذا كان السؤال منصباً على المسالك الفيزيائية أو العمليات الفسيولوجية ، فإن السيكولوجى يمكن أن يلجأ إلى التجريب المعملى أو استخدام المقاييس المقننة وما يلحق بذلك كله من تطوير إحصائى .

فإذا ما كانت المشكلة تتطلب معلومات عن تاريخ ظاهرة سيكولوجية فإنه يتحتم على السيكولوجى أن يلجأ إلى استخدام منهج الدراسة التطورية أو النشوئية هذا الذى يعد واحداً من دعامات المنهج الكلينيكى . فالمنهج الكلينيكى يضطلع بدراسة الشخص من حيث هو وحدة كلية زمنية (تاريخية) ، ومن حيث هو وحدة كلية حالية فى موقف الفحص (بيئية) ، ومن حيث هو قوى تصطرع ويتمخض صراعها عن محصلة بعينها (دينامية) .

إن الأهداف العلمية والعملية لعلم النفس إنما تتحقق باستخدام مناهج نوعية يمكن تصنيفها فى صنفين رئيسيين ، يتفرع عن كل صنف منهما صورة متطورة :

(ا) فهنالك المنهج الطبيعى وصورته المتطورة هى المنهج التجريبى بوسائله الإحصائية .

(ب) وهناك من ناحية أخرى المنهج الكلينيكى الذى يعد منهج التحليل النفسى صورته المتطورة .

أولا : المنهج التجريبي :

الموضوع : قطاعات محددة من السلوك أى مسالك جزئية مستحدثة .

الهدف : التحديد الدقيق المحكم للشروط الحاكمة للسلوك .

الطريقة : إخضاع جميع العوامل للضبط أى سيطرة المجرب ليتبين ، واحداً بعد الآخر وعلى حدة ، أثر كل عامل من العوامل .

التجريب : هو تغيير عامل واحد فى المرة الواحدة (م م) مع تثبيت العوامل الأخرى (ث) وتسجيل الأثر الناتج عن التغيير (م ت) . والمقياس المقنن يقيس عاملا مستقلا واحداً مع تثبيت بقية العوامل .

والمتغيرات التابعة فى حالة الإنسان هى الاستجابات خارجية كانت أوفسيولوجية أو شعورية أو نتاجات سلوك .

العوامل المحددة للسلوك :

١ — النضج: نوع الكائن أى جنسه ومستوى نموه أى عمره ،ووراثته أى خطه السلالى الخاص .

٢ — التعلم : وهو الآليات والخبرة والمعارف المكتسبة .

٣ — الدافع : الصورة الحالية التى يكون عليها الكائن ساعة التجريب أى الوضع الحالى للنضج والتعلم هنا والآن .

٤ — الموقف : مثيرات البيئة الفعالة بالفعل .

وحيث أن العامل الثالث يلخص الأول والثانى فإن التجريب ينصب على الثالث والرابع وهما العوامل الفسيولوجية والنفسية والمثيرات البيئية .

وسائل ضبط العوامل :

ينصب الضبط على الكائن العضوى والمثيرات الخارجية بالنسبة إلى :

١ — النضج : يتم ضبط الوراثة باستبعادها فى العادة عن طريق التوائم المتحدة ، وعند الحيوان بمقارنة سلالات نقية بأخرى متقاطعة ؛ أما العمر فبمقارنة أعمار مختلفة .

٢ — التعلم : يصعب أو يستحيل ضبطه .

٣ — الدافعية : فعند الحيوان تثير الدافع بالحرمان (من الطعام أو الجنس مثلا) أو الإجهاد أو إعطاء مادة (سامة مثلا) أو بالجراحة. وفى حالة الإنسان يتم ضبط الاتجاهات بخلق اتجاه جديد أو تبين الاتجاهات القائمة.

٤ — الموقف : ضبط ظاهرى للمثيرات .

صعوبة التجريب على الإنسان :

١ — صعوبة ضبط الوراثة والتعلم . ٢ — صعوبة ضبط الاتجاهات. ٣ — احتمال تدخل دوافع لاشعورية أو تصارع الدوافع. ٤ — صعوبة خلق موقف تجريبى يطابق الطبيعى وتكون له نفس الدلالة عند جميع الأفراد .

٥ — صعوبة حصر الاستجابات لتعقدها وتنوعها .

هل من حل ؟ إن علم النفس الكلينيكى يضطلع بدراسة فهمية للسلوك العيانى ، وعلم النفس التجريبى يقدم مبادىء تفسيرية وقوانين محكمة تتسم باليقين ولكنها تقتصر على قطاعات جزئية من السلوك :

(١) الحل غير المباشر : إمكانية تعميم هذه المبادىء والقوانين لتفسير السلوك الكلى العيانى : مثـــلا إمكانية تعميم التشريط لتفسير السلوك البشرى (؟) ولكن :

(ا) الفعل المنعكس الشرطى ليس بالعنصر الأولى البسيط ولا هو بالعنصر الطبيعى ، فهو معقد ومصطنع ، هذا إلى صعوبة إقامة بعض أفعال منعكسة شرطية عند الإنسان .

(ب) الاستجابة الشرطية : لا تفسر السلوك الإبداعى .

(ح) استحالة الاستمرار فى تعاقب الأفعال المنعكسة الشرطية إلى ما بعد الترابط الثالث أو الرابع وذلك بسبب الانطفاء .

(٢) الحل المباشر : هنا لا نلتجىء إلى التعميم وإنما نهتم بإعداد التجربة بحيث تلائم تعقد السلوك العيانى (تجربة ليفين وليبيت وهوايت) .

التطور الإحصائى:

١ — تصنيف النتائج وترتيبها بحيث تكشف عن الاتجاهات الرئيسية والعلاقات القائمة وما هو شائع ونادر . ٢ — تقنين الاختبارات القياسية من قبيل اختبارات الذكاء والقدرات الخاصة ومقاييس الشخصية الخ وذلك بإعداد سلم قياس. فتأويل درجات الاختبار يتم بالرجوع إلى معايير هذا السلم وهى متوسطات يتم تحديدها باستخدام جماعات كبيرة ممثلة .

ثانيا : المنهج الكلينيكى :

الموضوع : هو الدراسة العميقة للحالة الفردية أى الشخصية فى بيئتها أو الجماعة كحالة فردية ، وبصورة أدق المشكلات السلوكية عند الأشخاص: الشخص كحامل مشكلة وبالتالى ككائن عيانى برمته فى اشتباكه بموقف. ماهى المواقف التى تثير القلق والصراع ؟ وما هى الأساليب المميزة فى الدفاع ؟ هل الحلول متكيفة أم توافقية ؟

الهدف : هو تحديد جملة الشروط الحاكمة للسلوك : التجريبي يستبعد جميع الشروط ليتناول شرطا شرطا على حدة، أما الكلينيكى فيقوم ببحث شامل مطوق يعيد به بناء الحالة فيحدد مكان السلوك من جملة الشروط الحاكمة له .

١ — الأهداف العملية : فهم الشخص وإعانته (تشخيص ، رسم التطور المقبل ، استشارة ، توجيه ، علاج ، إعادة تربية أى تأهيل) .

٢ — الأهداف العلمية : (ا) ضرورية للتشخيص الذى هو إمساك بالدلالة الخاصة لعلاقة الشخص بالبيئة .

(ب) المنهج الكلينيكى يعمل استناداً إلى تصنيفات سابقة وإلى أنماط كيفية ، ثم بوسعه أن يعالج بالطريقة الإحصائية النتائج التى يصل إليها. باختصار إمكانية التعميم ابتداء من الاستقراء المركزى وبعد ذلك الاستقراء الإحصائى.

الطريقة :

بحث شامل مطوق قـــد يبلغ إلى الكلينيكية المسلحة القائمة على تعاون المناهج :

١ — ملاحظة لكائن مشتبك فى موقف من حيث هو وحدة كلية حالية ووحدة كلية زمنية وصراع قوى (ثلاث مسلمات) .

٢— إعادة بناء الواقع ابتداء من المعطيات المختلفة إقامة لدلالة السلوك وتحديداً لمكانه من جملة الشروط الحاكمة له .

إن الكلينيكى لايقوم باستقراء عام وإنما باستقراء مركزى فيستخلص من دراسته للحالة الدلالات المحايثة أى العلاقات القائمة بين الجوانب الأساسية فينتهى إلى نمط كيفى أو علاقة مثالية تعد الحالات العيانية تجسيدات متباينة لها ، أو هو يماثل الحالة العيانية بنمط من الأنماط الكيفية المعروفة ، فى وعى منه لكل ماتنطوى عليه الحالة من خصائص فردية . إن الكلينيكى يتميز بتكيفه فى تناول حالة حالة وفى ملاحظته للوحدة الكلية لاستجابات الكائن وتأويله الفهمى للظواهر استناداً إلى نمط كيفى ، بينما التجربى يستند إلى تقنين التناول وتقنين الملاحظة وتفسير النتائج بالرجوع إلى سلم معايير سبق إعداده .

والكلينيكية المسلحة تمثل تعاون المناهج جميعها . ففى حالة التأخر الدراسى مثلا يدخل المنهج التجريبى فى صورة مقاييس مقننة وسلالم قياس

واستخبارات ، ويدخل المنهج الكلينيكي في صورة استبار (مقابلة شخصية)، كما يدخل المنهج الطبيعي عند تكليف الإخصائي الاجتماعي بملاحظة الحالة في فناء المدرسة مثلا إلخ . ومعنى هذا أن المنهج الكلينيكي يمكن أن يستعين بمعطيات الاختبارات ، وذلك لأن الاختبارات يمكن أن تكشف وتحدد مادة متحجبة، ويمكن أن تعمل كمادة شبك ، كما تصلح كاختبارات مواقف. ولكن المعطيات الأساسية في المنهج الكلينيكي هي المعطيات التاريخية ومعطيات الملاحظة الكلينيكية الحالية للشخص في موقف الفحص .

المنهج الكلينيكي وعلم النفس المرضي والتحليل النفسي:

١ — المرض والسوية يتضحان الواحد بالنسبة للآخر ، فهما إجابتان متباينتان لنفس المشكلة · لاحياة بغير صراع ، وكل إنسان هو حامل مشكلة، وتأتي الحلول تكيفية أو توافقية . فعلم النفس الكلينيكي هو امتداد لطريقة علم النفس المرضي امتدادا يشمل الأسوياء والمرضى ، محتضنا جميع قطاعات السلوك .

٢— والتحليل النفسي لايختلف عن علم النفس الكلينيكي إلا من حيث اتخاذه الطرح المحور الأساسي للعمل ، ومن حيث الحيادية التي تميز المحلل عن الجو الودي للكلينيكي (طرح موجب) . وفيما عدا ذلك فالتحليل النفسي هو ملاحظة كلينيكية موزعة بطريقة ثابتة على فترة طويلة .

مشكلات التشخيص :

١ — هدف التشخيص : من الناحية العلمية هو الإمساك بالدلالة الخاصة لكائن في موقف. والتشخيص هو فعل ختامي وليس مجموعة من التشخيصات المتعاقبة الجزئية. وعادة ما تكون الملاحظة من الدقة والعمق بقدر ما تكون عينة السلوك أكثر تمثيلا . أما من الناحية العملية فالتشخيص يزودنا بقاعدة للعمل .

٢— مضمون التشخيص : ليس كما كان فيما مضى إلصاق بطاقة باسم مرض وإنما هو تأويل للسلوك بالرجوع إلى أنماط كيفية مع مراعاته فى دقة للخصائص الفريدة للحالة ، مما ينتهى إلى تحديد الدلالة الخاصة بكائن فى موقف ، فى لحظه من لحظات وجوده،من حيث هو دينامية بسبيل التطور، وكيان فى صيرورة متصلة .

٣— بنية التشخيص : عمليتان : مماثلة وملاءمة . تشير الأولى للجاهز الآلى والثانية للذكاء .

٤ — فنيات التشخيص : بالإضافة إلى ضرورة معرفة الشخص بالنظريات لابد من معرفته بالفنيات أى الوسائل التى تزوده بمختلف المعطيات :

ا — تاريخية : شهادة الشخص ورفاقه والوثائق الخ .

ب — حالية أى ملاحظة مباشرة أثناء المقابلة وملاحظة التصرفات مع الأقوال ، تبين ما لا يقوله الشخص ، وما لا يريد أن يقوله وما يتردد فى قوله . . الخ .

حـ — معطيات قياسية واختبارية (كلينيكية مسلحة) .

د — معطيات ثانوية مساعدة مثل كتابة اليد والدراسة النفسية لشكل الجسم . لب المنهج الكلينيكى هو تاريخ الحياة والملاحظة المباشرة .

٥ — منطق التشخيص : ليس التشخيص هو رص أو جمع معطيات الواقع دون وحدة كلية . فلابد من تأويلها أى إعادة بنائها بناءً جديداً . فهدف التشخيص الإمساك بدلالة السلوك فى علاقاته بالبيئة . وعمل الفكر ذهاب ومجىء بين المعطيات والتأويل .

٦ — مراحل التشخيص : ثلاث مراحل : تحديد المشكلة فى سؤال محدد أى صياغة فروض العمل حتى يمكن تحديد خطة العمل . نحصل على معطيات نستخلص منها فى نهاية كل مسيرة دلالتها، ثم معطيات أخرى تعدل

أو تعمق فى الدلالة ، وهكذا ذهاب ومجىء متصل ما بين التأويل والوقائع فى حركة لا ينبغى أن تتوقف من حيث المبدأ وإنما تتوقف لأهداف عملية. فى المرحلة الأولى تنتهى إلى برنامج العمل ،وفى الثانية نضطلع بدراسة الحالة متجهين فى كل مسيرة تبعاً لما انتهينا إليه عبر معطيات المسيرة السابقة وهكذا، أما المرحلة الثالثة فإقامة التشخيص فى مراعاة للمعايير .

٧ — معايير التشخيص : المعايير الأساسية هى التزود بالمعلومات والتكامل والاقتصاد .أما مبدأ المعلومات فمعناه أن درجة اليقين ترتبط بثراء ودقة المعلومات.ومبدأ التكامل معناه الكشف عن عامل مشترك فى الكثرة المتباينة ، فجميع المعطيات ينبغى أن تفهم بالرجوع إلى الشخصية برمتها فى وحدتها التاريخية وعلاقاتها الحالية بالبيئة . ومبدأ الاقتصاد معناه أن أكثر التأويلات معقولية هو الذى يتيح تأويل أكبر عدد من الوقائع بأقل عدد من الفروض · أما المعايير الثانوية فهى الخصوبة (بمعنى أن يكشف التشخيص عن شىء جديد) والتنبؤ وتقاطع الوقائع والتواتر الخ .

القيمة العلمية للمنهج الكلينيكى ومستقبله : يعاب على النزعة الكلينيكية:

١ — ليست نظرية خالصة، فالاهتمامات العملية غالبة. ولكن عمل الكلينيكى مستحيل بغير نظرية ،هذا إلى أن النظرية لا تسبق العمل إلا فى المنطق، أما فى الواقع فالنظرية تنقية لمعارف عملية .

٢ — ليست صارمة محكمة ، فهى تستند إلى الحدس. ولكن ليس لليقين صورة واحدة هى الفيزيائية الرياضية ولا ينبغى أن نستعير المنهج ونبحث له عن موضوع يناسبه وإنما نبحث للسلوك البشرى العيانى عن منهج يلائمه · فاليقينية ليست موضوعية تستبعد الذاتية وإنما تنبنى عبر هذه الذاتية ، وذلك بإعادة بناء معطيات الملاحظة والقياس بناء عقليا يتخذ صورة الحدس أو الاستبصار عند المفكر أو الباحث . هذا إلى أنه ليس هناك ما يمنع الكلينيكية من أن تكون فى ملاحظاتها مسلحة بالقياس والدقة الرقيقة .

٣ — ليست عامة : فهى تقتصر على حالات فردية . ولكن هذه الحالات جزء من عينة وبالتالى يمكن التعميم ابتداء من الاستقراء المركزى لعدد قليل من الحالات . وإذا كانت التجريبية تستند إلى الحيوان (علم النفس المقارن) فى التعميم ، فالكلينيكية تستطيع مقارنة الأسوياء والمرضى والراشدين والأطفال والمتحضرين والبدائيين الخ .

هذا وينفرد المنهج الكلينيكى بما يأتى :

١ — بالاستطلاع . ٢ — إقامة الوحدة الكلية للنتائج الجزئية . ٣ — دراسة مسالك لا يمكن استحداثها كغيرة الحب ، ناهيك عن استخدام الكلينيكى للمقاييس والاختبارات الكلينيكية . صحيح أن التجريب يعطى نتائج محكمة فى مجالات ضيقة محدودة كما يقدم مبادىء تفسيريه بسيطة يسهل البرهنة عليها ، ولكن تعميمها على السلوك العيانى يفشل كما فى محاولة تعميم الفعل المنعكس الشرطى وبالنظر إلى ظاهرة العصاب التجريبى . ولكن النزعة التجريبية على أية حال تفيد فى إيضاح وتوطيد المفاهيم الكلينيكية . فمفاهيم التعميم والتمييز فى تجارب التشريط تلقى الضوء على فهم الجنسية المحارمية وعلاجها ، وكذلك التطبيع عند الحيوان يسند فهم التربية عند الإنسان ، وكذلك منحنى الاقتراب والابتعاد عند الحيوان يؤكد فهم التحليل النفسى للصراع . وعليه فالتجريبية تمثل مرحلة تالية متقدمة من البحث ولكنها تقتصر على قطاعات محدودة من السلوك .

المنهجان ، ماانتهيا إليه وما كانا عليه :

بدأت القصة فى علم النفس بنزعة تجريبية قياسية فى مواجهة نزعة كلينيكية أرائكية ؛ وكانت الواحدة طوطم والأخرى تابو . وسينتهى الأمر بالتجريبى إلى أن يضع أريكة فى معمله وبالكلينيكى إلى أن يتسلح بالتجريب .

١ — من حيث الموضوع : تحقق التقاء المنهجين وتعاونهما ، فلم يعد

السلوك مجرد مسالك فيزيائية تستند إلى دعامات فسيولوجية بالمعنى الواطسونى، وإنما أصبح أيضاً هذه التجارب الحية الشعورية وما وراءها من دوافع لاشعورية .

ب — ومن حيث الهدف: تحقق التقاء المنهجين فكلاهما يسعى لنفس الهدف وهو تحديد الشروط الحاكمة للسلوك ولكن بوسيلتين مختلفتين . وإذا كان التفسير العلمى غير قاصر على علوم الطبيعة فكذلك التأويل الفهمى غير قاصر على علوم الإنسان . فنى علم النفس قوانين من هذا وذاك .

حـ — ومن حيث النتائج: فقد تحقق التقاء المهجين فى مبادىء التفسير . فمبدأ الهوميوستازس هو كمبدأ الثبات ، والمثوبة والعقوبة فى قانون الأثر كمبدأ اللذة والواقع فى التحليل النفسى، والتعزيز والعادة فى التجريب كالتثبت فى التحليل النفسى، وانتقال التعلم يذكرنا بالطرح فى العلاج التحليلى .

وإذا كان المنهج الكلينيكى يمثل امتداد النزعة الإنسانية فى علوم النفس وكان المنهج التجريبى يمثل امتداد النزعة الطبيعية فى هذه العلوم فإن النزعة الكلينيكية الإنسانية قد أطاحت بشكل حاسم بما كان يجرى عليه المنهج التجريبى من نظرة ذراتية ميكانيكية للسلوك . لم تعد الظاهرة من حيث هى كل شيئاً لاحقاً على الأجزاء وكأنها حاصل جمع لهذه الأجزاء . وإنما غدت الظاهرة الحية وحدة كلية عضوية وكلا ديناميا هو نتاج التفاعل بين أجزائه من حيث هى أجزاء حقيقية تضطلع بأدوار معينة ضمن الكل . ولم يعد السلوك مجرد تتابع آلى لسلسلة من الحركات على نحو ما يحدث فى الآلات الميكانيكية ، بل غدت الوظيفية هى الزاوية الحقيقية للرؤية . فكل سلوك حتى السلوك

المختل ينطوى على دلالة ووظيفة بعينها ، وبذلك يغدو التكيف المشكلة المحورية فى علم النفس كله .

وباختصار فإذا كانت النزعتان قد التقيتا من حيث الموضوع والهدف والنتائج فقد انتصرت النزعة الكلينيكية الإنسانية بمفهومها عن الوحدة الكلية الدينامية وبمفهومها عن الوظيفية . وبذلك أصبح الانتظام البنيوى وأصبحت الوظيفية تراثاً عاماً فى جميع الدراسات النفسية .

الفصل الثالث

النهج الجاليلى فى التناول العلمى للوقائع

الصعوبة الأساسية

ليس هنالك من ملاحظة مطلقة . فكل ملاحظة موضوعية إنما تنبنى عبر الذاتية . فنى علم نفس الأطفال كما فى علم النفس المرضى ، وعلم نفس البدائيين ، وعلم نفس المرأة يكون الموضوع الذى نريد أن ندرسه فى موقف جد مختلف عن موقف القائم بالملاحظة ، ومن هنا يصعب على الأخير أن يمسك بالأول « كما هو » وفى موضوعيته المطلقة إن جاز القول . فعندما نقوم بملاحظة « آخر » فإنه يصعب علينا أن نستبعد هذا الجانب من سلوكه الذى يرجع إلى وجودنا فى الموقف سنجد أنفسنا بصدد علاقة ما بين « الأنا » و « الآخر » . فنحن لا نبلغ إلى « الآخر » ، ولكن إلى « علاقته بنا » . ففى مرض الأفازيا مثلا حيث تضطرب أو تنعدم القدرة على صياغة بنية الجملة أو على النطق بكلماتها أو تذكر معانيها أو فهمها ، كان تمييز هذا المرض فى البداية وتخصيصه يتم عن طريق تحديد « تغيب » جانب من جوانب السلوك ، أى تغيب جزء من مضمون السلوك ، أو قل بعض الصور اللفظية . ولكن الحقيقة هى أن هذا المرض ينطوى على « تغير » فى البنية الباطنية ، فالظاهرة التى تحدث هى أكثر عمقا وأكثر مركزية من مجرد تغيب جانب من المضمون . فثمة سقطة للسلوك من مستوى البنية الثرية إلى مستوى أبسط أقرب إلى الأولية والفجاجة ولكن هذه الحقيقة لم يتبينها العلم فى البداية ، لأنه كان يوجه إلى المريض نفس الأسئلة التى توجه عادة إلى الكائن السوى ، ومن هنا فلم يكن من الممكن تحديد المرض إلا عن طريق استبعاد ما هو غير موجود من المضمون ، ما هو متغيب : « هذا ناقص ومن ثم فهذا يخصص المرض » ، ولم يكن من الممكن بالتالى

فهم المرض . فبالإضافة إلى هذا الطابع الإضافى الميكانيكى لهذا التصور ، فقد كانت السوية هى الإطار المرجعى. تماماً كما نحاول فهم الأعمى بالرجوع إلى المبصر وننتقص منه البصر . ولكن الأعمى ليس بمبصر ينقصه البصر وإنما هو كيان نوعى من حيث هو أعمى ، ووحدة وظيفية تواجه العالم بإمكانياتها الخاصة .

وفى حالة زنوج أمريكا : نجد أنفسنا أمام معطيات تترجم عن « علاقة » الزنجى بالأبيض. فالأمريكى الأبيض لن يمسك بالزنجى إلا فى « علاقته به » ومن ثم فلن يبلغ إلى فهمه . وسواء نظر الأبيض إلى الزنجى ضمن إطار من التحقير أو الترفيع ففى الحالين لا يتوفر شعور المساواة ذلك الشعور الذى لابد منه لحصول التطابق والفهم[١]. وبغير ذلك فإن الحكم تعوزه الطبيعية ويتسم بالاصطناع . فعندما لا يتوفر شعور المساواة مابين القائم بالملاحظة والشخص موضوع الملاحظة فإن السيكولوجية التى نحصل عليها تتعرض لخطر أن تكون انعكاسا وتعبيرا عن القائم بالملاحظة أكثر مما هى تعبير عن الشخص موضوع الملاحظة .

وفى سيكولوجية المرأة : فغالباً ما نحدد لها طبيعة لا تعدو فى الحقيقة أن تكون مجرد صورة مكملة لما نعتقد أنه « طبيعة » الرجل ، أو قل طبيعة الذكر كما تحددها حضارتنا . يتضح ذلك بالنظر إلى التحقير (المرأة كاذبة ! المرأة خادعة وشيطان !) ؛ أو بالنظر إلى عملية الترفيع (المرأة مرهفة وشاعرية وملاك !) . أما المرأة فغالبا ما نجد أنها « لا تستحق لا هذا الإسراف فى التمجيد ولا هذا الإسراف فى التحقير »(٢).

---

(١) انظر كلينبرج فى كتاباته فى علم النفس الاجتماعى ، حيث يلح بالأهمية على الاتصال بين أفراد الطبقات المتماثلة فى الدول المختلفة لتحقيق سلام عالمى ، وحيث يؤكد أهمية قيام الباحث الاجتماعى بأبحاثه فى بيئة كبيئته حتى يتمكن من الفهم .

(٢) انظر كتاب « الحياة الجنسية للمرأة » ، ترجمة المؤلفين ، دار الفكر العربى ، مقدمة الترجمة.

وفى علم نفس الأطفال : يكون الاختلاف مابين القائم بالملاحظة وموضوع الملاحظة أكثر عظما . وإن الطفل ليستجيب إزاء اتجاهاتنا على نحو من السرعة إلى حد أننا لا نتنبه إلى التغير الذى يحدثه وجودنا «كراشدين» فى استجاباته وردود أفعاله .

نحن نصف عادة ، لا طبيعة الطفل وإنما علاقة هذا الطفل بكائن لم يعد بعد طفلا . وهذه العلاقة تعبر عن الطريقة التى « يتصور » مجتمعنا عليها « الطفولة » ؛ فهناك النظرة التقليدية وهناك النظرة الحديثة .

هنالك الطفل من حيث النظر إليه كشىء غير أساسى — وتلك هى النظرة القديمة والتصور العتيق للتربية التسلطية — هذا الطفل يعتبر صورة ساذجة أولية للراشد . وهناك الطفل من حيث النظر إليه كشىء أساسى ، ومركز للأسرة ؛ يتضح ذلك من حالة الأم التى تنظر إلى طفولتها على أنها كانت فترة شقاء ، ومن ثم تجعل من نفسها « ممرضة » له ، فيتخذ الطفل السلوك المكمل لسلوكها : فيتوهم أنه شىء هام ، ولكنه يتوهم أيضاً أنه أهل للرعاية الفائقة ، ويتوهم أنه معرض لكثرة من المخاطر . إن العبارات الشهيرة من قبيل «ألا تحب أن تأكل كذا؟ » أو « هل تفضل كذا؟ » أو « هل تعمل كذا؟ » ، تتيح له الحرية ؛ ولكن اضطراره باستمرار إلى أن يتخذ قرارات — الأمر الذى يتخطى حدود قدرته كطفل — يضعه فى حالة من الدوار . تلك هى المدرسة الحديثة . وفى إحدى الحالات التى غير فيها مثل هذا الطفل مدرسته تساءل : « هل سنكون مضطرين إلى أن نفعل ما نريد ؟ » . إن موقف الطفل فى هذه الحالة الأخيرة ليس بأسعد من موقفه فى الحالة التسلطية : فإن الطفل لم يكتسب بعد فى علاقته مع الراشد الاستقرار الذى يتيح له الاستقلالية . هذا إلى أنه ينبغى أن نسائل أنفسنا عن الأسباب التى تدفعنا إلى اتخاذ هذا الاتجاه أو ذاك من الطفل ، حتى ولو كان الاتجاه منطوياً على الحفاوة .

فاتجاهاتنا من الطفل لا ينبغي أن تكون صادرة عن تجاربنا الصدمية ، بمعنى ألا تكون ضدية فى طابعها . فالطفل لا ينبغي أن يعانى صدى الهزات التى عشناها ، فهو ليس مادة عزاء لما عانيناه من شقاء . ولكنه كائن ينبغى أن يعيش لحسابه ويعامل لحسابه . وقد يكون من المفيد أن يتنبه المربون إلى خطر التربية المستندة إلى « الانفعالية المتوجعة » مما يحدث أحيانا ، فيكون الطفل بذلك فى موقف غير سوى . وإذا كنا فى العادة ، وبالنسبة إلى الراشدين ، قلما نصف الموقف ذاته بعدم السوية ، إذ تتوقف دلالته على الشخص ، فإن الأمر يختلف بالنسبة إلى الأطفال ، وهم الذين لم يبلغوا حد النضج ، ومن ثم يعانون خصائص الموقف ويؤثر فى تشكيلهم . ومن هنا ، فالمربى ينبغى أن يكون مربياً بدافع من حبه للحياة ، أى بدافع من تذوقه لها ، لا بدافع من الحقد عليها .

ما ينبغي تجنبه فى العلم

١ — ينبغى تجنب الأحكام القبلية الشعورية المضللة

ثمة مشكلة ماثلة فى كل سيكولوجية من السيكولوجيات ؛ فهناك دائما خطر التعرض للزيادة من القيمة (الترفيع) أو الحط من قيمة الموضوع (التحقير) : فلأن يعيش الشخص « العلاقة » مع الغير على قدم من المساواة فذلك هو النادر حقا فى تجاربنا الحية . فالغير غالبا ما يبدو لنا « أقوى » أو « أضعف » :

١ — يبدو لنا « أقوى » لأننا لا نشهد لحظات تردده ، والجوانب الخفية لضعفه . فالكتاب الذى قد نقرأه فى ثلاث ساعات ربما يقضى المؤلف فى تأليفه عشر سنوات . ومن هنا نفترض للمؤلف ثراء فى القريحة لا يمكن أن يتاح لغيره .... ومن هنا تكون خيبة أملنا حين نتصل به ونتعرف عليه .

ويصدق ذلك أيضاً على العلاقة بين أفراد الجنسين . فبقدر مايتوهم الواحد للآخر من ميزات وقدرات خارقة يهيء لنفسه وبنفسه خيبة أمله المقبلة .

ب — يبدو لنا « أضعف » ، وذلك لأننا لانمسك قط باللب والنبع عنده ، فهو لايتغير بل يبدو لنا دائماً كما عرفناه ؛ إنه رتيب . فالغير يبدو لنا متجمداً ، لأننا لانشهد حريته . ومن هنا نميل إلى أن نتوهم أن الغير قد انتهى ، لقد جمد على ماهو عليه ، أما نحن فلا(١).

إن الشعور الذى لنا عن الأشخاص الآخرين ، وعن كل ما يحدث ، هو بطبيعته خداع . فماركس وفرويد : Marx & Freud يريانا أنه من الأمور الأساسية للشعور أن يخطىء . فبحسب ماركس يعد من الطبيعى أن يجهل شعورنا العلاقات الاجتماعية والاقتصادية (البنية التحتية)(٢) التى تكون تطور العالم . فمن الطبيعى أن نتصور الإنسان على غرار صورة الإنسان من طبقتنا . ومعنى هذا أن شعورنا ينظر إلى السمات التى ترجع فى الواقع إلى التاريخ بحسبانها سمات للطبيعة الإنسانية .

أما بالنسبة إلى فرويد فالدلالة الحقيقية لمسالك الشخص تكون خفية (لا شعورية) . فالأمور ليست أبداً على النحو الذى تبدو عليه فى شعور صاحبها . ولنأخذ الغيرة على سبيل المثال فنحن عادة ما ننظر إلى الرجل على أنه يغار من منافسه بدافع من حبه لزوجته . أما بالنسبة إلى فرويد فى بعض الحالات فهنالك أحيانا تعلق بالمنافس وحب له ، هذا فى الأعماق ، بينما يبدو الأمر فى مسرح الشعور وكأنه غيرة من المنافس لا عليه . ومثل آخر هو

---

(١) ارجع إلى وظائف الأحكام القبلية من حيث أنها بطاقة عضوية فى الجماعة ، ووسيلة لتحقيق الوحدة الداخلية فى وجه الجماعة الخارجية . أنظر أيضا اسقاط المساوىء على الغير، على الجماعات الأخرى ، فجماعتى تعيد إلى « صورتى التى أريدها لنفسى » بينما الجماعة الخارجية تقدم لى « صورتى التى أكرهها من نفسى » . (أنظر جييوم فى كتابه علم نفس الجشطلت، ترجمة المؤلفين سجل العرب) .

(٢) انظر « فى الاشتراكية العربية » للمؤلفين ، الدار القومية .

مشاعر الحزن فى حالات الوفاة . فالمسالك التقليدية تخفى فى العادة وراءها عدوانية متفجرة ضد الفقيد ، إلى آخر هذه الظواهر التى تدخل ضمن ميكانيزمات الدفاع أو الحيل اللاشعورية .

ولكن لماذا يسلم ماركس وفرويد بأن الدلالة الحقيقية لمسالكنا تغيب عنا ؟ إن البورجوازى فى نظر ماركس ، إنما يرى الأشياء من خلال بلورة نفسيته الطبقية البورجوازية ،لأنه ينتمى إلى هذه الطبقة التاريخية . ولكن لماذا تبدو الجنسية المثلية على أنها جنسية غيرية فى مثال الغيرة الذى أوردناه عن فرويد ؟ ولماذا يتحتم على البحث العلمى أن يقلب الظاهرى ؟ ذلك لأننا لا نعرف أنفسنا بطريقة مباشرة ، بالنظر المباشر إلى أنفسنا ، وإنما الكثير مما نحن عليه نراه فى الآخرين عن طريق الإسقاط ، أى نراه مسقطا على الآخرين .

كيما نعرف أنفسنا حقا فلا بد لنا من شىء من التراجع ، التراجع لمسافة بعينها إلى « نقطة الرؤية » التى تسمح لنا بأن نمسك بالمشهد بكل جنباته . ولكن هذا الأمر لا نستطيع أن نضطلع به بإزاء أنفسنا . ولا يرجع هذا بالضرورة إلى لاشعور يحيك الألاعيب. فظاهرة التلاعب أو المخاتلة ترجع أيضاً إلى أن الشعور هو دائما شعور « بصيغة » تبرز بالقياس إلى « القاع». ولكن الشعور هنا فى هذه الحالة شعور فريد،شعور بالصيغة،فى إغفال للقاع الذى ليس للصيغة من دلالة حقيقية إلا بالرجوع إليه (١) . هذا القاع نحن نعرفه على أية حال بحسبانه شيئا عشناه . نحن بالنسبة إلى أنفسنا « قيعاننا » الخاصة ؛ كل شخص بالنسبة إلى نفسه هو قاعه الخاص فهو يرضى عن نفسه فى ضوء قيم نفسه . ولكن كيما تتقدم « المعرفة » ، وكيما تكون هنالك معرفة علمية عن أنفسنا وعن الآخر ، فلابد وأن يتحول ما كان هو «القاع»

---

(١) راجع جيوم ، المرجع السابق .

ليصبح هو الصيغة ، فلابد وأن نتبين هـــذا القاع مدخلينه إلى مستوى الشعور عن طريق « التراجع » . عندئذ أستطيع أن أدرك نفسى ضمن قاعى الحقيقى، وأستطيع أن أسد على الإسقاط طريقه، فلا أرى الآخر من خلال قاعى اللاشعورى، بل أرى هذا الآخر ضمن انتثاره البيئى الخاص . وعليه ينبغى أن نتوقف عن النظر إلى ماينتج عنا بحسبانه قدرا محتوما . وإن مورينو Moreno ليضع نصب عينيه نفس هذا المنظور فى نظرته إلى السيكودراما. فالأفراد يختتمون الشعور بصراعاتهم عندما يلعبون فوق المسرح أدوارهم الحيوية ، وكأنهم بذلك يتراجعون إلى ماوراء أنفسهم . وكثيرا ما لايوجد الرفقاء الحقيقيون . وإنما يضطلع المساعدون بأدوارهم . فاتجاهات الفرد تكون من البروز بحيث تفرض على هذه الذوات المساعدة أن تتخذ بصورة آلية الاتجاهات « المحتومة » التى تمليها اتجاهات الشخص . فعندما يجد الأفرد أنفسهم فى صراع فإنهم لايدركون دلالة مسالكهم ، ومن ثم لايكاد يجتمع الزوج والزوجة حتى تظهر بالضرورة بعض الاتجاهات اللاشعورية . إن الفرد لم يعد يدرك دوافع مايفعله ، ولكنه يرى على الآخر ويقرأ فيه السلوك الذى يتحتم عليه هو أن يلعبه . وفى طريقة مورينو هذه نجد أن الفرد إذ « يلعب » فى موقف غير حقيقى إنما تعينه التفسيرات العلاجية على أن يدرك اتجاهه[1].

إن مايريده مورينو هو أن يتجنب أمراً ألا وهو أن تبدو لنا مسالكنا بحسبانها محتومة ، بينما هى فى الواقع تصدر عنا ونستطيع تغييرها . وينبغى أن نتوقف عن أن نرى أنفسنا كانعكاس للآخر أو عن النظر إلى أنفسنا كإطار مرجعى ينبغى أن نرى أنفسنا كما يرانا الغير .

(١) قارن ذلك بحالة الحلم فى التجوال النائم حيث يترجم الشخص وهو « يلعب » هذا الحلم عن كثرة من العناصر المنسية اللاشعورية .

وعليه ففيما يتصل بالعلاقة مابين الأنا والآخر : يتحتم أن ننظر إلى الآخر لا من زاويتنا الخاصة وإنما من زاوية مختلفة عن زاويتنا . ينبغي أن نضطلع بشيء من التراجع بالقياس إلى دورنا العادي ، « ينبغي أن نوقظ تلقائيتنا الخاصة » (مورينو).

٢ — ينبغي تجنب القول بطبيعة ثابتة مغلقة على نفسها

لاينبغي تجميد الطفولة في صورة نمط قالب ، في صورة « عقلية طفلية مغلقة على نفسها، وكأنها بمثابة عالم قائم برأسه ،ومقطوع عن عالم الكبار . فإذا كان من المفيد أن نعترف بعقلية طفلية لها أصالتها ، على نحو ماجرى منذ نصف قرن ، فإنه لاينبغي مع ذلك تجميد هذه العقلية في صورة « بنية عقلية » مغلقة ، تستحيل إلى شيء كثيف غير قابل للنفاذ ، يستغلق علينا كراشدين .

ولكن هل من الأفضل أن ينسحب الراشد من عملية التربية ؟ الإجابة بالنفي . فالتربية التي تترك الطفل إلى نفسه لاتفضل التربية التسلطية. فالطفل لايستطيع أن يكتسب فنيات الحياة حين يترك إلى نفسه ، لا ولا حين يخضع لمربين متسلطين . ففي الأنظمة المدرسية ، حيث يترك الأطفال لشأنهم تهيمن بعض مظاهر التخلف مما يخلق الكثير من المضايقات .

ومن هنا يحق لنا أن نتساءل ما إن كان وجود الراشد ، بل وقيام بعض الصراعات معه لا ينطوي على قيمة تشكيلية للطفل . تكشف الملاحظة في التعليم الثانوي أن الطريقة السقراطية لم تتمخض عن نتيجة تذكر ، ونعني بها الطريقة التي ينطلق فيها التلاميذ من أفكارهم حتى يجدوا بأنفسهم كل شيء . فالتقدم جد بطيء ، ذلك أن التلاميذ إنما يتعلمون بتقليدهم لطرائق المدرس في التفكير والكلام . ومعنى هذا أنهم لا يدخلون إلى التراث الثقافي

عن طريق الذكاء فحسب وانما أيضا بوسائل شبه مسرحية ، بتقليدهم للراشد وتطابقهم معه .

وهكذ فإننا إذا ماأردنا أن نفهم الطفل فينبغى أن ننظر إليه ضمن الكل الاجتماعى البيئى وضمن الكل الاجتماعى التاريخى الذى يوجد فيه .

وهل نفسية البدائى مختلفة اختلافا جوهريا عن نفسيتنا . لقد رجع ليفى بريل Levy Brühl عن هذا التصور . إذ كيف كان للبدائى أن يتعلم فنياتنا وأن يتعلم منا لوكانت نفسيته منتظمة وفق مبادىء أخرى مختلفة ، ولهامسالك وظيفية مباينة ؟ أفلا نكون نحن أيضا فى بعض الأحيان « قبل منطقيين » ؟

فنى إحدى المستعمرات قدم رجل أبيض شيئا لأحد الصبية من السكان الأصليين . فبدلا من أن يشعر الصبي بالامتنان فقد شعر بأن على هذاالرجل أن يقدم إليه أشياء أخرى . فى هذا المثل ، الذى يرى فيه بعض الباحثين دليلا على اختلاف العقلية : ليس الأمر فى الواقع كذلك ، فهناك هوة اجتماعية مابين ظروف الأبيض وبؤس الصبي خلقت علاقة من التبعية ، مما قد نجده أحيانا فى المجتمع المتحضر ما بين المدرس والتلميذ الصغير حين يقدم إليه المدرس مايدل على عناية خاصة به .

وعندما يصل الرجل الأبيض إلى مستعمرة للبدائيين فإنه لاينتبه فى بداية الأمر إلا إلى ماهو جذاب . ولكن عندما يعيش فى المستعمرة يتلاشى ماهو جميل ، فلا يرى إلا مشكلات بشرية ، جد قريبة من مشكلات أهل الريف فى المجتمعات المتحضرة .

وهل الشعور المريض مغلق على نفسه ؟ يرى البعض أن ليس هنالك من اختلاف فى الطبيعة والنوع مابين السوية والمرض : فهو اختلاف فى الشدة والدرجة . كل ماهنالك أن قوانين السلوك هى أكثر بروزاً فى حالة ، وأكثر تغليظا فى الحالة الأخرى . ولكن نفرا آخر من أمثال شارل بلوندل يذهب

إلى الطرف الآخر : فالشعور المريض فى رأيهم يتميز بالكثافة وعـــدم الشفافية . والمؤكد هو أن المسالك المرضية وإن كانت مختلفة عن مسالكنا إلا أنها متاحة لفهمنا . فنحن لانستطيع أن نطابق ما بين المسالك السوية والمسالك المرضية . فهذه وتلك أنماط متباينةمن الاستجابة لنفس مشكلات الحياة ؛ فوساوس الحصار مثلا توجد فى صورة جنينية عند الأسوياء ، والانحرافات الجنسية الشاذة توجدلدينا جميعاً ولكن بدرجات طفيفةوضمن الانتظام الكلى للجنسية الراشدة .

ومن هنا يقول مالينوفسكى : « إننى سأعيش فى التجربة مع المريض ، وألاحظ صدى سلوكه فى نفسى ، وسأتبين اللحظة التى أشعر به فيها ، وهو ينزلق إلى عالمه المرضى ، أستمع إليه ، وأكتب مايقوله ، وما يستشعره . وسأحصل من ذلك على صورة لعلاقته هو (المريض) بـ(السوى) . » فليس بوسعنا إلا أن نرسم العلاقة مابين الشخص المريض والشخص السوى .

وهل الأنوثة طبيعة مغلقة على ذاتها ؟ إن الصورة التى نرسمها للمرأة تنطوى على تصور مقابل للرجل. ففى بعض المجتمعات تكون المرأة أقوى من الرجل . فالمرأة « القارورة » هى نتاج ثقافى ، وليست بطبيعة ثابتة . فإذا لم يكن هنالك محل لإنكار الاختلاف السيكولوجى مابين الرجل والمرأة ، مما يستند إلى الاختلاف البيولوجى ، فإن الطريقة الوحيدة لنتبين هذا الاختلاف وتقصى مداه إنما تكون بالتخلص من تصورنا الخاص لطبيعة أنثوية وطبيعة رجلية .

هذا إلى ثبت من الظواهر تتجسد فى تصورات سيكولوجية رئيسية تدحض كلها القول بعقلية مغلقة على نفسها ، أو بطبيعة ثابتة :

ظاهرة تكثر الاشكال فى الطفولة Ploymorphism

ينبغى أن نتصور الطفل لا « كآخر » بالمعنى المطلق ، لا ولا « مثلنا » تماماً ، بل كإمكانية مفتوحة و « كمتعدد الأشكال » . يقول فرويد إن الطفل منحرف « متعدد الأشكال » pol ymophouspervert ، فهو ينفتح لجميع أشكال الانحراف ويعيشها فى طفولته .

ولكن ليفى شتراوس L. Strauss يقترح تعميم هذا التصور بحيث يسلم بأن الطفل متعدد الأشكال من الناحية الثقافية : فليست هنالك عقلية طفلية بذاتها تشكل طبيعة مغلقة وقائمة برأسها ، وإنما هناك « تعدد أشكال طفلى » . فالطفل بالنظر إلى أنه لم يتكامل بعد ضمن ثقافة بعينها ، يظل إمكانية مفتوحة يقدم من المسالك مايذكرنا ببعض المسالك « المرضية » أو « البدائية » . إن الطفل لم ينخرط بعد فى عملية الصياغة الثقافية ؛ فلم يتطبع بالثقافة التى ستصبح ثقافته؛ فحياته تتحدد تدريجيا فى علاقته بأشخاص وأنظمة اجتماعية. فزجاجة الرضاعة وأسلوب الإرضاع مثـــلا هما بالفعل علاقة بشخص وثقافة .

ظاهرة النضج المبكر Prematuration

ومن الممكن أن تعمل الظروف على أن يعيش الطفـل صراعات وأحداثا « تستبق » إن جاز القول إمكانياته الفيزيائية أو العقلية . فنى سن الخامسة يعيش الأطفال مواقف ورغبات شبيهة بالحياة الغرامية للكبار ، مع أن إمكانياتهم الفسيولوجية لاتهيؤهم بعد لذلك . ومن هنا تتضح ماهنالك من علاقة بين مفهوم النضج السابق لأوانه ومفهوم تكثر الأشكال فى الطفولة .

ظاهرة التطابق المزدوج :

إن العلاقة ما بين الطفل والراشد علاقة فريدة من التطابق . فالطفل يرى نفسه فى الآخرين ، كما أن الآخرين يرون أنفسهم فيه . فالطفل يرى فى والديه مصيره : إنه سيصبح مثلهما . فهو يعانى من هذا التوتر الخاص مابين نفسه التى لم تقتدر بعد على أن تعيش وفقاً للأنموذج Model ، وذاته التى تتطلع متمسكة بالأنموذج . ويتحدث التحليل النفسى عن : التطابق مع الوالد من نفس الجنس ، أو التطابق المتقاطع مع الوالد من الجنس الآخر ، أو التطابق غير المباشر وهو أن يتطابق الطفل مع ما يريده له الوالدان .

وفى مجال المرأة أبان ستاندال Stendhal أن قسمات الطبيعة الأنثوية إنما هى نتاج التاريخ ، وطرائق التربية التى تعانيها المرأة . وهو ينقد المدعين الذين يزعمون أن النساء أرهف نفسية وأن الرجال أصلب عوداً . وكيما نفهم المرأة بصورة مليئة ، فينبغى أن نضع موضع الاعتبار كل ماتهيئه الطبيعة من حولها لتصوغها . فلو اختلفت هذه الظروف ، فمن الممكن أن نتبين قيام قدرات جد مختلفة فى المرأة . ويلاحظ ستاندال أن مشاغل المرأة بآلياتها الدقيقة تقيدها ولكنها تتيح لها حرية الشرود والأحلام . وهكذا فإن خيال المرآة يعد نتيجة لنوع الحياة التى تحياها . وإذا كانت النساء أقل ذكاء فما ذلك إلا لأن الثقافة البشرية لم تتطلب منهن ذكاء . لقد قيل « إن كل المواهب التى تولد مؤنثة تضيع على الإنسانية » . وليس من شك فى أهمية البنية البدنية والوظيفة الإنجابية . ولكن ذلك يقصر عن أن يكون دعامة كافية للقول « بطبيعة أنثوية » . فالتربية لها أثرها المحزن : ففى سن العاشرة تكون البنت أكثر حيوية من الصبى . أما فى العشرين فإنها تستحيل بفعل الثقافة إلى هذه البلهاء المرتجفة التى تخاف من الفأر أو من العنكبوت .

وينبغى أن نطبق على الطفل كل ما قاله ستاندال فيما يتصل بالمرأة .

فلابد من تناول الطفل ضمن الوحدة الكلية الاجتماعية والتاريخية التى يعيش فيها ويستجيب لها: أننا لا ينبغى أن نتحدث عن طبيعة طفلية ، وإنما — كما رأينا — عن « تعدد أشكال طفلى » . فعند الطفل تتعايش معا إمكانيات جد مختلفة تجعله يبدو شبيها ببعض العصابيين ، أو ببعض البدائيين ، أو ببعض الراشدين. وهذا « التعدد الأشكالى » تصحبه عمليات النضج الباكرة . فالطفل يعيش بالفعل منذ البداية ودفعة واحدة « حياة ثقافية » . فهو يدخل فى وقت جد مبكر فى علاقات مع الآخرين .وهو يكشف عن اهتمام بالظواهر التربية غير البسيطة التى تحيط به . فهو مثلا بالنسبة إلى تعبير الوجه عند الآخرين يصل إلى علم حق باستكناه ألغازه ، وذلك فى وقت نتوهم فيه أن حياة الطفل لا تعدو أن تكون مجرد حياة حسية .

وهنالك ما رأيناه من ظاهرة التطابق المزدوج ، تطابق الأبناء مع الآباء ، والآباء مع الأبناء : وينتج عن هاتين المرآتين المتواجهتين سلسلة من النتائج. فمن الممكن أن تربى المرأة أبناءها بطريقة لينة لأنها هى قد عانت تربية قاسية، ولكن الأطفال الذين يلقون هذه التربية المتحررة قد يستشعرون الحاجة إلى الحزم ، مما قد يتضح فى آرائهم السياسية . فهنالك حركة ديالكتيكية تمضى من أجداد محافظين مثلا ، إلى آباء متحررين ثم إلى أطفال عندما يبلغون سن الرشد يغيرون تماما من أفكارهم ويؤمنون بالتربية التسلطية .

فليس الأطفال دائماً صورة للآباء،فهم فى بعض الحالات صورة نقيضية أو قل صورة مرآتية لهم . ولكن ذلك يرجع فى الحقيقة إلى أن التربية لم تكن متحررة بمعنى الكلمة أو على الأصح لم تكن حرة بل كانت قهرية فى تحررها ، كانت قهرية فى طابعها، بمعنى أنها تأخذ بالحرية بطريقة « ضدية»؛ أنها تحرص على اصطناع الحرية . وغالباً ما يستشعر الطفل والديه آخذين فى تصفية حسابهم الخاص مع طفولتهم . ذلك أن مبادئهم التحررية تنطوى على ما هو جاهز ومعد : فالطفل يعانى من اضطراره إلى أن يمارس الحرية

دوما ، تماماً كما يعانى البعض الآخر ممن لا يمارس الحرية أبداً . وعليه فإننا فى كل لحظة فى صلاتنا مع الطفل ننسج اتجاهه . وكنتيجة لذلك يمكن القول بأنه فى علم نفس الأطفال — حتى قبل أن يكون هنالك علم للنفس — فإن الوقائع معرضة دائماً للتأويل ، وذلك لأنها تعبير عن العلاقة المعقدة ما بين الطفل والراشد . هذا إلى أن الواقعة أيضاً إنما هى دائماً تصور يترجم عما عليه الطفل ، ويترجم فى نفس الوقت عن الكيفية التى ينظر بها الراشد إليه ، وعن الطريقة التى يعامله بها .

علينا أن نقيم دينامية بين — شخصية بدلا من أن نحاول تحديد «سمات» لطبيعة جامدة : فينبغى أن نتجنب الحديث مثلا عن «طبيعة الطفل» . ينبغى أن نتجنب كل تصور جامد ، كأن يكون مجرد تصور إحصائى لمراحل الطفولة ، كأن نتحدث مثلا عن طبيعة الطفل فى السادسة ، تماما كما ينبغى أن نتجنب كل تصور جامد عن سيكولوجية الجنس . وبإزاء الاختبارات لا ينبغى أن ننظر إلى النتائج التى نحصل عليها فى وقت وكأنها تصدق بصورة مطلقة ؛ فهذه النتائج تعبر عن حالة مؤقتة من حالات الدينامية الشخصية والبين — شخصية .

فعلم نفس الأطفال ليس مجال دراسة « طبيعة » ثابتة . ومن هنا يرى فرويد أنه على الرغم من المحددات التشريحية القائمة منذ البداية ، إلا أن هذه المحددات ليست ذات قيمة حاسمة . فالصورة التى تكون عليها الحياة الجنسية فى وقت من الاوقات تتحدد تبعاً للمكانة المختلفة التى يحتلها الطفل فى الانتشار العائلى . أما الجنسية الراشدة فقوامها « التخطى » لجميع المراحل السابقة . وحين نقول « صبى » أو « بنت » عند المولد فذلك لا يكاد يعنى شيئاً بعد . فحين نقول « بنت » أو « صبى » ، فإننا نعنى كائناً أو فرداً فى حقل من القوى ، وهذا الحقل يمثل فى كل وقت بالنسبة إلى الطفل لونا خاصاً من

ألوان الذكورة أو الأنوثة . والطفل فى هذا الحقل يخضع لمتجهات مختلفة تجذبه فى اتجاهات متباينة[1]. إن الواقع إنما هو دينامية دائبة التغير ، فهو متاح أبداً للتبديل، الأمر الذى يفسر إمكانية الثورات والتغيرات المفاجئة .

٣ — ينبغى تجنب الذراتية بتقطيعاتها العمدية :

فهذه الدينامية تدحض النزعة الذراتية الضيقة ، هذه التى تسعى إلى التقطيع فتصطنع عزل ما هو خارجى عما هو داخلى ، وما هو حسى عما هو حركى، وعزل ما هو فسيولوجى عما هو نفسى ، وما هو فطرى عما هو مكتسب ، وعزل النضج عن التعلم ، وعزل الموقف عن الاستجابة .

ولكن الحقيقة هى أن الموقف الذى يعيشه الكائن يتوقف ليس فحسب على الشروط التى يوجد فيها الكائن، وإنما يتوقف أيضاً على بنية الكائن الخاصة: فهنالك ما يمكن تسميته « بالتكيف القبلى » . يصدق هذا حتى فى المستوى البيولوجى . فالكائن العضوى يقيم فى وسط يلائمه . ومن الممكن أن تكون الخصائص الباطنية للكائن العضوى هى التى تجعله يستقر فى هذه الظروف بدلا من تلك . ويقرر لاجاش : « إنه لا يوجد كائن بغير موقف، ولا يوجد موقف إلا بالنسبة إلى كائن » . بل إن وجود الكائن فى موقف بعينه إنما يترجم إلى حد بعيد عن البنية المميزة لشخصيته . فالمواقف تشبه الأشخاص .

كذلك الحال فيما يتصل بنظرية الجهاز العصبى . فليس من الممكن أن نعزل ، كما كان يفعل علم النفس الكلاسيكى ، الوظائف الإدراكية عن الوظائف الحركية . فعلم النفس المعاصر لم يعد يعزل الجهاز الحسى والجهاز

---

(١) انظر كتاب مارى بونابارث ، الحياة الجنسية للمرأة ، ترجمة المؤلفين ،مفهوم الموقف الثلاثى ومفهوم الجنسية الثنائية (دار الفكر العربى) .

الحركى ، وإنما يتحدث عن « الجانب الحسى » و « الجانب الحركى » من السلوك . فالتطور الحركى يعد بمثابة امتداد للجانب الحسى الانفعالى المعرفى. إن السلوك يفترض « توقعاً » لنتيجته . فنى حالة الكلب مثلا يتغير « إدراك الأشياء » عندما يكون الكلب مقيداً . وباختصار فإن ما هو إدراكى وماهو حركى ليسا بظاهرتين منفصلتين . وقد ولى الوقت الذى كان البعض يتحدث فيه عن إدراك فوجدان فنزوع . فنى الكلام فإن الوظيفة الحركية ، وهى « التكلم » والوظيفة الإدراكية وهى « السمع » ليستا منفصلتين ، لا ولا الوجدان المصاحب لهما . إن التصور الذراتى تصور مستحيل .

كذلك التمييز بين ما هو فطرى وما هو مكتسب :

« فطرى » بالمعنى الدقيق تشير إلى ما يتبدى وما يظهر منذ الولادة . ولكن بعض علماء النفس وسعوا من معنى هـــذا المصطلح فسحبوه على ما يرجع إلى الشروط الخاصة بالشخص فى مقابل الشروط الخاصة بالبيئة . وهكذا أصبح مصطلح « فطرى » مرادفاً لمصطلح « داخلى المصدر » . ولكن ينبغى أن نتحرر من مثل هذا المفهوم ، كما ينبغى أن نتحرر من مفهوم «القدرة»، حين يشير هذا المصطلح إلى طبيعة منقوشة منذ الولادة ، بحيث يقتصر التطور اللاحق على مجرد إظهارها . إن هـذه الطبيعة لا يمكن أن تنمو وتتطور إلا تحت تأثير شروط بيئية معينة . وعليه فما معنى هذه «الطبيعة»، هذه « القدرة » التى لا تستطيع بمفردها أن تعبر عن نفسها ، ما دامت لا تقتدر بمفردها على إن تتحقق وتظهر ، وإنما تستطيع ذلك فقط بتأثير الشروط البيئية ؟ أن الأمر ليس بثنائى : موقف — استجابة وليس باستجابة تتوقف فحسب على الشروط الداخلية . وعليه فمفهوم « القدرة » نسبى ، أى يرتبط بمواقف معينة .

كذلك التمييز بين ما هو فسيولوجي وما هو نفسي :

إنه ليستحيل عزل الشروط النفسية عن الشروط الفسيولوجيـــة فى السلوك . فوإن كانت الفسيولوجيا الميكانيكية النزعة تتحدث عن المخ كما لو كان آلة ، فإنه ينبغى الآن أن نميز فى المخ مستويات مختلفة ، أو قل اختلافات من حيث المستوى ومن حيث الدلالة ، وانتظام البنية ؛ ومثل هذه المفاهيم إنما هى مستعارة من تجربتنا ككنوات نفسية . . وهكذا فإن الفارق أو الاختلافات ما بين اللغة الراقية للشخص السوى واللغة الدنيا للمصاب بالأفازيا ، إنما ينحصر فى اختلاف فى المستوى يتضمن مفاهيم تتعلق بالقيمة ، ومدى ثراء البنية .

كذلك التمييز ما بين النضج والتعلم :

ينحصر النضج فى جملة الشروط العصبية التى يتوقف عليها نمو الـكائن العضوى . وليس ثمة معنى لأن نجعل من هذا التصور تصوراً مقابلا للتعلم ؛ ذلك لأن النمو العضوى يتوقف على تجارب خارجية معينة ، فليس هنالك من نضج دون شىء من التعلم .

فثمة مثلا اعتراضات ترفض فكرة قيام حياة جنسية عند الطفل ، وذلك لعدم توفر النضج الجنسى عنده . ولـكن هذا الرأى تعسفى ، ضد — سيكولوجى ؛ وذلك لأنه إذا كان هنالك علم نفس فما ذلك إلا لأن الوقائع تـكشف عن أن علاقة الطفل ببيئته ليست فقط ما يمكن أن تـكونه ابتداء من نضجه العضوى . فالطفل « يستبق » وهو فى علاقة مع « ثقافة » . إنه يعقد مقدما مع البيئة علاقات من قبيل الاستباق . فالطفلة تلعب بالعروسة دور الأم قبل أن تصبح أما بوقت طويل . لقد ولد علم النفس حقا يوم أن تبين البحاث أن علاقة الطفل ببيئته لا تقتصر فحسب على ما تسمح به حالته أو قل درجة نضجه الفسيولوجى .

وعليه فإننا نرى كيف يتعثر علم النفس بهذه الأشكال من الثنائية : ما هو نفسي وما هو فسيولوجي ، ماهو تعلم ، وما هو نضج ، الخ .

* * *

وخلاصة كل ما سبق ، أن النفسانى الذى يحاول أن يعمل بطريقة محكمة سيكون له تصور عن الحياة يؤثر على الآخر ، ولكن النفسانى سيكون متنبها إلى ذلك . فعلم النفس لا يمكن أن يكون بحال مجرد تسجيل للوقائع . إن كل معرفة موضوعية إنما هى بناء يتم عبر ذاتية الباحث . يشير ليفين فى كتابه « التصور الدينامى للشخصية » إلى الفكر العلمى فى علوم الطبيعة ، فيقرر أن هنالك طريقتين للتقليد : طريقة التقليد الفقير ، السطحى ، الجدب التى هى نقل بالضبط ، نقل حرفى ، يصل إلى علم نفس «علمى» ينطوى على قوانين وعلاقات شبيهة بالقوانين والعلاقات الرقمية التى فى الفيزياء ، وهنالك طريقة التقليد الخصب ، التقليد العميق . ولكن ما ينبغى حقا هو أن نتبين العلة الحقيقية التى جعلت المعرفة الفيزيائية تتطور وتزدهر :

كان ذلك بحسب رأى ليفين فى اللحظة التى توقف فيها البحاث عن مجرد تسجيل الوقائع . فكشف جاليليو لا يمكن فهمه بالنظر إلى الوقائع المباشرة . فالعلاقة ما بين ريشة تطير ، وحجر يسقط ، وبلية تتدحرج على سطح منحدر ، لا تصبح متاحة للفهم إلا عندما « نبنى » فكرة السقوط . وهذا البناء يفترض تحليل الوقائع .

وعليه فلا علم إلا منذ اللحظة التى يتم فيها بناء « نماذج مثالية » ، أو أنماط مثالية ، أو علاقات مثالية تسمح بفهم الظواهر الأخرى المماثلة .

إن علم نفس الأطفال مثلا ليس مجرد تسجيل لكل ما يقوله الطفل ويفعله : فكل ذلك ليس غير نتاج « لدينامية نمو » ترجع إلى الانتثار العائلى وإلى البيئة الاجتماعية . وليست الواقعة التاريخية بشىء فى ذاتها .

فقيمتها تقتصر فحسب على دلالتها . فالواقعة الكيفية qualitative هي الواقعة الأصيلة original المبنية بناء جديداً .

إن ما ندركه وما نلاحظه لا يعدو أن يكون «الآخر» في علاقته بنا نحن الملاحظين الراشدين. وهذه الفكرة ، فكرة نسبية الموضوع بالقياس إلى القائم بالملاحظة ، رغم بساطتها بل وما قد تبدو عليه من سذاجة للوهلة الأولى ، لم يستغلها العلم في كل نتائجها الممكنة. فعالم النفس يؤمن بضرورة التغلب على هذه النسبية ، كما كان الاعتقاد في الفيزياء بأنه من الممكن أن نستبعد تماماً ذاتية القائم بالملاحظة . أما اليوم فإن الفيزياء الحديثة تؤمن بأنه من المستحيل أن نصل إلى نتائج تجريبية تكون بمثابة نتائج للاحظة موضوعية مطلقة . كذلك الحال بالنسبة إلى علم النفس فإنه ينبغي أن يقوم ، ينبغي أن ينبني ، عبر النسبية . فهنالك إذن إساءة استخدام لمفهوم « الموضوعية » . والفكر الذي يقال عنه في العادة موضوعي pseudo—objective إنما يفتقر إلى ما يقيم الحقيقة ، إلى ما هو لب الحقيقة ، حياة « الآخر » .

ولعل هذا كله هو ما يعبر عنه مورينو حين يقرر أن الموضوعية كيما تكون خصبة يتحتم عليها أن تعانى نوبة من الذاتية . ولعل هذا أيضا هو عين ما يقصد إليه جان بول سارتر حين يقرر أن الذاتية ليست غير لحظة بين موضوعيتين : موضوعية قائمة نتخطاها بالذاتية إلى موضوعية جديدة أكثر امتلاء وأمعن خصوبة(١) . .

---

(١) انظر « نحو نظرية ثورية في التربية » ، د . مخيمر ، الانجلو .

ما ينبغي اتبـــاعه فى العلم
الاستقراء السطحى والاستقراء المركزى

يتوهم البعض فى العادة أن هنالك علما عندما يصل علم النفس إلى بعض النتائج المتواترة أى التى تمثل أو تتبع نظاما ، نفس النظام بصورة مستمرة . فبالنسبة إلى هذا البعض يعد « التواتر » فى السلوك ، معيار البحث العلمى ، ويعد هذا بمثابة الحكم القبلى ، وهو حكم يترتب عليه أن ينظر هذا البعض إلى كل واقعة فردية بحسبانها أمراً يدخل فى مجال الأدب بالمعنى الردىء للكلمة . وحتى يومنا هذا هنالك كثير من علماء النفس ممن ينظرون إلى « وصف الحالة الفردية » أو « المونوجرافيا » على أنه عمل تمهيدى يؤدى إلى العلم ، ولكنه لا يبلغ بذاته بعد حد العمل العلمى : ولكن هذه المشكلة قد استوقفت من جديد التأمل فى الأيام الأخيرة . فالمونوجرافيا عندما يضطلع بها الشخص على نحو من العمق تكون ذات قيمة معادلة بل وأكثر من القيمة التى يمكن أن تكون للدراسة السطحية لحالات عديدة . ومن هنا يقرر جولدشتين بأنه « لامعن فى العلم » أن يدرس الباحث حالة واحدة بعمق من أن يقارن بصورة سطحية وقائع عديدة لا يستطيع أن يرجعها إلى سياقاتها . ففى حالة من حالات الأجنوزيا البصرية ، وهى فقدان القدرة على التعرف على الأشياء رغم سلامة الحس ، فإن الأمر يحتم دراسة الشخص ليس فحسب من زاوية الإدراك وإنما أيضاً من زوايا عديدة كاللغة الخ... ينبغى أن نضع موضع الاعتبار مختلف قطاعات الشخصية .

فبهذه الطريقة أمكن للبحث أن يتبين بأن المصاب بالأجنوزيا لا يقتدر أثناء المحادثة على أن يبتدع جديداً ، وأن سلوكه الجنسى يفتقر إلى المبادة والقدرة على التصرف فى حرية . إنه لا يقتدر على إسباغ بنية جديدة ، أى

على أن يتناول عنصراً من العناصر من زوايا مختلفة ، أى على أن ينوع فى وجهات نظره .

والحق هو أن هنالك طريقتان فى النظر إلى الاستقراء العلمى . فمن ناحية نستطيع أن نصل إلى قضية عامة ابتداء من الوقائع عن طريق التجريد . وهذا هو النهج الأرسططالى . ومن ناحية أخرى نستطيع أن نبحث ضمن حالة ، أى داخل الحالة ، عن تقاطع الوقائع وهذا هو النهج الجاليلى . وعلم النفس ينبغى أن يستوحى هذه الطريقة الأخيرة .

إن مفهوم العمومية ذو معنيين : فإما أن نفحص عدداً كبيراً من الحالات المتفرقة تكون فيها العمومية من العظم بقدر ما تكون الحالات من الفقر ، وإما أن نصل إلى العمومية ببلوغنا إلى مركز الظاهرة العيانية : وفى هذه الحالة الأخيرة نكون إزاء عمومية أساسية . ولكن فى أغلب الحالات يستخدم علماء النفس عمومية إحصائية . فهم يذهبون مثلا إلى أن الثالثة هى سن المعارضة والخلف عند الطفل وهم يجمعون جميع الملاحظات المتعلقة بهذا التوكيد ، بمعنى أنهم يجمعون معا كل ملاحظة تشهد بذلك . ولكنهم إذ يفعلون ذلك فإنهم لا يفسرون شيئاً . فكل ما يفعلونه ينحصر فى أنهم يطلقون اسماً من الأسماء على بعض الوقائع دون ما تفسير لهذه الوقائع . ولكن علم النفس يتحتم عليه أن يطلعنا على العلة فى أن هذه الظواهر أو تلك تحدث . وكذلك الحال بالنسبة إلى بعض التصورات من قبيل « الغريزة » و « القدرة » ، فهى تنطوى على نفس العيب ، هى مجرد لافتات لفظية . فالقدرة هى ببساطة سلوك لاحظناه ، سلوك متحقق من قبل ، أى قائم من قبل داخل الطفل . وكذلك الحال بالنسبة إلى « الغريزة » فهى كما يبين ليفين ، إنما هى « انتقاء عن طريق التجريد » لسمات مشتركة بين فئة من المسالك أو الأفعال التى تتبدى بصورة متواترة .

وعلم النفس اليوم — بحسب رأى ليفين — كثيراً ما ينخفض إلى مجرد

كونه علم نفس من النمط الأرسططالى ، بمعنى أنه يقتصر ويقنع بالبحث عن « العام » ، هذا الذى ليس له من صلة فى واقع الأمر بالحقيقة العلمية . والطريقة الإحصائية إنما تتعرض بصفة خاصة لهذا الخطر : فهذه الأبحاث تبحث عن المتوسط الحسابى ، وتضفى عليه قيمة تمثيلية ، فتعده ممثلا للكل. مثال ذلك اعتبار الشخص الذى طوله ١٦٠ سم وأسمر البشرة بمثابة المتوسط للمصريين. وعلم النفس يستخدم مثل هذا المتوسط ليتخذ منه صورة مخصصة، مثلا ، للعمر العقلى لطفل السنة الثانية ، ليتمكن من التنبؤ .

ولكن « الأدوات » الرياضية ليست بكافية لتسبغ على البحث الطابع العلمى الحق . علم النفس هذا يجاهد ما وسعه الجهد ليثبت أنه علم ، مستخدماً أقصى ما يستطيع من الرياضيات . ولكننا حين نستخدم هذه الإمكانيات الرياضية مستندين إلى تصورات أرسططالية ، فإننا نظل فى مجال ما قبل العلم .

إن البحث عن القوانين لا يكفى لتخصيص العلم ، وذلك إذا ما فهمنا القوانين على أنها عمومية مجردة . ويذهب ليفين إلى أن الإحصاء يمكن أن يكون مفيداً شريطة ألا نستخدمه بطريقة عمياء .

والنادرة المشهورة عن « بينيه » فى قوله « الذكاء هو مايقيسه مقياسى» ، هذه النادرة تشير فى معناها المباشر إلى أن الموقف العلمى يقتضى ألا نتساءل عما هو الذكاء ، وإنما أن نقيس ونقارن سلوك طفل فى سن معينة مع مسالك أطفال من نفس السن . ولكن بهذا المعنى يستحيل على علم النفس أن يذهب بعيداً . فلأن نتساءل ما هو الذكاء ، فإن مثل هذا السؤال لا يمكن أن لا يحفل به العلم مهما أمعن فى التجريبية .

فكثيراً ما كانت العوامل التى يقيسها المقياس عوامل محيطية ، مستقلة إلى حد ما، بمعنى أنها لا تتوقف على الشخصية كوحدة كلية . فعندما نقوم

بتطبيق الاختبار نفسه بعد سنوات عدة فإنه لا يعطينا نفس النتائج . فليس فى وسع الاختبار أن يتيح لنا التنبؤ . ومن هنا يتحتم على الاختبار أن يتجه إلى الشخص بكليته أى من حيث هو وحدة كلية ، وذلك حتى يستطيع قياس الحالة العامة لسلوكه ، فلا يقتصر على قياس نتائج هذا السلوك هنا والآن فى موقف الاختبار .

ينبغى الإمساك بالشخص أى بالوحدة الكلية لصيرورته وأن نقيم أى نبنى من جديد التطور الدينامى له، لا أن نحصى عدداً من الأداءات التى ينجح الطفل أو يفشل فيها فى لحظة من لحظات حياته . كذلك الحال بالنسبة إلى المرضى بالأفازيا عند جولدشتين : فإن الاستخدام الآلى للغة ما يزال فى متناولهم ، ولكن لم يعد فى متناولهم « الاستخدام الذكى » لها . وعليه فإن الأمر لا ينحصر فى «نقص لفظى» ، وإنما فى سقطة تهبط باللغة إلى مستوى أدنى . ففى علم النفس المرضى ، فى البداية ، كان الاهتمام يتجه إلى الأعراض تتحدد عن طريق الاستجابات التى لم يعد الكائن يستجيب بها على مقتضيات البيئة وأسئلتها . ولكن لم يكن فى ذلك ما يتيح لنا معرفة الماهية ، ماهية المرض . فلابد من أن « نبنى من جديد » جملة الأعراض المرضية بأن نوجه إلى الكائن أسئلة أكثر دقة ونوعية من الأسئلة المألوفة التى تقتصر على اكتشاف « ما هو ناقص » فليست هنا لك من حقيقة إلا فى اللحظة التى نبلغ فيها إلى مركز الشخصية .

وثمة مظهر آخر من مظاهر هذا الحكم القبلى المتعلق بما هو عام ، ونعنى به استبعاد الحالات المرضية من حيث هى شاذة . وهذه الطريقة فى التفكير هى قبل — علمية ، تفصل ما بين المرضى والأسوياء . وعادة ما يقال : « ذلك استثناء بالنسبة إلى القاعدة » ، و « فى الاستثناء ما يؤكد القاعدة » . ولكن مثل هذا القول متناقض ، لأن الاستثناء يدحض القاعدة . والحق هو أن هذا « الشعار » يتجسد فى حكمنا القبلى الذاهب إلى أنه « ليس هنا لك

من علم إلا بما هو عام » . فإذا ما استهدفنا « العمومية » فإننا نصل إلى ذلك بتكديس النتائج كيفما اتفق .

وخطأ هذه الطريقة ينحصر بحسب رأى ليفين فى أنها تقف عند ما هو سطحى فى الأشياء ، وتقف عند الوقائع التى تلاحظها مباشرة أى المتاحة للملاحظة المباشرة ، تقف عند « التاريخى — الجغرافى » . فعلى الرغم من عظم اتساع مجال البحث ، فمن الممكن أن تكون النتائج عديمة الدلالة وذلك إذا كانت هنالك كومة من الحالات المختلفة . فمن المستحيل أن نقيم متوسطاً حسابياً ذا دلالة ، ما لم يكن هنالك مبدأ يتيح لنا أن نحسب العناصر المختلفة لهذا المتوسط .

ينبغى إذن أن نتناول دينامية العملية التى تعنينا . وهنا يأخذ ليفين جانب المنهج الوصفى ضد المنهج التحليلى الذراتى ، وضد المنهج الوصفى السطحى الذى لا يتيح لنا أن نبلغ إلى أعماق للظاهرة ، سيان كان هذا الوصف لفظيا أو رقمياً . فليفين ينقد الطريقة الوصفية التى تقف عند الخصائص الظاهرة للظواهر ، فلا تبلغ إلى البنية الباطنية ، والتى تقف عند النتائج فلا تصل إلى المقدمات . فالخصائص الظاهرة هى جملة خصائص الكائن العضوى التى تتبدى للملاحظة ، وهى خصائص تشرطها فى نفس الوقت البنية الباطنية وأثر البيئة وتاريخ الكائن .

وينبغى أن تحل الطريقة الجاليلية محل هـــذه الطريقة ذات النهج الأرسطالى . فالأمر لا ينحصر فى تقليد خارجى ، فلا بد وأن يتم فيما يتعلق بعلم النفس ما تم بالنسبة إلى الفيزياء . وليس معنى هذا أن نفعل حرفياً نفس الشىء ، وإنما أن نحقق منهجا أى طريقة فى البحث تماثل طريقة الفيزياء من حيث الخصوبة . وعلى سبيل المثال فإن الأمر لا ينحصر فى أن نخفض السلوك مثلا إلى جانبه الفيزيائى ، وإنما ينحصر الأمر

بالحرى فى استخلاص طريقة فى التفكير . فإن ما هو أساسى حقا ، ينحصر فى « إعادة صياغة » المعطيات صياغة جديدة متاحة للفهم عند علماء النفس .

النهج الجاليلى : خصائص علم النفس العلمى بمعنى الكلمة

بحسب رأى جييوم ، يستهدف علم النفس إقامة تتابعات خبراتية ثابتة بمعنى مستمرة دائبة . وهذا التصور ينطوى على أن القانون إنما هو ماهية تشارك فيه الحالات الفردية بدرجة أو أخرى . ويرى ليفين أن علم النفس فى مثل هذه الحالة ينخفض إلى كونه تفسيراً بلغة « الماهية الأرسطالية » ، وأنه لا ينطوى على شىء مما ينطوى عليه العلم .

فبحسب رأى ليفين ينحصر معيار علم النفس العلمى حقاً فى تخليه عن المفارقة ما بين « عمومية الماهية المعقولة » وخصوصية الواقعة . ينبغى أن نفكر بلغة « السياقات » (تشكيلات النوع الواحد) لا «الفئات». والشروط الثلاثة التى ينبغى — فى رأى ليفين — أن تتوفر لعلم النفس هى :

(١) تصور حقل الوقائع النفسية بحسبانه متجانسا ، دون أن نخفض الوقائع الأكثر ثراء إلى وقائع بسيطة .

(٢) استخدام تصورات « شرطية » نشوئية ، ونعنى تصورات القيمة والدلالة والموقف .

(٣) ينبغى على علم النفس العلمى أن يذهب إلى ما هو عيانى بطريقة غير مباشرة ، أى عن طريق بناء تصورات تتيح فهم الوقائع الفردية (نمط العلاقة المثالية أو النمط الكيفى) . فإن ما يجعل علم النفس فى رأى ليفين علما بمعنى الكلمة ، إنما ينحصر فى هذه الشروط الثلاثة وليس فى انضباط المقياس ودقته .

أولا : تجنيس حقل البحث :

إن العالم الفيزيائى متجانس عند جاليليو : فإن ما يحدث فى الكواكب وما يحدث عند سطح البحر ، عندما يسقط حجر ، كل هذا بدلا من أن يكون ظواهر غير مرتبطة فى المكان، فإنها بالنسبة إلى جاليليو مجردمظاهر تنتمى إلى نفس السياق . فبدلا من أن نفكر بطريقة الفئات ينبغى أن نفكر بطريقة السياقات وتباينات النمط الواحد . ينبغى تطبيق هـــذه الطريقة الأخيرة فى علم النفس : فى علم النفس لا ينبغى تضحية الاختلافات الكيفية ، ولا ينبغى أن نكتفى بتضحية النزعة الذراتية الترابطية .

لا ينبغى أن نضحى بتباين الوقائع ، باختلافاتها ، وإنما ينبغى أن نفهمها : فالوقائع السوية والمرضية ، عند الرجل وعند المرأة ، عند الراشد وعند الطفل الخ ، هذه الوقائع ينبغى أن ننظر إليها — لا على أنها متطابقة — ولكن على أنها وقائع تنتمى إلى نفس السياق فهى تشكيلة من نوع واحد .

(١) فالسلوك المرضى والسلوك السوى إنما هما استجابات لمواقف هى هى بعينها من الناحية الموضوعية . فليس للسلوك السوى والسلوك المرضى « نفس الهوية » ، ولكن هنالك تماثلا بين المواقف : ففهم العلاقة مع الغير يستند فى صميمه إلى « المماثلة » : فلا بد للفرد كائنا ما كان ، من أن يعيش . تلك هى « وحدة المشكلة » التى تجيب عليها المسالك بتبايناتها .

(٢) وكذلك الحال فيما يتصل بالعلاقة ما بين المتحضر والبدائى . فثمة شىء يجمعنا معهم ولا شك ، وإلا لاستحال علينا أن نفهمهم . يجمعنا معهم قاع مشترك ، تجمعنا أعماق مشتركة، فلا بد إذن وأن نضطلع بشىء من التراجع بالنسبة إلى أنفسنا ، حتى نفهم الأشياء التى نعيش فيها ، وحتى نفهم أنفسنا وبالتالى نفهم الآخرين . وهناك دراسة للحياة الأمريكية الحالية تمت وكأنها دراسة لمجتمع بدائى . فمن زاوية المنظور العلمى لا ينبغى أن ننظر نظرة امتياز

إلى شعب من الشعوب، أو إلى حضارة من الحضارات بالقياس إلى الأخرى. ينبغي أن ننظر إلى العلاقات ما بين الحضارات على أنها علاقات متكافئة.

(٣) والعلاقات ما بين الذكورة والأنوثة: ينبغي أن ننظر إليها كما تبرز منسلخة أو متناحية بالنسبة إلى نفس القاع. «فالمشكلة» هي هي بعينها ونعني مشكلة الحياة الإنسانية.

ومعنى هذا أنه ينبغي التجنيس. فالوقائع تشكيلة من نوع واحد لافئات منعزلة. فالاستجابات متباينة للمشكلة الواحدة. وينبغي أن تتنبه إلى أن هنالك عالما نفسياً ينتمي إليه المرضى والأسوياء، الرجال والنساء، المتحضرون والبدائيون، الراشدون والأطفال الخ..

فالقوانين النفسية لن تكون «تتابعات» من الوقائع التي تتتابع معاً ودائماً أبداً. إن علم النفس العلمي بمعنى الكلمة سيوجد عندما نكون مقتدرين على أن نفهم الأنواع المختلفة للحياة، حياة الراشد والطفل، المتحضر والبدائي، السوي والمريض.. الخ..، على أنها أجهزة متوازية تجيب على نفس المشكلة بطرائق مختلفة أو قل على أنها أساليب حياة متوازية.

ثانيا: التصورات الشرطية: القيمة والدلالة والموقف:

إن جانبا بأسره من الفيزياء يضع موضع الاعتبار «المتجهات». وبوسع علم النفس أن يستعين هو الآخر بذلك. فإن ما هو علمي لا ينحصر في استبعاد الكيف، بمعنى القيمة أو الدلالة، وإنما ينحصر في النظر إلى الوقائع ضمن سياق. فكل سلوك في علم النفس إنما هو استجابة «متجهة نحو» موقف. وعليه نستطيع أن نأخذ بالغائية لا من حيث هي غائية تنصب على «طبيعة»، بمعنى أنها تكون منقوشة مرة وإلى الأبد في الفرد، وإنما من حيث هي غائية خاضعة لشروط ومتعلقة بموقف تعد بمثابة إجابة عليه.

يهاجم ليفين علم النفس الذى لا يمكن أن يتصور نفسه علمياً إلا اذا أعرض عن استخدام مفهوم « الغاية » والغائية والنشاط « المتجه إلى » - فهذه التصورات ذات طابع علمى اذا ما وضعنا فى اعتبارنا المتجهات على أنها خاضعة وتابعة ، أى تتوقف على العلاقات المتبادلة بين وقائع عديدة . لجميع العناصر فى حالة علاقة بينية فى الحقل . ومن هنا تأتى فى رأى ليفين أهمية الموقف . وهذه الأهمية لا يمكن أن تتبدى مادام العلم ينظر إلى الموضوعية نظرة زائفة ، بمعنى أن الخصائص الرقمية وحدها هى التى يمكن أن تكون مميزة للموضوعية .

ان الموقف لا يشتمل على جميع عناصر العالم الخارجى ، و « إنما يشتمل فحسب على جملة السمات ، سمات العالم الخارجى ، التى تستطيع أن تستثير استجابة من جانب الكائن العضوى » . فالموقف هو النتيجة المشتركة للتجارب الداخلية ، تجارب الكائن العضوى ، وللمعطيات الخارجية . إن الموقف لهو همزة وصل ما بين الوجه الموضوعى الخالص والجهد الذى يبذله الكائن العضوى بمعنى الوجه الذاتى من الانتظام . وعليه فالموقف أساسى لفهم الفرد الذى يعنينا ، وذلك لأن الموقف هو نقطة التقاء الخارجى والداخلى . وأنه لشىء من هذا النوع ، ذلك الذى نجده كأصل وأساس لكشف جاليليو : فجاليليو يتصور دينامية الظاهرة على أنها مرتبطة بالموقف ، وهو إذ يضع فى اعتباره « الموقف » فإنه يستطيع « مماثلة » الظواهر موضوع الدرس .

فالقانون ينتج من تطبيق هذا المفهوم ، مفهوم « الموقف » : إنه هو هذا الذى « بين » جميع الحالات المعنية ، الرابطة التى تكون هذه الحالات هى تبايناتها . وعليه فإن المتجهات التى تحدد دينامية الظاهرة ، إنما تتحدد بالواقعة العيانية ، بالشىء وبالموقف . ومن هنا تجىء إمكانية « عمومية غير مجردة » وهى عمومية يحتاج إليها علم النفس .

ثالثاً : بناء تصورات تتيح فهم الوقائع الفردية :

مما سبق يتضح أن الإحصاء يتحتم عليه في علم النفس أن يتخطى المتوسط الحسابي إلى «الحالة» النقية (ليفين)، ونعني هذه الحالة التي فيها تكون الوقائع المختلفة التي نلاحظها هي حقاً الوقائع المترابطة ترابطاً باطنياً ، المترابطة بطريقة أساسية . ينبغي أن « نفكر الوقائع » ، وأن نبنيها بناء جديداً من الناحية العقلية . فليس العلم هو مجرد الملاحظة فحسب .

إن قانون سقوط الأجسام عند جاليليو ما كان يمكن الحصول عليه من مجرد «تقرير الواقعة» . فالقانون يتحدد بالاستناد إلى عملية مثالية . فالقانون يقوم على عمليـــــة قوامها أن تنزل علاقة معينة « منزلة المثل الأعلى » Idealisation (هوسرل) فنعتبرها « علاقة مثالية » ، أو أنموذجاً أو نمطاً كيفياً لسائر الوقائع المماثلة . ومن الأمور التي تبدو وكأنها متناقضة ، أن العلم كيما يفهم ما هو عياني ، يتحتم عليه بمعنى من المعاني أن يبدأ بأن يدير ظهره له . فلابد وأن جاليليو قد أعاد بناء معطيات الحواس بإجراء فكري . أما إذا ما قمنا على الضد من ذلك بتسجيل مباشر للوقائع بمعنى أن نسجل الخصائص المشتركة للأجسام الثقيلة (أرسطو) فإننا نحصل على تجريدات . إن العلم يبدأ في اللحظة — لا اللحظة التي نسجل فيها بطريقة سلبية — بل اللحظة التي نعيد فيها بناء « ماهو ظاهر » فنتيح لأنفسنا نماذج للواقع ، نماذج مثالية . عندها فلن تكون دلالة « الاستثناء » هي هذه الفضيحة التي كان يعنيها الاستثناء عند أرسطو ، فقد كان أرسطو ينظر إلى ما هو فردي على أنه « لا يخضع للعقل » .

إن المسالك إنما هي تباينات تتخذها دينامية النمو . وهكذا يصبح من الممكن في التحليل النفسي أن نضع في نفس الوقت موضع الاعتبار المسالك القهرية حيث يناضل الشخص ضد حريته ، والمسالك الجنسية المنحرفة ،

حيث يسلم الشخص نفسه لحريته ، وذلك لأننا نضع هذه المسالك وتلك ضمن سياق من تطور الليبيدو ، فبهذا تغطى هـــذه المسالك وتلك حقيقة سيكولوجية واحدة . وعليه فلا ينبغى أن نذهب إلى ماهو عام وإنما إلى ما هو مركزى .

منظورات جديدة يقتضيها علم النفس العلمى

الغريزة :

مادمنا ننظر إلى الغريزة على أنها قوة « متجهة إلى » هدف معين ، على أنها « طبيعة » فإننا نظل فى نطاق علم نفس أرسطالى .

أما علم نفس الجشطلت فيغير من مفهوم الغريزة : فليست هنالك غائية صريحة صماء تصر حرفياً على هدفها ، وإنما هنالك شىء ما « يتجه إلى » شىء ما ، وإن كان مختلفاً عن الغائية الصماء الصارمة . ذلك لأن الفعل يمكن أن ينحرف أثناء الطريق أو يمكن أن يقف . وعليه فالغريزة مختلفة عن « طبيعة أمام مصيرها » ، طبيعة لها هدفها المحدد ، ولكنها أشبه ما تكون بمواقف « مفتوحة » تستدعى شكلا معيناً من التطور دون أن يكون هذا الشكل مع ذلك محدداً تحديداً كاملا . وعليه فالغريزة لم يعد ينظر إليها كشىء مستقل منعزل ، وإنما يمكن « مماثلتها » « بالعادة » ، و «بالفعل اللاإرادى» . والغريزة على هذا النحو تتمشى مع مبدأ « التجنيس » ، ويمكن بذلك أن تدخل فى الدينامية العامة للسلوك . فهنالك وحدة كلية من المسالك التى ليست الغريزة إلا لحظة من لحظاتها .

إن مفهوم الموقف المفتوح ـ شأنه شأن الميلوديا أو المسرحية ـ يستدعى التحدد . فغائية الغريزة لم تعد بعد ممارسة لقوة ممتنعة على التغير ، قوة فطرية ، تفعل ما تريد ، وإنما ينبغى النظر إليها بالرجوع إلى الشخصية فى جملتها .

الذكورة والأنوثة :

سنعرض الآن من قبيل التدليل بعض الأمثلة الواردة فى كتاب مارجريت ميد « المذكر والمؤنث » Male and Female ، فيما يتصل بالمحددات الاجتماعية للذكورة والأنوثة .

إذا كان هنالك شيء يبدو متوقفاً على الشروط البدنية ، فذلك إنما هو خصائص الذكورة والأنوثة. ولكن التحليل النفسى قد أوضح لنا مع ذلك أن هذه الخصائص لا يمكن أن تفهم خارج العلاقات البين — شخصية . ولم تبدأ مارجريت ميد من تصورات التحليل النفسى . بل اضطلعت بأبحاث اتنوجرافية[1] تأدت منها إلى إدخال تعديلات على التحليل النفسى . فهى تضطلع بتعميم التحليل النفسى .

فالتحليل النفسى الكلاسيكى ، كما عند فرويد ، قد ظل تقليدياً فى نظرته إلى هذه المسألة . ففرويد فى البداية يقرر أن ماهية كل ما هو جنسى ، إنما هى ماهية ذكرية . فالليبيدو ذو ماهية ذكرية . والجنسية الأنثوية ليست غير « تنويع » ، أى صورة أخرى للجنسية الذكرية ، وفى ذلك ما يفسر وجود عقدة إخصاء عند البنت . وعندما يقرر فرويد ذلك فإننا نجد أنفسنا أمام تصور تقليدى قوامه الماهية الذكرية ، يعكس التصور الأوائلى عن

---

(١) الاتنوجرافيا هى الفرع الذى يصف كل ما يتعلق بالأنشطة البشرية فى نوعياتها المختلفة عند الشعوب المختلفة فى إغفال عادة لدراسة شعوب الحضارات الصناعية الحالية . أما الاتنولوجيا فهى العلم الذى يستخلص حقائقه من هذه التى توفرها دراسات الانثروبولوجيا والاتنوجرافيا ودراسة اللغة والفولكلور . ويصعب فصلها كعلم عن علم الاجتماع من ناحية والاتنوجرافيا من ناحية أخرى . أما الانثروبولوجيا بالمعنى الواسع فهى دراسة الإنسان فى الأساليب المختلفة التى تتخذها حياته فى المجتمعات المختلفة وخاصة من الزاوية الاتنوجرافية والنفس — اجتماعية . أما المعنى الضيق أو الفرنسى فيشير إلى دراسة البنية الجسمية الإنسان من ناحية قياس الأبعاد أو الوظائف . ومن هنا فعادة ما تسمى الانثروبولوجيا بمعناها الواسع بالأنثروبولوجيا الثقافية .

الأسرة وتحت هيمنة الرجل » . ولكن هذه القنطرة التى وضعها فرويد ما بين الجنسية الذكرية والجنسية الأنثوية إنما تفتح الطريق فى نفس الوقت لتصور الجنسية الثنائية . ويرينا فرويد أنه على الرغم من التمايز فى الجنس فإن الأحداث السيكولوجية يمكن أن تحرف الشخص حتى تبلغ به إلى الإنعكاس الجنسى sexual inversion . فهو بذلك أول من أرجع الانعكاس الجنسى إلى أسباب سيكولوجية . فالانتماء إلى جنس ليس فحسب مجرد مسألة فسيولوجية ، تشريحية ، وإنما هى أساساً سيكولوجية .

وعليه فهنالك تضارب عند فرويد فيما يبدو مابين التصورات الأوائلية التى ورثها والتصورات التى ابتدعها ، تضارب مابين تفسير طبيعى النزعة وتفسير سيكولوجى النزعة ، عن الجنسية .

العقدة الأوديبية :

وبحسب رأى فرويد فإن الموقف الأوديبى هو المدار المركزى ، بل المدار الوحيد فى كل ما يتصل بالحضارة الإنسانية . أما فى رأى ميد فإن الموقف الأوديبى الذى يصفه فرويد ليس غير حل معين لمشكلة تبدو عامة عند الجميع (صورة بعينها من صور التكثر التى تتخذها وحدة المشكلات) .

فإن ماهو هام هو مشكلة بعينها قائمة فى جميع المجتمعات نظراً لوجود الآباء والأبناء . فالواقعة العامة تنحصر فى أن هنالك أطفالا وأنهم يكونون فى البداية ضعافاً وصغاراً ، مع اشتراكهم وارتباطهم ارتباطاً وثيقاً بحياة الراشدين . وهنالك تفتح باكر سابق لأوانه للمشاعر الجنسية عند الطفل ، هذا الذى ما يزال غير مقتدر على الإنجاب (ممارسة الجنسية الراشدة) . فالطفل يجد نفسه متجهاً باهتماماته إلى المسائل الجنسية ، مع قصوره — بالنسبة للراشد — من حيث النضج الجنسى .

وهنالك كما رأينا تطابق مزدوج ما بين الأبناء والآباء : فالطفل يرى مستقبله فى والديه فى نفس الوقت الذى يرى الوالدان فى الطفل طفولتهما الخاصة . وهنالك أيضاً هذه الطبيعة الجدلية التى تجعل الأحفاد ألصق شبهاً بالأجداد منهم بالآباء . ولكن التعقد لا يقف عند هذا الحد. فقدم الطفل ينال بالتغيير نوعية العلاقات ما بين الراشدين . فقدمه ليس مجرد إضافة أو إلحاق بدون تغير فى العلاقات الدينامية بين الوالدين .

ويمكن صياغة نفس هذه الواقعة العامة بطريقة أخرى . توجد عند الطفل حياة جنسية سابقة على أوان القدرة على ممارسة الجنسية الراشدة . وإننا لنجد دائماً فكرة « النضج السابق » بمعنى ظهور الظاهرة فى فترة سابقة على النضج اللازم لا كتمالها .

أما عن « وحدة المشكلة » ، فهذه الفكرة نجدها عند فرويد ، ولكنه لم يستخلص كل ما تنطوى عليه . فقد تبين العلاقة ما بين الأطفال والآباء فى حالة معينة خاصة هى البنية الأوديبية للأسرة . ولكن لم يتخط هذه الحالة المعينة الخاصة وهى حالة « الانتشار الأوديبى » إلى الاحتمالات الأخرى الممكنة .

وتكشف لنا مارجريت ميد عن هذه العلاقات . وهى ترينا أن هذه العلاقات لا تقتصر فى وجودها على الشكل الأوديبى . ومع ذلك فإن الموقف الأوديبى يظل يحتفظ بمكانة ممتازة . فنحن لا نستطيع أن نضع على قدم المساواة — جميع البنيات التشكيلية الأسرية . ولكن القول بعدم عمومية الموقف الأوديبى ، وبأنه ليس الانتشار الوحيد الممكن ، لا يعنى أنه عديم القيمة أو قليلها . فقد أبانت مدام جيكس Guex فى مؤلفها « عصاب الهجران » عند الأطفال ، عن أن الأشخاص « المهجورين » هم فى الواقع أشخاص قبل — أوديبيين ، لم يتح لهم بعد أن يعيشوا الموقف الأوديبى . فعقدة أوديب هى « شرط ضرورى لتشكيل شخصية الطفل

وليست مصيبة تنزل به . ليس الموقف الأوديبى بسوء ينزل بالطفل ، وإنما هو شرط يحكم صياغة الشخصية فى بعض الحضارات البشرية » .

فكيما يتخطى الكائن حالة الطفولة ، هذه التى تتميز بالإشباع الفورى للرغبة (مبدأ اللذة) ، فلابد من أن يجتاز الكائن العقدة الأوديبية حيث يتعلم فى شتى علاقاته الوجدانية ألا يكون فحسب مجرد طفل ، مجرد كائن يقتصر على ما هو فورى ، على ما هو مطلق ، على النزوة ، وإنما يتعلم الإعراض عن شيء ما ، وأن يقنع بغيره (مبدأ الواقع) . والأشخاص « قبل — الأوديبيين » يظلون فى الطفولة طول حياتهم ، وذلك لأنهم لا يقتدرون على أن يعيشوا علاقة وجدانية لا تتصف بالآنية أو اللحظية .

إن الهدف من الدراسة التى قامت بها مارجريت ميد ليس هو الإطاحة بالنظرية الفرويدية ؛ فتعميم التحليل النفسى شيء يختلف تماماً عن إبطال كل ثقة به . فالتحليل النفسى وقد لقى التعميم قد غدا يقدم الأنموذج الكيفى ، والعلاقة العامة المثالية ما بين الأبناء والآباء . وهذا الأنموذج أو هذه العلاقة ، ليست البنية الأوديبية للأسرة غير حالة معينة خاصة من حالاتها ، وتجسيداً بعينة من بين تشكيلة تجسيداتها الممكنة .

خاتمة :

إن العلاقة ما بين الذكورة والأنوثة ، إنما هى عنصر من العناصر ضمن نسيج كلى يشتمل فيما يشتمل على علاقة الطفل بالأم ، وعلى علاقة المجتمع بالطبيعة ، وعلى العلاقة مع الأجنبى ، وبصورة عامة العلاقات البين — بشرية على نحو ما توجد عليه فى أى مجتمع نحن بصدده .

فليس هنالك محل إذن لأن نتحدث بلغة المطلق عن المذكر والمؤنث ،

لأن كل حضارة تصوغ نمطاً معيناً من الذكورة ، مترابطاً مع نمط معين من الأنوثة ، وذلك تبعاً لطريقة هذا المجتمع فى الحياة . ولكننا حين نأخذ مجتمعاً بعينه نجد نمطاً محدداً وبعينه تتخذه الجنسية .

فالعلاقة ما بين الذكورة والأنوثة ، هذه العلاقة المتحققة فى مجتمع ما تتبلور فى العلاقة ما بين الأم والطفل على نحو ما هى متحققة فى العادات وطرق العناية . وهدف ميـــد هو أن ترينا أن العلاقة ما بين الرجل والمرأة فى مجتمع ما ، والعلاقة ما بين الأم والطفل ، هذه العلاقة وتلك ، سبب ونتيجة فى نفس الوقت أحداهما بالنسبة للأخرى . فالأطفال حين يصبحون راشدين يميلون إلى إعادة نفس البنية ، بنية العلاقة ما بين الذكورة والأنوثة ، على نحو ما كانت بين الأب والأم . إن العلاقـــة ما بين الذكورة والأنوثة ترتبط بتكنيك بأسره من علاقات الأم بالطفل بل ومن علاقات الإنسان بالطبيعة .

فنى مجتمع الألور تنعدم تماماً مظاهر عناية الوالدين . يترك الأطفال إلى أنفسهم . وهذه العلاقة ما بين الآباء والأطفال تتمخض عن مقابل لها فى علاقات الراشدين فيما بينهم . فليس بين الراشدين غير علاقات سلبية فى اتجاهها ، فلا تربطهم صداقة قوية ولا تنشأ بينهم علاقات حميمة . إنهم يستسلمون لما يحدث دون ما محاولة منهم لتنظيم حياتهم . وتتميز حياتهم الاقتصادية بالتبديد ، فهم يجهلون الاختزان والبناء .

ليست هنالك صياغة للأنا العليا ، فلا قمع ولا شعور بالإثم ، ومن ثم فليست هنالك مازوشية . فمن النـــادر جداً العثور على حالة انتحار فى هذا المجتمع .

وهذا المجتمع وإن تجنب بعض المساوىء الأوديبية ، فإنه تنقصه بعض المميزات الأوديبية ، وعلى الأخص القدرة على العمل والإنتاج .

وهكذا فإن الانفصال ما بين الآباء والأطفال إنما هو فى موازاة مع الانفصال ما بين الراشدين ، ومع الانفصال ما بينهم وبين الطبيعة .

ومرجريت ميد تتمنى مجتمعاً يكون « عديد الأشكال الجنسية » multisexed يسمح بجميع أنماط الذكورة والأنوثة ، فيختار كل واحد شريكه من بين الأنماط المذكرة أو المؤنثة التى توافق نمطه . مثل هذا المجتمع يسمح فى رأيها للأفراد أن يحققوا أنفسهم على ما هم عليه .

ولكن ترى ما السبب الذى يحدو بمرجريت ميد إلى محاولة التخلص من جبروت الأنموذج المطلق ، وجمود النمط ، وتصلب المعيار ؟ يعلق ميرلوبونتى على هذه الأمنية بأنها تصدر عن مؤلفة أمريكية ، حيث تعيش معاً حشود من الأقوام المختلفة الأصل . أما فى البلاد الأخرى التى لها ماض فإنها من النادر أن تفكر فى ماضيها ، فهى ليست قلقة فيما يتصل بأصلها . أما الأقوام المقتلعة من أصولها فتتطلع إلى الأصول . ومن هنا تبدو أهمية مشكلة الوحدة بالنسبة إلى أمريكا . ذلك أنها لا تستند إلى تاريخ مشترك طويل ، ومن هنا تتلمس أمريكا هذه الوحدة فى مشاركة لا تتسامح ، مشاركة فى بعض الأنماط الجامدة . وهذا فى رأيه هو السبب الذى يجعل ميد جد مهتمة بهذا الجبروت المطلق لذلك الأنموذج الذى يهيمن على أمريكا ، جد مهتمة بالمعيار الإحصائى ، الذى تحاول أن تلتمس له علاجاً فى « جنسية متعددة الأشكال » تتيح للأفراد أن يبلغوا إلى الإشباع دون صراعات مع قيمهم الاجتماعية ، مما قد يتمخض عن اختفاء الأمراض العصابية والذهانية من حياة البشر .

خلاصـــــة

طرائق تناول الوقائع

ما ينبغى تجنبه فى العـــلم

أولا — الأحكام الشعورية البدائية :

أننا لا نمسك بالآخر كشىء من الأشياء المنعزلة ، وإنما فى صلته بنا أى عبر ملاحظة مشاركة ، ومن هنا النسبية .

(ا) ومن هنا خطر الحكم بالرجوع إلى الأحكام القبلية الاجتماعية واتجاهاتنا الخاصة ، مما يترتب عليه أن نتوهم الآخر : إما نسخة منا له نفس الهوية ؛ وإما من طبيعة مغايرة مغلقة على نفسها ، « نسيج وحــــدها » لا نتطابق معها ، فنتناولها بالترفيع أو التحقير . وباختصار نتعرض لوهم التطابق التام أو الاختلاف التام . وفى الحالين لا تنطوى العملية على نظرة تكافؤ بين الذات والآخر ، وإنما هى نظرة قهرية لا تحقق العلاقة الحرة ما بين الأنا والأنت .

(ب) ١ — ومن هنا خطر الحكم بالرجوع إلى الحكم القبلى الخاص بالعلم على أنه تواتر منتظم . ظواهر يتكرر حدوثها بانتظام ، أو وقائع تتتابع دائماً أبداً بنفس الطريقة ، ٢ — وأن ممارسة العلم تنحصر فى الوصول ابتداء من أكبر عدد ممكن من الحالات ، إلى عمومية مجردة ، إلى ما هو مشترك بينها جميعاً ، ٣ — وأن وسيلة العلم هى التسجيل الرقمى وإلصاق بطاقة باسم خاص عما يتمخض عن فئات من الوقائع ، قائمة برأسها ، عن كومات خاصة ، تتيح التصنيف بالاستناد إلى كنه افتراضى، يسمى المتوسط.

٤ — ويترتب على ذلك أن دراسة الواقعة الفردية التى تقتصر على ذلك لا تدخل فى العلم كعملية من عملياته .

(ح) ومن هنا خطر الحكم بالرجوع إلى شعورنا الطبقى . فبلورتنا الطبقية تجعلنا نتوهم الخصائص التى ترجع فى أصلها للتاريخ وكأنها خصائص للطبيعة البشرية . فالأيديولوجية عند « ماركس » تتحدد بالعوامل الاقتصادية وتحدد دوافع الأفراد المنتمين إلى طبقة واحدة (تفكير طبقى) .

(د) ومن هنا خطر الحكم بالرجوع إلى شعورنا ، فالشعور كما أبان التحليل جزئى ومتحيز ، يرينا من العالم ما يتفق مع نظامنا الدفاعى ومن هنا يكون التشويه والتبرير فى الإدراك والفهم والاتجاهات ، (تشويه إدراكنا للمرأة دفاعاً وإبعاداً للتهديد بالخصاء) .

(ه) ومن هنا خطر الحكم بالرجوع إلى شعورنا ليس فحسب لأن العالم يعيد إلى كل واحد ما له من صورة عن نفسه ، وإنما لأن الشعور صيغة ممتازة ندركها بغير قاع أو قل ضمن قاع هو شعورى أيضاً ؛ أما القاع الحقيقى فيتبعثر عن طريق الإسقاط فندركه وكأنه ينتسب إلى الآخرين . ومن هنا ما نتوهمه من حتمية مسالكنا بمعنى أن الغير بما يتخذه من موقف يفرض علينا هذه المسالك مع أن ما نتوهمه من حتمية مسالكنا يرجع فى الحقيقة إلى قاعنا الخاص ، وقد أسقطناه على الغير فرأينا من خلاله دلالة مسلكهم . ومن هنا فنحن لا نمسك بالشعور ضمن قاعه الحقيقى . ومن هنا ضرورة التلقائية بالرجوع إلى ما وراء الذات للإمساك بها ضمن وحدتها الاجتماعية والتاريخية ، ضمن انتشارها الخاص بإزاء المشكلات العامة .

ثانيا — الاقتصار على التسجيل :

وذلك إما فى صورة الوصف السطحى أو فى صـــورة إحصائية رقمية

للوقائع (معامل ارتباط الخ..) . ذلك تقليد سطحى للمنهج الذى تستخدمه علوم الطبيعة .

(ا) والاقتصار على التسجيل يتوهم إمكانية تحقيق الملاحظة المطلقة وتجنب النسبية ، مع أن علوم الطبيعة لم تتقدم بالقضاء على النسبية ، وإنما تقدمت حين توقفت عن مجرد التسجيل لتبنى الوقائع بناء جديداً .

(ب) والاقتصار على التسجيل يتمشى فحسب مع النظرة الارسطالية التى تهدف إلى تكديس الوقائع فى فئات ، فى إنماط قوالب ، فى ماهيات ، استناداً إلى ما هو عام — بمعنى مشترك — يصلح أساساً للتجريد، وللوصول إلى الفئة بمعناها المعيارى أو التصوراتى .

(ح) والاقتصار على التسجيل — من حيث هو وسيلة لتحقيق العمومية المجردة — يغفل بالضرورة التباينات الفردية، إذ هى غير مشتركة وغير عامة، مع أن العلم ينبغى عليه أن يفسر لنا ويفهمنا هذه التباينات الفردية؛ وهذا لا يتحقق بتسجيل الوقائع، وإنما ببنائها بناء جديداً يتيح لنا أن نتبين نمط العلاقة المثالية التى تعد الحالات الفردية تباينات لها . ومعنى هذا أن العلم يبدأ من الواقعة الجزئية ليكشف عن نمط العلاقة المثالية ، أى أنه يستهدف الكشف عما هو مركزى لا مشترك (عمومية مركزية) .

(د) والاقتصار على التسجيل يغفل سياقات الوقائع وهى التى لا تنفصل عن تباينات الوقائع . فالريشة التى تطير ، والحجر الذى يسقط ، والكرة التى تتدحرج كلها مظاهر متباينة بتباين السياقات لنمط بعينه من العلاقة المثالية . وكذلك المسالك المختلفة والسوية ، واستجابات العميان والمبصرين، الرجال والنساء ، الكبار والأطفال الخ . . فكل هذه التباينات الفردية بتباين الانتشارات (رغم وحدة المشكلة من الناحية الموضوعية) تجد ما يفسرها فى تصور الموقف بالقياس إلى البيئة . فنفس المثيرات الموضوعية تتمخض عن انتشارات إدراكية مختلفة . ومن هنا قصور التسجيل السطحى

وصفياً كان أم رقمياً ، وضرورة الرجوع إلى الوراء لاكتشاف الوحدة من وراء الكثرة ، من وراء تباين المظاهر بتباين الانتشارات ،أو بعبارة أخرى ضرورة الرجوع إلى الوراء لبناء الوقائع بناء جديداً. فني هذا الرجوع إلى الوراء ما يسمح للباحث بأن يرى الوقائع لا كصيغة بغير قاع نبحث فيها عن المشترك ما بينها وبين غيرها لنقيم الفئات وإنما كصيغة ضمن انتشارها الخاص فى صلتها بالصيغ المماثلة ضمن انتشاراتها المختلفة وذلك بالرجوع إلى إطار واحد .

ثالثاً — التصورات الجامدة المصطنعة أو المقتطعة :

(ا) تجنب التصورات الإحصائية الجامدة كطفل السنة السادسة ، استناداً إلى معامل ارتباط بين بعض السمات وسن بعينها ، وكالعمر العقلى لهذه السنة أو تلك من سنى التطور الخ . .

(ب) تجنب النظر إلى نتائج الاختبارات بحسبانها صادقة ومطلقة ؛ فهى لا تعدو فى الحقيقة أن تكون تعبيراً عن لحظة بعينها من دينامية شخصية وبين — شخصية ، دينامية دائبة التغير كوحدة كلية حالية وزمنية معاً ، دينامية قوامها « الصيرورة إلى » ومن هنا يتحتم على الاختبار أن يتجه إلى الشخصية من حيث هى كذلك فلا يقف عند ما هو محيطى عارض ، وإنما يبلغ إلى ما هو مركزى ومتصل . فالاختبار ينبغى أن يتجه إلى صميم الظاهرة ، إلى الشخصية فى كليتها ، فيسمح بتبين التطور الدينامى بدلا من الاقتصار على قياس بعض الأداءات . فليست هنالك من حقيقة إلا حين نصل إلى مركز الشخصية .

(حـ) تجنب النزعة الواقعية بتصوراتها المقتطعة . فليس هناك مثير من ناحية واستجابة من ناحية أخرى ، ولا كائن من ناحية وموقف من ناحية أخرى ، فما من كائن إلا وفى موقف، وما من موقف إلا بالنسبة إلى كائن . وليس هناك فطرة من ناحية واكتساب من ناحية أخرى ، أو نضج من

ناحية وتعلم من ناحية أخرى ، فلا بد لكل تعلم من شىء من النضج ولا يتحقق النضج إلا حين تتوفر بعض المواقف المعينة،وليس هناك فسيولوجى من ناحية وسيكولوجى من ناحية أخرى ، أو إدراك من ناحية وسلوك من ناحية أخرى . ومفهوم القدرة نسبى فليس هنالك من قدرة فطرية تتبدى أو تتطور بغير شروط بيئية معينة . فالواقع إنما هو دينامية متصلة متاحة أبداً للتغير ، ولا يوجد شخص فى ذاته ، فى استقلال وعزلة ، وانما هو كائن فى موقف تنتظم العوامل فيه ضمن انتشار فريد . وهكذا يستحيل علينا الإفلات من النسبية ، فلم تعد الفيزياء الحديثة تعتقد فى إمكانية الاستبعاد التام لذاتية القائم بالملاحظة أو فى امكانية الوصول الى نتائج تجريبية تكون بمثابة نتائج للاحظة مطلقة ، فالعلم ينبنى عبر النسبية ، والآخر إنما هو دينامية شخصية وبين — شخصية متطورة (جشطلت حالية زمنية معاً) ، وتوجد ضمن انتشارها الخاص ، ويتضح معناها بمماثلتها بالتباينات الأخرى ضمن الإطار العام . والنسبية فى علم النفس تبدو من قول مورينو : « إن الموضوعية كيما تعمق يتحتم عليها أن تعانى نوبة من الذاتية » .

(د) تجنب النظر إلى القيمة والدلالة والغائية بحسبانها غير علمية .

والفيزياء تستخدم المتجهات . فكل سلوك ينبغى أن يدرس ضمن مجاله . والسلوك قوامه « توجه نحو » ومن هنا ينبغى أن نأخذ بالغائية ، لا على أنها منقوشة ثابتة فى طبيعة منعزلة ، وإنما على أنها غائية مشروطة خاضعة لموقف تعد إجابة عليه .

ما ينبغى اتباعه فى العلم

أولا : التجنيس و السياقات فى العلم

١ — مبدأ تكثر الأشكال : إذا لم يكن الآخر طبيعة لها نفس الهوية ولم يكن طبيعة مغايرة مغلقة على نفسها ، وكان ولا بد للذات من أن تنظر نظرة تكافؤ إلى نفسها وإلى الآخـــر . فإنه يترتب على ذلك أن تكون طبيعة الآخر مماثلة أى مساوية من حيث المبدأ ، مختلفة من حيث الظروف. فالأنا والأنت والهو أشكال متباينة ، لما هو واحد فى جوهره . وعليه يتحتم أن ننظر إلى كل شخص ضمن وحدته الاجتماعية والتاريخية ، ضمن انتشاره الخاص . فلا الطفل نسخة منا ولا هو عالم مغلق ، ولا المرأة مكملة لما يكونه الرجل ، لا ولا هى عالم مغاير مغلق . وإنما هى استجابات تتباين أشكالها بالنظر إلى تباين الانتشارات ، بمعنى تباين الانتظام الذى تتخذه عناصر الإطار الواحد .

٢ — العلم هو ما يتجه إلى مركز الشخصية : أما تكديس الملاحظات السطحية تكديساً وصفياً أو رقميا للوصول إلى لافتة أو متوسط حسابى ، فليس فى ذلك ما يفسر شيئا . فالعلم لا ينبغى أن يقف عند الخصائص والسمات الظاهرة لا ولا عند الأداءات والنتائج ؛ فلا بد من الوصول إلى البنية الباطنية . ومعنى هذا أنه ينبغى علينا أن نقلد علوم الفيزياء فى عمق . فبدلا من العمومية المجردة ، والنتائج المتواترة ، وخفض السلوك إلى جانبه المادى ، ينبغى أن نتبع النهج الفكرى « الجاليلى » . ومعنى هذا أننا بدلا من أن نفكر بلغة الفئات ينبغى أن نفكر بلغة السياقات ، مما يعرف بالتجنيس. وبدلا من أن ننظر إلى الظواهر على أنها غير مترابطة ننظر إليها على أنها ظواهر تنتمى إلى نفس الإطار وإن تباينت بتباين السياقات . وهكذا فلا

نضحى بتباينات الوقائع ، وإنما يتحتم علينا أن نفهمها . فالمسالك المرضية والمسالك السوية ، ومسالك المبصرين ومسالك العميان ، إنما هي استجابات مختلفة باختلاف السياقات لنفس الإطار . والتجنيس معناه أن المواقف متماثلة ، لا هي من نفس الهوية تماماً ، ولا هي مختلفة تماما ، ومن هنا ضرورة النظر إلى الآخر وإلى المجتمع الآخر ، وإلى الحضارة الأخرى على أنها متكافئة بما يتحقق بالرجوع إلى ماوراء الذات ، وإلى ماوراء مجتمعنا ، وإلى ماوراء حضارتنا . وباختصار فالتجنيس يشير إلى تباين الاستجابات بتباين المواقف من المشكلة الواحدة .

٣ — قوانين علم النفس لا يمكن أن تكون تتابعات للوقائع ، وإنما يتحقق علم النفس حين نفهم الأنواع المختلفة للحياة على أنها أجهزة متوازية تجيب على نفس المشكلة بطرائق مختلفة .

ثانيا : تصورات شرطية فى العلم

١ — بالإضافة إلى تجنيس حقل الوقائع : ينبغى استخدام تصورات شرطية تتناول الظاهرة ضمن سياقها الحالى والزمنى أى فى صلتها بالموقف والنشأة وذلك بدلا من الفئات .

هذا إلى تصورات مبنية بناء جديداً ، تتيح فهم الوقائع الفردية . وهذه الشروط هى التى تجعل من علم النفس علماً .

٢ — الواقعة الكيفية التى تبنى الوقائع بناء جديداً هى وحدها الأصيلة. فالواقعة الرقية لا تقول شيئاً فى فهم كنه الظاهرة ، والواقعة التاريخية ليس لها من دلالة فى ذاتها . والعلم لا ينبغى أن يستبعد المفاهيم الكيفية من قيمة ودلالة وغائية . فالسلوك ينطوى على « توجه إلى » ، وبالتالى

فالغائية مفهوم شرعى على أن نفهمها بحسبانها مشروطة خاضعة لموقف تعد إجابة عليه .

٣ — والموقف تصور من التصورات الشرطية الأساسية : فتصور الموقف وتصور الغائية إنما هما من التصورات العلمية مما يتضح بالنظر إلى « المتجهات » فى الفيزياء ، فهى تخضع للعلاقات المتبادلة بين وقائع عديدة . لجميع العناصر فى حالة علاقة بينية فى الحقل ، والموقف يشتمل فحسب على هذه العناصر التى تستطيع أن تستثير استجابة من جانب الكائن . فالموقف هو النتيجة المشتركة للتجارب الداخلية والمعطيات الخارجية . الموقف هو همزة الوصل بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى ، ومن هنا فهو أساسى لفهم الشخصية .

٤ — فى المنهج الجاليلى ترتبط دينامية الظاهرة بالموقف ، ومن ثم يصبح من الممكن مماثلة الظواهر الأخرى . والقانون هو هذه الصلة ، هو هذه الرابطة بين جميع المواقف ، بين جميع الحالات . إنه النموذج ، النمط المثالى الذى تعد هذه الحالات تباينات له .

٥ — يتطلب التجنيس وتتطلب التصورات الشرطية تغير النظرة إلى الغريزة . فطالما نظرنا إلى الغريزة على أنها طبيعة وغاية مطلقة فمفهومنا ارسطالى . فالغريزة من حيث هى « توجه نحو » مشروطة ترتبط بمواقف مفتوحة تستدعى شكلا معينا من التطور دون أن يكون هذا الشكل محدداً تحديداً كاملا . والغريزة بذلك تقترب من العادة والفعل اللا إرادى فيسرى عليها التجنيس . فهناك وحدة كلية من المسالك التى ليست الغريزة إلا لحظة من لحظاتها . إن الموقف المفتوح هو أشبه ما يكون « بالميلوديا » التى تقتضى نهاية معينة ، فغائية الغريزة لم تعد ممارسة لقوة تمتنع على التغير ، قوة فطرية تفعل ماتريد ، وإنما ينبغى النظر إليها بالرجوع إلى الوحدة الكلية للشخصية .

٦ — خصائص الذكورة والأنوثة تبدو جدمتوقفة على الناحية البدنية، ومع ذلك أبان التحليل استحالة فهمها بغير العلاقات البين — شخصية . فلئن كان فرويد فى البداية قد قرر أن ماهية الليبيدو إنما هى مذكرة بحيث يكون المؤنث مجرد صورة أخرى للاصل ، فإنه عاد بعــد ذلك وقرر الجنسية الثنائية بحيث لم يعد الجانب البيولوجى كافياً لتحديد جنس الشخص. ففى وسع العلاقات البينية أن تقلب الجنس رغم دعامته التشريحية. أما موقف أوديب فهو عند فرويد المدار المركزى بل المدار الوحيد ، وهو نمط ثابت استطاعت « ميد » أن تجعل منه نمط العلاقة المثالية فى المجتمعات الغربية . فالمشكلة الأساسية هى تبعية الأبناء للآباء والتفتح الجنسى السابق لأوانه عند الطفل . ولكن هذه العناصر وإن انتظمت فى انتثار أوديبى فى الحضارة الغربية فإنها تنتظم فى انتثارات أخرى مباينة فى الحضارات الأخرى . فميد اضطلعت بالتجنيس ووسعت مفهوم الشرطية . وفى رأيها أن العلاقة مابين الرجل والمرأة ، والأم والطفل ، هى ، الواحدة بالنسبة للأخرى ، سبب ونتيجة معاً وكلاهما يرتبط بموقف المجتمع من الطبيعة .

وعليه فعلاقة الذكورة والأنوثة إنما هى جانب من نسيج كلى . فكل مجتمع يعين تبعاً لطريقته فى الحياة نمطا من الذكورة ونمطا من الأنوثة مترابطين .

ثالثا : نمط العلاقة المثالية والواقعة العيانية كبداية ونهاية

١ — لا علم إلا منذ اللحظة التى يتم فيها بناء نماذج أو أنماط مثالية ، تسمح بمماثلة الظواهر المتباينة ، أى بالكشف عن الوحدة وراء كثرة التباينات ، أو بلغة الجشطلت الكشف عن هذه الصيغة التى تكون الظواهر الأخرى المماثلة ، تجسيدات لتبدلاتها الوضعية .

٢ — الواقعة الرقمية لا تقول شيئاً والواقعة التاريخية ليس لها من معنى فى ذاتها والواقعة الكيفية هى وحدها الأصيلة . وترجع ضرورة بناء الوقائع بناء جديداً إلى تضليل الشعور من حيث هو قاع وصيغة معاً . نحن حين لا نمسك بالآخر بالرجوع إلى إطار من أنفسنا ، وحين نمسك به فى انتشاره الخاص فمعنى ذلك أننا نمسك بأنفسنا ضمن قاعها الحقيق وذلك بالرجوع إلى ما وراء أنفسنا . يقتضى العلم إذن أن يكون شعورنا صيغة نمسك بها ضمن قاعها الحقيق ، هذا الذى يتبعثر عادة عبر الإسقاط فلا ندركه إلا فى الآخرين وكأنه ينتسب إليهم كقاع خاص بهم . والعلاج من حيث هو تعديل للشخصية إنما يتم فى التحليل النفسى والسيكودراما ، بفضل ما يتاح للشخص من أن يرى نفسه عن بعد ، ويتبين أن ما يتوهمه من حتمية لسلوكه وتحدد له عن طريق مسالك الآخرين إنما يرجع فى الحقيقة إلى طريقته هو فى إدراك مسالك الآخرين وصبغها بدلالة معينة . فسالكهم كانت تبدو له وكأنها تملى عليه سلوكه ، ولكنه يتبين أن هذه المسالك على نحو مايفهمها إنما هى إسقاط من جانبه، إنما هى انعكاس لقاعه الذى لا يدركه. وهكذا يذهب عن سلوكه ما كان يتوهمه له من حتمية فتتعدل الشخصية. وعليه فحين يتوهم الشخص أنه انعكاس للآخر وللظروف القائمة فإنما يكون هو المرجع والإطار فى نظره لهذا الآخر وللظروف ، وفى حكمه عليهم . وهكذا يتحتم إيقاظ التلقائية والرجوع وراء الدور العادى لنمسك بأنفسنا وبالآخر ضمن القاع المشترك، لا القاع الطبقى ولا القاع الدفاعى .

٣ — فلا بد من توفر علاقة حرة مع الآخر (موضوع الحكم) .

وتبعاً لحكمنا القبلى عن العلم والذى يستند إلى المفهوم الإحصائى ، يتوهم البعض تحقيق العلم عند توفر نتائج تتواتر بانتظام . أما الواقعة الفردية فتدخل فى رأيهم فى مجال الأدب وهى مرحلة تمهيدية للعلم . يقرر

جولد شتاين بأن دراسة عميقة لحالة فردية قد تزيد فى قيمتها عن دراسة واسعة وسطحية لآلاف من الحالات . فهناك نوعان من الاستقراء : استقراء سطحى نصل به من حالات كثيرة وعن طريق التجريد إلى عمومية مجردة، واستقراء مركزى حتى لحالة واحدة نبحث داخلها عن تقاطع الوقائع والتقائها ، فتمسك بأنموذج مثالى ، نمسك بنمط العلاقة المثالية ، هذا الذى يسمح بمماثلة الحالات الأخرى . وفى الحالة الأولى تعظم العمومية بقدر ما تكون الحالات الكثيرة فقيرة . وفى الحالة الثانية تكون العمومية بالوصول إلى مركز الظاهرة . والعمومية الإحصائية تجمع الملاحظات المؤيدة للظاهرة دون أن تفسر شيئاً ، وتلصق لها اسما . وبعض التصورات كالغريزة والقدرة كانت مجرد تسجيلات لفظية ، مجرد لافتة لمسالك مؤيدة قمنا بجمعها . ففى الحالين ننتقى عن طريق التجريد ، بعض السمات المشتركة بين المسالك والتى تتواتر بانتظام ؛ وفى الحالين يتسم علم النفس بالطابع الارسطالى، إذ ينصب على ماهو عام مجرد ، مما لاصلة له بالواقع، (المتوسط الإحصائى والتصور — اللافتة) .

٤ — <u>يتحتم على العلم إذن أن يتخطى التصورات الإحصائية والتصورات الوصفية إلى الحالة النقية</u> ، ونعنى هذه الحالة التى تكون فيها الوقائع الملاحظة هى المترابطة باطنيا وبصورة أساسية ، ومعنى هذا أننا من الناحية العقلية نبنى الوقائع بناء جديداً أو قل نستبصر بحقيقة بنيتها الداخلية . وما القانون إلا إنزال هذا البناء الذى نبنيه منزلة المثل الأعلى . فالعلم كيما يفهم ما هو عيانى يتحتم عليه أن يدير ظهره للعيانى بمعنى أنه يعيد بناء معطيات الحواس بطريقة عقلية حتى يمكنه أن يفهم التباينات الفردية . على العلم ألا يقنع بالتسجيل فى سلبية وإنما يعيد بناء المعطيات ليصل إلى بناء عقلى للواقع ،

ليصل إلى أنموذج للواقع ، إلى ما هو مركزى ، لا إلى ما هو عام عن طريق التجريد[١] .

---

(١) أن الرأسمالية تستند إلى سيكولوجية الفئات والأنماط والسمات الثابتة مما يتركز على النهج الارسطالى ، أما الاشتراكية فتستند إلى تكافؤ ما بين الذات والآخر ، فالكل واحد من حيث المبدأ ، والواحد كثير بتكثر السياقات . صميم الاشتراكية هو تكافؤ النظرة إلى الأنا والأنت والهو مما يستند إلى النهج الجاليلى . فليس الآخر من طبيعة مغايرة بحيث تقيم له فئة خاصة أو طبقة خاصة ، وليس الآخر من نفس الهوية بحيث يحصل الكل على نفس القدرة ، وإنما الآخر مماثل للذات : نفس العوامل ولكن تتباين سياقاتها ، مما تعبر عنه الاشتراكية : لا فروق طبقية وإنما هى فروق فردية ، هى فرصة متكافئة أمام الجميع ، أمام كل واحد تبعاً لإمكانياته الخاصة .

القسم الثانى

فى نظريات الشخصية ومبادئ السلوك

الفصل الرابع

فى الشخصية

تعريف الشخصية والسلوك ، بنية الشخصية ، صياغتها

نشأت سيكولوجية الشخصية من أصول تختلف عن الأصول التى أدت إلى نشأة السيكولوجية العامة وسيكولوجية الفروق الفردية . ذلك أن سيكولوجية الشخصية تستند أساساً إلى الدراسات والأبحاث الكلينيكية التى تمت فى نطاق العلاج النفسى . ومن هنا فليس من الغريب أن يمثل مفهوم الشخصية مكانة ممتازة فى التحليل النفسى . فالتحليل النفسى كعلاج يستند إلى العلاقة ما بين شخص وشخص . وهو يهتم كعلم نفس بتاريخ حياة الفرد بما ينطوى عليه هذا التاريخ من علاقات بين ـ شخصية . هذا إلى أن التحليل هو أحد التيارات النادرة فى علم النفس التى اهتمت بدراسة بنية الشخصية وتركيب الجهاز النفسى .

تعريف الشخصية

إذا كان العلم فى أعم معانيه وأدقها هو رد الكثرة ، كثرة الوقائع المتماثلة إلى وحدة القانون أو المبدأ أو التصور التفسيرى ، أو إلى أقل عدد ممكن من المبادىء أو التصورات التفسيرية (مبدأ الاقتصاد) ، فإن علم النفس لا يشذ عن ذلك . ذلك أن علم النفس هو محاولة ترد كثرة المسالك على تباينها إلى وحدة واحدة تفسيرية هى الشخصية . ومن هنا كان السلوك والشخصية هما التصوران المحوريان فى مجال الدراسات النفسية كلها . فالشخصية هى هذا المفهوم الذى نفترضه لنفسر به جميع المسالك على تكثرها وتنوعها .

وتكشف الدراسة التاريخية لتيارات علم النفس ومناهجه عن حركة تنطلق من الإختلاف والتعدد والافتراق لتنتهى إلى الالتقاء والوحدة والتعاون . فقد استطاعت بعض التصورات أن تخرج من صراع التيارات والمناهج مظفرة بشكل حاسم . ومن هنا غدا مفهوما الوحدة الكلية العضوية (بمعنى الجشطلت والدينامية) والوظيفية بمثابة الدعامة العامة والمسلمة البديهة التى تنطلق منها وتلتقى عندها كل الدراسات النفسية . وليست كل التعريفات الشائعة عن الشخصية وعن السلوك غير ترجمة عن هذين المفهومين ، فهى تقرر الوحدة الكلية بتفاعلاتها قبل أن تنتقل إلى الوظيفة .

فالشخصية هى هذه الجشطلت أى هذا الانتظام الدينامى داخل الفرد لأجهزته الفرعية ، والذى يحدد توافقاته مع البيئة . والسلوك هو هذه الجشلطت أى جملة العمليات الفيزيائية والشعورية التى يحاول بها الكائن فى الموقف خفض توتراته .

وإذا كان التحليل النفسى لم يحفل بتقديم تعريف للشخصية فإنه يكاد ينفرد من بين التيارات جميعاً باهتمامه ببنية الشخصية من حيث هى بناء ويقدم صورة عن تركيب الجهاز النفسى .

ولعل خير تعريف يستريح إليه العلم اليوم هو الذى نجده عند « أولبورت » والذى يجعل من الشخصية « هذا الانتظام الدينامى فى الفرد للأجهزة النفسية — الفسيولوجية والذى يحدد توافقاته الأصيلة مع بيئته » . وسنتناول الآن هذا التعريف بالشرح والتعليق على نحو يسمح لنا فى نهاية الأمر بأن نمسك أيضاً بتعريف السلوك .

فالشخصية « نظام دينامي » : وذلك تمييزاً لها عن الجمع الإضافى . فالشخصية ليست جمعا من العناصر وإنما هى بنية منتظمة ترتبط أجزاؤها

(بمعنى الأجزاء العضوية) بصلات التبعية المتبادلة. ولا يتعلق الأمر بنظام استاتى. فالانتظام دينامى بمعنى أنه ليس بانتظام نهائى بل يستحيل عليه أن يكون كذلك، فهو يخضع دائماً أبداً للتغير. فإن ما يميز الكائن الحى ينحصر فى قدرته على الانضباط الذاتى بحيث يمكن القول عن الشخصية بأنها تكامل، مكامل، أى حالة من التكامل العارض تستهدف تحقيق التكامل.

« الفرد » : وهو مصطلح لا يختلف عن الشخصية وإن كان يستخدم فى العادة لإبراز حالة التعارض مابين الفرد والنمط أو مابين الفرد والجماعة. وقد يكون من المفيد أن نعرض لمفهوم الكائن العضوى فإنه يشترك مع الشخصية والفرد فى صفة الانتظام الدينامى. والكائن العضوى مصطلح بيولوجى فى أصله. وهو يشير إلى الانتظام والتكامل أى من حيث انتظام المواد فى صورة جهاز، ومن حيث أن ما يميز الكائن العضوى ينحصر فى قدرته على المحافظة على وجوده من حيث هو جهاز موحد — موحد (بفتح الحاء وكسرها). وإننا لنجد هذه الفكرة عند الكثير من العلماء من أمثال « ريشيه الأب » و «كلود برنار» و «كانون». وكلود برنار يقرر «إن استقرار الوسط الداخلى هو شرط الحياة الحرة». وقد استخدم «كانون» مصطلح « هوميوستازيس ». (مبدأ اتزان وظائف البدن) للدلالة على خاصية عامة عند الكائنات العضوية، وتنحصر هذه الخاصية فى الميل إلى الإبقاء على ثبات الشروط الخاصة بالحياة وإقامة هذه الشروط الخاصة من جديد كلما طرأ عليها التغير. ويعنى « كانون » على وجه الخصوص الشروط الخاصة الداخلية.

ولكن لا ينبغى مع ذلك أن نغفل السلوك الرمزى والسلوك الخارجى. فهذه المسالك وتلك تساهم فى استقرار الوسط الداخلى تماماً كما يساهم الوسط الداخلى فى استقرارها، فهناك إحالة متبادلة. وفى هذا كله مايذكرنا بمبدأ «لوشاتيلية» Lechatelier فى الفيزياء وهو المبدأ الذى تستند إليه نظرية الجشطلت فى تعريفها للصيغة الحسنة أو ما يسمى بقانون الامتلاء بمعنى

« أحسن صيغة جشطلت ممكنة بالنظر إلى الظروف القائمة» . ويقرر هذا المبدأ أنه لو طرأ تغير على عامل من العوامل الحاكمة للاتزان فإن التغير يطرد على نحو يسعى إلى القضاء على آثار التغير الطارئ.. أما مبدأ «الثبات» constance عند فرويد فيعني « ميل الكائن الحي إلى خفض التوترات إلى أدنى مستوى ممكن ». وقد استعار فرويد هذا المبدأ من « فخنر » ليفسر به الإفراغ سيان فى حالة الإشباع أو فى حالة الدفاع . وهذا كله لا يختلف عن تصور الانضباط الذاتى والاتزان التلقائى .

أجهزة نفسية — فسيولوجية : إن الجهاز هو وحدة بنيوية أى وحدة منتظمة البنية. وإننا لنجد أجهزة كثيرة على مستويات أقل من مستوى الشخصية كما هو الحال بالنسبة للأجهزة الفرعية من عادات واتجاهات وسمات. فإننا مهما سرنا مع التحليل فسنجد أنفسنا دائماً أمام وحدات أكثر فأكثر فرعية، ولكن كل وحدة منها هى انتظام بنيوى. ويشير التعريف إلى أن هذه الأجهزة هى نفسية — فسيولوجية ، وذلك لأن الوقائع العيانية لا يمكن أن تكون نفسية خالصة أو فيزيائية خالصة ، فهى تعبر عن وجودها فى صورة فيزيائية وتنطوى فى الوقت نفسه على دلالة نفسية .

« *تحدد* » : تشير هذه اللفظة إلى صلة العلية ما بين الشخصية كعلة والسلوك كمعلول . فالشخصية هى هذا الجهاز الذى يحدد الأفعال . ولكن ليس معنى هذا أن الشخصية لا تتأثر بالسلوك ، فهنالك إحالة متبادلة بينهما. فآثار السلوك لا تقتصر على استجابات الإشباع أو الدفاع التى هى أهداف السلوك ، وإنما هنالك آثار ثانوية للسلوك ؛ فتكوين الشخصية وجهاز العادات يعد نتيجة للسلوك . ولكن بالإضافة الى هذه الآثار المتصلة بالشخصية فهنالك آثار أخرى تتصل بالبيئة ، ونعنى بها التغيرات فى العالم الخارجى وخاصة الاستجابات المترتبة على استجاباتنا عند الآخرين؛ هذا الى نتاجات السلوك من أعمال ومؤلفات ومخترعات الخ .

وهذه كثيراً ما تنعكس تأثيراتها على الشخصية ، ومن ثم يقال « إن الفنان يبدع نفسه إذ يبدع لوحاته » .

ومهما يكن من أمر فإن الشخصية تعد بمثابه الجهاز المحدد للسلوك . ولكى نفهم ذلك ينبغى أن نفهم معنى الدافع أو الحافز . فالحفز هو هده الحالة من التفكك التى تطرأ على الاتزان الذى كان متحققا ، وهى حالة قوامها التوتر الذى يدفع الكائن إلى الحركة حتى يخفض التوتر ويستعيد التكامل . والمصدر الأخير للحفز فى رأى التحليل هو الغرائز وقد هذبها التطبيع الاجتماعى وشكلتها الخبرة الفردية . ومن هنا يمكن القول أن الدوافع هى عامة عند جميع الناس ، وهى هى عند بعض الناس، وهى فريدة عند كل واحد من الناس . وتتبدى الغرائز إما فى صورة حاجات أو انفعالات . وتتفاوت الحاجات عند « ماسلو » وذلك من حيث أهميتها بالنسبة إلى فرد فرد . وهكذا تنحصر عملية استحداث السلوك فى الشعور بحاجات الشخصية وفى اكتشاف الأهداف والموضوعات والوسائل المناسبة للإشباع. وحيث أن خفض التوترات وتحقيق الإمكانيات ، ومن ثم التكيف مع الواقع ، هى من وظائف الأنا فإننا نتبين الخطورة البالغة لكل ما من شأنه أن يضعف قوة « الأنا » من ارتشاحات الهى ، كما يحدث فى حالة القوة المسرفة للحفزات الغريزية ، أو من ارتشاحات الأنا العليا مما يتضح فى قهر التكرار . وفى هذا كله ما يحول دون التكيف فى مراعاة للآثار البعيدة للسلوك . وتعد «الأنا» قوية بقدر ما يكون لها من حرية تجاه جهازى «الهى» «والأنا العليا»، وهذه الحرية تعكس فى واقع الأمر كمية الطاقة المتاحة لتصرف الأنا فى جانبها الشعورى ، والتى تتحدد تبعاً لما تكون عليه كمية الطاقة المستنفدة فى الدفاعات (وجهة النظر الاقتصادية) .

وعلى أية حال فإن الدافع هو التغير الذى يطرأ على الكائن العضوى فيدفعه إلى الحركة استجابة لمنبهات خارجية أو داخلية ولدت فيه حالة من

التوتر والتفكك . ويتبدى الدافع إما فى صورة « حاجة » داخلية المصدر أو حاجة أثارتها المنبهات الخارجية . ولكن ينبغى أن نتنبه إلى أن المثيرات الخارجية لا يمكن أن تكون مثيرات إلا بالنسبة إلى الكائن المتهىء؛ فالمثيرات الخارجية فى ذاتها خلوة من الدلالة المحددة .

«توافقات» : تشير هذه اللفظة إلى عملية التكامل ، وإلى ما للسلوك من دلالة وظيفية قد تقتصر على التوافق دون أن تبلغ مستوى التكيف . فعملية التكامل تشتمل على تحقيق الإمكانيات وخفض التوترات. وينحصر التكامل فى هذه العملية التى يضطلع بها الكائن العضوى فيقيم من جديد وحدته العضوية مستعيدا حالة الاتزان ما بينه وبين البيئة ، وإن لم يكن من طبيعة هذا الاتزان أن ينعم بالاستقرار . فالحياة إنما هى سلسلة من محاولات إعادة التوافق أو قل تعاقب حالات اختلال الاتزان ومحاولات إقامته من جديد . وقد يكون من المفيد أن نميز مع علماء النفس الفرنسيين ما بين التكيف والتوافق Adjustment and Adaptation . فالتكيف يشير إلى الأفعال التى تتمخض عن أثر طيب بالنسبة للفرد وللنوع . بينما يشير التوافق إلى التخلص من التوتر ودون ما اعتبار للقيمة التكيفية . فالحيوان الجائع الذى يأكل ثمرة سامة يضطلع بعملية توافق لأنه يخفض توتر جوعه ، ولكنه يأتى بذلك على حياته ، والفرد الذى يتسول يشبع حاجاته ولكنه يأتى بذلك على قيمة ذاته . وتتضح قيمة هذا التصور بالنظر إلى النظرية الوظيفية لاختلالات السلوك . فالذهان (المرض العقلى) والعصاب (المرض النفسى) هما محاولات توافقية غير متكيفة . فوإن كان كل سلوك يستهدف إنهاء التوتر أو خفضه ، فهناك فارق ما بين السلوك الذى يصل إلى ذلك عن طريق الإشباع وما بين سلوك الدفاع ضد التوتر ، بل وهناك فارق ما بين إشباع وإشباع وما بين دفاع ودفاع . فالرجل الذى يفشل فى أن يحقق فى مستوى الرشد تقدير زوجته له واهتمامها به يمكن عن

طريق النكوص أن يحقق ذلك بفضل الشلل الهستيرى ، بل ويمكنه عن طريق نكوص أمعن أن يزيل التوتر بانفصام عن الواقع .

ودلالة السلوك يمكن تعريفها بأنها الخاصة الموضوعية التى تتحقق بتكامل الدافع وإرضائه . فدلالة السلوك فى حالة الحيوان الظمآن هى الدفاع ضد المشاعر الأولية للعطش وتحقيق الارتواء . ولقد كان للتحليل النفسى فضل كبير فيما يؤمن به اليوم علم النفس الحديث من وجود دلالة للسلوك بل ولاختلالات السلوك . فسلوك المجرم مثلا له دلالة معينة بالقياس إلى شخصيته وتاريخ حياته . فدلالة النشاط الإجرامى بصورة عامة تنحصر فى خفض التوترات الناشئة عن صراع انفعالى لا شعورى ينتسب إلى الطفولة المبكرة . وهذا الصراع « المتمحور حول الذات » يعانى إزاحة عند المجرم فيغدو صراعاً مع « العالم الخارجى » . وينبغى التنبيه إلى أنه **ليس للسلوك دلالة واحدة وانما جملة من الدلالات** ترجع إلى تعدد الأسباب الحاكمة للظاهرة surdéterminisme . فالتحليل النفسى يهدف فى بحثه إلى الكشف عما للسلوك من دلالات عديدة .

«**الأصيلة**» : بمعنى أن التوافقات الصادرة عن الشخص إنما تتصف بالأصالة . فإن كان كل شخص هو من وجه كجميع الناس ومن وجه آخر كبعض الناس فإنه يظل مع ذلك مختلفاً عن جميع الناس . فالانتظام البنيوى لشخص ما يكون كلا فريداً ، وإن اشترك مع البعض ومع الجميع من بعض الأوجه .

«**البيئة**» : ونعنى بها البيئة من حيث هى نمطية وفريدة معا . فلئن بدت البيئة هى هى بعينها حين ننظر إليها من الزاوية الخارجية فإنها تظل مع

ذلك فريدة من حيث هي موقف يعيشه هذا الشخص أو ذاك . وهذه التفرقة تذكرنا بما نجده في الجشطلت من تمييز ما بين البيئة الجغرافية والبيئة السلوكية . وينبغي أن ننتبه إلى هذه الحقيقة وهي أن الكائن العضوي إنما هو دائماً أبداً في موقف ، وأنه لا موقف إلا بالنسبة إلى كائن عضوي . والمنهج التجريبي يغرق في الوهم حين يتخيل إمكانية عزل الكائن العضوي عن كل دلالة خاصة وإخضاعه فحسب لما يريده المجرب . فإننا لو عزلنا الحيوان في قنينة لكانت هذه القنينة بالنسبة إليه موقفاً له دلالته الخاصة . ولعل هذا هو ما يعيبه أنصار النزعة الكلينيكية على المتحمسين للتجارب المعملية في علم النفس تحت ما يسميه الأوائل « بوهم القنينة » . وقد يذكرنا ذلك بتجارب « بافلوف » على الكلاب وما انتهت إليه من خلق للعصاب التجريبي عند بعضها . فلقد جاء وقت ظهرت أعراض الاضطراب على بعض هذه الكلاب فلم تعد تستجيب للمثيرات التجريبية ، وإنما استجابت للموقف في إجماله بما ظهر عليها من اضطرابات وإعراض عن مساعدة التجارب . وكذلك الحال في التحليل النفسي حين يتوهم البعض الحيادية في الجلسات بحسبانها ثباتاً لا يتبدل . فإن المريض يضفي على العناصر دلالة ذاتية إلى حد بعيد، مما يتضح بالنظر إلى ظاهرة الطرح .

وقد تبدو الحالة التي تتولد فيها الرغبة أو الحاجة ناشئة عن مصدر داخلي وكأنها دحض للقول بضرورة وجود الكائن العضوي في موقف . ومن المعلوم أن السلوك هو استجابة لمثير وقد لا يكون خارجياً وإنما داخلياً . ولكن ليس لنا حتى في هذه الحالة الأخيرة أن ننكر وجود الموقف ولو في صورة عقبة أو في تغيب موضوع السلوك . وعليه فإن للبيئة دائماً دلالتها سيان كان ذلك عن طريق توفر الموضوع أو تغيبه .

هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى فإنه ما من موقف إلا بالنسبة إلى كائن عضوي . فلابد من كائن يستمتع بجهاز حسي حتى يتم إدراك الموقف من

حيث هو كذلك . فإذا لم يتم هذا الاستقبال الحسى للموقف فهو غير قائم ولا وجود له. وبديهى أن الكائنات العضوية لا تستجيب بنفس الطريقة. فقدتبدو المثيرات موقفا يتقبله الواحد ويقبل عليه أو موقفاً يستجيب له الآخر بطريقة عدائية. فالموقف ليس هو هو فى الحالتين؛ فبنية المثيرات لا تنتظم على نفس النحو وإنما تنتظم فى كل حالة تبعا لشخصية الشخص . ومن هنا فإن الأفراد لا يجدون لمثير ما نفس القيمة أو عين الدلالة . ومعنى هذا أن مجرد إدراك الفرد لمثير ما ينطوى على استجابة منه ؛ فمن الممكن حتى أن يعمى عن إدراكه كما يحدث عندما يفتش الشخص عن كتاب وعدبه شخصا آخر ولكنه فى أعماقه لا يريد إعارته إياه .

وهذا مايعنيه « ها كسلى » فيما يذهب إليه من أن « المواقف تشبه الأشخاص » . فوفاة الأم موقف تختلف دلالته بالنسبة لما يكون عليه عمر الأولاد . وليس للواقعة من دلالة مطلقة أو ثابتة . فإن دلالتها تتوقف على شخصية الفرد المضطلع بالإدراك . وأكثر من هذا كله أن مجرد وجود الشخص فى موقف ما يمكن أن يعد من جانبه سلوكا ، بمعنى أنه يتم نتيجة لفعل إيجابى من جانبه . ولعل هذا ما يشير إليه البعض فى قوله بأنه من الخطأ أن نتوهم أن التجارب تعلمنا دائما، فما أكثر ما نعاود نفس الأخطاء. وحسبنا أن نذكر هنا « بعصاب القدر » حيث يسلك بعض الأفراد على نحو ينتهى بهم دائما إلى العودة إلى نفس الموقف . يبدو ذلك فى الأبحاث التى تمت عن الجرائم العاطفية وإصابات العمل ؛ ومن أمثلة ذلك حالة الرجل الشهير الذى تمكنه إمكانياته من الانتقاء الفسيح ولكنه مع ذلك ينتزع فى كل مرة زوجة آخر لتكون شريكة حياته .

ليس هناك إذن من كائن عضوى مطلق أو من موقف مطلق ، وإنما هنالك تبعية وتأثير متبادل بينهما . وهذا هو ما يسمى بالحقل النفسى الذى ينطوى على التوتر ويتحقق فيه ضرب من الاتزان . فإذا ما تغير هذا الحقل

كان لنا أن نتحدث عن السلوك . وليست المواقف بالنسبة للكائن البشرى مجرد مواقف فيزيائية وإنما هى اجتماعية فى نفس الوقت، بل إن الوجه الفيزيائى للموقف لا يتم غالبا إدراكه إلا من خلال إطار اجتماعى .

تعريف السلوك :

نستطيع الآن أن نتبين ما يمكن أن يكون عليه التعريف الشامل للسلوك. ولقد جاء وقت انتشرت فيه التعريفات « الإضافية » ونعنى هذه التى تنصب على العناصر التكوينية وكأنها مواد بناء السلوك ، فهى تعرف السلوك عن طريق نسيجه ،مضمونه ومحتواه . ولكن التعريفات اتجهت بعد ذلك وجهة وظيفية بمعنى أنها تعرف السلوك عن طريق وظيفته: فالسلوك جملة استجابات الكائن العضوى إزاء المواقف التى تخلق فيه توترا يتم خفضه عن طريق هذه الاستجابات . ولكن السلوك وإن كان مستحيلا بغير توتر وإفراغ للتوتر إلا أن مثل هذه التعريفات تلح بالأهمية على الوظيفة الدفاعية للكائن العضوى فتظهره وكأنه مجرد إفراغ للتوترات التى يشحنه بها الموقف . وقد أبان « جولدشتين » عن أن مثـــل هذه التعريفات إنما تلائم الكائن العضوى الذى لم يكتمل نضجه بعد أو الذى يوجد فى ظروف مقيدة كالمرض أو الاجهاد ، بينما ينبغى على تعريف السلوك أن يولى الجانب الايجابى ما هو أهل له من أهمية ، ونعنى بذلك تحقيق الكائن لإمكانياته وما يتصل بذلك فى حالة الكائن البشرى من خلق وإبداع .

وهكذا يمكن تعريف السلوك بصورة شاملة فنقول بانه جملة العمليات المادية والرمزية التى يحاول بها الكائن العضوى فى موقف تحقيق امكانياته وخفض توتراته التى تدفعه الى الحركة بتهديدها لتكامله .

إن الخاصية الأساسية للسلوك هى دلالته التى تنحصر فى خفض التوترات. ويتضمن السلوك البشرى فيما يتضمن : (أ) التفكير الشعورى الذى هو سلوك رمزى يحل محل السلوك المادى أو يمهد له: فهو تجريب عقلى ، يلعب فيه تأجيل الاستجابة وتوقع السلوك دوراً هاماً (ب) كما يتضمن السلوك « الاتصال » من حيث هو مظهر أساسى لتفاهم الكائن مع بيئته .

بنيـــة الشخصية

يحسن بنا عند الحديث عن بنية الشخصية أن نستعرض جملة التصورات التي تتصل على نحو أو آخر بمفهوم بنيـــة الشخصية. ولو نظرنا في هذه التصورات لوجدنا أن بعضها يتميز بمصدره البيولوجي بينما يتميز البعض الآخر بمصدره السيكولوجي. بل إننا نستطيع أن نميز في الأخير ما بين التصورات التي تنصب على الشخصية في إجمالها وبين أخرى تتناول بعض الأوجه الجزئية من الشخصية.

إذا نظرنا في تصورات الفئة الأولى لوجدنا تصور الكائن العضوي الذي سبق أن رأينا اشتراكه مع تصور الشخصية في فكرة الانتظام الدينامي. فليس هناك من فارق جوهري بين التصورين. أما تصور البناء البدني فيشير إلى جملة العوامل الوراثية التي تحدد التطور المقبل للفرد. ومن المعلوم أن نظرية البناء البدني[1] تنظر إلى بنية الشخصية على أنها نتاج العوامل الوراثية والنضج البيولوجي. وأما المزاج[2] فلا يختلف عن التصور السابق إلا من حيث إلحاحه بالأهمية على وظائف الهرمونات؛ وإن لم تكن هنالك ضرورة للتفرقة بين التصورين.

وإذا انتقلنا إلى الفئة الثانية ألفينا تصور الفرد، الذي سبق أن أشرنا إليه، وتصور الشخص وكلاهما لا يختلف عن تصور الشخصية. وأما تصور الذات وهو تصور لا ينبغي خلطه مع تصور الأنا في التحليل النفسي، فإنه يشير هنا إلى الشخصية كما تبدو في الامتثالات والأفعال وقد أسبغ عليها الشعور قصدا. وتتميز الذات بالوحدة التي تتبدى في صورة الاتصال والاستمرار والتعالي كما تتميز بأنها قيمة. فالذات ليست معادلة للشخصية التي هي تصور موضوعي، أو هي تصور من قبيل تضمير الغائب، بمعنى أنه

Temperament (٢)   Constitutional Theory (١)

تصور لاينطوى على ذاتية المتكلم أو ذاتية المخاطب . فتصور الشخصية يشتمل على النشاط الشعورى اشتماله على النشاط اللاشعورى ، بينما الذات هى موقف الشخصية تجاه نفسها وتجاه الآخرين . وأما تصور الخلق character فيشير إلى جملة أحوال الكيان والاستجابة إزاء المواقف وإزاء الذات . وليس هنالك من اختلاف ما بينه وبين الشخصية . وكل ماهنالك أن مفهوم الخلق قد بدأ فى السنوات الأخيرة يخلى السبيل أمام مفهوم الشخصية .

وفيما يتصل بالتصورات السيكولوجية التى تنصب على أوجه جزئية من الشخصية ، فإننا نجد تصور السمة Trait وهو تصور وسط مابين وحدة الشخصية وكثرة المسالك . والسمة هى جهاز نفسى فيزيائى يحدد القدرة على الاستجابة إزاء مواقف عديدة بمسالك متعادلة الدلالة .

وأما تصور الاتجاه attitude فيشير إلى استعداد الشخصية للاستجابة تجاه نمط معين من المواقف بسلوك جاهز ومعد من قبل. وأما القدرة ability فتشير إلى سمة الشخصية حين ننظر إليها من زاوية معدل الإنتاج .

فإذا انتقلنا إلى التحليل النفسى وجدنا أنه يتناول مشكلة بنية الشخصية تناولا جديداً ومباشراً . وهناك مرحلتان متميزتان عند فرويد تظهر الأولى فى كتاب « تفسير الأحلام » عام ١٩٠٠ وتظهر الثانية فى كتاب « الأنا والهى » عام ١٩٢٣ .

تميز النظرية الأولى بين ثلاث حالات تكون عليها الوقائع والعمليات النفسية ، ونعنى الحالة الشعورية وشبه الشعورية واللاشعورية .

فقد اعتمد « فرويد » على الفهم الكلاسيكى للشعور فأغفل تعريفه فى غمرة حماسة اللاشعور. أما اليوم فإن نظرية التحليل النفسى تنظر إلى الشعور على أنه وظيفة للأنا دون أن يكون له امتداد الأنا، بمعنى أنه لا يحتل حيزها كله . ومن ثم يتميز الشعور بطابعى الجزئية والتحيز ، فهو لا يمثل كل الحقيقة ، وهو لا يقدم عنها بالتالى صورة موضوعية .

وأول ما يحد من نطاق الشعور هو شبه الشعور وتوصف به عمليات نفسية كامنة ولكنها متاحة إذ يستطيع صاحبها بشيء من الجهد استدعاءها إلى مسرح الشعور وتتعلق هذه العمليات بالمعارف والذكريات التي لم تتعرض للكبت .

وأما العمليات أو الوقائع التي توصف بأنها لا شعورية فهي أيضاً كامنة ولكنها غير متاحة. وذلك لأن القوى الكابتة (ميكانيزمات الدفاع) تسد عليها الطريق فتمنعها من أن تخرج إلى مسرح الشعور. وعندما يسمح العلاج النفسي بإضعاف مقاومة المريض أي هذه القوى الكابتة فعندئذ تستطيع الوقائع اللاشعورية أن تدخل إلى الشعور فيدركها الشخص ويعمل على مواجهتها، وهي التي عجز في الماضي عن مواجهتها فالتجأ إلى كبتها . وهذه العمليات اللاشعورية تؤثر أعظم الأثر على الشخصية والسلوك. فنوبة الاكتئاب مثلا ترجع إلى وجدان لاشعوري بالإثم تتولد عنه حاجة لا شعورية إلى التكفير بمعاقبة الذات بالعذاب والفشل. وعادة ما تتعرض النزعات الجنسية للكبت في سنوات الطفولة . وتتميز النزعات المكبوتة بالدينامية بمعنى أنها تجاهد من أجل الخروج مما يتحقق في الأحلام والأمراض العصابية . ومن هنا كان ارتباط عودة المكبوتات بنشأة الأمراض النفسية، من قبيل عودة النزعات الفمية المكبوتة في ذهان الهوس الاكتئابي ، وعودة النزعات السادية الأستية في مرض الحصار ، والنزعات الأوديبية في هستريا التبدين .

ظهر قصور هذه النظرية بتقدم دراسة الأنا وميكانيزمات الدفاع . فقد كان اللاشعوري مرادفاً للمكبوت . فكشفت الدراسة عن أن القوى الكابتة تعمل بطريقة لا شعورية ومع ذلك فهي كابتة لا مكبوتة . ومن هنا لم يعد من الممكن وصف عمليات الصراع بحسبانها حالات شعورية تتصارع مع حالات لاشعورية ، ولم يعد هذا التعارض كافيا لفهم بنية الشخصية وتركيب الجهاز النفسي .

ومن هنا يميز « فرويد » فى النظرية الثانية بين ثلاثة أجهزة أو منظمات للحفز والفعل. وتنبغى الحيطة من النزعة التأنيسية. فلئن كانت هذه الأجهزة تبدى أحيانا فى الأحلام فى صورة حيوان أو لص (الهى) أو شرطى (الأنا أو الأنا العليا)، فهذه المصطلحات تشير فحسب إلى الأجهزة الفرعية التى تتفاعل فيما بينها أثناء الصراع . وليست الشخصية غير هذا الانتظام أو هذا الاتزان الذى يتمحض عن تفاعل هذه الأجهزة . وليس السلوك غير هذه المحصلة التى تتمحض عن صراع هذه القوى فى موقف بعينه .

الهى : Id

يشير هذا المصطلح من الناحية التاريخية إلى ما هو فطرى ، ولا إرادى ولا شعورى . وتمثل « الهى » صورة الجهاز النفسى بعد الميلاد مباشرة ، وقبل أن يتمايز منها كمادة أولية الجهازان الآخران. وتشتمل الهى على الحفزات التى تتميز من الناحية الوظيفية باشتراكها فى هدف عام هو إفراغ وخفض التوترات بإشباع الحاجات دون ما اعتبار للواقع . فهى من هذا الوجه تتميز من الناحية الوظيفية بالنمط الأولى أى بالعمليات الأولية التى يهيمن عليها مبدأ اللذة فى غير ما اعتبار للزمان والعلاقات المنطقية . وتبرز الحاجات المميزة للهى فى الأحلام سواء منها الطموحة أو الاعتدائيه أو الجنسية .

الأنا : Ego

تنشأ الأنا نتيجة لتمايز « الهى » عند اتصالها بالوقائع الخارجية . وجهاز الأنا هو أكثر الأجهزة سهولة من حيث الوصول إليه . فنشاطه شعورى فى معظمه ، ونعنى بذلك الإدراكات الخارجية والإدراكات الداخلية والأحكام العقلية . ولكن هذا الجهاز قريب من الشعورى فى بعضه الآخر ونعنى بذلك مستودع المعارف والذكريات، وهو لاشعورى فى بعضه الثالث نظراً لأن ميكانيزمات الدفاع تعمل كما رأينا — بطريقة لا شعورية. ويهيمن مبدأ الواقع على بنية الأنا ، مما يتضح فى التفكير الموضوعى .

وتضطلع الأنا بالدفاع عن الشخصية وتحقيق توافقها مع البيئة كما تضطلع بالتحكم فيما يجب إدراكه أو فعله ، فهي :

(١) تضمن توافق الشخصية مع البيئة والدفاع وذلك بخفض توتراتها وتحقيق إمكانياتها . وهي في ذلك تضطلع بفض الصرعات داخل الكائن بين حاجاته المتعارضة ومابينه وبين البيئة .

(٢) تتحكم فيما ينبغي إدراكه وفعله بتنظيم عملية الوصول إلى الشعور أو إلى التعبير الحركي. فبعض الحفزات لا تسمح لها بأن تصل حتى إلى الشعور ، ناهيك عن التعبير الخارجي ، بينما تسمح للبعض الآخر بالدخول إلى الشعور دون أن تتجاوزه إلى السلوك الصريح .

(٣) تضطلع بتنسيق أوجه النشاط وجدولة الدوافع التي تحفز الشخصية تبعاً للأهمية الزمنية بما قد يتطلبه ذلك من تكييف لمستوى الطموح بخفضه أو برفعه .

(٤) وفي اضطلاع الأنا بكل ذلك قد تجد ما يحدها ويقيدها في انعدام أو نقص بعض القدرات ، وفي ضآلة كمية الطاقة المتاحة تحت تصرف الجانب الشعوري ، وفي ارتشاحات الهي والأنا العليا ، هذه التي قد تكره الأنا على العمل في اتجاه غير ملائم بل وقد تكفها عن العمل[1].

الأنا العليا : Super-ego

عادة مانعني بالأنا العليا هذه الحفزات والدوافع التي تتميز من الناحية الوظيفية باشتراكها في هدف عام هو تجنب الانطباعات الأليمة ، من قلق وإثم واشمئزاز وخزي ، هذه التي تفرض نفسها حين يتم إرضاء حفزات الهي رغما عن المقتضيات الخلقية والاجتماعية .

---

(١) وظائف الأنا هي وظائف الشخصية ، لأن الأنا هي الجهاز الذي يضطلع بمسئولية التوافق عند الإنسان بينما تكفي الغرائز — جهاز الهي إن جاز القول — في حالة الحيوان .

وتنشأ الأنا العليا اشتقاقاً من الأنا وذلك بمباطنة الصورة المثالية للوالدين من حيث هما الموضوعان الأوليان للحب ، مما يحدث عند تصفية الصراع الأوديبي . وفى الحالات السوية يتم التطابق مع الصورة المثالية للوالد من نفس الجنس . وهذا التطابق مع الصورة المثالية للوالد هو أصل نشأة الضمير الخلقى ، هذا الذى يكون المرجع فى تقرير الذات وفى الشعور بالرضا أو بالإثم. ويمكن القول أن جهاز الأنا العليا ليس غير صورة معدلة للأنا تنتج عن مباطنة أساليب الكبت التى يعانيها الفرد أثناء تطوره . وإذا كان فرويد ينسب الدور الرئيسى إلى التطابقات التى تحدث عند تصفية الصراع الأوديبى، فثمة فى الواقع تطابقات أخرى هامة سابقة عليها ولاحقة لها .

أما المثل الأعلى للأنا فهو الآخر ليس غير صورة معدلة للوهم الطفلى فى امتلاك القدرة المطلقة على نحو ما تتجسد فى الوالد وفى الشخصيات اللاحقة عليه إبان التطور .

إن التحالف من جانب الأنا العليا مع الأنا هو الذى يضمن للأخيرة الدفاع ضد الغرائز. ولكن الأنا العليا لا يتضح نشاطها بشكل بارز إلا حين تكون فى حالة صراع مع الأنا . عندئذ تعمل الأنا العليا على إنماء مشاعر القلق والإثم والاشمئزاز والخزى . وإذا كانت ملاحظة الذات وانتقادها تنتمى إلى السوية ، فإن الأمر يبلغ فى الحصار والسوداوية الحد الذى تصبح فيه الحياة عذابا لا يحتمل . فى هذه الحالات تستبد بالفرد حاجة قوية إلى اتهام الذات وعقابها بمعاناة العذاب والفشل . فعندما لا تكتمل نشأة الأنا العليا على الوجه الصحيح تغلب عليها لجاجة المنطق والسادية ، مما يعرف بالأنا العليا السادية ، هذه التى تعامل الأنا معاملة الوالد الفظ المستبد .

ولكن إذا كان جهاز الهى يستهدف إشباع الغرائز ، وكان جهاز الأنا العليا هو الذى يمكن الأنا بتحالفه معها من الدفاع ضد الغرائز ، فثمة

مع ذلك شبه عميق ما بين الجهازين : فجهاز الأنا العليا هو التتاج الختامى لتطابق الطفل مع الموضوعات الأولية لحفزاته الغريزية . هـــذا إلى أن الأنا العليا والهى يعدان تعبيرا عن الماضى . وإذا كانت الهى تمثل الوراثة فإن الأنا العليا تمثل التأثيرات الوالدية والاجتماعية . أما الأنا فتتحدد أساساً عن طريق الخبرة الفردية ، ومن ثم فهى تمثل الحاضر . وهكذا يرتد المتناقضان إلى وحدة الماضى ، ويتمخض صراع الجانبين المتناقضين للماضى عن ائتلاف جديد حاضر هو الأنا .

وقد يكون من المفيد قبل أن نختم الحديث عن بنية الشخصية من زاوية التحليل النفسى أن نشير إلى تصور العقدة أو المركب ، فقد كثر استخدام هذا التصور على النحو الذى يبدو فى عقد أوديب والخصاء والدونية .

ويدخل تصور العقدة ضمن سمات الشخصية ويشير من حيث مفهومه إلى حساسية نوعية تجاه ضرب بعينه من المواقف والاستجابة له بمسالك متعادلة الدلالة . وتنشأ العقدة فى لحظة من تاريخ الشخص مما يتضح مثلا عند النظر إلى عقـدة الدونية هـذه التى تبـاين مجرد الشعور بالدونية . فالشعور بالنقص تجربة شعورية تقتصر على الموقف الراهن وهى تجربة يعيشها الشخص فى موقف لا يرى نفسه فيه من الارتفاع بالدرجة اللائقة به . أما عقدة الدونية فقوامها الدفاع ضد الشعور بالنقص . ففى المواقف التى يمكن أن يتولد فيها شعور النقص عند ذلك الشخص فإنه يطور من وسائل الدفاع ما يسمح له بأن يموه على نفسه وعلى غيره ما يتهدده من إحساس بالنقص . فالعقدة جهاز دفاعى ضد المشاعر الأليمة سيما القلق ، بما يسمح بالدفاع ضد الإحساس بالنقص والذى يتهدد الشخص فى المواقف الاجتماعية . وتصور العقدة وإن شابه تصور السمة والعادة إلا أنه يلح أكثر منهما على فكرة الانتظام الكلى .

بنية الشخصية وتفسير الوقائع :

كان فرويد فى دراسته للظواهر النفسية يتناولها من جهات ثلاث مختلفة هى : الطوبوغرافية والاقتصادية والدينامية .

أما وجهة النظر الطوبوغرافية فتعنى ببساطة تركيب الجهاز النفسى من حيث اشتماله على ثلاث منظمات للحفز كما أوضحنا ؛ وقد انتهى إلى أن كل صراع يتكشف آخر الأمر صراعاً ما بين الأنا والهى . أما الأنا العليا فهى إما أن تكون فى صف الأنا أو تقف ضدها .

وأما عن وجهة النظر الاقتصادية ، فقد اهتم التحليل النفسى فى دراسته للظواهر النفسية بالناحية الكمية للقوى الداخلة فى الصراع . فالطاقات الغريزية تختلف فى كمها اختلافاً فطريا عند الأفراد ، كما يطرأ عليها التعديل فى الفترات الحرجة وهى البلوغ وسن اليأس . وتعد القوة النسبية للحفزات حاسمة فى تحديد الاتجاه الذى يتخذه حل الصراع . ولكن التحليل النفسى ما زالت تعوزه الوسيلة لقياس كميات الطاقة .

ومن وجهة النظر الدينامية ، يفسر التحليل النفسى الظواهر النفسية عن طريق القوى المصطرعة المتناقضة ، والتى تتمخض عن محصلات هى المسالك والميكانيزمات الدفاعية . هذه القوى المصطرعة هى : من ناحية الحفزات الغريزية البيولوجية ، ومن ناحية أخرى الحفزات الاجتماعية المكتسبة . ذلك هو مفهوم الدينامية الذى يشكل الركيزة الأساسية فى المنهج الكلينيكى .

ولكن فرويد يدخل أيضاً تحت الدينامية وجهة النظر التكوينية ، ونعنى بها هذه الوجهة التى تفسر خصائص السلوك أو الشخصية بإرجاعها إلى هذه المرحلة أو تلك من مراحل النمو ومراحل النمو عند فرويد هى كما رأينا مراحل

تطور الغرائز التي تحدد في رأيه مراحل تطور العلاقة مع الذات والموضوعات. وهكذا يمكن النظر إلى أى سلوك أو سمة شخصية أو عرض مرضى بوصفه ارتقاء أو نكوصا. ولقد مضى أبراهام فى هـــذا الاتجاه فرد الأمراض العصابية والذهانية إلى مراحل بعينها من النمو : فالحصار نكوص إلى الاستية السادية ، والهوس الاكتئابى نكوص إلى الفمية .

السلوك كنتاج للشخصية[1]

كيما تتبين علاقة السلوك بالشخصية يحسن بنا أن نتناول السلوك بالدراسة من حيث :

(ا) الدوافع التى تدفع إليه .

(ب) العمليات التى تتضمنها صياغته .

(ح) الأهداف المباشرة التى يتجه إليها .

(ء) الأهداف غير المباشرة .

(ا) الدوافع حاجات وانفعالات :

الدافع أو الحافز حالة من التفكك قوامها التوتر تدفع الكائن إلى أن يسعى لخفض التوتر واستعادة التكامل (مبدأ الثبات) . والمصدر الأخير للدفع هو الغرائز وقد شكلتها عملية التطبيع الاجتماعى وشكلتها الخبرة الفردية . فالغرائز وإن كانت هى هى عند كل الناس ، فهى تشكل ثقافتنا فى كل مجتمع من المجتمعات ، بل وتتخذ داخل المجتمع الواحد انتشارات فريدة عند كل واحد من الناس ؛ فهى عامة ونوعية وفريدة .

وتتبدى الغرائز فى صورتين رئيسيتين هما الحاجات والانفعالات .

فالحاجات: تتباين تبايناً كبيراً فى طبيعتها وشدتها. فهناك حاجات فسيولوجية أولية ، وهناك حاجات نفسية اجتماعية معنوية : حاجة إلى الأمن ، وحاجة إلى الحب، وحاجة إلى التقدير ، وحاجة إلى المعرفة وحاجة إلى الحرية الخ .

---

(١) راجع دانييل لاجاش ، محاضرات علم النفس ، جامعة السوربون ١٩٥١ — ١٩٥٢ .

وكلما كانت الحاجة أقل ضرورة لبقاء الكائن الحى بعدت عن الجمود والضغط والإلحاح . فالحاجة الجنسية مثلا أكثر مرونة من الحاجة الى التنفس .

والانفعالات : تصاحب ظهور الحاجات ، ويتفاوت لونها ما بين اللذة والألم ، تبعاً لما تتوقعه الأنا من إشباع أو إحباط . ولكن التحليل النفسى يركز اهتمامه على تلك الانفعالات الأليمة الوثيقة الصلة بالحاجات الهامة ؛ من قبيل ذلك الحاجة إلى الأمن وما يتصل بها من انفعال القلق[1] . ومن قبيل ذلك أيضاً انفعالات الإثم الذى هو صورة خاصة لقلق الأنا إزاء الأنا العليا ، وهو يرتبط بحاجة الفرد إلى أن يشعر بقيمة ذاته وبراءته . كذلك انفعال الاشمئزاز وانفعال الخزى الخ .

وهذه الانفعالات هى هى بواعث الدفاع التى تطلق النشاط الدفاعى للأنا .

(ب) صياغة السلوك . من الشعور بالحاجات إلى الوسائل والموضوعات :

تنحصر صياغة السلوك فى الشعور بحاجات الشخصية ، وفى اكتشاف الوسائل والموضوعات المناسبة للإشباع . ويدخل ذلك كله ضمن وظائف الأنا ، فهى التى تضطلع بخفض التوترات وتحقيق الإمكانيات ، توافقاً مع الواقع . ومن هنا تتبدى قوة الأنا فى درجة الحرية التى تستمتع بها بالنسبة للهى والأنا العليا . ذلك أن القوة المسرفة للحفزات الغريزية (الحاجات والانفعالات) تحد من فاعلية الأنا وتضيق من هامش حريتها فى العمل . يتضح ذلك بصفة خاصة فى الحاجة إلى التكرار (قهر التكرر) حيث يمتنع التوافق عن روية مع النتائج البعيدة ؛ كما يتضح فى الحاجة إلى العقوبة

---

(١) يختلط القلق فى صورته البدنية مع حالات التوتر الزائد أو التنبيه الزائد الذى يتجاوز إمكانية الشخص للاستجابة (العصاب الصدمى) . وفى مرحلة تالية تستأنسه الأنا فتستخدم صورة هينة منه شارة إنذار بالخطر تهيب بالدفاعات ؛ فاذا فشلت الإجراءات الدفاعية تنهمر الأنا ويتفجر الهلع .

بدافع من مشاعر الإثم (المازوشية النفسية) .

أما عن الوسائل فيتناولها علم النفس تارة تحت اسم « العادة » فى المواقف المألوفة ، وتارة تحت اسم « المحاولة والذكاء » فى المواقف الجديدة. وينظر فرويد إلى التفكير على أنه تجريب عقلى ، يضطلع فيه تأجيل الاستجابة وتوقع النتائج بوظيفة هامة . ومن هنا فإن من المظاهر الأساسية لضعف الأنا عجزها عن إعمال التفكير الرمزى ، مما يعنى عجزها عن التحرر من حاجات ومتطلبات البيئة ، ومن الحاجات والانفعالات الداخلية .

وأما عن الموضوعات وانتقاء المناسب منها فذلك أيضاً يدخل ضمن اختصاص الأنا . ومن الممكن أن يكون الموضوع المناسب لتحقيق الإشباع موضوعا خارجيا ، ومن الممكن أيضا أن يكون هو الشخص ليس غير كما هو الحال فى الإشباع الجنسى الذاتى ، وكما فى اقتصار الاستجابة على الانفعال أو الدفاع بالكبت .

واختيار الموضوع مسألة مرنة شأنها فى ذلك شأن أهداف الغرائز . ومن هنا تقوم الأنا فى الأحوال العادية باختيار الموضوع المناسب للإشباع أو الموضوعات البديلة المحققة للإشباع ، على نحو ما يحدث فى الإعلاء .

أما فى الأحوال الأخرى فإن حرية الأنا تكون معوقة بالتثبيت على موضوع فى الماضى ، ومن ثم تتثبت على هدف بعينه . فالرجل حين يكون مثبتا على أم متقلبة فإنه يصعب عليه اختيار موضوع مناسب لإشباعه العاطفى .

(ح) الأهداف المباشرة للسلوك : إفراغ بالإشباع أو دفاع :

الهدف العام للسلوك هو خفض التوترات والقضاء على حالة التفكك. إن مرونة الأهداف الغريزية تسمح الأنا فى الأحوال العادية بتحديد الأهداف بالرجوع إلى الواقع الداخلى والواقع الخارجى. ولكن فى الأحوال الأخرى تكون حرية الأنا معوقة عن الاختيار بفعل التثبيت عند بعض الأهداف كما هو الحال فى المازوشية النفسية مثلا .

ويمكن على وجه الجملة التمييز بين احتمالين :

الاحتمال الأول هو أن يتطور السلوك إلى إفراغ إشباعى ، وهو يمر فى هذه الحالة بمرحلة وسيطة يتصاعد فيها التوتر مع تدخل انفعالات سارة قبل الوصول الى القطاع الختامى الذى يخفض التوتر ويحقق الإشباع كما فى الإشباع الجنسى . وبذلك يتم القضاء على التفكك البدائى .

والاحتمال الثانى هو أن يتطور السلوك إلى الدفاع .وفى هذه الحالة يكون ظهور الحاجة الغريزية مصحوبا بتوقع الخطر أو مصحوبا بانفعالات أليمة تعوق تطور الحاجة ، انفعالات من قبيل الإثم والاشمئزاز والحزن . فعند هذه الانفعالات الأليمة والحالات الغريزية المثيرة لها تستعين الأنا بصورة آلية ولا شعورية بميكانيزماتها الدفاعية . ويظل هدف السلوك هو خفض التوتر ، ولكن على شريطة أن يتم ذلك دون مرحلة وسيطة يتصاعد فيها التوتر . فالأنا تتعجل خفض التوتر بطردها الانفعالات الأليمة والحفزات المعيبة وفصلها عن الأنا . ولعملية التوافق هذه عواقبها السيئة : إذ لابد من استمرارها أو تكرارها ، فضلا عن أنها تسمح بتسلل الحافز المكبوت أو الانفعال المكبوت إلى التفكير والسلوك محرفا فى صورة مشتقات لا تتعرف عليها الأنا .

وأهم الميكانيزمات الدفاعية الكبت، الذى ينحصر فى الميل اللاشعورى إلى نسيان أو تجاهل الحفزات التى تمثل الغواية أو العقوبة أو الأحداث التى تشير إلى ذلك . ويدخل ضمن الكبت أيضا ميكانيزمات الإنكار (النفى)

والتكوينات الضدية والمحو (الإبطال) . وهناك ميكانيزمات دفاعية أخرى من قبيل الإزاحة والإسقاط والتطابق (الاستدخال) ، والتبرير الخ .

ودفاعات الأنا لا تعمل فحسب ضد الحفزات ، بل أيضا ضد الانفعالات الأليمة أو هى تعمل على وجه الدقة ضد التوترات لتمنعها من أن تتحول إلى انفعالات أليمة . من هذه الدفاعات تأجيل الانفعالات فى وقت عصيب أو تأجيل الشعور بالتعب الخ .

والعمليات الدفاعية ضد الانفعالات هى عين العمليات الدفاعية ضد الحفزات . كذلك فإن الانفعالات المكبوتة لا تختلف عن الحفزات المكبوتة من حيث أنها تظل فعالة ، وتتبدى فى صورة غير مباشرة ، اشتقاقية ومحرفة ، وذلك فى الأحلام والأعراض المرضية .

ويمكن التمييز بين الحيل الدفاعية للأنا وبين الحيل الخلاصية للأنا . فهذه الأخيرة تنطوى على قيمة تكيفية مغايرة تماما الأولى . ذلك أن عملها هو إنهاء الدفاع ، ومثالها الإعلاء حيث الإفراغ مستمر بلا تعويق وإن اتجه إلى هدف اجتماعى مقبول ، وغير جنسى ، كما فى إعلاء الجنسية المثلية فى الصداقة ، وإعلاء الحفزات السادية فى الجراحة ، وإعلاء الحفزات الفمية فى الغناء والخطابة .

(د) الأهداف غير المباشرة أو الثانوية للسلوك :

إن الأهداف أو النتائج الأولية للسلوك هى كما رأينا إفراغ بالإشباع أو دفاع . ولكن ثمة أهدافا أو نتائج ثانوية للسلوك . من ذلك صياغة الشخصية ، وتكوين جهاز العادات . هذا عن النتائج فى مجال التشكيل الذاتى . وهنالك نتائج تتخطى بتشكيلها حد الذات الى البيئة والعالم . فالسلوك يستثير عند الآخرين استجابات مكملة . ولا يقتصر أمر ذلك على مستوى

التعبير من جانب الشخص والانطباع عند الآخر ، بل يتعداه للمستويات العميقة . فتكرار أنماط بعينها من السلوك يمكن أن يؤدى إلى تكرار أحداث متشابهة وسيئة بشكل لا يصدق . وهذا التكرار هو ما يسميه فرويد « عصاب القدر » . من ذلك المرأة التى وجدت نفسها مرتين صديقة للزوجة وعشيقة للزوج . ومن ذلك أيضا الرجل الذى تخدعه عشيقاته الواحدة بعد الأخرى ، والصديق الذى يخونه أفضل أصدقائه دائما .

وهناك أيضا نتاجات السلوك بمعنى ما يتمخض عنه السلوك من أعمال خارجية . فليس من شىء يؤدى إلى النجاح أكثر من النجاح . والبطولة أو الجريمة تضع صاحبها فى موقف اجتماعى محدد إلى حد بعيد . هذا إلى الأعمال العلمية والأدبية والفنية التى تنعكس كلها على الشخصية فى إحالة متبادلة بينهما .

صياغة الشخصية

ينظر كثير من علماء النفس إلى هذه المشكلة وكأنها تنحصر فى إطار الطفولة مستندين فى ذلك إلى ماينسب إلى السنوات الخمس الأولى من أهمية فاصلة . ولكننا حين ننظر إلى الأمر من زاوية الوصف ونضع فى اعتبارنا الطابع الدينامى للشخصية فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى اتخاذ منظور أوسع يمتد امتداد الحياة الفردية كلها . وفى هذا ماينطوى على القول بأن صياغة الشخصية تطرد أثناء الوجود كله ، ومن هنا كانت أهمية الدراسات المنصبة على مجرى الحياة الإنسانية فى جملتها . وقد استندت « شارلوت بولر » إلى قوانين الحياة البيولوجية فانتهت الى القول بثلاث مراحل تشكيلية للشخصية : وهى مرحلة النمو الصاعد ، ومرحلة الاستواء ، ومرحلة الانحدار . ولكن البعض أخذ عليها ما ينطوى عليه هذا التقسيم الثلاثى من تبسيط مسرف ، يقصر عن الإجابة على ثراء تطور الحياه الإنسانية ، ومن هنا اقترح هذا البعض تقسيم المرحلة الأولى الى قسمين هما الطفولة والصبا من ناحية ، وفترة الإنضاج التى تمتد من العشرين إلى الثلاثين من ناحية أخرى . وتأتى مرحلة الاستواء التى تتميز باكتمال النضج والخبرة ، وتعقبها مرحلة الانحدار حيث ينبغى أن نميز من جديد ما بين حقلين . فمن ناحية حقل الوجدانية والعواطف البين - شخصية وهو يميل إلى التقلص والانكماش حيث تقصر الطاقة عن الاضطلاع باستثمارات عاطفية جديدة ، ومن ناحية أخرى حقل العلاقات الاجتماعية هذه التى يمكن أن تظل مزدهرة الى آخر العمر . وبديهى أن صياغة الشخصية على هذا النحو عملية لا تتوقف إلا بالموت .

أما التحليل النفسى فإنه يولى السنوات الخمس الأولى أهمية حاسمة :

فالخطوط الرئيسية للشخصية تتحدد بتصفية الصراع الأوديبي بحيث تقتصر السنوات التالية تقريبا على إثراء تفاصيل الخطوط العريضة وملء نسيج الاتجاهات العامة التى تحددت . ولقد غلبت النزعة البيولوجية على النظرات الفرويدية الأولى ، حيث كانت العلاقة بالذات والموضوع تتحدد

تبعا لدرجة نضج الغرائز ؛ بل إن أهمية الأحداث الخارجية ودلالتها تتحدد تبعا للمرحلة الغريزية التي تقع فيها هذه الأحداث . وكذلك كانت الاتجاهات والانفعالات تتحدد تبعاً للمرحلة الغريزية التي يعيشها الطفل . وحتى « العقدة الأوديبية » فقد كان يرجعها فرويد بعض الشيء إلى اللاشعور الجمعي هذا الذى غالى « يونج » فى تقدير دوره .

ولكن مثل هذه النظرات قد تبين قصورها مع الوقت . فالتطور الغريزى لا تتعاقب مراحله على هذا النحو من الجمود . وليس هناك ما يمنع من أن تكون المراحل الغريزية نتاجا لتأثيرات ثقافية . فمرحلة الكمون مثلا تبدو منعدمة فى بعض الثقافات . وهكذا انفتح التحليل النفسي للتأثيرات البيئية ، وبدأت صياغة الشخصية تغدو أكثر فأكثر عملية مطردة من تطبيع اجتماعى ، يضطلع فيها التطابق بدور بالغ الأهمية. ولكن إذا كانت صياغة الشخصية هى نتاج التطبيع الاجتماعى إلى حد بعيد فليس من الممكن مع ذلك إغفال العوامل البيولوجية مما يبرز فى بعض اللحظات الحرجة من التطور ، كما هو الشأن عند البلوغ وفى سن اليأس .

أما فيما يتصل بوجهات النظر التفسيرية فى مشكلة صياغة الشخصية فإننا نجد تيارين رئيسيين: أما التيار الأول فيلح على التكوين البدنى مما يتضح فى دراسة « كريتشمر » عن بناء الجسم وما إلى ذلك من الدراسات المتصلة بالسيكومرفلوجيا ، هذه التى تحاول تحديد سمات الشخصية ابتداء من بعض الخصائص الوراثية البيولوجية أو الفسيولوجية(١) . وأما التيار الثانى فيلح على أهمية الخبرة والتجربة الفردية إذ ينظر إليها وكأنها العامل الوحيد المحدد لسمات الشخصية. وهكذا نجد التعارض الفلسفى الكلاسيكى فى نظرية المعرفة ما بين الفطرية والتجريبية يأخذ هنا صورة التعارض ما بين النضج والتعلم أو قل ما بين الفطرة

---

(١) وتنتمى إلى هذا التيار أسطورة الجنس الآرى فى ألمانيا النازية . كما تنتمى إليه كثرة من أمثلتنا الشعبية التى تعد تعبيراً عن هذا التيار المناهض لفعالية التأثيرات البيئية والتى تكون من هـذا الوجه جانباً من الأيديولوجية التى كانت فى خدمة الرأسمالية : « كل قصير مكير» ؛ « وكل أقرع نزهى » ؛ « وكل ذى عاهه جبار » و « الفلاح فلاح ولو أكلته تفاح » ، و « على الأصل دور » الخ .

والاكتساب ، أو مابين الطبع والتطبع أو مابين الوراثة والبيئة . ومهما يكن فإن غالبية علماء النفس اليوم تسلم بالتأثير المتبادل للعاملين جميعاً . فالتكوين البدنى إنما ينظر إليه اليوم بحسبانه جملة من الإمكانيات والتحديدات ولكن هذه الإمكانيات لا يمكن أن تخرج جميعها إلى حيز الواقع وفى حياة الفرد الواحد. وإننا لنجد هذه الفكرة فى فلسفة « سبينوزا » حين يقرر أن كل تحديد إنما يتضمن النفى والإنكار بمعنى أن تحقيق إمكانيات بعينها إنما يتم عن طريق استبعاد ورفض الإمكانيات الأخرى . كذلك نجد هذه الفكرة فى الفلسفة المعاصرة إذ يقرر « سارتر » أن كل مشروع إنما هو رفض للمشاريع الأخرى . وخلاصة هذا من الزاوية النفسية أن الوراثة تعمل فى مستوى الأجهزة العامة للانفعال دون أن تصل فى تأثيرها إلى تحديد قسمات تفصيلية ؛ وفى هذا ما يرينا ضرورة التعلم . وعليه فلا بد من الاستعانة بالنضج والتعلم جميعا . غير أن البحاث يلحون بالأهمية على الواحد أو الآخر تبعا لطبيعة أبحاثهم . ولكن التصور السائد اليوم لا يقف عند هذين العاملين بل يتخطاهما إلى تشابك وتمفصل العوامل المحددة . فتصنيف العوامل الحاكمة للشخصية ينبغى أن يكون أكثر تنوعاً من مجرد هذين العاملين .

تنحصر الفكرة العامة فى التمفصل والتأثيرات المتبادلة بين العوامل عما يتخذ صورة الشبكة ؛ فثمة تأثير يصدر عن الوسط الفيزيائى الخام وآخر عن الوسط الفيزيائى على نحو ما شكله الإنسان وثالث يرجع إلى التكوين البدنى ورابع اجتماعى سكانى وخامس اجتماعى اقتصادى وسادس اجتماعى ثقافى وسابع هو الوضع الاجتماعى المحدد للفرد وثامن يشير إلى المواقف الخاصة التى يعيشها فرد فرد .

ومعنى هذا أنه يتحتم على النظرية الخاصة بالشخصية أن لا تستخدم تصور العلية الخطية ، أى هذه التى تحاول أن ترد الشخصية فى كليتها إلى علة واحدة سيان كانت مركزية أو محيطية ، وإنما تقوم على تصور العلية الشبكية .

الفصل الخامس

فى نظريات الشخصية

نستطيع مما سبق أن نوجز نظريات الشخصية على النحو التالى :

(أولا) نظريات تستند إلى مفهوم العلية الخطية المركزية وتشمل :

١ — نظريات أنماط الشخصية .

٢ — نظريات السمات الفطرية .

٣ — نظريات العوامل الإحصائية .

(ثانيا) نظريات تستند إلى مفهوم العلية الخطية المحيطية وتشمل :

١ — النظريات البيئية التشريطية .

٢ — النظريات البيئية الطبقية .

٣ — النظريات البيئية الثقافية .

(ثالثا) نظريات تستند إلى مفهوم العلية الشبكية وتشمل :

١ — نظريات الاستقلال الوظيفى للدوافع .

٢ — نظرية الدوافع كمتجهات فى الحقل .

٣ — نظرية الدوافع المصطرعة وميكانيزمات الدفاع .

تيار العلية الخطية المركزية

نظريات الأنماط والسمات والعوامل

نظريات الأنماط

فى كتابه « سيكولوجية الشخصية » يعرض نوتسكات للمعانى المختلفة التى ينطوى عليها مصطلح النمط . فالنمط يعنى فى المقام الأول هذه النواة الثابتة التى تصف الشخصية على نحو مميز لها . والنمط بهذا المعنى هو سمة أساسية فطرية أو هى على الأقل باكرة التكوين . والنمط بذلك يعد بمثابة « جوهر الشخصية » مما يتضح بالنظر إلى نمطى يونج المنطوى والمنبسط .

هذا وقد يستخدم مصطلح النمط للدلالة على « الفئة » بمعنى مجموعة الأشخاص الحاصلين على نفس النتائج بالنسبة إلى نفس الاختبارات ؛ أو بمعنى مجموعة « السمات المترابطة » فيما بينها : كترابط سمات المثابرة والجمود والدقة وسرعة التأثر عند « المنطوى » وذلك بحسب رأى ايزنك .

ويمكن القول من الزاوية التى تعنينا بأن نظريات الأنماط أجهزة تقدم فئات متمايزة لتصنيف الشخصيات ، وذلك بالاستناد إلى دراسة الفروق الفردية . ومن هنا فإنه يصعب رسم حد فاصل بين نظريات الأنماط ونظريات السمات . وهذه الطريقة فى تناول الوقائع ، ونعنى التفكير بلغة الفئات ، إنما تمثل الصورة الأوائلية للفكر البشرى ، وربما ترجع إلى تمايز الجماعة القبلية عن غيرها من الجماعات . وتستند هذه الطريقة فى تناول الوقائع إلى ما يعرف بالنهج الأرسططالى ، وذلك فى مقابل النهج الجاليلى ، الذى يرفض سلخ الظواهر من سياقاتها ، وتجريد بعض الصفات المشتركة وتعميمها ، وتعميدها فى فئات . هذه النزعة التنميطية قد تبدت أول

الأمر فى الأمثال الشعبية ، بما تنطوى عليه من فهم نفسى ضمنى ، ولقد سرت هذه الطريقة من الفنون الشعبية إلى الأدب فقام الأدباء من أقدم العصور برسم لوحات متمايزة وتفصيلية لمختلف أنماط الشخصيات. ومازال رواية البخيل لموليير مثلا رائعا فى هذا المجال .

وهناك تصنيفات تستند فى أساسها إلى أن الأمراض النفسية والعقلية تمثل حالات من الإسراف والمبالغة لأنماط الشخصية السوية. فقديما افترض أبقراط وجود أربعة عناصر تمثل الأخلاط الرئيسية فى الجسم وهى : الدم والبلغم والمرارة الصفراء والمرارة السوداء . وتتمخض هذه الأخلاط عن خمسة أنماط للشخصية. فهى أما أن تتوازن عند السوى، وأما أن يغلب أحدها فيكون نمطا من الأنماط الأربعة المرضية : الدموى والبلغمى والصفراوى والسوداوى . فالدموى متفائل نشيط يصل فى حالة التطرف إلى الهوس . والبلغمى خامل بليد يصل فى حالة التطرف إلى الانزواء . والصفراوى سريع التهيج يتعرض لتفجرات الغضب. والسوداوى متشائم يغلب عليه الاكتئاب .

وقد استخدم البحاث بعد ذلك تصنيفات ثنائية أو ثلاثية النمط ، كما تمت محاولات لربط نمط الجسم بنمط الشخصية . فالبدين يغلب عليه الانبساط والاجتماعية وتقلب المزاج ، ويتعرض لهستريا التبدين والذهان الهوسي الاكتئابى . والنحيل يغلب عليه الانطواء والتعصب ويتعرض للحصار وذهان الفصام . وتصنيف كريتشمر يضم صنفا ثالثا هو المفتول . ويذكرنا هذا التصنيف الثلاثى بتصنيف روستان المستند إلى التمييز ما بين نمط هضمى ونمط مخى ونمط عضلى .

وقد تقدم شيلدون بتصنيف ثلاثى لا يختلف كثيراً عن تصنيف كريتشمر وروستان . فالبدين عنده يغلب عليه حب الراحة والاجتماعية وتبرز عنده العمليات الحشوية . والنحيل يغلب عليه الانطواء والكف وتبرز عنده

العمليات المخية . والمفتول يغلب عليه النشاط وإثبات الذات وتبرز عنده العمليات العضلية .

كذلك يستند يونج إلى الذهان فى إقامة تصنفية الثنـــائى : المنطوى والمنبسط . فالفصام عنده يمثل الصورة المتطرفة للانطواء . وهذا يتفق مع ما يراه فرويد من أن الفصام ذهان نرجسى ينسحب فيه الليبيدو من الموضوعات الخارجية ليتركز على الذات . أما الصورة المتطرفة للانبساط فهى الذهان الهوسى الاكتئابى . ولكن من الواضح أن هذا الذهان هو أقرب إلى الانطوائية منه إلى الاجتماعية .

وتقدمت الوسائل العلمية فى العصر الحديث ، كما تقدمت الدراسة فى مجال الهرمونات . ولكن استمر التفكير بلغة الفئات ، فجرى تصنيف الشخصيات فى فئات ، استناد إلى تغلب هذه الإفرازات أو تلك من إفرازات الغدد الصماء .

وكان الألمان أكثر الشعوب اهتماما بنظريات الأنماط . ولعل ذلك يرجع إلى ما كانت تحتمه الظروف فى القرن الماضى من تكتلهم وتماسكهم كنمط متفرد فى مواجهة القوميات الأخرى ، ناهيك عما لعبته نظرية الجنس الآرى من دور فى القرن الحالى .

وأخذت تتعدد معايير التصنيف . ففئة من الشخصيات تدرك بالاستناد إلى الشكل ، وفئة أخرى تدرك بالاستناد إلى اللون (كولبه) . أو قل فئة تدرك بالاستناد إلى اللون ، وفئة تدرك بالإستناد إلى الحركة الكنستيزية (رورشاخ) .

ومهما يكن من أمر فإن هذه التصنيفات المختلفة لا تعدو ، ولا ينبغى بحال أن تعدو ، مجال العرض التاريخى . فهى إثقال للفكر بتفصيلات

تافهة تتعارض مع أبسط مبادىء التفكير العلمى ، فبديهى أن هذه النظريات التى تحاول إكراه مختلف الشخصيات التى يغص بها العالم على الدخول فى مجرد فئتين أو ثلاث فئات ، لا يمكن أن تبلغ إلى ذلك ، أن هى بلغته ، إلا باقتصارها على العموميات جد العامة ، وبالتالى عن طريق استبعادها لما هو فردى ومميز للشخصية بمعنى الكلمة .

نظريات السمات

نظريات السمات وثيقة الصلة بنظريات الأنماط . بل إنه ليمكن القول بأن النمط إنما هو سمة عامة أو سمة غالبة أو ائتلاف بعينه من جملة سمات وإذا كان النمط يفترض وحدة فى جميع مسالك الفرد ، فإن السمة تفترض وحدة فى قطاع بأسره من مسالكه . فالسمة — فيما يقال — صفة ثابته للشخصية كلها ، وتستمتع بالاستمرار النسبي حتى حين لا تتبدى فى المسالك الخارجية. وتستند السمة أيضاً إلى معيار اجتماعى . فهى تشير إلى ما يخصص الفرد بالقياس إلى المتوسط فى جماعته . فالمرأة التى تتسم بالاحتشام فى المجتمع الباريسى ، قـد تتسم بنقيض ذلك فى مجتمع شرقى . وعلى أية حال فإن سيكولوجية السمات ، شأنها شأن نظرية الأنماط ، تميل بصورة عامة إلى توكيد ما هو بيولوجى ، وما هو فطرى ، وباختصار ،مايقاوم التغير ومالا يتأثر نسبيا بالبيئة .

وفى كتابه « الشخصية » (١٩٥٩) يقرر جيلفورد أن مفهوم السمة إنما ينتج من ملاحظة السلوك ؛ ومن ثم فالسمة افتراض عقلى وليست بشىء نلاحظه مباشرة .

وحيث أن معظم السمات متاح للدرجية فإنه يمكن تحديد درجة السمة عند الشخص بنقطة على خط . ولما كان بعض السمات وحدانى القطب unipolar ، كالمهارة اليدوية ، وكان بعضها الآخر ثنائى القطب bipolar ، كالسيطرة فى مقابل الخضوع فإنه فى الحالة الأولى يمتد خط السمة من الصفر إلى النهاية العظمى ؛ بينما فى الحالة الثانية يقع الصفر فى منتصف المسافة بين القطبين المتعارضين .

وتتسم السمات بالثبات والاستقرار بصورة عامة . وبعض السمات

أكثر انتشارا فى مجموعة السكان بالقياس إلى بعضها الآخر . كما أن بعض السمات أكثر عمومية من البعض الآخر فى سلوك الشخص الواحد .

ويذهب بعض الباحثين مذاهب مختلفة فى تصنيف السمات : فيتحدث البعض عن سمة « كبرى » غالبة على الشخصية ، تقترب فى مفهومها من النمط ، وعن سمة « مركزية » تنتظم من حولها سمات أخرى أقل أهمية ومن ثم تعرف هذه بالسمات « الثانوية » .

ويحاول جوردون أولبورت أن يتأدى من السمات إلى الشخصية ، ناظراً إلى الشخصية بوصفها انتظاماً ديناميا بين مختلف سمات الفرد . وهذه المحاولة تتعارض تماما مع أوليات نظرية الجشطلت حيث تتحدد الأجزاء فى نفس الوقت الذى يتحدد فيه الكل وتتبدل بتبدله . وهذه المحاولة تذكرنا فى شكلها بما ذهب اليه ماسلو ، متصلا بالدوافع ، حين نظر إلى الشخصية على أنها تتميز بما لها من انتظام خاص تترتب بمقتضاه مختلف الدوافع عند الفرد . ولكن الهوة واسعة ما بين مفهوم السمة ومفهوم الدافع . فالأول مفهوم استاتى . أما الثانى فدينامى يفترض بالضرورة تفاعل الشخص مع الموقف .

فإذا كانت الشخصية فى السلوكية الوطسونية ، الميكانيكية النزعة ، هى مجموعة عادات ، فإنها بالنسبة إلى غالبية المشتغلين بالسمات ، مجرد مجموعة من السمات . يقرر جيلفورد فى كتابه «الشخصية» (١٩٥٩) : «إن الأشياء بما فى ذلك الأشخاص ، أنما تعرف بخصائصها .. والخصائص هى تجريدات نصل إليها عن طريق تحليل الوحدات الكلية .. ولا يستطيع أحد أن يدعى أن تجريداته مهما تعددت تبلغ الى استيعاب الشىء بكليته . ولكن ليس ذلك سببا كافياً لرفض التحليل . فبوسعنا أن نمضى فى ملاحظاتنا ومن ثم نبلغ الى الاستيعاب الكامل للوحدة الكلية . . » (ص ٥ و ٦) .

وبديهى أن الشخصية من حيث هى إنتظام دينامى كلى ، لا يمكن أن

تكون مجرد حاصل جمع للأجزاء ، لا ولا هى حاصل جمع للأجزاء وعلاقاتها كما يتوهم البعض . (راجع نظرية الجشطلت) .

وثمة أمور أخرى ينبه إليها نوتكات فى كتابه « سيكولوجية الشخصية » (١٩٥٣) . **من ذلك غموض السمات وعدم تحددها** : فالشجاعة قد تكون شجاعة حربية وقد تكون شجاعة أدبية . ومن مظاهر الغموض وعدم التحدد أن السمة الواحدة لها فى الغالب أسمان ، أحدهما محبب والآخر منفر ، (فالحزم قد يبدو تصميما وقد يبدو عناداً) . ومما يزيد من الغموض وعدم التحدد اختلاف معيار السمة باختلاف الفئة القياسية ؛ فسمة الكرم عند العرب غيرها عند الاسكتلنديين . هذا كله إلى أنه من النادر حقا أن تكون السمة عامة فى السلوك عند الشخص الواحد . فمن الممكن أن يكون الشخص « أسداً علينا وفى الحروب نعامة » .

ودراسات السمات عادة ماتبدأ بالسمة كصفة ثابتة . موروثة وراسخة فى التكوين البدنى ، ثم لاتلبث السمة حتى تفقد أساسها البدنى ، ثم صفتها الوراثية ، ثم وحدتها ، ثم تتلاشى فى سلسلة من الأبحاث المتفرقة .

ولقد بلغ الأمر ببعض البحاث الى محاولة حصر جميع السمات فزاد الرقم على سبع عشرة ألف سمة ، الأمر الذى يعد أنتهاكا صارخاً لمبدأ الاقتصاد كأحد المقتضيات العلمية . وعندها كان على التحليل العاملى أن يبرز الى الميدان ليحل هذه المشكلة . فإذا كانت هذه السمات تتضح فى نتائج الاختبارات، فإن فى دراسة معاملات الارتباطات العالية التى تتكشف بين بعض منها مايسمح بالكشف عن عامل عام يعد بمثابة المسئول عن هذا الارتباط العالى بين النتائج .فالعامل أنما يمثل سمة عامة أو صنفا من السمات. أنه يكشف عدداً من السمات . ومن هنا فإذا كان النمط وكانت « السمة » هى اللافتة اللفظية التى انتهت إليها العمومية المجردة ابتداء من التسجيل الوصفى ، فإن « العامل » هو اللافتة الرياضية التى انتهت إليها العمومية المجردة ابتداء من التسجيل القياسى . فكلاهما من ثم يقف عند النهج الأرسطالى .

العوامـل

لقد حاولت نظرية التحليل العاملى أن تتلافى أوجه النقص البارزة فى نظرية السمات، وذلك برد كثرة المتغيرات إلى قلة من الوحدات تكشف كل وحدة منها مجموعة من السمات التى ترتبط فيما بينها ارتباطا عاليا .

إن التحليل العاملى لا يختلف من حيث الهدف عن نظريات الأنماط ، وإنما تختلف الوسيلة . فعلم الأنماط يستند إلى ذاتية الباحث . بينما يستند التحليل العاملى الى الوسائل الرياضية .

نشأ التحليل العاملى من محاولة تفسير الارتباطات التى تكشفت بين نتائج اختبارات الذكاء . ثم تخطى ذلك إلى سائر المجالات الأخرى .

يتم التحليل العاملى بتطبيق عدد من الاختبارات، ثم تستخرج معاملات الارتباط بين مختلف نتائج هذه الاختبارات . ثم يجرى التحليل على مصفوفة الارتباطات . وفى حالة وجود ارتباط عال بين مجموعة من النتائج يفترض وجود عامل عام على أنه علة هذا الارتباط .

ويذهب سبيرمان إلى أن القدرات الإنسانية ترجع إلى «عامل عام» واحد يتكشف بقدر معين فى كل قدرة من القدرات ، كما ترجع تلك القدرات بدورها الى عدد كبير من العوامل النوعية الضيقة المجال .

ولكن ظهرت وسائل أخرى لإجراء التحليل العاملى لمصفوفة الارتباطات . فانتهى ثرستون الى إنكار العامل العام الذى قال به سبيرمان ، بينما اعتبره طومسون ابتكاراً إحصائيا .

ويستخدم إيزنك طريقة برت فى الحساب فينتهى إلى وجود عامل عام فى العصاب . ويأتى جيلفورد ويستخدم طريقة ثرستون فى الحساب فينتهى إلى إنكار هذا العامل .

غير أن علماء التحليل العاملى لا ينظرون إلى العوامل على أنها مجرد معايير للتصنيف تدخل فحسب ضمن نطاق الفروق الفردية ، وأنما هم يميلون إلى اعتبارها عناصر مكونة تتمخض ائتلافاتها عن « الشخصية » . ومن ثم يتصورون التحليل العاملى دراسة للشخصية . فمدرسة ايلينويز ومدرسة مودزلى ، وهما أشهر مدارس التحليل العاملى فى ميدان الشخصية تبحثان فى مجال العوامل عن أشياء « حقيقية » يمكن قبولها على أنها مكونات للشخصية ذات دلالة «سببية». ولكن تضارب النظريات فى علم النفس يرجع فى رأى كاتل الى عدم الاتفاق على جهاز للمتغيرات الأساسية للشخصية.

ولقد اتجه إيزنك إلى النظر للمتغيرات الأساسية ، لا على أنها أنماط ، وأنما — بمماثلتها للهندسة — على أنها « أبعاد » . ومعنى ذلك التخلى عن البحث عن «الفواصل» القاطعة ، وقبول التغير المتصل بين قطبين . وينطوى ذلك على فرض — هو مجرد فرض — مؤداه أن كل شخص لابد وأن يكون له مكان محدد على كل بعد من الأبعاد . وعليه فالناس يختلفون فى حظهم من المتغيرات الأساسية اختلافا كميا فقط .

ولكن حتى إذا سلمنا بوجود هذه الأبعاد وبأن الناس يختلفون فيها من الناحية الكمية؛ فليس معنى هذا أن تكون السمة العامة هى هى بعينها عند اتفاق الكم، وذلك لأن الكم يمكن أن يتفق ثم يختلف انتظام السمة اختلافاً شاسعاً.

ومهما يكن من أمر فإن العوامل — من حيث هى متغيرات أساسية — لا تختلف من حيث المبدأ عن أمزجة أبقراط . وإنما ينحصر الاختلاف فى أن العامل يتم الكشف عنه باستخدام الوسائل الرياضية ؛ فهو افتراض تجريبى . أما الأمزجة فهى افتراض ذاتى بحت . ومن هنا يميل أولبورت إلى أن يرى فى نظرية التحليل العاملى صورة جديدة رقمية لنظرية الملكات القديمة . فقد تغيرت اللغة والوسيلة ولكن الاتجاه مايزال على حاله . ومن هنا فقد لا يغالى البعض حين يذهب إلى أن التحليل العاملى قد بلغ أيامه الأخيرة من شهر العسل .

تيار العلية الخطية المحيطية

النظريات البيئية

فى نظريات السمات والأنماط والعوامل كانت الشخصية صرحاً جامداً ثابتاً مستقلا عن البيئة أو يكاد. أما فى نظريات البيئة فالشخصية مجرد مرآة تعكس التأثيرات البيئية .

وهناك اتجاهات رئيسية تبرز فى النظريات البيئية للشخصية رغم تباينها نستطيع ن نجملها فيما يلى :

(ا) النظريات البيئية التشريطية : نظرية السلوكية الوطسونية .

(ب) النظريات البيئية الطبقية : نظرية كارل ماركس .

(حـ) النظريات البيئية الثقافيـــة : نظريات الفرويدية اليسارية والأنثرلوجيا الثقافية .

(أ) النظريات البيئية التشريطية

نظرية السلوكية الوطسونية

تعد السلوكية الوطسونية، امتداداً للفلسفة المادية التى سادت فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، ثورة فى وجه الغيبيات وسلطان التقاليد وتقاليد السلطان ونبلائه من أصحاب « الدماء الزرقاء » . كانت حركة الحياة تمضى فى المجتمعات وبها من أعلى إلى أسفل وتتحدد القيم والاتجاهات والفلسفات، جاهزة مسبقة إلى جماهير الشعب الكادحة تتلقاها فى سلبية أو تقبل عليها فى إيجابية من قدسية الإيمان . وكانت فلسفة ديكارت ، التى زرعت الشك فى كل شيء حتى تخضعه لتمحيص العقل والمنطق ، بمثابة انتفاضة ترفع راية العقليات فى وجه الغيبيات . وتتابعت كتابات المفكرين مقيمة ما يعرف بعصر الاستنارة والتنوير .

ولقد رأى واطسون أن على علم النفس أن يدلى بدلوه فى هذا المجال فيقف من زاويته الخاصة فى وجه كل ما ينحدر من الماضى من أشكال وراثية أو أساليب غيبية . ومن هنا كان على واطسون أن يقف ، بل وأن يصطنع التشدد فى وقفته ، ضد كل ما هو وراثى ، حريصا على أن يسد الطريق أمام جميع الأبواب التى يمكن أن تنفذ من خلالها الغيبيات. فالتجارب الحية التى عاشتها جان دارك ينبغى أن تجر وراءها كل الظواهر الشعورية لتقبع بعيداً عن المجال العلمى الحق لعلم النفس .

لقد كانت الفلسفة المادية فى صميمها ثورة على السلطة التقليدية فى جميع صورها . ومن هنا قرر واطسون أن الشخص ليس غير مجموعة من العادات، وليست العادة غير مجموعة من الأفعال المنعكسة الشرطية . وفى هذا كله ما يستبعد الغيبيات والأسرار الخارقة . فالفعل المنعكس الشرطى ينشأ

عند الإنسان كما ينشأ عند كلاب بافلوف . هى استجابة جاهزة فى الكائن العضوى نقوم على تشريطها بأن نربطها بهذا المثير أو ذاك من مثيرات البيئة فنقيم بذلك الفعل المنعكس الشرطى . وإذا كان سيلان اللعاب للطعام استجابة عامة عند جميع أفراد النوع البشرى فإننا نستطيع بالتشريط أن نربط الاستجابة بما شئنا من مثيرات البيئة ، تربطها بعض المجتمعات بلحم الخنزير ، وبعضها الآخر بالجراد وبعضها الثالث بالضفادع والرابع بالفسيخ الخ .

وهكذا ينفتح الطريق أمام الإنسانية، وقد حررت إرادتها من نير السلطة، غيبية كانت أم زمنية، تنزل بها الوحى أو سرت وراثة فى الدم عبر الأرحام . وبذلك ينفتح الطريق أمام الإنسان يعيد ويعيد تشكيل الحياة وفق أمانيه ، فى محاولات متصلة لتحديد الماهية ورسم المصير . ومن المأثور عن واطسون أنه قال: «أعطنى مجموعة من الأطفال الأصحاء أصنع لك منهم ما تشاء» ، فإنما العبرة بالمثيرات البيئية التى تقوم التربية على الربط بينها وبين الاستجابات الفطرية للأطفال .

(ب) النظريات البيئية الطبقية : نظرية كارل ماركس

وثمة محاولات من علماء الاجتماع تنظر إلى الأفراد وكأنهم مجرد انتماءات لكيانات اجتماعية .

ومعنى هذا أن أفعال الشخص لا تعبر عن دوافعه وإنما هي تعبر عن وضعه الاجتماعي .

وعند كارل ماركس لا يكاد الفرد يتميز بكيان متفرد . فهو يدرك العالم من خلال بلورته الطبقية لأنه ليس غير جانب من هذه البلورة الطبقية . وتبدأ سلسلة العلل من أسلوب الإنتاج فى المجتمع ونعنى أدوات الإنتاج وعلاقات الإنتاج . ويتغير شكل المجتمع بتغير أسلوب إنتاجه . فالمجتمع الإقطاعى حين تدخله الآلات الميكانيكية يتحول إلى مجتمع رأسمالى، وتصبح الطبقات غير الطبقات . فالتغيرات الاقتصادية تتمخض عن تغيرات سياسية وإيديولوجية (١) .

وعليه فمعظم الدوافع التى تبدو من الزاوية السيكولوجية عللا للمسالك إنما هى فى الحقيقة عديمة القيمة ، لأنها ترجع هى نفسها إلى الدوافع الحقيقية التى هى مصالح الطبقة الاجتماعية. فاختلاف الدوافع وتصارعها إنما يترجم عن اختلاف الطبقات وتصارعها ، بل إن الدوافع المتشابهة عند الأفراد يمكن أن تنتهى بهم إلى مسالك متباينة تبعاً لما يكون عليه انتماؤهم إلى طبقات مختلفة .

ولقد تساءل البعض كيف يمكن أن تتسم الجماعة أو الطبقة بخصائص لا تتوفر أصلا فى الأفراد ؟ وكيف للأفراد أن تتلاشى فردياتهم فى عجينة الطبقـــة الاجتماعية الواحدة ؟ تلك هى قصة التخبط بين الأكلال الإضافية والأكلال المتجانسة

---

(١) أنظر كتاب علم الاجتماع عند ماركس الشاب ، الأنجلو .

فى إطار الدراسة الاجتماعية قبل أن يبلغ العلم إلى الكشف عن الطبيعة الجشطلتية لكل ظاهرة من الظواهر الحية. فليس المجتمع كما توهمته الرأسمالية حاصل جمع لأفراده، لا ولا هو كما تصورته هذه النظرة الماركسية كياناً متجانساً لا تتمايز فيه كيانات الأعضاء[١].

وتجد هذه المشكلة حلها فى إطار نظرية الجشطلت - فليس للمجتمع من خصائص مستقلة ومنعزلة عن الأفراد. وليست خصائص المجتمع ناتجة من خصائص الأفراد كأفراد منعزلين، وإنما خصائص المجتمع هى نتاج التفاعل بين مختلف أعضائه وجماعاته المندرجة بل ورفاقاته المختلفة. فوسائل الإنتاج بقدر ما تحدد الوعى فإن الوعى بدوره يعدل من وضع وسائل الإنتاج؛ فهناك إحالة متبادلة.

ونظرية ماركس تستند إلى تعميم قوامه أن انقسام المجتمع إلى طبقات إنما يتم دائما استناداً إلى ما هو اقتصادى، إنتاجى. ولكن المجتمعات البدائية يمكن أن تنقسم استناداً إلى مبادىء أخرى كجهاز القرابة، والأنظمة الاجتماعية الراسخة.

(١) راجع : نظرية الجشطلت وعلم النفس الاجتماعى، فصل ٤، الأنجلو.

(ح) النظريات البيئية الثقافية

من الفرويدية اليسارية إلى الأنثروبولوجيا الثقافية

كشف التحليل النفسى الفرويدى عن تعدد الدوافع وتعقدها وعن تصارعها، وعما تتمخض عنه هذه الصراعات من تعديلات للدوافع ومن ائتلافات جديدة لها تأخذ صورة الميكانيزمات الدفاعية، هذه التى غدت مبادىء جد خصبة لتفسير السلوك وفهم الشخصية. ولكن الذى يعنينا هنا هو ما حاوله البعض من توفيق مابين علم النفس وعلم الاجتماع، ومن مصالحة ما بين دوافع الفرد والتأثيرات الاجتماعية. ونحن نعلم أن **افلاطون** قد حاول هذه المصالحة فيما أقامه من موازاة مابين قوى الفرد وطبقات المجتمع: فالعقل والغضب والشهوة فى الفرد يقابلها فى المجتمع طبقات الفلاسفة والجند والشعب، وهذه وتلك تقابل وظائف الحكم والدفاع والإنتاج.

وقد قام بعض اليساريين من أنصار التحليل النفسى بمحاولة للتوفيق ما بين فرويد وماركس. ومن ذلك تلك المحاولة الساذجة التى استندت إلى المراحل الغريزية لتفسير الظواهر الاجتماعية: فالرأسمالية تجسيد للاستية السادية، والحرب ترجمة لغرائز الموت والتدمير.

ومن ذلك أيضاً محاولة **فروم** الطريفة لتفسير النجاح الساحق للنازية فى ألمانيا. فقد رأى فى ذلك نوعا من الدفاع من جانب الشعب الألمانى ضد مشاعر العزلة التى تثيرها عندهم ممارسة الحرية وأشكال المنافسة. ومن هنا فقد فضل الألمان التبعية لوجه أبوى متسلط يتيح لهم مشاعر الأمن والإشباع.

وقد قامت **كارين هورنى** بمحاولة علمية جادة فى هذا الاتجاه فربطت **ما بين النزعات العصابية وتناقضات المجتمع الراسمالى**، هذه التى تنعكس فى شكل صراعات يعيشها الأفراد:

فهناك تناقض ما بين الدعوة المثالية إلى التعاون وما يحتمه الواقع من تنافس يبلغ حد الانتهازية والوصولية .

وهناك تناقض ما بين إثارة المجتمع للرغبات بوسائله المختلفة فى الإعلان والإغراء وما بين إحباطه الواقعى لها بما يدفعه من أجور هزيلة وبما يشيعه من بطالة .

وهناك تناقض ما بين إثارة الرغبة فى الحرية وإعاقة إرضائها فى الممارسة الواقعية للحياة .

ففى الرأسماليات الغربية تبدو فرص النجاح مفتوحة من الناحية النظرية أمام الجميع، ولكنها فى واقع الأمر لا تسمح إلا لقلة قليلة بالتسلل والوصول. والحرية فى الديمقراطيات الغربية شكلية تكاد تقتصر على تذكرة الانتخاب وحرية الأنين .

هذه التناقضات تنعكس فى صراعات يعيشها الأفراد فى المجتمع الرأسمالى: وتستطيع القلة السوية وحدها أن تجد الحلول الفردية التى تمكنها من المصالحة ما بين هذه المتناقضات. أما الغالبية من الناس فيكبلها التثبيت ويكرهها على تكرار استجابات قديمة غير متكيفة للموقف القائم . ومن ثم يشلها هذا الجمود عن أن تجد الحلول التى تصالح المتناقضات . وإذا كانت الغالبية تعانى من ذلك فلأن غالبية الأطفال فى المجتمعات الرأسمالية تعيش أحاسيس الضعف والعزلة فى عالم معاد فلا تقتدر على فهم نفسها أو فهم الآخرين .

ومن جراء هذا كله ينشأ « القلق القاعدى » فيستجيب له البعض بحركة ضد العالم ، والبعض الآخر بحركة عن العالم ، والبعض الأخير بحركة نحو العالم . وهكذا نجد أن هورنى وفروم قد أقاما النظرية النفس — اجتماعية استناداً إلى الأسلوب الدفاعى الغالب ، الذى يجيب على نوعية الموقف الاجتماعى .

كانت روث بندكت هى التى قامت بأول محاولة حقة للربط بين الشخصية والثقافة . ثم تعددت المحاولات بعد ذلك مستندة من ناحية وكما رأينا إلى نظرية فرويد فى النمو النفسجنسى ، ومن ناحية أخرى إلى الاختلاف ما بين الثقافات ، وهو ما نريدان نوضحه الآن. والعقدة الأوديبية لم تعد شيئاً موروثاً ينتمى إلى اللاشعور الجمعى وإنما هى تتخذ أشكالا مختلفة تبعاً لاختلاف الثقافات على نحو ما أوضحته مارجريت ميد . وكذلك التثبيت عند كاردنر فهو ينتج عن أساليب التنشئة النوعية للمجتمع . فلكل مجتمع نمط يكاد أن يكون ثابتاً فى تنشئة الأطفال ، مما يتمخض عن انتشار سمات عامة مما يعرف بنمط الشخصية القاعدية ، أو الشخصية القومية . فثبات السمات من جيل إلى جيل لا يرجع فقط إلى التقليد وإنما على الأخص إلى ثبات أساليب التنشئة .

ومهما يكن من أمر فإن التحديد الثقافى للشخصية يبدو واضحاً فى حالة المجتمعات البسيطة القريبة من التجانس وغير المعرضة للكثير من التغيرات الاجتماعية .

ويعد مفهوم الشخصية القاعدية أو الشخصية القومية أو الاجتماعية ثمرة رئيسية لهذه المجموعة من النظريات البيئية . والشخصية القاعدية عند كاردنر هى معبر يصل المجتمع بالفرد، وهى محور الثقافة . والشخصية الفردية ذاتها لا تصاغ إلا عبر التطبيع الاجتماعى .

لقد كانت الفرويدية السنية ترى فى الأنماط الاجتماعية نتاجاً مباشراً للدوافع الليبيدية. ثم بدأت الفرويدية المعدلة عند كاردنر تهتم بوسائل التنشئة فى المجتمع بوصفها خصائص ثقافية تضطلع بتشكيل الشخصية فالبيئة الاجتماعية تلعب دورها فى تشكيل الشخصية عن طريق فنيات التنشئة . ولكن نظرة كاردنر كانت نظرة اجتماعية اقتصادية فلم يول العامل النفسى — المتصل بطبيعة العلاقة بين الطفل ووالديه — ما يستحقه من عناية .

ولكن هذا الاتزان ، الذى نفتقده عند كاردنر مابين العامل الاجتماعى والعامل النفسى ، نراه متحققاً عند إيريك فروم فى منهجه النفس — اجتماعى . فالشخصية الاجتماعية تمثل نمط البنية العامة للشخصية ، وهو النمط الذى يتحقق فى جميع الأفراد المنتسبين إلى ثقافة بعينها ، والذى يميزها عن أفراد الثقافات الأخرى . ولكن الشخصية الفردية ما تزال قائمة بخصائصها تميز الفرد عن غيره من الأفراد ضمن الثقافة الواحدة .

والشخصية الاجتماعية ليست مفهوماً إحصائياً نصل إليه عن طريق مقارنة المجتمعات ودراسة المسالك الشائعة والنادرة ، وأنما هى مفهوم نحصل عليه ببناء الوقائع بناء جديداً فى صورة نمط كيفى تتشكل وفقاً له الكيانات الفردية فى تجسيداتها المتباينة المتكررة ، وذلك على نحو يسمح لهذه الكيانات بأن تتكيف مع مجتمع بعينه .

ولو أردنا فهم نشأة الشخصية الاجتماعية فينبغى أن نرجعها من ناحية إلى مختلف التأثيرات الاجتماعية ثم من ناحية أخرى إلى الحاجات والدوافع الرئيسية عند الأفراد .

وفنيات التنشئة عند أيريك فروم ليست غير مضمون تتحدد دلالته عن طريق عملاء الثقافة من الآباء ، ولكل منهم خصائصه . ومن هنا يمكن أن تختلف النتائج مع تشابه الفنيات ، بل ويمكن أن تتفق مع اختلافهما . ومعنى هذا أن الشخصية الاجتماعية لا تتحدد بفنيات التنشئة وحدها كما يرى كاردنر وأنما أيضاً على الأخص بالعلاقات البين — شخصية . فالاكتناز عند فروم لا ينتج عن رغبة أستية ، وإنما عن الرغبة فى دعم موقف منعزل .

وباختصار فإن سمات الشخصية لها تاريخها الخاص بها ، وهى تنشأ لا كنتيجة مباشرة لنشاط المناطق الشبقية وغلبتها النسبية كما توهم فرويد ، ولا كنتيجة لفنيات التنشئة كما توهم كاردنر ، وأنما هى نتاج الصلات

البين ــ شخصية التى تعمل فى ظل نماذج وأنماط اجتماعية قائمة. وهكذا ننتهى إلى « نمط العلاقة المثالية » كتصور أساسى .

وهذه النظرة الشاملة التى نجدها عند أيريك فروم ، نتبينها أيضا عند مورى وكلا كهون فى نظريتها فى المحددات الأربعة للشخصية . وهذه المحددات عندهما هى : التكوين البدنى، وعضوية الجماعة والدور والموقف

ويشير التكوين البدنى إلى الفطرة ، بينما تشير عضوية الجماعة إلى العوامل الاجتماعية والثقافية. ويعبر الدور عن وضع الشخص فى جماعته . وأما الموقف فيعنى الخبرات الخاصة بالشخص . وليست هذه المحددات مستقلة بعضها عن البعض، وإنما هى زوايا أربع للنظر إلى العملية البيئية .

وهكذا تطورت النظرة البيئية للشخصية من نمط جامد للشخصية القاعدية الى نظرة ثرية تتناول الجوانب المتعددة للعملية البيئية لفهمها فى تبايناتها المتكثرة .

تيار العلية الشبكية

النظريات التفاعلية

يمكن النظر إلى الدوافع من زاوية السلوك الافتتاحي على أنها حوافز كما يمكن النظر إليها من زاوية السلوك الختامي على أنها أهـــداف وموضوعات وآثار .

ولقد تمت محاولات عديدة لتحليل المسالك بغية استخلاص الدوافع الأساسية . ذلك أنه لو أمكن خفض التنوع الهائل للأفعال إلى عدد بعينة من الدوافع الأساسية فسيصبح الوصف العلمي للسلوك ممكنا، على نحو ما حدث فى الكيمياء عند اكتشاف العناصر الأساسية التى يمكن أن تنخفض إليها جميع المواد . ومن هنا تتبدى أهمية إقامة جهاز للدوافع الأساسية ، كما كان الاهتمام بتحديد السمات الأساسية .

ولنتنبه مرة أخرى إلى الفرق ما بين السمة والدافع . فالسمة هى وصف ثابت للشخص ، أما الدافع فوصف للسلوك فى موقف بعينه يتميز بالإثارة . ولكن الدافع حين يتكرر يمكن أن يقترب من السمة أو يعبر عنها .

ويتحدث البعض عن الدافع بمصطلحات مختلفة . فيتحدث مورى عن موضوع — وحدة ، ويتحدث ليفين عن المتجهات ، ويتحدث علماء الجشطلت عن المواقف ، بينما يتحدث أصحاب التحليل النفسى عن ميكانيزمات الدفاع . والفكرة الأساسية فى هـذا كله تنحصر فى أن المثير ليست له دلالة ثابتة دائماً أبداً وبعينها وإنما تتحدد قيمته بالرجوع إلى الشخص الذى يدركه ، فقد تكون للمثير الواحد دلالات كثيرة ، كما يمكن أن يكون لأكثر من مثير نفس الدلالة .

نظرية الاستقلال الوظيفى للدوافع (مكدوجال)

يرى مكدوجال أن الغرائز يعيشها الشخص من خلال تجاربه فى صورة عواطف تجاه موضوعات خارجية . فهو لا يعيش غريزة العدوانية وإنما يعيش كراهيته لهذا الشخص أو لهذا الشىء مما يفترض التفاعل بين الشخص والموقف . ولقد قال بذلك فى محاولته لعمل قائمة بالدوافع الأساسية ، هذه التى رأى أنه يستطيع أن يرد إليها المسالك على كثرتها وتنوعها .

ومما يميز نظرية مكدوجال أنها تعتبر الغرائز مصدراً لجميع الدوافع ومن ثم مصدراً لجميع المسالك ، فى حين أن وليم جيمس لا يعتبر الغرائز مسئولة إلا عن قطاعات بعينها من السلوك .

وتشتمل قائمة الغرائز عند مكدوجال على أربع عشرة غريزة أساسية فى الإنسان . ولكل غريزة وجهها الإدراكى ووجها الانفعالى ووجهها النزوعى . (وهذه الغرائز عنده هى : المقاتلة والهرب والسيطرة والخضوع والوالدية والنفور والاستطلاع والاقتناء والتجمع والجنسية وتحصيل الطعام والحل والتركيب والضحك والاستغاثة) .

ولقد تعرضت نظرية مكدوجال للكثير من النقد . فلقد بدت الغرائز عنده كما لو كانت قوى مستقلة ومنعزلة ، الأمر الذى لا يساير وحدة الكائن العضوى . هذا إلى أن نظريته لم تتبين أهمية ظاهرة تداخل الغرائز وتصارعها ، وما يتمخض عنه ذلك من مسالك — محصلات . ناهيك عن أن هذه النظرية لم تبرز بدرجة كافية دور البيئة فى تشكيل الشخصية .

ومهما يكن فقد انتهى الأمر بمكدوجال إلى أن يتجنب الحديث عن الغريزة مستخدماً مصطلح الميل أو الاستعداد . وهكذا ظهرت الحاجة إلى قائمة للدوافع تجيب بشكل أعمق وأرهف على نوعية المسالك العيانية .

الدوافع كمتجهات فى الحقل (ليفين)

نظرية الحقل عند « ليفين » تتناول الدوافع لا من حيث آثارها البعيدة وإنما كما يعيشها الشخص هنا والآن فى حقل حياته. وفى هذا ما يبرز التفاعل. فوصف السلوك لا يتم عن طريق دافعه وأثره البعيد وإنما بالحرى عن طريق العلاقات المكانية القائمة فى الحقل الراهن .

والحديث عن الدوافع بلغة المتجهات يجد ما يسنده فى أن المجازات المكانية ، كالتعبير بالحركة عن الرغبة والدافع ، تمثل بالفعل عملياتنا العقلية (فالانتباه امتداد إلى ، والنفور ابتعاد عن . .. الخ) . « فالطوبولوجيا » أى الطريقة المكانية فى التفكير إنما هى طريقة عامة بمعنى أنها تسبق الثقافات المختلفة . ولكن ليفين لم يضطلع بمحاولة عمل قائمة بالمتجهات الأساسية ، أى أنه لم يضطلع بعمل قائمة طوبولوجية بدلا من قائمة مكدوجال ، وإنما حاول ذلك من بعده مورى وتومكنز . ويختلف « ليفين » عن الجشطلتيين فى تمسكه بمبدأ المعاصرة[1] بمعنى أن المجرب عليه أن يقتصر فى دراسته على الحقل الحالى للقوى فى لحظة التجربة .

وهذا المبدأ يذكرنا بالاهتمام الحديث فى التحليل النفسى الذى يتمثل فى انتقال بؤرة الاهتمام من إعادة بنـــاء ماضى المريض إلى الكشف عن التكنيكات الاجتماعية التى يستخدمها المريض فى علاقته المتطورة بالمعالج، هذا إلى الاهتمام المتزايد بحقل العلاقات الاجتماعية الحالية كما عند هورنى.

و« مجال الحياة » لا يعنى عند « ليفين» البيئة الجغرافية بمثيراتها الفيزيائية، وإنما يعنى الدلالة الرمزية لهذه المثيرات أى جوانب الحياة على نحو ما

---

(١) راجع فى كتاب نظرية الجشطلت وعلم النفس الاجتماعى ، الفصل الأول ، (الأنجلو): كيرت ليفين ليس من الجشطلتيين .

يعيشها ويستجيب لها الشخص . والعلاقة الأساسية فى الطوبولوجيا هى الوجود فى « داخل » أو « خارج » منطقة . والمكان « الهودولوجى » (المسارى) يشير إلى المسارب بين هذه المناطق . ولقد استخدم ليفين الهندسة غير القياسية لتوضيح مجال الحياة من قبيل السهم واتجاهه وعلامته. ولكنه استخدم أيضاً مفاهيم شبه قياسية كسمك الحاجز بين المناطق، وضيق أوسعة مجال الحركة الحرة مما يعرف بدرجة السيولة . فبقدر ما تكون سهولة الحركة فى المجال تكون سيولته . أما المطاطية فتشير إلى قدرة المناطق على أن تتحول وتعود إلى حالتها السابقة . ويعبر رأس السهم عن الاتجاه . أما علامة زائد أو ناقص فتعبر عن طبيعة هذا الاتجاه حبا أو كراهية . ولقد استخدمت « هورنى » مفاهيم المتجهات بطريقة فعالة فى تصنيفها للعلاقات مع العالم إلى « اتجاه إلى » ، و « اتجاه ضد » ، و « اتجاه عن » .

وثمة فكرة هامة عند « ماسلو » تستوحى نظرية الجشطلت ، ونعنى استحالة وصف دافع فى عزلة من الدوافع الأخرى . فهنالك ترتيب درجى لها بحيث لا يظهر واحد إلا بعد إرضاء الدوافع السابقة عليه من حيث الأهمية . ومعنى هذا أن الدوافع تنتظم عند فرد فرد فى ائتلاف فريدومتميز .

نظرية الدوافع المصطرعة أو ميكانيزمات الدفاع (فرويد)

كان جانية يقرر أن أن المرض النفسي ينتج من الذكرى المنسية لحادث صدمى ، بمعنى أن الذكريات الخاصة بالموقف الصدمى تصبح لا شعورية. وكان يعتقد أن الضعف النفسي هو الذى يجعل الذكريات تسقط فى اللاشعور. أما فرويد فجاء بالتصور الدينامى إذ قرر أن الحفزات الغريزية والذكريات الأليمة تريد أن تبقى على مسرح الشعور بينما تريد لها الدوافع الأخلاقية أن تختفى وتكبت ، ويتمخض الصراع عن محصلة هى ميكانيزم الدفاع.

لم يحاول فرويد وضع قائمة مفصلة عن الدوافع الأساسية وأنماقال فى البداية بتعارض مابين دوافع جنسية للإبقاء على النوع ، ودوافع ذاتية للابقاء على الفرد . ثم جمع بينهما بعد ذلك تحت اسم دوافع الحياة أو الجنسية فى مقابل دوافع الموت أو العدوانية . ولم يكن فرويد يستهدف وصف الشخصية عن طريق الدوافع وإنما عن طريق صراعاتها ، بمعنى الدوافع المصطرعة والمحصلات التى تأخذ صورة ميكانيزمات الدفاع . فلم تكن الدوافع عنده كما كانت عند ماكد وجال تعمل متفاهمة جنبا إلى جنب أو الواحدة بعد الأخرى .

صحيح أن ماكدوجال لا تبدو الغرائز عنده عارية نقية وإنما فى صورة عواطف وبالتالى مختلطة بالتعلم مما يسميه مورى الجدولة أو التربيع، ولكن ماكدوجال لم يتنبه إلى أن الدوافع يمكن أن تتعدل وتستحيل إلى نقيضها (الجنسية الغيرية المحارمية الموجبة تصبح مثلا من قبيل الدفاع جنسية مثلية سلبية) . وفرويد يعتبر أن المهمة الأساسية لا تنحصر فى رد الأفعال إلى دوافعها وإنما فى دراسة ما يطرأ على الدوافع من صور التبدل والتمويه .ومن هنا غدت ميكانيزمات الدفاع ، أكثر من الغرائز مبادىء للتفسير النفسى .

وسائل دراسة الشخصية قياسها وفهمها

هناك مصادر مختلفة تمدنا بالمعلومات التى تمكننا من دراسة الشخصية، فمن مصادر تاريخية كالشهادة والوثائق، ومن مصادر كلينيكية كالحديث، إلى مصادر اختبارية كالمقاييس المقننة والتكنيكات الكلينيكية، هذا إلى دراسة السلوك التعبيرى كخط اليد والبنية البدنية . . الخ ومصادر التحليل النفسى .

وهناك مبدآن موجهان لاستخدام هذه المعطيات — أما الأول فينحصر فى أن الشخصية انتظام كلى . وأما الثانى فينحصر فى أن الشخصية انتظام كلى حالى وزمنى معا . ويترتب على هذين المبدأين قصور الفحص المنعزل بل وجملة الفحوص المنعزلة عن الإمساك بالشخصية . فلابد لذلك من أن يحدد للمعطيات مكانها من الكل . وحتى حين يتأتى ذلك فلن نستطيع الإمساك إلا بلحظة من لحظات تطور الشخصية. وباختصار فليس لنا غنى عن تاريخ الشخصية وعن حديث يحقق معها الاتصال المباشر والملاحظة المباشرة. فنى هذا أو ذاك مايتيح الكشف عن نوعية القوى المصطرعة وما تمخضت عنه الصراعات من محصلات هى وسائل الشخص الدفاعية النوعية فى مواجهة المواقف التى تثير فيه القلق . ذلك هو المنهج الكلينيكى بمسلماته الثلاث والذى يستهدف « فهم » الشخصية . أما فيما يتصل بالاختبارات والمقاييس المقننة فهى وسائل معينة لسبر غور بعض جنبات من الشخصية، ولكنها وسائل جزئية تمدنا بعناصر تنتسب إلى كل تستحيل إقامته بغير المعطيات التاريخية والملاحظات المباشرة .

ويرى « لاجاش » أن المنهج الأنموذجى أنما هو المنهج الكلينيكى لاسيما فى صورته المتطورة ، ألا وهى التحليل النفسى .

وسوف نبدأ بالحديث عن طرائق المنهج التجريبى قبل أن نتناول بالتفصيل المنهج الكلينيكى بطرائقه المختلفة .

الفصل السادس

نظرية السلوك ومبادئه العامة[1]

يمكننا أن نميز فى السلوك ثلاث مراحل أو قطاعات : سلوك البدء ونعنى به الدافع ، وسلوك الوسط ونعنى به البحث عن الوسائل ، وسلوك الختام ونعنى به موضوعات وأهداف السلوك .

وفيما يتصل بالدراسة التى تستهدف استخلاص المبادئ العامة للسلوك[2] نجدنا من الناحية التاريخية أمام تيارين أحدهما التيار السيكولوجى والثانى هو تيار التحليل النفسى .

التيار السيكولوجى :

(ا) قانون الدربة : (وليم جيمس ١٨٩٠)

استخلص وليم جيمس قانون الدربة Exercise ، وهو قانون يعبر به جيمس عن الظاهرة الأساسيه للسلوك ، وهى ظاهرة العادة ، هذه التى تستند إلى التكرار . ويسلم جيمس عند إقامته لهذا القانون بكل ما يمكن أن يترتب عليه من نتائج منطقية . فالمسالك المتكيفة والمسالك العديمة التكيف يمكن تفسيرها[3] جميعاً دونما حاجة إلى إدخال الإرادة .

(ب) قانون الأثر : (ثورندايك ١٩١١)

أقام ثورندايك قانون الأثر Effeet فى الصيغة التالية :

---

(١) راجع محاضرات دانيل لاجاش فى علم النفس ، جامعة السوربون عام ١٩٥١—١٩٥٢ .

(٢) راجع كتاب Hull : Principles of Behavior.

(٣) أنظر قانون التكرار Frequency وقانون الاستخدام أو الممارسة Use .

« إذا ما أحدثت استجابة ما آثاراً سارة فإنها تميـــل إلى أن تتـكرر ، وعلى العكس إذا ما أحدثت الاستجابة آثاراً غير سارة فإنها تميل إلى أن تجتنب .»

وهذا القانون يضع فى الاعتبار فى آن واحد مفهومى الدوافع والنتائج .

ولقد حظى هذا القانون بأهمية متزايدة منذ عام ١٩٣٠ ، ولـكنه مع ذلك ينطوى على صعوبة هى : لماذا تثابر بعض الأفعال — ونعنى الأفعال العديمة التـكيف — على أن تتـكرر فى إصرار ؟ إن قانون الدربة عند وليم جيمس هو الذى يجيب على ذلك .

تيار التحليل النفسى :

(ا) مبدأ اللذة — الألم : (فرويد ١٩١١)

أقام فرويد هذا المبدأ ، مبدأ اللذة — الألم ، وفى استطاعتنا أن نقارن ما بينه وبين قانون الأثر ، وعندئذ تعترضنا نفس الصعوبة ، صعوبة تفسير المسالك العديمة التـكيف .

(ب) مبدأ آلية التكرار : (فرويد ١٩٢٠)

أبرز فرويد آلية التـكرار فى هذا المبدأ الذى أقامه عام ١٩٢٠ والذى أسماه أيضاً بمبدأ قهر التـكرار ، وهو مبدأ يفسر مثابرة وأصرار المسالك العديمة التـكيف .

ويسود اليوم اتجاه إلى تفسير المسالك المتـكيفة بقانون الأثر ، وإلى تفسير المسالك العديمة التـكيف بقانون الدربة .

* * *

وفى هذا التطور المتوازى للمدرستين نجد التقاء الأفكار ، فالواحدة تبدأ من حيث تنتهى الأخرى . وعلى الرغم من انفصال المدرستين خلال أعوام طويلة ، فقد انتهت كل منهما إلى نفس الثنائية . وإننا لنتساءل عما إن كانت ثنائية المبدأ بالأمر الضرورى ؟ وعما إن كانت هنالك وسيلة للخروج من هذه الثنائية أو خفضها أو تبسيطها ؟

مشكلة المثابرة والإصرار فى المسالك العديمة التكيف

سندرس هذه المشكلة تبعا للخطة التالية :

(أولا) مبادىء السلوك تبعاً للتحليل النفسى .

(ثانياً) مبادىء السلوك تبعاً لعلم النفس التجريبى .

(ثالثاً) مقارنة مابين مبادىء التحليل النفسى ومبادىء علم النفس التجريبى .

(رابعاً) نقد التحليل النفسى لآلية التكرار .

(أولا) مبادىء السلوك تبعاً للتحليل النفسي

ينبغي أن نميز عند فرويد ما بين مرحلتين . مرحلة عام ١٩١١ ومرحلة عام ١٩٢٠ . فني نصوص عام ١٩١١ يقدم فرويد تفسيراً للوظائف العقلية استناداً إلى مبدأ اللذة — الألم ؛ أما فى نصوص عام ١٩٢٠ فإنه يقدم فى كتابه « فيما وراء مبدأ اللذة » صياغة جديدة لمبدأ هو مبدأ الثبات .

نصوص عام ١٩١١ ومبدأ اللذة ـ الألم :

يتحدث فرويد ، فى تفسيره للمرض النفسي ،عن «الانسحاب من الواقع»، وذلك كحل لمشكلة علاقة الكائن البشرى مع الواقع . ويعرض فرويد « لوظيفة الواقع »التى درسها جانيه ثم ينتهى إلى أن رأى جانيه بعد مسرفاً فى الاستاتية من أساسه . ويكشف فرويد بفضل التحليل النفسى أن سلوك المريض دينامى وأن الأمر يتعلق « بانسحاب من الواقع » . وحالات الانسحاب من الواقع تبدو واضحة فى « الذهان الهلوساتى » كسمة مرضية . فالمريض ينصرف عن « قطعة من الواقع » ويدير ظهره لها .

ويميز فرويد ما بين عمليتين: العملية الأولية وتنحصر فى تحقيق الرغبات، والعملية الثانوية وهى العملية الأولية وقد تغيرت بفعل الواقع .

فالعملية الأولية تخضع لمبدأ « اللذة — الألم » مما نراه واضحاً عند الطفل ومما يمكن أن نجده عند الراشد وخاصة فى الأحلام(١) .

وقد هجر فرويد هذا المبدأ ، مبدأ اللذة — الألم ، لعدم كفايته وذلك حين توصل إلى العملية الثانوية ، إلى « مبدأ الواقع » . ويربط فرويد مبدأ الواقع بتطور الوظائف الشعورية وخاصة وظائف الذاكرة والانتباه،

---

(١) راجع فرويد فى « تفسير الأحلام » (دار المعارف) .

حيث يحل النشاط الخاص « بالحكم » محل النشاط الخاص بالكبت ، وعندئذ يعمل الفكر على تقييد الإفراغ الحركي .

ويؤدى « مبدأ الواقع » إلى التمايز المطرد . فألعاب الطفل وأحلامه وميوله الجنسية هذه التى تحتل فى حياته مكانة خاصة تبدو خاضعة لمبدأ « اللذة — الألم» . لكن هناك ميادين أخرى تبدو فى وضوح خاضعة لمبدأ الواقع .

فمجال الشبقية الذاتية لا يحتاج إلى واقع ، وهذا المجال يشد إليه الميول الجنسية . فموقف الشبقية الذاتية لا يعرف الحرمان الذى يصاحب مبدأ الواقع .ومن ثم تثابر الشبقية الذاتية فى إصرار،وتتزايد شدتها ، ويتطاول بقاؤها خاضعة لمبدأ اللذة؛ومن ثم أيضا فإن الشبقية الذاتية يمكن أن تصبح جزءاً هاما من التربة التى تهيء للعصاب .

فنى البداية يسود مبدأ « اللذة — الألم » ، ويتأثر ويكون مبدأ «الواقع» خاضعا له ، ثم يصبح مبدأ الواقع شيئا فشيئا أداة وقاية وإنقاذ . عندئذ فإن لذة الحاضر العاجلة تخلى السبيل للذة آجلة ، أو على وجه الدقة« مؤجلة » ؛ ومن ثم يهيمن مبدأ الواقع .

وخلاصة القول أن المبدأين، مبدأ اللذة ومبدأ الواقع ليسامتعارضين. فمبدأ الواقع هو وجه من أوجه مبدأ اللذة ، وهو وجه يرتبط ارتباطا قويا بالعالم الخارجى ، وفى ذلك ما يؤدى إلى النجاح العملى . ووظيفة التربية العمل على احلال مبدأ الواقع محل مبدأ اللذة . ويعد الفن صورة خاصة من صور المصالحة ما بين هذين المبدأين .

نصوص عام ١٩٢٠ ومبدأ الثبات:

يقدم لنا فرويد فى كتابه « فيما وراء مبدأ اللذة » ، يقدم لنا مبدأ اللذة على أنه حالة خاصة من حالات « مبدأ الثبات»عند فخنر Fechner: « فالكائن

العضوى يميل إلى المحافظة والإبقاء على الميول فى مستوى متوازن» . ولكن آلية التكرار تحد قيداً يحد من سريان هذا المبدأ .

ويعرف فرويد مبدأ الثبات كما يلى : « يميل الجهاز النفسى فيما يبدو إلى الإبقاء على كمية الإثارات التى يشتمل عليها فى مستوى منخفض ما أمكن» . ومبدأ الثبات هذا يبدو أكثر ملاءمة للتفسير بالقياس إلى المبدأين المتعارضين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع ، وذلك هو ماتبينه فرويد .

ويمكن أن يحدث صراع أو تنافر ما بين الميول . فإذا لم يستطيع الشخص أن يتخلص من بعض الميول الأولية ، فإن هذه الميول تكبت وتتحقق فى صورة إرضاءات بديلة . ومن ثم فإن كل شىء ينبغى أن يمكن رده إلى اللذة . وما الألم الشبقى ألا لذة لم يعشها الشخص من حيث هى كذلك .

* * *

ولكن كيف يستجيب الكائن العضوى لمبدأ الألم ؟ وما الذى تتمخض عنه دراسة التكرار فى المسالك المديمة التكيف ؟

إن الأعصبة الصدمية — ونعنى هنا الصدمات الانفعالية — هذه الأعصبة ترجع إلى مصادر إثارة غامرة ، بمعنى أنها تغمر الكائن العضوى وهو فى حالة اليقظة الى حد يجعله يتجنب التفكير فى الصدمة وهو يقظ ، ومن ثم فإن إصلاح الصدمة يتم — إن جاز القول — أثناء النوم .

وفى اللعب يكرر الأطفال أحياناً تجارب أليمة . فالطفل يكون إيجابياً فى اللعب ومن ثم يصل إلى السيطرة على الحدث الأليم .

وفى ظاهرة الطرح نجد أن بعض أحداث الطفولة الأليمة أو اللاشعورية تميل لأن تتكرر وخاصة فى موقف التحليل النفسى .

وهنالك بعض أشخاص يضعون أنفسهم بصورة متكررة فى نفس الموقف الأليم ، وهو ما يسمى « عصاب القدر » .

وكيما نختتم هذه النقطة من دراستنا لمثابرة وإصرار المسالك العديمة التكيف على أن تتكرر ، فإننا نقول أن بعض الوقائع يمكن ردها إلى مبدأ اللذة — الألم ، بينما يستحيل ذلك بالنسبة لبعضها الآخر .

إن دراسة مبادىء السلوك العديم التكيف من زاوية التحليل النفسى قد أدت بنا إلى أن نناقش المبدأين اللذين صاغهما فرويد عام ١٩١١ وهما «مبدأ اللذة - الألم» و «مبدأ الواقع» ثم إلى أن نفحص «مبدأ الثبات» الذى صاغه صياغة جديدة عام ١٩٢٠ . ولقد أوضحنا « تكرار الحاجات» فى المسالك المتكيفة ، وليس فى ذلك ما يبدو غامضاً ، ولكن المشكلة تبدى واضحة فى المسالك العديمة التكيف ، وذلك على نحو ما تبدى فى الاستجابات الصدمية ومن خلال لعب الأطفال والطرح وعصاب القدر . وحالات عصاب القدر لا تمثل تكراراً للحاجات وإنما تمثل حاجة للتكرار .

إن أكتشاف آلية التكرار هو أكتشاف لمبدأ أكثر أساسية عند الإنسان من مبدأ اللذة — الألم ومبدأ الواقع . وآلية التكرار لاتوجد فى حالة نقاء فى الطبيعة وذلك لارتباطها بغرائز أخرى : فالأفعال الأليمة التى يهرب منها الشخص أثناء اليوم تبعا لمبدأ اللذة —الألم ، هذه الأفعال الأليمة يعيشها الشخص مرة أخرى عن طريق الصدمة فى الحلم . وإن آلية التكرار هى التى تعد مسئولة عن ذلك .

وآلية التكرار هى الميل اللاشعورى إلى تكرار أشكال السلوك الطفلية حتى حين يكون هذا التكرار متعارضا مع مبدأ اللذة .

الطابع التكرارى للغريزة :

الغريزة هى فيما يبدو الميل إلى الإعادة بمعنى الإقامة من جديد للحالة التى كانت قائمة من قبل . والأفعال الغريزية تقترب من المسالك البيولوجية (الوارثة) ، ومن هنا يكون الصراع مابين جمود الغريزة والتغيرات الخارجية .

وميول الأفراد تتجه كما أشرنا « إلى استعادة الحالة اللاعضوية » السابقة على الحياة . فهدف الحياة فيما يبدو هو الموت . والوقائع البيولوجية تدعم وجهة النظر هذه .

أصل آلية التكرار :

١ — « آلية » التكرار ، حيث التكرار متناسق كائنة ما كانت آثارة .

٢ — مبدأ الثبات : وهذا المبدأ يخفض التوترات إلى أقل مستوى ممكن .

٣ — مبدأ اللذة — الألم ، فكل سلوك يرجع فى أصله إلى حالة توتر أليم ويميل إلى أن يخفض حالة التوتر هذه فى تجنب للالم .

٤ — مبدأ الواقع ، وهو تعديل لمبدأ اللذة ويستهدف نفس الأهداف ولكنه يحسب حساب الشروط الخارجية .

خلاصة : ويمكن إجمال هذا كله فى صورة تفصيلية على النحو التالى :

المبادىء التفسيرية للحياة النفسية فى التحليل النفسى

كان فرويد فى المرحلة الأولى منذ عام ١٨٩٥ يرجع كل شىء إلى مبدأ اللذة —الألم وهو الذى يعد صورة معدلة لمبدأ الثبات ، بينما يعد مبدأ الواقع الصورة المعدلة لمبدأ اللذة . وفى عام ١٩٢٠ فى كتابه « ما وراء مبدأ اللذة » أضاف فرويد مبدأ قهر التكرار بحسبانه مبدأ أعمق من مبدأ اللذة ويعمل فيما وراءه .

مبدأ الثبات :

أخذ فرويد هذا المبدأ عن فخنر (١٨٧٣) وهو مبدأ يسمى أحيانا بمبدأ

النرفانا ، ومؤداه ميل الكائن الحى إلى أن يخفض التوترات إلى أقل مستوى ممكن أو قل إلى المستوى الأدنى الذى كانت عليه، إذ ليست هناك حياة بغير حد أدنى من التوتر . وفى هذا ما يحقق مفهوم الثبات(١) .

ولقد استخدم فرويد هذا المبدأ فى تفسير عمليات الإفراغ سيان كان الإفراغ فى صورة الإشباع أو فى صورة الدفاع .

مبدأ اللذة والالم :

يعد الصورة التى يتجسد فيها مبدأ الثبات فى عالم الحياة النفسية . فمبدأ اللذة مؤداه : ما من سلوك ممكن بغير دافع وليس الدافع غير توتر أليم ، وكل سلوك يستهدف خفض هذا التوتر الأليم أو تجنبه مع تحقيق اللذة إن أمكن .

مجالات تخضع لمبدأ اللذة :

(ا) الطفل الصغير فى إطار الأمومة الحانية يواجه الانتظار الأليم للإشباع بحركات وصرخات تحقق الإفراغ . هذا إلى الهلوسات التى تحقق له فى الخيال الإشباع الذى ينشده .

(ب) الراشد المكتمل يبعد بنفسه عن كل ما هو أليم . هذا إلى أحلام اليقظة وأحلام النوم؛ بل إن النوم ذاته من حيث هو إعراض عن الواقع يعود بصاحبه إلى حياة شبيهة بالطفولة الأولى .

---

(١) هذه الفكرة هى من الأهمية بحيث نجدها فى الفيزياء (مبدأ لوشاتيليه) وفى الفسيولوجيا (الهوميوستازيس أو مبدأ اتزان الوظائف العضوية) وفى علم النفس العام (الانضباط الذاتى والانتظام التلقائى) وفى نظرية الجشطلت (قانون الامتلاء أو أحسن صيغة ممكنة) وفى المسلمات الأساسية لكثير من علماء السلوكية .

والعمليات اللاشعورية تعمل تحت راية مبدأ اللذة . وحيث أن هذه العمليات هي متخلفات العمليات الأولية الأولى والتي كانت تمثل عندئذ النمط الوحيد فإنها تسمى أيضا بالعمليات الأولية أو النمط الأول . هذه العمليات اللاشعورية الغريزية تستهدف الإشباع في غير اعتراف منها بالواقع أو الزمان أو العلاقات العلية المنطقية .

(حـ) الراشد المريض نفسيا يعرض جزئياً عن الواقع لحساب مبدأ اللذة بينما يكون الإعراض خطيراً أو مكتملا في حالة المرض العقلي . فالمريض لا يستطيع أن يواجه الواقع ومن ثم يلجأ إلى الكبت ؛ وليس الكبت غير تعبير عن اختلال وظيفة الواقع .

مبدأ الواقع :

يعد الصورة التي يتجسد فيها مبدأ اللذة وقد كبر ونضج . فأهداف مبدأ الواقع هي هي أهداف مبدأ اللذة، ولكن النضج يفرض عليه أن يتلاءم مع ظروف العالم الخارجي. فمبدأ الواقع وإن اقتضى التضحية بلذة عاجلة فما ذلك إلا لتحقيق لذة آجلة أكثر إمتاعاً ومسايرة لمشاعر الأمن وقيمة الذات. ومن هنا فإن الانتقال من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع يعبر عن تطور ارتقائي. وفي الجهاز النفسي يتمثل هذا التطور الارتقائي في ارتقاء الوظائف الشعورية وخاصة الإدراك والذاكرة في اضطلاعها بالتوافق ، وفي اطراد النضج الذي يسمح للأحكام العقلية أن تأخذ مكان الكبت ، وللأفعال الهادفة أن تأخذ مكان الإفراغات الحركية . وبعبارة أخرى يتمثل هذا الارتقاء في النضج من حيث هو اطراد للقدرة العقلية المنطقية ، واطراد للقدرة على التسامح إزاء التوترات ، ومن ثم تأجيل إفراغها وتناولها بالتفكير من حيث هو أسلوب تمحيص للفعل .

مجالات تخرج عن مبدأ الواقع :

(ا) الخيال يظل خاضعاً لمبدأ اللذة ، سيان فى لعب الأطفال أو فى أحلام اليقظة .

(ب) الغرائز وخاصة الجنسية تظل إلى حد بعيد خاضعة لمبدأ اللذة . فالغرائز الجنسية يتأخر نضجها فتظل إبان الطفولة بل وفى مرحلة الكمون خاضعة لمبدأ اللذة بعيدة عن أن تتلاءم مع الموضوعات الخارجية . ومن شأن هذه الفترة الطويلة من الخضوع لمبدأ اللذة أن ترتبط الغرائز الجنسية بالخيال والإشباعات الهلوسية مع الاستجابة بالكبت لأقل إحباط أليم. وعندما يحدث هذا الكبت يكون التثبيت، إذ ينال الكف تطور الليبيدو والأنا مما يسهل على الراشد فيما بعد أمام موقف من الإحباط أن يقوم بالنكوص إلى نقطة التثبيت فتكون فى ذلك نشأة المرض النفسى .

(ح) والعمليات اللاشعورية تظل خاضعة لمبدأ اللذة. ولكن حيث أن الفكرة تكافىء الواقع والرغبة تكافىء أشباعها فإن هذه العمليات اللاشعورية تستمتع بواقعية سيكولوجية وإن ظلت بعيدة عن مبدأ الواقع . ومن هنا فإن مشاعر الإثم لا تحتاج إلى جريمة فعلية فى الواقع بل حسبها أن تتم الجريمة فى إطار التخيلات اللاشعورية.

وعلى أية حال فإن مبدأ الواقع هو الذى يفسر بلغة علم النفس العام العمليات الثانوية أو التعلم أو التطبيع الاجتماعى أو التربية . فهو يفسر جميع التعديلات التى تنال الشخصية أو السلوك نتيجة تعلم الفرد وخبرته. ومبدأ الواقع يقترب كثيراً من قانون الأثر هذا الذى ينص على أن السلوك الذى يؤدى إلى المثوبة يتعزز بينما السلوك الذى يؤدى إلى العقوبة يضعف .

مبدأ قهر التكرار :

هذا المبدأ يعنى آلية تكرار الخبرات القوية ، مفيدة كانت أم ضارة ، باعثة على اللذة أو مثيرة للألم .ولقد تنبه فرويد منذ البداية إلى أهمية ظاهرة

التكرار، ولكنه لم يعمدها مبدأ أفيما وراء مبدأ اللذة إلا فى عام ١٩٢٠. تنبه فرويد إلى أهمية ظاهرة التكرار فى كثرة من الوقائع النفسية من قبيل الصدمة النفسية وعصاب القدر والطرح ولعب الأطفال. كما تنبه إلى أهمية ظاهرة التكرار فى بعض الوقائع البيولوجية فكل حياة تنتهى إلى الموت أى إلى اللاعضوية السابقة على الحياة ومن ثم تكرار. والجنسية تنتهى إلى التناسل ومن ثم تكرار.

ولكن كيف يمكن تفسير هذه الظواهر ؟

(أ) بعضها يمكن ولا شك رده إلى مبدأ اللذة فهو تكرار حاجة وليس حاجة تكرار، من ذلك لعب الأطفال والطرح والعصاب الصدمى. فى الموقف الصدمى لم تتم السيطرة بعد وماتزال الرغبة فى السيطرة قائمة، ومن ثم يكون التكرار فى أحلام اليقظة أو أحلام النوم ليتيح إفراغات جزئية آجلة ويتيح للشخص أن يتحول عن السلبية التى عاشها إلى الإيجابية . وفى هذا كله ما يبعد به عن الألم فى الطريق إلى اللذة .

ومن هنا كان تمييز البعض فى ظاهرة التكرار بين نزعة تكرارية ونزعة إرجاعية. فالنزعة التكرارية فى رأيهم تعبير عن مبدأ القصور الذاتى، ومن ثم فهى آلية غريزية تقع حتى فيما وراء مبدأ اللذة ، وقوامها تكرار الخبرات القوية سارة كانت أم أليمة. أما النزعة الإرجاعية فوسيلة لاشعورية دفاعية تستهدف الإفراغ الآجل للتوترات التى تخلفت عن الصدمات. ومن ثم فالتكرار فى النزعة الإرجاعية ليس غير وسيلة تستأنسها الأنا وتسخرها فى أهدافها الدفاعية .

(ب) ولكن الخبرات الأليمة والمسالك غير المتكيفة يستحيل فيما يبدو ردها إلى مبدأ اللذة، فهى ليست تكراراً لحاجات غريزية تسعى إلى الإفراغ فى صورة الإشباع أو فى صورة الدفاع ؛ ومن هنا يكون من المنطق تفسيرها

بإرجاعها إلى حاجة قائمة بذاتها وراء مبدأ اللذة هى حاجة تكرار .

ولكن التكرار فى هذه الظواهر العصابية لا يقع بالضرورة فيما وراء مبدأ اللذة ؛ ذلك أن دورية الغرائز مسألة بيولوجية ؛ فكلما عاد المطلب الغريزى الى الإلحاح عادت مشاعر الإثم وعادت دفاعات الأنا إلى التدخل وهكذا دواليك . وهكذا تستند التكرارات القهرية إلى الحاجات الغريزية . وما الانفعالات التى يستشعرها الكائن الا من قبيل التوقع والاستباق لبعض النتائج مما يظهر فى حالة اتجاه الجنسية إلى موضوع محارمى . وعليه ففى التكرارات العصابية يستمر السلوك غير المتكيف للواقع والحاضر مما يعنى ضعف الأنا إلى الحد الذى يفشل معه مبدأ الواقع ويعجز التفكير بتقديره للنتائج البعيدة للسلوك عن أن يوقف التكرارات القهرية . وفى هذا ما يرينا كيف أن هذه التكرارات القهرية وثيقة الشبه بالعمليات الأولية اللاشعورية . ففى ضعف الأنا وفشل مبدأ الواقع ما يرفع رأيه مبدأ اللذة . وفى هذا كله ما يرد الأمر إلى مبدأ اللذة ، إلى تكرار الحاجة الغريزية لا الى حاجة غريزية للتكرار .

وعلى أية حال فإن مبدأ قهر التكرار يناظر فى علم النفس العام قانون الدربة (أو التواتر) هذا الذى ينص على ارتباط التذكر والتعرف بعدد تكرارات التعلم . والصراع القائم هنا ما بين مبدأ اللذة ومبدأ قهر التكرار يجد نظيره فى علم النفس العام فى الصراع ما بين قانون الأثر وقانون الدربة .

(ثانيا) مبادىء السلوك تبعا لعلم النفس التجريبي

إننا نجد أنفسنا أمام قانونى التعلم : قانون الدربة أو التواتر ، وقانون الأثر .

ما هو التعلم ؟

يرى البعض أن التعلم هو «تحسن» ويرى البعض الآخر أنه «اكتساب». والتعريفات القديمة تجعل الاكتساب منطوياً على تحسن السلوك. ويكون التعلم بهذا المعنى هو « شكل السلوك الذى يتجه عادة إلى تكيف أفضل » .

ويبدو لنا أن هذا التعريف غير ملائم ، سيما وأننا ندرس أيضاً ، وعلى وجه الدقة ، المسالك العديمة التكيف . ومن هنا فإننا نفضل التعريف التالى :

« يوجد التعلم كلما تغير الكائن العضوى إثر دورة سلوكية تغيراً باقيا فى سلوكه » .

وإننا لا نحفل بطبيعة أو نتيجة هذا التغير، وما إن كان السلوك متكيفا بدرجة أو أخرى .

قانون الدربة أو التواتر :

صاغ وليم جيمس هذا القانون عام ١٨٩٠ ثم جدده ثورندايك عام ١٩١١ : « إن قوة الوصلة ما بين استجابة وموقف إنما تتناسب تناسباً طرديا مع عدد المرات التى تم فيها وصل الاستجابة بهذا الموقف ، ومع شدة ومدة استمرار هذه الوصلة » .

وعمومية هذا القانون هى محل شك . فبعض الوقائع تؤيده ، ولكن بعضها الآخر لا يؤيده .

الوقائع المؤيدة : مما يؤيد هذا القانون « مبدأ الاقتصاد » الذى درسه ابنجهاوس عام ١٨٨٥ . ففى تجربة تعلم المقاطع العديمة المعنى يتم التعلم بصورة أسهل بعد أول نسيان . ومع ذلك فإنه ينبغى أن تنتبه إلى أن عملية تذكر المقاطع العديمة المعنى يمكن أن تعين عليه « فنيات تذكرية ». نعم إن الفعل المنعكس الشرطى يلعب دوراً هاما فى التعلم ، ولكن التعلم مع ذلك يرجع إلى ظواهر أكثر تعقداً من مجرد التكرار .

الوقائع المناهضة : إن التعلم لا ينطوى دائما على التكرار ، إذ يمكن للتعلم أن يتم فى مرة واحدة . وتعلم وظيفة معقدة يتضمن ارتباطات جزئية عديدة . وهذه الارتباطات يتكون الكثير منها فى مرة واحدة . هذا وإن تحسن واقعة مكتسبة لا يتضمن أساسا تكرار الفعل وإنما التغير فى البنية .

هذا إلى أن « المران الزائد» يرينا أن التكرار يمكن أن يضعف الارتباطات مما نجده فى « ظاهرة التشبع » .

والتكرار من غير دافع أو من غير معرفة للنتيجة إنما هو تكرار عديم الفاعلية . (١)

ويكشف هيلجارد عن نفس هذا الاتجاه فى كتابه « نظرية التعلم » .

وخلاصة القول فإن تدعيم الفعل لا يرتبط بالضرورة بممارسته. ومع ذلك فالتكرار ضرورى، وإن لم يكن كافيا وحده. فهو وحده لا يسمح بالتحسن.

---

(١) راجع جييوم : علم نفس الجشطلت، ترجمة المؤلفين ، سجل العرب ١٩٦٣
ولقد عدد جييوم الأدلة المناهضة للتكرار :
١ ــ إكتساب الكائن العضوى عادات معارضة .
٢ ــ قلب العادة إلى ضدها .
٣ ــ التثبيت الفجائى للنجاح إثر سلسلة من الأخطاء .
٤ ــ إدراك جشطلتات : « فالامتلاء » لا ينتج عن التكرار الكثير .
٥ ــ تغير بنية الفعل أثناء التكرار رغم بقاء الدلالة على حالها .

فالتقدم لا يتحقق إلا إذا كانت الوصلة مثيرة لاهتمام الشخص. وعليه يبدو من الضرورى الاستعانة بمبدأين فى تفسير السلوك: مبدأ التكرار ومبدأ اللذة - الألم.

قانون الأثر :(١)

يعرف مان Munn قانون الأثر على النحو التالى:

«من بين استجابات عديدة لموقف بعينه فإن الاستجابة التى تميل إلى إرضاء حاجات الكائن العضوى إنما تميل الى أن تستبق، بينما الاستجابة التى تفشل فى إرضاء الحاجات تميل إلى أن تستبعد».

أما تعريف ثوارندايك لهذا القانون (١٩١١) فهو:

«من بين الاستجابات العديدة لموقف بعينه فإن الاستجابات التى يصحبها أو يعقبها مباشرة إرضاء لإرادة الحيوان - متى تساوت جميع الظروف الأخرى - تكون أقوى «وصلة» بالموقف، وذلك على نحو بحيث إذا ما عاد الموقف إلى الظهور زاد الاحتمال فى أن تتبعه الاستجابة فى الظهور؛ بينما أن الاستجابات التى يصحبها أو يعقبها مباشرة حالة عدم الارتياح فى معارضة لإرادة الحيوان - متى تساوت جميع الظروف الأخرى - إنما تعانى ضعفاً فى «وصلتها» بالموقف، وذلك على نحو بحيث إذا ماعاد الموقف إلى الظهور قل الاحتمال فى أن تتبعه الاستجابة فى الظهور. وكلما عظم الإرضاء أو عظم عدم الارتياح عظم تعزيز الوصلة، أو عظم إضعافها على الترتيب».

ولنتنبه الى أن هذين التعريفين، تعريف مان وتعريف ثورندايك،

---

(١) راجع :

Hilgand, Theory of Learning.
Munn, Manual of Psychology.
Guillaume, Formation des habitudes.

يستند كل منهما إلى تجارب مختلفة . ولنحدد معنى « إرادة الحيوان » عند ثورندايك . فالتعبير يعنى وجود « حالة إرضاء » وهذا التعبير يعنى بلغة السلوكيين « حالة لا يعمل فيها الحيوان شيئا ليتجنبها ، بل يسلك على نحو يحقق الإبقاء على هذه الحالة أو يستحدثها » . أما التعبير « حالة عـــدم الارتياح » فإنه يعنى بلغة السلوكيين « حالة لا يعمل فيها الحيوان شيئا للإبقاء عليها بل يسلك على نحو يحقق إنهاء هذه الحالة » .

وحالة « الإرضاء » أو « الرضى » إنما تعبر لا عن ماهية مايجرى داخل الحيوان وإنما عن « الأمور التى يمكن ملاحظتها » .

ويؤدى بنا هذا القانون إلى دراسة أثر المثوبة والعقوبة تبعاً لهذه النظرية ، نظرية الوصلات ، عند ثورندايك .

المراحل المختلفة لقانون الأثر :

عام ١٩١١ : مرحلة تناظر الأثر فى حالتى المثوبة والعقوبة . فالوصلة ما بين الموقف والاستجابة تقوى أو تضعف بصورة متناظرة عن طريق المثوبة أو العقوبة .

عام ١٩٣٠ : اتضح أن أثر المثوبة أعظم من أثر العقوبة . فأثر العقوبة ضعيف أو يكاد أن يكون منعدما . فلقد دحضت بعض التجارب[١] القول بوجود أثر مباشر للعقوبة على الوصلة ما بين الموقف والاستجابة ، وذلك دون أن ننكر أثرها غير المباشر . فما من سبيل إلى هدم إلا بإحلال بديل . وعليه فللمثوبة أثر مباشر . أما أثر العقوبة ، فغير مباشر .

الانتشار عند هيلجارد (التعميم) : « إن أثر المثوبة لا يقتصر على

(١) من قبيل تجربة الكتاكيت فى المتاهة ذات الطرق الثلاثة ، وتجربة اختبار انتقاء الإجابة من بين كلمات متعددة .

الوصلة التى تنتسب المثوبة إليها ، وإنما ينال أيضاً الوصلات القريبة السابقة على الوصلة أو اللاحقة للوصلة التى اثيبت . ويتضاءل الأثر تبعاً لدرجة الابتعاد عن المثوبة . والحق أن الأثر يدعم فحسب الوصلات الواقعة فى المنطقة المجاورة للوصلة التى اثيبت » .

ففى إحدى التجارب النمطية يقدم إلى الشخص عدد بعينة من الكلمات المثيرات ، ويطلب إليه أن يستجيب بأحد الأرقام من ١ — ١٠ . ويقتصر الجزاء على « حسن » و « غير حسن » ، وذلك بالرجوع إلى سلم عمدى يصطلح عليه سبقا . فنجد أن الكلمات الواقعة فى المنطقة المجاورة للجزاء « حسن » ينالها التعزيز . وقد تمخض ذلك عن علم تربية يستند إلى الإثابة، وعن أبحاث تستهدف تبين اتساع مدى الأثر .

إن ثورندايك يحدد لاحتمالات الاستجابات نسبة مئوية من الفرص المتساوية . ويبدو أن هذا غير صحيح وذلك بالنظر إلى تأثير التجارب السابقة للشخص . وعليه يبدو أن ثورندايك يولى للمثوبة من أهمية فى التعزيز أكثر من اللازم كما أنه يولى للعقوبة من أهمية فى الإضعاف أقل من اللازم .

ولقد عكف تيلتون Tilton على المشكلة فانتهى به البحث إلى العودة للمرحلة الأولى لقانون الأثر ، مرحلة التناظر .

وينقض ستيفنز Stephens عام ١٩٤١ مبدأ المثوبة والعقوبة الرمزية (على نحو ما رأيناه فى السلم العمدى فى التجربة النمطية السالفة). وهو يرى فى مثل هذه الحالات أن المثوبة تقوى الوصلات الضعيفة أكثر مما تضعفها العقوبة ، بينما الوصلات القوية تضعفها العقوبة أكثر مما تقويها المثوبة .

وعليه فصيغة ثورندايك لا تبدو صادقة ، ونعنى قوله « متى تساوت جميع الظروف الأخرى ». فالعملية تبدو أقل ميكانيكية مما توهمه ثورندايك. فالفرد يبذل أقصى ما يستطيع ليستجيب بشكل ذكى .

ويقرر ليفين Lewin أنه فى حالة موقف العقوبة بالنسبة للحيوان فإنه ينبغى احتجازه فى حقل التجربة بواسطة حاجز وإلا فإنه يستجيب بالهرب. وعليه فإنه ينتقد مفهوم « المثوبة » و « العقوبة » كشيئين خارجيين بالنسبة إلى الحيوان. ومن هنا فإن ليفين يفضل النظر إلى أوجه النشاط التى يتابعها الحيوان من حيث هى نجاح أو فشل .

ويلح جيبوم على أهمية دلالة التربية بالنسبة إلى الفرد . فهذه الدلالة تتوقف على مستوى الطموح وما تنطوى عليه الأنا . ولكن تصور ثورندايك للمثوبة والعقوبة تصور خارجي فى طابعه ؛ أما جيبوم فيرى فى هذين المفهومين « المثوبة » و « العقوبة » ما يعدل قيمة « الإشارة » ، وهى الضرورية لكل تعلم .

وهكذا فإن المشكلة الخاصة بمثابرة الأفعال التى عوقبت ما تزال قائمة بأكملها .

(ثالثا) مقارنة ما بين مبادىء التحليل النفسى ومبادىء علم النفس التجريبى

لقد ظل تيارا علم النفس الأكاديمى والتحليل النفسى متوازيين لفترة طويلة ، فلم يتقاربا إلا منذ وقت قريب . وهذا الاقتراب ، اقتراب علماء النفس من المحللين النفسيين ، واقتراب المحللين النفسيين من علماء النفس إنما يلقى الضوء على بعض وجهات النظر[1] .

وسوف نسير فى هذه المقارنة وفق الخطة التالية :

١ — آلية التكرار وقانون الدربة (التواتر) .

٢ — مبدأ الثبات وقانون الدربة (التواتر) .

٣ — مبدأ اللذة — الألم وقانون الأثر .

٤ — مبدأ الواقع وقانون الأثر .

(١) آلية التكرار وقانون الدربة (التواتر) :

تبدى آلية التكرار فى الحيـــاة والسلوك مهما كانت الآثار الناتجة . ويمكن تقريب هذه الآلية من قانون الدربة أو التواتر ، وهو القانون الذى ينسب الاستجابة فى الواقع إلى عدد مرات التكرار .

بيد أن هناك اختلافات ما بين قانون التواتر وآلية التكرار . فهذه الآلية تبدأ من معطيات عملية ولكنها تصور نظرى. وآلية التكرار تنطوى

---

(١) Hunt. Mcv, Personality and Behavior Disorders, 1944 : Sears, Studies in Experimental Researches on the Conceptions of Psychoanalysis, 1943.

أيضاً على منظور مختلف : فنقطة البداية فيها الملاحظة الكلينيكية ، ونحن نرجعها إلى أشكال أكثر قدما تتكرر فيا نلاحظه ملاحظة كلينيكية . أما فى علم النفس الأكاديمى فإننا نعزل الوقائع لنردها إلى متغيرات مستقلة .

ونجد عديداً من الأبحاث التى تتناول آلية التكرار وصلتها بالعادة . يقول كوبى Kubie فى مقال له عن « مفهوم العادة »[1] : « إننا ينبغى أن ننتبه إلى أن العادة نادراً ما تتدخل فى نظرية التحليل النفسى اللهم إلا فى نظرية التثبيت » .

وأنا فرويد فى كتابها « الأنا وميكانيزمات الدفاع» (١٩٣٦) تصف قهر التكرار على أنه قوة شبيهة بقوة العادة فى علم النفس الأكاديمى. ويرى هندريك Hendrick (١٩٣٩) فى مقال له عن « وقائع ونظريات التحليل النفسى» : «إن آلية التكرار تتضمن العادة ، وإن تجاوزتها من كل جانب».

(٢) مبدأ الثبات وقانون الدربة (التواتر) :

ان المقارنة ما بين مبدأ الثبات وقوانين علم النفس يمكن أن تمتد حتى تصل إلى البيولوجيا . ولقد كان أبوقراط أول من تكلم عن القوة التطبيبية للطبيعة .

ويتناول كانون Cannon هذا الموضوع عام ١٩٣٢ متحدثا عن « حكمة البدن » بمناسبة مبدأ الهوميوستازيس فيقول: «إن الكائن العضوى الذى تهدد وحدته التوترات الناتجة عن حاجاته انما يستعيد اتزانه عن طريق خفض التوترات وإرضاء الدوافع بمعنى تحقيق التكامل لهذه الدوافع» .

---

(١) Journal International de Psychanalyse, 1945.

ويكشف كلود برنار عام ١٨٧٨ عن اختلاف الوسط الداخلى والوسط الخارجى للكائن العضوى . ويقول بارشوف Barchoff «إن ثبات الوسط الداخلى لهو شرط الحياة الحرة» .

ويقول شارل ريشيه الأب Charles Richet (père) : «إن الحياة هى انضباط ذاتى متصل» . وهو يشير إلى مبدأ الهوميوستازيس عند كانون فيقول : «إن الكائنات العضوية تتكون من مادة تتميز إلى أقصى حد بعدم الثبات وعدم الاستقرار . ولقد تعلمت هذه الكائنات على نحو ما الطرائق الضرورية للإبقاء على الثبات والاستقرار، وذلك أمام الظروف التى يمكن أن تتوقع بشكل معقول أن تكون مبعثاً للاضطراب .

ويتبدى مبدأ الهوميوستازيس فى المدد الداخلى أو فيما نسميه بالعمليات الضابطة : فالتموينات اللازمة للكائن العضوى أنما يتم إمداده بها عن طريق الانفصال البين — خلوى (إفراز الغدد) أو عن طريق الغمر البين — خلوى (الدورة الدموية) .

وهذه الأفعال الآلية للكائن العضوى يطلق عليها اسم الميكانيزمات الباطنية ، بينما الميكانيزمات الخارجية تعمل عن طريق الأعصاب المعنية .

فالفعل الباطنى هو تغير فى الوسط الداخلى ، ومن هنا يأتى دور الجهاز العصبى المستقل السمباتاوى أو البارا سمباتاوى . فالفارق بين الفعل الباطنى والفعل الخارجى هو نفس الفارق مابين وظائف النمو والفعل .

ويعبر علم النفس المعاصر عن نفس هذه الأفكار فى صورة أخرى ، مما يتضح خاصة فى النظرية السلوكية . ويولى واطسون مكانة خاصة لهذه الأفكار . ويوضح تولمان فكرة «المثابرة حتى ...» ، فهذه المثابرة هى إحدى السمات الأساسية لهذا القطاع من السلوك . ومفهوم التكامل يشير إلى العمليات التى فيها تنتظم المواد وفق ترتيب خاص .

وفى علم الأعصاب يستخدم المزج مابين المثيرات العصبية للوصول إلى سلوك متكيف .

ويقول ريشيه الأب بأن كل فعل كامل يستتبع فقداً فينبغى أن يكون هناك سوء تكيف قبل التكيف . وعليه نرى أن «مبدأ النرفانا» (السعادة بعد الموت) له ما يشهد عليه .

(٣) *مبدأ اللذة – الألم وقانون الأثر* :

بحسب مبدأ اللذة — الألم يميل الكائن العضوى فى الأشكال الأولية للسلوك إلى البحث عن الإرضاء وتجنب الألم ، دون أن يتوافق بالضرورة مع الواقع .

ويمكن تقريب مبدأ اللذة — الألم من قانون الاثر ، وذلك فى الجزء الخاص بالمثوبة على الاخص (راجع صيغة القانون عند ثورندايك) فهو شديد الشبه بمبدأ اللذة . ومع ذلك فهناك اختلاف ، وذلك لأننا فى المثوبة أننا نهتم بالتثبيت مما لانجده فى مبدأ اللذة .

ونجد أن قانون الأثر يستند إلى النظرية النفعية التى قال بها بنتام: كل لذة هى منذ الوهلة الأولى حسنة وينبغى متابعتها ، وكل ألم هو منذ الوهلة الأولى سيء وينبغى تجنبه . ومتابعة اللذة وتجنب الالم هما هدف الإنسان .

ولقد تأثر ثورندايك ببنتام ، ولكن نظرياته وهى أكثر عصرية توضح الاختلاف مابين نظرية النفعية وقانون الأثر . فثورندايك يتخذ موقف المعارضة من قانون سبنسر . ويرى كل من بين Bain وبنتام أن الكائنات الحية مدفوعة بدافع الإرضاء وعدم الإرضاء . وخفض مجموع «عدم الإرضاءات» هو الذى يحدث اللذة. فاللذة إذن هى نتاج زائد عن الفعل .

وفرويد يعارض بنتام فى السطور الأولى من كتابه « فيما وراء مبدأ اللذة» (١٩٢٠) . ففرويد يميز ما بين دافع يرتبط ارتباطا مباشراً باللذة ودافع يرتبط بتوتر ، فلا تكون اللذة بالنسبة له غير نتاج زائد .

(٤) *مبدأ الواقع وقانون الأثر* :

بحسب مبدأ الواقع يميل السلوك خلال التجربة الفردية إلى أن يتوافق مع الواقع على نحو يحقق إرضاء حاجات الكائن العضوى .

وقد يكون من الممكن إرجاع هذا المبدأ إلى مبدأ اللذة. ولكن مبدأالواقع هو تعديل كما رأينا لمبدأ اللذة مع التكيف للبيئة . فمبدأ الواقع يدخل عامل الزمن مؤجلا تحقيق اللذة .

ومبدأ العقوبة المناظرة لمبدأ الواقع أنمايمكن بصورة أدق إرجاعه إلى مبدأ المثوبة تماما كما أن مبدأ الواقع هو مجرد تعديل لمبدأ اللذة . ومن هنا يمكن مقارنتهما: فالحيوان الذى يبحث عن الطعام يجدفيه خفضاللتوتر(لذة). فإذا استبان عن طريق التجربة أنالطريق المؤدية إلى الطعام خطرة « فى الظروف الراهنة » فسيؤجل البحث عن الطعام . . وهذا التأجيل يناظر خفض التوتر من جراء الخوف (لذة) . والمثوبة الناتجة من خفض دافع جديد طارىء ، وفى صراع مع المثوبة الناتجة من خفض الدافع الاول ، إنما تناظر التأجيل .

* * *

وكيما نختم هذه المقارنة ما بين دراسة مبادىء السلوك بحسب التحليل النفسي ودراسة مبادىء السلوك بحسب علم النفس التجريبى نلاحظ أن المشكلة تظل مفتوحة . فإذا ما رجعنا الى مبدأ التكرار وقانون الدربة (التواتر) فسيكون لدينا لتفسير التعلم تأويل للسلوك المتكيف ، ولو شئنا للسلوك العديم التكيف . ولكن كيف يمكن عندها أن نفسر إزالةالعادات السيئة ؟

ولو رجعنا إلى قانون الأثر ومبدأ اللذة فكيف لنا أن نفسر مثابرة الأفعال العديمة التكيف ؟

بوسعنا أن نلجأ إلى هذا المبدأ أو ذاك وفق رغبتنا وحاجتنا وأن لا نلجأ الى منهج التناول الإجمالى للسلوك . ولكن طريقة التناول الإجمالى هذه تعرضنا لأن نجد أنفسنا فى موقف ليس جد علمى . فيبقى أمامنا كل أن نعدل أحد المبدأين أو كليهما. فهل يمكننا أن نعدل قانون الأثر وأن نؤول بطريقة أخرى آلية التكرار وذلك كيما نجد إجابة للسؤالين القائمين ؟

(رابعا) نقد التحليل النفسى لآلية التكرار

لقد درسنا مشكلة مثابرة السلوك العديم التكيف من زاوتين : من زواية التحليل النفسى ومن زاوية علم النفس التجريبى ، كما قمنا بالمقارنة مابين التيارين . ولقد خلصنا إلى هذه النتيجة ، ألا وهى : « إن آلية التكرار هى أكثر أساسية من مبدأ اللذة » .

ومبدأ آلية التكرار وإن كان من نتاج التحليل النفسى الا أنه قد تعرض بعد ذلك للنقد من بعض المحللين النفسيين وخاصة من جانب كوبى Kubie وفينخل Fenichel . وسنعرض هنا فى إيجاز لنقد كوبى .

درس كوبى عام ١٩٣٩ تصور قهر التكرار ، وتساءل ما إن كان من الممكن أن نميز ما بين ظواهر التكرار الناجمة من أسباب عصابية . ولقد جره ذلك الى أن يميز ما بين « الحاجة الى التكرار » وبين « تكرار الحاجة » وإلى أن يفضل استخدام الصيغة الأخيرة .

وفى الحقيقة إن الحاجات تتكرر هى نفسها فى حالة العصاب . وهذا « التكرار للحاجات » يتبدى فى صورة جامدة شعورية أو لا شعورية . فليست هنالك حاجة غريزية لا تتبدى غير مرة واحدة . وما يطبع هذه الحاجات من طابع دورى إنما يجد تفسيره فى كيمياء البدن . ومن ثم فليس هذا الطابع الدورى بحاجة الى أن يفسر عن طريق آلية التكرار . فالتكرار يرتبط بصميم إرضاء الحاجات . ففى حالة المص مثلا يتكرر الجهد حتى ترضى الحاجة .

وعليه فليس هنالك ما يحملنا على أن نتخلى عن مبدأ اللذة ، هذا الذى يسمح لنا فى مثل هذه الحالة بأن نفهم فى وضوح الأعراض العصابيه .

فالكائن العضوى يستسلم لإرضاء الحاجات الغريزية المكبوتة ، ومع ذلك نلاحظ أن الأعراض العصابية ،وإن كانت تتجه إلى إرضاء هذه الحاجات، إلا أن الشخص لا يعيش هذا الإرضاء مع ذلك كشىء سار. فهذا الإرضاء لا يمكن أن يكون كاملا ، وإلا لاختفت الأعراض .

ومن ناحية أخرى فإن الشخص عندما يكون قد اصطدم « بعقوبات » فى أثناء سعيه إلى إرضاء حاجاته فإنه ينشأ عن ذلك موقف صراعى ، لا يمكن فيه أن ترتفع إشراقة الحاجات الغريزية دون أن يستيقظ فى نفس الوقت الخوف من العقوبة ، الأمر الذى يستتبع القلق والخـــزى والاشمئزاز . وعليه فكيفما كان السلوك الذى ينتقيه الشخص فإنه يرجع إلى مبدأ اللـذة .

ومثابرة الشعور بالإثم هو أيضاً ظاهرة تكرارية عصابية . فللتكفير عن « الخطايا » الماضية، ولتجنب «الخطايا» المقبلة يلجأ الشخص إلى «النواهى» التى يمكن أن تعمل مستقلة عن كل مطلب غريزى ملح . ومع ذلك فهذه النواهى ترجع إلى مبدأ اللذة ، ذلك أنها تستهدف خفض التوتر الداخلى .

وبحسب رأى فرويد ينبغى الالتجاء إلى مبدأ الثبات لتفسير الأعراض العصابية . فبعد رفض عدد من «النماذج» السلوكية نجد أن السلوك الجامد المميز للأعراض العصابية يتخذ فى الواقع النمط الأكثر ملاءمة من بين الأنماط ، وفقاً لمبدأ الثبات .

ونقد كوبى الموجه إلى فرويد ينصب على نقطتين :

(أ) فالظاهرة العصابية لا يمكن تفسيرها إلا بآلية التكرار ، وذلك لأن الإرضاء لا يعيشه الشخص كشىء سار .

(ب) ومن الممكن أن نجد للظاهرة العصابية تفسيرات تستند فحسب إلى مبدأ اللذة .

فالطفل مثلا بعد كابوس يجتر الكابوس ليجد مخرجاً أفضـــل .

واستيقاظه متفق مع مبدأ اللذة . وتكرار تجربة أليمة ليس دائماً متعارضاً مع مبدأ اللذة . مثال ذلك : حالة إمرأة تعيش مع إبنها وأمها . كل شيء يحمل على الاعتقاد بأنها تعبد هذا الإبن سيما وأنها أرملة . ولكن هذا الإبن قتل فى حادث ، فلا تراه الأم إلا على فراش الموت والأربطة تغطى رأسه . ومنذ هذه اللحظة والمرأة تحاول طرد الذكريات الخاصة بابنها بإزالة جميع التذكارات الخارجية . ومع ذلك ففى كل ليلة تنبثق صورة إبنها الميت فى الحلم .

ويكشف التحليل النفسي عن أن هذا الطفل كان بالنسبة إلى أمه ، ومنذ كان جد صغير ، عقبة أمام رغبتها فى أن تبدأ الحياة من جديد . ويتغير الحلم وتجد نفسها فى غرفة تحمل طفلا على ذراعها ورأسه مغطى بالأربطة ، وهذا الطفل يعوقها ويربكها فتضعه على سرير . إن عمل الحداد قد توقف بالنسبة إلى هذه المرأة . والنمط المميز لسلوكها يرجع إلى التأنيب والندم على أنها قد رغبت لا شعورياً فى أن تتخلص منه .

ويكشف التحليل أيضاً عن التماسك الذى نشأ ما بين العقبة التى كان يضعها وجود إبنها فى طريقها إلى حياة جنسية جديدة وبين النواهى الناجمة عن المبادىء الأخلاقية التى كانت تضعها أمها فى وجهها .

لقد أقنا المشكلة حول مسألة رئيسية . فالمسالك المتكيفة مثابرة ، والمسالك العديمة التكيف غير مثابرة ، فكيف لهذه المسالك العديمة التكيف أن تكون فى بعض الأحيان مثابرة ؟ إنه بحسب نقـــد التحليل النفسى لآلية التكرار ، رأينا أن التكرار يدخل فى إطار مبدأ اللذة، وبذلك تنحل المشكلة .

القسم الثالث

فى الطرائق القياسية لدراسة الشخصيّة

الفصل السابع

الفروق الفردية والقياس[1]

أولا سيكولوجية الفروق الفردية ، نشأتها وتطورها

تعريف علم النفس الفارق : هو علم دراسة الفروق السيكولوجية بين الأفراد أو بين الجماعات (انستازى) .

هدف علم النفس الفارق : هو « تفسير » السلوك .

وسيلة علم النفس الفارق :

١ — دراسة السلوك فى ظروف بيئية وبيولوجية متغيرة ، دراسة تحليلية مقارنة .

٢ — ربط الفروق الملاحظة بالعوامل المصاحبة ، مما يسمح بتحديد تأثير كل عامل فى تطور السلوك .

مجال علم النفس الفارق ، أى موضوعه:

١ — دراسة الفروق بين مسالك الأفراد من حيث طبيعتها ومداها . فاكتساب فعل منعكس شرطى ، أو تعلم المتاهة مثلا يحتاج إلى عدد من المحاولات يختلف من نوع حيوانى إلى آخر ، ومن فرد إلى فرد ضمن النوع الحيوانى الواحد .

٢ — دراسة عوامل الفروق ؛ هنالك عوامل مختلفة تؤثر فى تحديد الفروق بين مسالك الأفراد :

---

(١) قام مشكوراً بمراجعة الجوانب الإحصائية فى هذا الفصل الزميل الدكتور زكريا أثناسيوس .

(ا) عوامل فيزياثية كالموطن .

(ب) عوامل بيولوجية كالعمر والجنس والسلالة .

(حـ) عوامل ثقافية كالاتجاهات والقيم .

(ء) عوامل اجتماعية ككثافة السكان والمستوى الاقتصادى .

وباختصار ، فإن الأسئلة التى يجيب عليها علم النفس الفارق هى :

١ — ما طبيعة ومدى الفروق السلوكية ؟

٢ — ما أسباب هذه الفروق ، أو ما هى العوامل المختلفة المحددة لها ، وما مدى تأثير كل عامل منها ؟

٣ — ما صورة السمة أو النمط الذى تتخذه هذه الفروق ؟

نشأة علم النفس الفارق وتطوره

(ا) نشأة مقاييس الذكاء وتطورها

١ — لعل أول قياس منظم للفروق الفردية هو الذى ظهر على يد علماء الفلك فيما يعرف باسم «المعادلة الشخصية» وهى التى حددها بيزل عام ١٨١٦ بأنها مقدار الفرق بالثوانى بين تقدير ملاحظين . كما أوضح بيزل تغير هذه المعادلة من وقت إلى آخر بالنسبة للشخص الواحد .

٢ — فى عام ١٨٧٩ أنشأ فنت أول معمل لعلم النفس التجريبى فى ليبزج . فى البداية كان البحث عن القوانين العامة، ثم برزت الفروق الفردية فتركزت عليها الدراسات .

٣ — اهتم «جولتون» — وهو من تلاميذ دارون — بدراسة الوراثة . وكيما يبين التشابه بين أفراد العائلة الواحدة ، كان عليه أن يبتدع وسائل لقياسهم من جوانب متعددة بطريقة موضوعية .

وقد أسس جولتون عام ١٨٨٢ معمله الأنثروبولوجي (معمل القياس البشرى) بلندن . كان يقيس فيه التمييز الحسى والقدرات الحركية،وغيرها من العمليات البسيطة . وجولتون أول من استخدم الطرق الإحصائية فى تحليل نتائج قياس الفروق الفردية .

٤ — و «كاتل» هو أول من استخدم مصطلح اختبار عقلى عام ١٨٩٠؛ وقد تتلمذ على فنت وتأثر بجولتون ، فاضطلع بالجمع ما بين الطريقة التجريبية وقياس الفروق الفردية . وكان يعتمد على الاختبارات الحس — حركية فى دراسة الفروق الفردية .

٥ — وتعددت الاختبارات وتباينت بعد ذلك ، وبدأت تخضع للتحليل الإحصائى . وظهر أول مقياس للذكاء عام ١٩٠٥ على يد بينيه وسيمون . وفى عام ١٩٠٨ تم أول تعديل للمقياس وأدخل عليه مفهوم العمر العقلى . وتمت له سنة ١٩١١ مراجعة ثانية .

٦ — ظهرت لهذا القياس ترجمات ومراجعات فى البلاد المختلفة أشهرها مراجعة «ستانفورد — بينيه» (ترمان ومساعده) ،وأدخل عليه عام ١٩١٦ مفهوم نسبة الذكاء وهى = العمر العقلى ÷ العمر الزمنى × ١٠٠ ، وهى فكرة ظهرت من قبل عند شترن .

٧ — عدل اختبار ستانفورد — بينيه عدة مرات . وآخر صورة له هى مقياس ترمان — ميريل ١٩٣٧ وهو يقيس ثلاث مستويات للبالغ المتقدم .

٨ — وأخذت مقاييس الذكاء توسع مجالها فشملت الرضع وأطفال ما قبل المدرسة.ونذكر من ذلك مقياس ميريل — بالمر ومقياس مينيسوتا لما قبل المدرسة . كما تحولت هذه المقاييس من مقاييس لفظية إلى مقاييس أداء . نذكر من ذلك اختبار بنتنر — باترسون ١٩١٧ ، ومقياس أرثر

للأداء ، ثم صورته المعدلة ١٩٤٧ ، ومقياس وكسلر — بلفيو اللفظى — الأدائى للكبار .

٩ — وظهرت الصورة الجمعية لاختبارات الذكاء لأول مرة عام ١٩١٧ فى شكل اختبار ألفا واختبار بيتا للجيش الأمريكى .

١٠ — ومنذ الحرب العالمية الأولى تعددت مقاييس الذكاء فشاع استخدامها . وكانت هذه المقاييس تستخدم فى تصنيف الناس إلى فئات ، وبصورة نهائية قاطعة ، ودون ما اهتمام كبير بتحليل النتائج .

(ب) تطور القياس من الذكاء إلى القدرات الخاصة إلى الشخصية

١ — فى عام ١٨٩٥ نشر بينية وهنرى مقالا بعنوان «علم النفس الفردى». وقد قدما فى هذا المقال أول تحليل منظم لأغراض ومجال ومناهج علم النفس الفارق . وفى عام ١٩٠٠ ظهرت الطبعة الأولى لكتاب شترن « علم النفس الفارق » وفيه تناول شترن الفروق بين الأفراد والفروق بين الجنسين ، والفروق بين المستويات الاجتماعية والمهنية ، والفروق بين الجماعات الثقافية . وهو يبحث مشكلة الفروق من ثلاثة جوانب هى : (ا) طبيعة ومدى الفروق السيكولوجية بين الأفراد وبين الجماعات . (ب) العوامل التى تحدد هذه الفروق: الوراثة، والتدريب ، والمستوى الثقافى الاجتماعى، والتكيف (حـ) المسالك التعبيرية التى تكشف عن هذه الفروق ، والمناهج المختلفة لدراستها ، ومعنى السمة والنمط والسوية والشذوذ .

٢ — تمت الاستعانة بالاختبارات فى دراسة الفروق الفردية، وظهرت فكرة قياس الذكاء بالاعتماد على الاختبارات الحسية الحركية على زعم أن العمليات العقلية يمكن خفضها إلى عمليات حسية . ولكن تبين أن الاختبارات العقلية المعقدة أكثر صلاحية لقياس الذكاء وللكشف عن الفروق الفردية .

٣ — فى عام ١٩٠٤ ظهر مقال سبيرمان عن نظرية العاملين وهى تستند

إلى المنهج الإحصائي . وقد تقدمت الطرائق الإحصائية مع تقدم قياس الذكاء جنبا إلى جنب ثم تحول الاهتمام شيئاً فشيئاً إلى قياس القدرات الخاصة . بل أخذت اختبارات الذكاء نفسها تهتم بتمايز القدرات الخاصة ضمنها ، كالقدرات اللفظية والعددية والمكانية ، فظهرت مقاييس للذكاء تعطى درجات منفصلة للقدرات الخاصة . فاختبار التصنيف العام للجيش (فى أمريكا) A. G. C. T. يعطى أربع درجات منفصلة : للقدرة اللفظية، والاستدلال المكانى، والعد الحسابى، والاستدلال الحسابى. وظهرت اختبارات أخرى تقيس القدرات الخاصة اللازمة للخدمة فى الجيش: القدرة الميكانيكية، والقدرة الحركية، وسرعة رد الفعل، وحدة البصر والسمع، وإدراك المسافات، وتعلم الشفرة. ورأى الخبراء أن مقاييس الذكاء ليست لها غير قيمة أولية فى التصنيف ، وأنها تجد ما يكملها فى مقاييس القدرات الخاصة .

٤ — وامتدت الاختبارات صاعـــدة إلى قياس السمات الانفعالية والاجتماعية فظهرت اختبارات الشخصية . ولعل أقدم صورة لاختبارات الشخصية هو اختبار التداعى المطلق لكريبلين ، وقد استخدمه سومر عام ١٨٩٤ لدراسة الاضطرابات العقلية . وظهرت أيضاً طريقة الاستخبارات Questionnires وسلالم التقدير rating-scales وهذه تستند إلى الترتيب على مقياس متدرج . كما ظهرت مقاييس للسمات (كالانطواء والانبساط ، وكالسيطرة والخضوع) ومقاييس للاتجاهات (كالمحافظة والتحرر). وظهرت محاولات لقياس السمات بالاعتماد على اختبارات الأداء؛ ومن أشهرها اختبار هارتشورن وماى لقياس السمات الخلقية للأطفال ، وهو يطبق فى مواقف الحياة اليومية ودون أن يعلم الطفل أنه تحت الاختبار أو تحت المراقبة . كما ظهرت الاختبارات الإسقاطية ، ومن أشهرها اختبار رورشاخ واختبار مورى .

ونستطيع القول فى ختام عرضنا لهذا التطور ، أن علم النفس الفارق يتسم اليوم بتزايد عدد الاختبارات السيكولوجية وإمعانها فى التمفصل

بحيث تغطى قدر الاستطاعة جميع مجالات السلوك؛ كما يتسم بالتخطيط التجريبي للاختبارات ، وبالعناية الشديدة بتحقيق ثباتها وصحتها؛ وهو يتسم أخيراً بالعناية بالدراسات الطولية والتتبعية .

ثانيا : طبيعة ومدى الفروق الفردية

(أ) مشكلة « طبيعة » الفروق الفردية : الوراثة والبيئة

إن علم النفس الفارق يتخذ موضوعا له دراسة الفروق السيكولوجية بين الأفراد وبين الجماعات وهو يهدف إلى « تفسير » السلوك عن طريق « التحليل » المقارن للسلوك فى ظروف بيئية وبيولوجية متغيرة . وبديهى أن هذه الطريقة فى العمل تدخل فى « المنهج التجريبي » وتستند إلى « قانون التغير النسبي » عند ستيوارت ميل . ونحن نتحدث هنا عن « تفسير » السلوك لا عن « فهمه » كهدف لهذه الدراسات . فثمة فارق جوهرى ما بين مفهومى الفهم والتفسير (راجع وحدة علم النفس) . ذلك أن ارتباط الفروق الملاحظة بعوامل بيئية أو بعوامل بيولوجية ينتهى بالبحاث فى علم النفس الفارق إلى تحديد القدر الذى يسهم به كل عامل من هذه العوامل فى تحديد السلوك . فهذه الارتباطات التى تتكشف عبر الدراسات القياسية والإحصائية إنما هى سبيلهم إلى تحديد العوامل التى يعدونها أسبابا محددة للسلوك .

ويمكن صياغة المشكلة بالنسبة إلى علم النفس الفارق — من الزاوية التجريبية والسلوكية — على النحو التالى : مامدى التغير الذى يمكننا أن نحدثه فى صفة ما (ا) عند تغييرنا لعوامل البيئة (ب ، حـ ، د) ؟ وما مدى القيود التى تعترضنا من جانب العوامل الوراثية (س ، ص ، ع) عند محاولتنا إحداث هذا التغيير ؟

والقاعدة فى التفسير هى أنه حين تكون العوامل الوراثية هى الثوابت

— بمعنى أن تكون متشابهة — فإن الفروق تعزى إلى اختلافات العوامل البيئية . وحين تكون العوامل البيئية هى الثوابت — بمعنى أن تكون متشابهة — فان الفروق بين الأفراد الذين يعيشون فى ظروف بيئية متشابهة[1] ترجع إلى إختلافات وراثية .

ومهما يكن من أمر هذه النظرة فمن الواضح أنها تستند إلى ثنائية ولى عهدها ، ونعنى الثنائية بين ما هو فطرى بيولوجى وبين ماهو بيئى خارجى . فلقد استطاع علم النفس أن يتخطى هذه الثنائية بفضل مفهوم « الموقف » حيث يعيش الفرد ما هو « موضوعى » عبر « ذاتيته » وحيث الذاتية هى إطار الموضوعية وجهازها المرجعى .

وليست هذه الثنائية هى وحدها التى أطاح بها تقدم علم النفس ، وإنما أيضا ثنائية « الجسم والنفس » ، تلك الثنائية التى اندحرت أمام تصور « الكائن العضوى » ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الثنائيات الأخرى من قبيل « الفرد والجماعة » ، و « النضج والتعليم » ، و « التجريبى والعقلى » الخ .

وعلى أى حال فإن علم النفس الفارق لايقف عند هذه الثنائية ، وإنما هو يميز تحت الراية البيولوجية جملة من العوامل من قبيل العمر والسلالة والجنس ، بينما يميز تحت الراية البيئية المؤثرات الثقافية والاجتماعية والجغرافية الخ .

---

(١) أنظر تفرقة كوهلر بين البيئة الجغرافية والبيئة السلوكية (جيوم : علم نفس الجشطلت فصل ٥) . فالاولى هى جملة المثيرات الفيزيائية ، أما الثانية فهى البيئة كما يعيشها الشخص ، أى الموقف . والموقف لا تنتظم بنيته ولاتتحدد دلالته دائما على نحو واحد بعينه . وإنما تنتظم بنيته وتتحدد دلالته بالرجوع الى شخصية الفرد الذى يعيش الموقف . وعليه فتثبيت العوامل البيئية لايعدو أن يكون وهما . (أنظر وهم القينة فى وحدة علم النفس) . أما تثبيت العوامل الوراثية فمسألة لايمكن أن نثق بها ثقة علمية بحيث نستخلص فى بساطة استمرار الوراثة باستمرار تناسل الافراد وخاصة وأن الافراد لا يرثون بالتساوى جميع خصائص الأبوين .

وصحيح أن علم النفس الفارق يقرر أنه فى تحليله لا يعزل العوامل الوراثية عن العوامل البيئية ، وإنما هو يعتبرها جميعا مسئولة معا عن كل سمة وعن كل استجابة للفرد . ولكنه يحصر عمله الأساسي فى تحديد القدر النسبي الذى تسهم به العوامل الوراثية والعوامل البيئية فى أداء الفرد وفى تطوره . ومثل هذه الطريقة إنما تفترض بالضرورة وجود عنصرين منعزلين يسهم كل منهما بقدر معين فى تحديد السلوك . ومعنى هذا أن العوامل الوراثية والعوامل البيئية تكاد لا تتخطى مفهوم العناصر المكونة الأولى ، على نحو ما كانت عليه الإحساسات فى علم النفس الترابطى فى القرن ١٩ وعلى نحو ما كانت عليه الأفعال المنعكسة فى السلوكية الوطسونية . وهذا هو ما يشير إليه لاجاش فى قوله : « أن علوم النفس الطبيعية النزعة تقيم قوانين شبيهة بقوانين الطبيعة ، مصاغة ما أمكن فى علاقات كمية ، تسمح « بتفسير » الظواهر بمعنى أنها تسمح بردها إلى عدد قليل من العناصر المكونة الأولية ، هذه الظواهر التى تترجم خصائصها الأساسية فى « منحنى » كما هو الشأن مثلا فى قوانين التعلم » . (وحدة علم النفس) .

وفيما يتصل بالعوامل الوراثية فقد تقدمت معارفنا ، وتبينا أن كلا من البويضة الأنثوية والحيوان المنوى للذكر يحتوى — من حيث هو خلية — على مئات الآلاف من الجزيئات التى تعرف بالمورثات أو الجينات . وهذه المورثات تتجمع فى مناطق على الكروموسومات التى يوجد منها فى خلية الإنسان ٢٤ زوجا . والمورثات تعد حاملات « الاستعدادات » ويعمل كل منها وفق قانون « الكل أو لاشىء » بمعنى أنه إما أن يؤثر الواحد منها أو لا يؤثر على الإطلاق . وإذا علمنا أن خاصية بسيطة كلون العين تنطوى على تأثير ما يزيد على الخمسين من هذه المورثات فإننا ندرك مدى صعوبة تتبع تفاعلاتها فى حالة السمات السيكولوجية للإنسان .

فهذه التفاعلات بين المورثات هى من التنوع بحيث يكون من الطبيعى

أن لا نجد فردين متماثلين تماما . والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة هو حالة التوأمين المتحدين ، وهما التوأمان الناشئان من تلقيح بويضة انثوية واحدة بحيوان منوى واحد اتحادا يعقبه انقسام فى الخلية بعد التلقيح. وهذان التوأمان يتشابهان جنسا وشكلا .

وقد تعلمنا أيضاً من دراسات الوراثة أن العوامل الوراثية عند الآباء لاتتبدى بالضرورة عند الأبناء ، وإنما قد تتوقف أجيالا ثم تظهر من جديد .

والعوامل الوراثية لا تتكشف كلها عند الميلاد ، وإنما يظل بعضها كامنا ثم يتفتح فى أعمار متباينة من حياة الفرد . ومن هنا فكثيراً ما يستخدم مصطلح « النضج » فى مقابل « التعلم » للدلالة على العوامل الوراثية .

وإذا كانت الوراثة لايتوقف تأثيرها بالميلاد ،فان البيئة لايبدأ تأثيرها بالميلاد ، وإنما هو يبدأ ببداية الحمل . وفى تشوه الأجنة بفعل بعض العقاقير التى كثر التحدث عنها فى الأيام الأخيرة ما يرينا تأثير العوامل البيئية على الطفل قبل الميلاد .

ولكن لا ينبغى بحال أن نفهم تأثير العوامل الوراثية على أنه يتجاوز بناء الجسم ونموه إلى الوظائف وأوجه النشاط .نعم إن نقص بعض العوامل الوراثية قديحول دون تحقق بعض الوظائف. ولكن توفير هذه العوامل لايعنى بالضرورة قيام تلك الوظائف . فإنما يتحدد « دور » العامل بالرجوع إلى « الكل » الذى ينتسب إليه. فالعوامل الموروثة هى أشبه ما تكون بالخطوط العريضة لمدى إمكانيات الفرد . وفى وسع «مواقف» الحياة وحدها أن تتيح لبعض هذه الإمكانيات دون بعضها الآخر أن يخرج إلى حيز الواقع .

ولو تأملنا الأمر لوجدنا أن كثرة من المفاهيم ، من قبيل « الاستعداد » و« القابلية » و « القدرة »، لا يمكن أن تكون لها دلالة حقيقية فى انفصال

عن مفهوم « الموقف » . فما قيمة « قدرة فطرية » لا تقتدر على أن تتكشف مالم تتح لها مواقف الحياة ذلك ؟

ولقد استخدمت طريقة « التزاوج الانتقائي » على الفيران البيضاء لتبين تأثير عوامل الوراثه من ناحية الذكاء من خلال قدرة الفيران على إجتياز المتاهة . لقد قام « ترايون » بهذه التجربة . قسم مجموعة الفيران ، تبعاً لنسبة أخطائها فى التعلم كدليل على مستوى الذكاء إلى قسمين ، فيران ذكية وأخرى غبية . وتزاوج أفراد كل قسم فيما بينهم . وأخضع الأبناء لاختبار المتاهة ذاته ، ثم قسموا بدورهم إلى قسمين تبعاً لمستوى الذكاء . وتزاوج فيران كل قسم فيما بينهم ، وهكذا دواليك . وتوبعت الدراسة فى ٢٢ جيلا من الفيران . ولكن تبين عند الجيل السابع أن الفروق بين القسمين قد أصبحت واضحة متميزة ، واستمرت واضحة خلال الأجيال التالية . ولكن عندما أعيد التزاوج بين أفراد القسمين عادت النتائج إلى ما كانت عليه فى البداية ، بمعنى أن غالبية الفيران كشف عن ذكاء متوسط ، بينما كشفت قلة منها عن ذكاء عال ، وقلة عن ذكاء منخفض .

وليس فى هذه التجربة ما يسمح بالقول بأن هناك مورثات بعينها تتمخض عن هذه « القدرة على تعلم المتاهة » . وأنما يمكن القول بأن العوامل الوراثية تؤثر على بعض الخصائص التكوينية من قبيل الصحة العامة والقوة العضلية والاتزان الغدى ، مما يؤثر بدوره على تعلم المتاهات عند الفيران البيضاء .

وثمة تجارب أخرى أجريت لتبين ما يمكن أن يكون من أثر التغيرات البيئية على الخصائص الوراثية . ولقد تبين أن التأثيرات الكافة ، من قبيل منع الرضيع من الحركة لفترة معينة ، أو منع الطفل من المشى ، أو (أبو ذنيبه) من السباحة ، لا يؤثر على طبيعة السلوك . إذ يبرز السلوك المألوف فى

جميع هذه الحالات ، وذلك عندما يتحقق النضج وتزول الظروف الكافة . ومعنى هذا أن الحرمان من التدريب على الوظيفة لا يمنع قيامها ، وإنما قد يجعلها أقل سرعة أو إتقانا مما لو أتيحت لها الدربة .

ومن ناحية أخرى أجريت تجارب على بعض الحيوانات ، من قبيل الشمبانزى ، بعزلها وتربيتها مع الإنسان ، فكشفت عن ألوان من النشاط المكتسب ، وعن عادات إنسانية الطابع ، مما لا يظهر عند أقرانها . ومعنى ذلك أنه بتأثير البيئة يمكن أن تظهر بعض المسالك التى لا ترجع إلى الوراثة . ولكن البيئة تعجز عن إلغاء القدرات الموروثة. فالتعلم لا يخلق سلوكا من العدم ، وإنما هو يبرز السلوك عندما يسمح النضج الفطرى بذلك ، وبالقدر الذى يسمح به . ويمكن القول أيضاً بأن الاستعداد الفطرى حين يتحقق له النضج فإنه غالباً ما يترجم عن نفسه فى صورة محاولات تحقق التعلم والاكتساب .

ولكن بعض المسالك والقدرات التى تعد اليوم « إنسانية » فى طابعها تتطلب توفر شروط التعلم والاكتساب فى مرحلة باكرة من النمو . وفى الحالات النادرة التى انعزل فيها أطفال عن المجتمع البشرى لم تظهر تلك المسالك والقدرات على الرغم من الجهود التى بذلت لتعليمهم . ويبدو لنا أن الإنسان بمسالكه التى نعرفها له إنما هو عضو جماعة أسرية ، بحيث لا يبقى على ماهو عليه حين يكون منعزلا أو حين يكون عضواً فى جماعة أخرى (راجع نظرية الجشطلت وعلم النفس الاجتماعى) . ولكن يبدو من ناحية أخرى أن للموقف الأوديبى الذى يتحدث عنه التحليل النفسى أهمية خاصة ، بحيث يتطبع الطفل اجتماعياً فى هذه المرحلة الباكرة عن طريق تطابقه مع أحد الوالدين ، ومباطنته لقيمه ، وتقمصه لمسالكه . ولعل أهمية هذه المرحلة ترجع فى رأينا إلى تبعية الطفل إزاء الوالدين بالنظر إلى ضعفه وحاجته

إليهما . . (أنظر المدخل الى علم النفس الاجتماعى ، فصل ٦ ، التعلم عند الإنسان والحيوان) . أما الحالات النادرة من الأفراد الذين نشأوا فى عزلة عن المجتمع الإنسانى فقد تحقق لهم أن يعتمدوا على أنفسهم بعيداً عن إطار التبعية البشرية والتعلم البشرى جميعاً .

وثمة محاولات أخرى استهدفت دراسة تأثير العوامل الوراثية، عن طريق تتبع الأفراد المنتمين إلى أسرة واحدة ، مما يعرف بدراسة « تاريخ الأسرة » . وقد انتهت هذه الدراسات إلى أن النبوغ يسرى فى العائلات كما يسرى الغباء والإجرام والتشرد والإدمان على الخمر . وفى رأينا أن التأثيرات البيئية تتدخل إلى حد كبير فى مثل هذه الحالات . ويتضح ذلك على الأخص فى تناقل قيم واتجاهات ومظاهر سلوكية بعينها نتيجة التطابق مع الوالدين . ناهيك عن اتفاق وسائل التنشئة وعادات التربية ، حتى فى غير قليل من تفصيلاتها ضمن الأسرة الواحدة . وإذا كان لنا أن نتحدث عن « مسطح ثقافى مندرج » sub—culture فإننا نستطيع أن نتحدث أيضاً عن « مسطح ثقافى أسرى » وعن أنماط سلوكية أسرية تحمل طابعها الخاص بها . وكل هذا ينتمى إلى العوامل البيئية.

ولقد تمت محاولات أخرى لدراسة تأثير العوامل الوراثية ولكن عن طريق « معاملات الارتباط » بتطبيق اختبارات الذكاء . فكشفت عن أن معامل الارتباط فى الذكاء بين التوأمين المتحدين أعلى منه بين التوأمين المتآخيين (وهما التوأمان الناتجان عن بويضتين أنثويتين يتم تلقيحهما بحيوانين منويين فى نفس الوقت . وهما لا يتفقان بالضرورة شكلا وجنساً) . كما كشفت عن أن معامل الارتباط فى الذكاء بين التوأمين المتآخيين أعلى منه بين الأخوة العاديين . وفى هذه النتيجة الأخيرة ذاتها ما يلقى ظلا من الشك على قيمة النتائج . فليس بين التوأمين المتآخيين من اتفاق فى عوامل الوراثة بأكثر مما هو موجود بين الأخوة العاديين . وإذا كان ولابد من تفسير لعلو معامل

الارتباط فى الذكاء بين التوأمين المتآخيين ، فلعله يرجع إلى الشدة النسبية فى التشابه البيئى فى حالتهما .

كذلك أجريت دراسات عديدة على الأخوة المتبنين ، وعلى التوائم المتآخين ، بل وعلى بعض التوائم المتحدين ، ممن نشأوا فى بيوت متفرقة . وكل النتائج تميل إلى تأكيد تأثير العوامل البيئية .

والخلاصة أن الدراسات قد عجزت عن أن تعزل العوامل الوراثية والعوامل البيئية كلا على حدة ، ومن ثم فقد عجزت عن أن تقيس تأثير كل نوع من العوامل فى استقلال عن النوع الآخر .

وفيما يتصل بتفارق القدرات والصفات العقلية بتقدم السن، فقد لوحظ أن الفروق الفردية بين الأفراد من هذه النواحى تميل إلى الازدياد كلما تقدمت الأعمار . وليس بوسعنا أن نرد هذه الظواهر إلى عوامل وراثية أو بيئية بعينها . ولكن من الطبيعى أن تعظم الفروق كلما تعددت «التجارب» وتباينت « المواقف » بتقدم العمر . « فاطراد التكيف يقتضى أطراد التمايز » .

وينبغى أن ننتبه إلى خطأ الاعتقاد بأن التدريب يستطيع أن يدخل تحسيناً على طبيعة القدرة . فإن كل مايستطيعه التدريب هو أن يبلغ بالقدرة إلى أقصى حدود إمكانياتها، وذلك فى صورة مهارات خاصة. وهذه المهارات يمكن عن طريق « التحويل » (انتقال التدريب) أن تفيد فى مجالات تعلم مشابهة . ولقد وقع هذا الخطأ بصورة بارزة فى مجال الدراسات على العميان حين توهم البحاث أن تدريب الكفيف للحياة يدخل تحسيناعلى قدرته السمعية وقدرته اللمسية، فيستطيع أن يدرك ما لا يدركه المبصر، وأن ينتبه إلى مايفوت المبصر . ولكن هذا التحسين حين يتحقق فإنه لا يرجع إلى تحسن القدرة بالتدريب ، وإنما هى خصائص الحقل الجديد للكفيف تفرض على السمع

وعلى اللمس أن يضطلعا بوظائف جديدة يضطلع بها الأبصار فى الحالات العادية .

وعلم النفس الفارق لا يحاول فحسب الكشف عن الارتباط ما بين القدرات العقلية والسن ، أو ما بين التدريب والمستوى العقلى ، وإنما أيضاً مابين التعلم المدرسى والذكاء ، وما بين الخصائص الجسمية والسمات السيكولوجية . ولقد كشفت الدراسات عن أن التعلم المدرسى يؤثر بطبيعته ومدته فى مستوى الذكاء ، وإن كان هذا التأثير محدوداً ، ويبرز بصفة خاصة فى حالة ضعاف العقول .

أما عن ارتباط الخصائص الجسمية بالسمات السيكولوجية ، فإن صعوبة عزل العوامل التى تمت دراستها فى هذا الموضوع تجعل النتائج غير يقينية. إلا أن هذه الدراسات تؤكد أن متوسط نسبة الذكاء بين العميان أقرب إلى ٩٠ مقابل ١٠٠ للعاديين وإنه بين الصم أقرب إلى ٨٠، وذلك حتى عند استخدام اختبارات ذكاء ملائمة لحالتهم الخاصة . ويعد هذا فى رأينا مثلا واضحاً على الأخطاء التى يمكن أن تنزلق إليها بعض الأبحاث نتيجة استنادها إلى مفهوم الارتباط فحسب . ذلك أن العمى مثلا لا يرتبط من حيث هو عمى بنسبة منخفضة من الذكاء . وإنما تكفى نظرة واحدة إلى تحليل جماعة العميان لنتبين الأسباب الحقيقية لمثل هذه النتيجة . فلقد أبان بيير فيللى أن العمى عند صغار الأطفال يندر أن يكون ظاهرة منعزلة . وإنما غالباً ما يكون مجرد مظهر بين مظاهر كثيرة لتكوين قاصر . ففى حالات الوراثة الزهرية مثلا كثيراً ما يكون العمى مجرد عرض ومظهر ، شأنه فى ذلك شأن الضعف العقلى الذى يوجد إلى جواره كعرض ثان . ولقد أبان فيللى نفسه عن أن العمى فى الأشهر الأولى من الحياة يحدث فى الأسر الفقيرة حيث لا تتوفر وسائل العناية الصحية. ومن هنا فإن ما ينسب للعمى من تأثير على مستوى الذكاء إنما يرجع فى كثير من الحالات إلى الحالة

الاجتماعية ، وما يتصل بذلك من مستويات ثقافية واقتصادية خاصة . هذا عن العمى عند صغار الأطفال . أما العمى عند الكبار والمتقدمين فى السن فهو مجرد عرض حادث يطرأ بعد ما يكون النمو العقلى قد اكتمل على نحو معين .

أما الدراسات التى حاولت قياس الارتباط ما بين لون الشعر أو لون العين أو ملامح الوجه أو أبعاد الرأس وبين الصفات الوجدانية والمعرفية فقد جاءت نتائجها سلبية .

وأخيراً لقد تمت محاولة لتبسيط مشكلة الفروق الفردية بردها إلى أنماط للشخصيات البشرية . ومن هنا فإن البعض عادة ما يختمون حديثهم عن الفروق الفردية بالحديث عن نظريات السمات والأنماط [و]العوامل . بل إن البعض ليتحدث عن هذه النظريات على أنها النظرية السيكولوجية المتعلقه بالفروق الفردية (أنظر كتاب : سيكولوجية الشخصية : نوتكات ، الأنجلو) .

(ب) مشكلة مدى الفروق الفردية

يستندالفهم العام إلى اعتبارات عملية خالصة فى التمييز ما بين الأفراد ، وفيما يراه من أن هذا الفرد له قدرة ميكانيكية أو موسيقية أو لفظية . والعادة المتبعة هى أن يتم وصف الأفراد تبعاً للقدرة البارزة عند الواحد منهم : فهذا ميكانيكى وذلك موسيقى الخ . ومعنى هذا أننا نصف الفرد بخواصه وقدراته البارزة ونغفل خواصه وسماته التى يقترب فيها من المتوسط .

وهذه التمييزات الكيفية تجعل من الناس أنماطاً مستقلة . ولكننا نستطيع فى حقيقة الأمر أن نحدد مكان كل فرد على مقياس متصل من زاوية أى قطاع سلوكى. فليس هذا الشخص ميكانيكياً أو لاميكانيكياً، وليس ذلك

الشخص موسيقيا أولا موسيقياً ، وإنما لكل فرد مكانه من هذه القدرة أو تلك . وعليه فالفروق الفـــردية مسألة درجة وكمية لا مسألة وصف وكيفية . وهذه الفكرة تتمشى مع ما يأخذ به علم النفس الكلينيكى حين يعتبر الاختلافات بين السوية واللاسوية اختلافات فى الدرجة وليست اختلافات فى الطبيعة والنوع .

ولقد حاول البعض الدفاع عن التصور الكيفى للفروق مستندين إلى أن هنالك بعض الصفات التى يمكن أن تكون للشخص أو لا تكون له : فهذا مبصر وذلك أعمى . ولكن العمى إنما يمثل فى واقع الأمر طرف الصفر من السلسلة الدرجية للإبصار . هذا إلى أن كثيراً من الحالات التى تعد — تبعاً للتعريفات الطبية — داخلة ضمن نطاق العمى ، ليست غير درجات ضئيلة من الإبصار ، تم الاصطلاح على أنها تدخل من الناحية العملية فى نطاق العمى . وفى هذا ما يرينا عدم تعارض هذا التصور الكيفى مع التصور الكمى للفروق الفردية ، بل إن الأول ليجـــد فى الأخير ما يصححه ويضبطه .

وبعبارة أخرى فإن « الملكات » — من موسيقية وميكانيكية ولفظية الخ — ليست عطاء للبعض دون البعض ، ومن ثم يتمايز البعض عن البعض بامتلاك « الملكة » أو فقدانها وإنما هى « قدرات » ، هى حظ مشاع تتفاوت فيه أقدار الأفراد فتنفتح بذلك للقياس والمقارنة .

إن القياس والإحصاء هما وسيلة علم النفس الفارق ومن هنا كان ابتداع جولتون — رائد الطليعة لهذا العلم — لاختباراته وللمعمل الإحصائى . ومن هنا أيضاً كانت ضرورة الإلمام بالمفاهيم الأساسية للقياس والإحصاء لدارسى علم النفس الفارق . ولكن هذا الإلمام لا يدخل ولا ينبغى أن يدخل ضمن الدراسات النفسية بمعنى الكلمة . أن انستازى تقرر هذه الحقيقية فى مجلدها الضخم « سيكولوجية الفروق » ، إذ تقول . « إن علاج هذين

الميدانين — تقصد القياس والإحصاء — يخرج عن نطاق هذا الكتاب — أى كتاب سيكولوجية الفروق — فللقارىء أن يرجع إلى المراجع الأساسية فى القياس السيكولوجى ومبادىء الإحصاء السيكولوجى، (الجزء الأول من الترجمة العربية ص ٤٦) .

ولنعرض الآن فى إيجاز للمشكلات الرئيسية فى صناعة المقاييس ، وهى : اختيار العينة ، والتقنين ، والمعيار ، وذلك قبل أن نصل إلى توزيع الفروق الفردية .

ثالثا : تحديد الفروق الفردية : القياس والإحصاء

اختيار عينة السلوك :

« كل اختبار سيكولوجى هو وسيلة مقننة موضوعية لعينة من سلوك الأفراد » (انستازى) . فالاختبار لا يستند إلا إلى عينة ضئيلة من السلوك المطلوب قياسه . والافتراض الأساسى ينحصر فى أن هنالك تجانسا يسمح للعينة أن تكون ممثلة للكل ، على نحو ما تمثل العينة التى يفحصها الكيمائى الشحنة بأكملها . ففى القياس السيكولوجى يحاول الإخصائى انتقاء عينة تمثل السلوك الكلى المطلوب قياسه. وتتوقف القيمة التشخيصية للاختبار على درجة تمثيل العينة للكل . فهذه الدرجة تضعف مثلا فى اختبار للحساب يقتصر على جانب من العمليات كعمليات الضرب . والاختبارات لا تكتفى باقتطاع جزء من السلوك على أنه ممثل للسلوك كله ،وإنما هى أحيانا تستبدل بهذا الجزء بديلا آخر ، فتقيس مثلا قدرة الشخص على تعلم لغة وهمية لتستدل من ذلك على قدرته على تعلم لغة أجنبية . ولكن هذه الطريقة فى الاستدلال والتعميم لا تخلو من خطورة .

تقنين المقياس :

كل سلوك ينتقى كعينة ليصبح اختباراً أو مقياسا، إنما ينبغى أن يتم تقنينه . ومعنى التقنين وضع شروط محددة لتطبيق الاختبار على جميع

الأفراد ، ووضع طريقة واحدة لتقييم الإجابات والاستجابات . فكيما تكون النتيجة صادرة عن الفرد بحسب كمتغير ، ينبغى تثبيت جميع العوامل الخاصة بالاختبار . ولما كان القائم بالقياس جزءا من الموقف ، فلا بد من أن نضع فى الاعتبار ما قد يكون من تأثير لسرعة إلقاء الأسئلة ونبرات الصوت وملامح الوجه الخ . وكذلك الحال بالنسبة إلى اختلاف شروط الإضاءة والإطار الصوتى أو درجة الضوضاء الخ . ولكن من المسلم به أن على القائم بالاختبار أن يستثير اهتمام الشخص وأن يهيء جوا وديا وتعاونيا يعينه على أن يبذل أقصى الجهد فى الإجابة . وفى هذا ولا شك ما يضفى على الموقف دلالة خاصة تخرج به بعض الشيء عن الموضوعية التى تقتضيها النزعة التجريبية الصارمة . ناهيك عن اختلاف دلالات الألفاظ بالنسبة إلى الأفراد ، وعن اختلاف الأهمية الدرجية للمشكلات من فرد إلى فرد.

رابعاً : توزيع الفروق الفردية

سبق أن رأينا أن الفروق الفردية لا تتمثل فى صفات كيفية ينفرد بها البعض دون البعض ، وإنما هى أمور كمية بمعنى أن لكل فرد من الأفراد مكانه المعين على طول مقياس متصل ما بين نهاية صغرى ونهاية عظمى ، وذلك كائناً ما كان القطاع السلوكى الذى نتخذه أساسا للنظر إلى هذه الفروق.

وإذا أخذنا الفروق الفردية ، من زاوية سمة بعينها ، وقمنا بتمثيل النتائج فى منحنى بيانى ، فإننا عادة ما نجد أن هذا المنحنى يأخذ شكلا عاما واحدا . فمعظم الأفراد يقعون فى الوسط ، ويقل عدد الأفراد كلما اتجهنا إلى الطرفين فى توزيع متصل لا ينطوى على فجوات . ويكون التوزيع على جانبى الخط المركزى متماثلا . ويعظم هذا التماثل بقدر ما تكون العينة كبيرة وممثلة . هذا المنحنى يعرف بسبب شكله بمنحنى الجرس ، ويسمى «المنحنى التكرارى الاعتدالى» .

وفى بعض الحالات تتدخل عوامل معينة فتغير من شـــكل المنحنى ، فيكون ملتوياً ، بمعنى أن تكون القمه لا فى مركز التوزيع وإنما عن يمين المركز أو عن يساره . ومن هذه العوامل أن تكون العينة غير ممثلة للمجتمع تمثيلا صحيحا ، أو أن يكون الاختبار أداة غير صالحة للتمييز ، كأن يكون مسرفا فى الصعوبة أو فى السهولة ، مما يسمى « عدم صحة المدى المختبر » . ومن هنا فعندما يكون المنحنى معتدلا فى ذلك ما يدل على صلاحية الاختبار .
ومن العوامل التى تبلغ بالتواء المنحنى إلى شكل الحرف J أن تكون الخاصية السلوكية منطوية على المجاراة بفعل الثقافه أو بفعل تعليمات خاصة ، كما فى حالة السلوك المحتشم للفتيات فى مجتمع شرقى ، وكما فى توقف سائق السيارات أمام إشارة المرور الحمراء .

المتوسطات :

أن المنحنى التكرارى المعتدل هو الذى نحصل عليه فى الحالات العادية. وفيه تتراكم غالبية الحالات فى وسط المنحنى مما يعرف « بالنزعة المركزية » وهى نزعة غالبية الحالات إلى اتخاذ القيمة المتوسطة Average . فمعظم الناس من حيث الطول مثلا قريبون من المتوسط . ومن هنا فإن القيمة المتوسطة للتوزيع التكرارى تعد جد هامة فى دراسة توزيع الفروق الفردية. وثمة أسس مختلفة لتحديد هذه القيمة المتوسطة تتمخض عن أنواع مختلفة من المتوسطات أشهرها ثلاثة هى : الوسط الحسابى Arithmetic Mean والوسيط Median والمنوال Mode .

الوسط الحسابى :

فالوسط (أو المتوسط) الحسابى هو الذى نحصل عليه بقسمة مجموع القيم (الدرجات) على عدد الأفراد . أما فى حالة كبر حجم العينة فإن المتوسط يحسب بعمل الجدول التكرارى ثم بتطبيق الانحرافات المختصرة

لإيجاد متوسط الدرجات . فإذا كانت الأعداد التالية تبين الدرجات التى حصل عليها ٣٠ طالبا فى أحد الاختبارات :

٦ – ١٢ – ١٧ – ٢٣ – ٢٧ – ٣٢ – ٣٩ – ٤٢ – ٣٦ –
٣٤ – ٢٨ – ٢٠ – ١٨ – ١١ – ٩ – ٧ – ١٣ – ١٨ – ٢٣ – ٢٢ –
٢٣ – ٢٢ – ٢١ – ٢٣ – ٢٥ – ٣١ – ١٥ – ٢٦ – ١٧ – ١٩ .

فإننا نحصل على التوزيع التكرارى التالى :

الفئة	العلامات التكرارية	التكرار
٥ – أقل من ١٠	///	٣
١٠ – » » ١٥	///	٣
١٥ – » » ٢٠	//// /	٦
٢٠ – » » ٢٥	//// ///	٨
٢٥ – » » ٣٠	////	٤
٣٠ – » » ٣٥	///	٣
٣٥ – » » ٤٠	//	٢
٤٠ – » » ٤٥	/	١
	جـــدول (١)	٣٠

ومن هذا الجدول التكرارى يمكننا أن نستخرج جدول الانحرافات المختصرة ومنه نستخلص المتوسط الحسابى كما يلى :

الفئات	التكرار(ك)	مركز الفئة	الانحراف (ح)	الانحراف المختصر (حَ)	ك حَ
٥ —	٣	٧½	— ١٥	— ٣	— ٩
١٠ —	٣	١٢½	— ١٠	— ٢	— ٦
١٥ —	٦	١٧½	— ٥	— ١	— ٦
٢٠ —	٨	٢٢½	صفر	صفر	صفر
٢٥ —	٤	٢٧½	٥	١	٤
٣٠ —	٣	٣٢½	١٠	٢	٦
٣٥ —	٢	٣٧½	١٥	٣	٦
٤٠ —	١	٤٢½	٢٠	٤	٤
المجموع	٣٠	جدول (٢)			١—

المتوسط الحسابى = الوسط الفرضى + $\frac{\text{مجموع الانحرافات المختصرة} \times \text{العامل المشترك}}{\text{جملة التكرارات}}$

= ٢٢½ + $\frac{١— \times ٥}{٣٠}$ = ٢٢½ — ⅙ = ٢٢٫٣٣

الوسيط :

أما الوسيط فهو القيمة التى تقسم المجموعة بحيث يكون عدد القيم الأكبر منها مساويا لعدد القيم الأصغر منها . ونحصل على الوسيط فى حالة القيم غير المتصلة بترتيب القيم ترتيبا تنازليا أو تصاعديا فيكون الوسيط هو القيمة التى تقع فى الوسط تماما ، وذلك إذا كان عدد القيم فرديا . أما إذا كان عدد القيم زوجيا فالوسيط يكون عبارة عن المتوسط الحسابى للقيمتين اللتين تقعان فى الوسط .

وأما فى حالة القيم المتصلة فيعمل الجدول التكرارى ومنه يمكن تكوين الجدول التكرارى المتجمع الصاعد أو النازل . فى المثال السابق يمكن استخلاص الوسيط من الجدول التكرارى المتجمع التالى :

الحدود العليا للفئات	التكرار المتجمع
أقل من ١٠	٣
أقل من ١٥	٦
أقل من ٢٠	١٢
أقل من ٢٥	٢٠
أقل من ٣٠	٢٤
أقل من ٣٥	٢٧
أقل من ٤٠	٢٩
أقل من ٤٥	٣٠

جـــدول (٣)

ثم نتبع الخطوات التالية لحساب الوسيط :

١ — نحدد موقع الوسيط بقسمة التكرار الكلى على ٢ أى ٣٠ ÷ ٢ = ١٥ .

٢ — نحدد الفئة الوسيطية ، أى التى يقع فيها الوسيط وهى هنـــا الفئة ٢٠ —

٣ — نطبق القانون :

$$\text{الوسيط} = \text{مبدأ الفئة الوسيطية} + \frac{\text{ترتيب الوسيط} - \text{التكرار السابق}}{\text{التكرار اللاحق} - \text{التكرار السابق}}$$

× طول الفئة .

$$\therefore \text{الوسيط} = ٢٠ + \frac{١٥ - ١٢}{٢٠ - ١٢} \times ٥$$

$$= ٢٠ + \frac{٣}{٨} \times ٥$$

$$= ٢١ر٨٨$$

المنوال :

وأما المنوال فهو القيمة الأكثر شيوعا فى التوزيع . وتمثلها فى الرسم على التقريب النقطة من المحور السينى (الأفقى) التى تقع تماما تحت أعلى نقطة فى المنحنى . فالمنوال يساوى تقريبا مركز الفئة التى تقابل أكبر تكرار .

ويمكن حساب المنوال بالطريقه الشائعة المسماة بطريقة الرافعة . وتنحصر هذه الطريقة فى تحديد الفئة المنوالية أى التى تقابل أكبر تكرار ، وهى فى مثالنا الفئة ٢٠ ـ ٢٥ ، وهذه الفئة تمثل ذراعى الرافعة التى تحمل على أحد طرفيها التكرار السابق وعلى الطرف الآخر التكرار اللاحق لهذه الفئة .

ويمثل المنوال مركز الرافعة الذى يحقق لها الاتزان . والمعلوم أن هذا المركز يقترب من الوزن الأكبر .

فإذا كان المنوال يبعد عن ٢٠ بمقدار س فإنه يبعد عن ٢٥ بمقدار ٥ ـ س ويمكن تحديد قيمة س بالمعادلة الآتية :

٢٠	×	٢٥
↓		↓
٦		٤

٦ س = ٤ (٥ - س)

٦ س = ٢٠ - ٤ س

١٠ س = ٢٠

س = ٢

∴ المنوال = ٢٠ + ٢ = ٢٢

وهذه المتوسطات الثلاثة تكون متطابقة فى حالة التوزيع التكرارى المتماثل . ولكنها تتباعد بقدر ما يكون المنحنى التكرارى غير متماثل . وتعرف ظاهرة عدم التماثل فى المنحنيات بالالتواء . والالتواء نوعان : التواء إيجابى تميل فيه قمة المنحنى إلى النهاية الكبرى للدرجات ، والتواء سلبى تميل فيه قمة المنحنى إلى النهاية الصغرى للدرجات . ويمكن قياس معامل الالتواء باستخدام معادلة كارل بيرسون :

$$\text{معامل الالتواء (ل)} = \frac{\text{٣(المتوسط الحسابى — الوسيط)}}{\text{الانحراف المعيارى}}$$

وتبدو أهمية هذه المتوسطات عندما نريد الحصول على قيمة متوسطة ممثلة للمجموعة ، أو عندما نريد مقارنة مجموعتين أو أكثر على وجه السرعة .

المعيـــار :

أن التقنين لا يقتصر على تثبيت ، بمعنى توحيد ، شروط الموقف، وإنما يتطلب أيضا معياراً واحداً نرجع إليه فى الحكم على إجابات الفرد أو استجاباته . ولكن ليس هنالك معيار سابق الوجود لتقييم النتائج . فكل ما يمكن عمله هو مقارنة نتيجة الفرد بنتائج الأفراد الآخرين المماثلين له .

ومن هنا فليس المعيار غير الأداء العادى normal أو المتوسط بالنسبة لجماعة معينة. فاختبار الأطفال فى سن بعينها ينبغى أن يطبق أولا على مجموعة كبيرة ممثلة لأطفال هذه السن . فيكون متوسط النتائج هو المعيار لأطفال هذه السن .

وعلى الرغم من أن اختبارات الشخصية لا تكون إجاباتها صحيحة أو خاطئة — كما هو الحال فى اختبارات الذكاء والقدرات — إلا أن معيارها يتم تحديده مع ذلك موضوعيا بتطبيقها على عينة كبيرة ممثلة للمجتمع الأصلى .

ومن المعايير المستخدمة فى القياس العقلى . العمر العقلى ونسبة الذكاء والمعيار المئينى والدرجة المعيارية .

فالعمر العقلى معيار ابتكره بينيه . وهو يعنى المستوى العقلى للطفل كما يتحدد عن طريق مدى نجاحه أو فشله فى الإجابة على الأسئلة أو فى أداء الأعمال التى ينجح فيها ما يزيد على ٥٠ ٪ من عينة أطفال ممثلة لنفس سنه ، وعن طريق مدى نجاحه أو فشله فى أسئله الأعمار الأعلى والأدنى . ومن الممكن أن يكون العمر العقلى للطفل أعلى أو أدنى من عمره الزمنى .

ونسبة الذكاء I. Q. هى خارج قسمة العمر العقلى على العمر الزمنى مضروباً × ١٠٠ . وهذه النسبة تنطوى على تطبيق عملى للعمر العقلى . ويمكن الاستدلال منها على مستوى الذكاء . وهى تميل إلى أن تكون ثابتة فى مختلف أعمار الفرد .

أما المعيار المئينى percentile norm فيستند إلى نسبة الأفراد الذين يقعون تحت درجة معينة . فإذا كان ٧٠ ٪ من الأفراد تقع درجاتهم تحت الدرجة ١٥ ، فمعنى هذا أن الدرجة الخام ١٥ تقابل المئين ٧٠ . وبالتالى فإن الفرد الذى يحصل على ١٥ درجة فى هذا الاختبار تكون درجته المئينية ٧٠ . فالمعيار المئينى يحدد موقف الفرد النسبى فى اختبار ما بالقياس إلى جماعته . ولكن ينبغى أن نتنبه إلى أن هذه الدرجات المئينية تمثل رتبا أو مستويات تشير فحسب إلى الوضع النسبى للفرد .

مقاييس التشتت — الانحراف المعيارى :

ولكن بالنظر إلى أن مقارنة مجموعتين على هذا النحو إنما تكون

تقريبية ، فمن الممكن أن يكون المتوسط هو هو فى المجموعتين بينما تكون الاختلافات فى مجموعة أعظم مما هى عليه فى المجموعة الأخرى . ومعنى هذا أن المقارنة لا تكون صحيحة إلا حين نضع فى اعتبارنا «التشتت» فى كل من المجموعتين .

ومقاييس التشتت كثيرة ، أشهرها وأدقها «الانحراف المعيارى» . ويتم الحصول على الانحراف المعيارى باتباع الخطوات التالية: (١) نستخرج الوسط الحسابى أولا . (٢) نستخرج انحراف كل قيمة من القيم عن هذا المتوسط . (٣) نستخرج مربعات الانحراف للتخلص من الإشـــارات السالبة . (٤) نستخرج الانحراف التربيعى المتوسط ويعرف باسم التباين variance بقسمة مجموع مربعات الانحرافات على عدد الحالات . (٥) وأخيرا نستخرج الجذر التربيعى للتباين فنحصل على الانحراف المعيارى .

وأما الدرجة المعيارية فتستند إلى الانحراف المعيارى . والانحراف المعيارى (ع) هو أهم مقاييس الانحراف بمعنى البعد عن المتوسط . فإذا حصلنا على متوسط درجات اختبار معين بقسمة حاصل جمع الدرجات على عدد الأفراد ، فإننا نستطيع أن نعين مدى انحراف درجة كل فرد أى بعدها عن المتوسط . ومن ثم نستطيع أن نستخرج الانحراف المعيارى لمجموعة درجات هذا الاختبار على أنه الجذر التربيعى لقسمة مجموع مربعات الانحرافات عن المتوسط على عدد الأفراد .

$$ع = \sqrt{\frac{مج\ ح^{٢}}{ن}}$$

فالانحراف المعيارى (ع) للأعداد (أو الدرجات) ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ هو كالآتى :

متوسط هذه الأعداد هو (١ + ٢ + ٣ + ٤ + ٥) ÷ ٥ = ٣

انحرافات هذه الأعداد عن المتوسط هى على الترتيب — ٢ ، — ١ ، صفر ، + ١ ، + ٢ . ومجموع مربعات هذه الانحرافات هو ٤ + ١ + صفر + ١ + ٤ = ١٠

$$ع = \sqrt{\frac{مج ح^2}{ن}} = \sqrt{\frac{١٠}{٥}} = \sqrt{٢} = ١٫٤ \text{(تقريباً)}$$

والدرجة المعيارية لفرد معين ليست غير خارج قسمة انحرافه عن المتوسط على الانحراف المعيارى.

$$\text{الدرجة المعيـارية} = \frac{س - م}{ع} = \frac{\text{الانحراف}}{\text{الانحراف المعيارى}}$$

حيث س درجة الفرد ، م المتوسط ، ع الانحراف المعيارى .

فالدرجة المعيارية للفرد الحاصل على ٤ فى المثال السابق $= \frac{٤ - ٣}{١٫٤}$

$= \frac{١}{١٫٤} = ٠٫٧$

ومن أجل تجنب استخدام الكسور فى الدرجات المعيارية يلجأ بعض البحاث إلى ضرب الدرجة المعيارية فى عدد ثابت (١٠ مثلا) وإضافة عدد ثابت (٥٠ مثلا — وهو يمثل المتوسط) ويسمى المعيار فى هذه الحالة بالمعيار التائى نسبة إلى ثورندايك وترمان . وبذلك تكون الدرجة التائية للفرد المشار إليـه فى المسـألة الأخيرة هى ٠٫٧ × ١٠ + ٥٠ = ٥٧

ويمكن حساب الانحراف المعيارى فى المثال السابق من جدول (٢) وذلك بتطبيق القانون :

(أ) فى حالة استخدام الوسط الحقيقى :

الانحراف المعيارى $ع = \sqrt{\frac{\text{مج ك ح}'^{2}}{ن}} \times$ العامل المشترك

(ب) فى حالة استخدام وسط فرضى :

$$ع = \sqrt{\frac{\text{مج ك ح}'^{2}}{ن} - \left(\frac{\text{مج ك ح}'}{ن}\right)^{2}} \times \text{العامل المشترك}$$

الفئة	التكرار ك	الإنحراف المختصر ح َ	ك ح َ	ك ح َ٢
٥ —	٣	— ٣	— ٩	٢٧
١٠ —	٣	— ٢	— ٦	١٢
١٥ —	٦	— ١	— ٦	٦
٢٠ —	٨	صفر	صفر	صفر
٢٥ —	٤	١	٤	٤
٣٠ —	٣	٢	٦	١٢
٣٥ —	٢	٣	٦	١٨
٤٠ —	١	٤	٤	١٦
		المجموع	— ١	٩٥

جدول (٣)

$$\therefore ع = \sqrt{\frac{٩٥}{٣٠} - \left(\frac{-١}{٣٠}\right)^{٢}} \times ٥$$

$$= \sqrt{\frac{١٩}{٦} - \frac{١}{٩٠٠}} \times ٥$$

$$= ٨ر٩$$

وتتضح قيمة حساب الانحراف المعيارى فى حالة المنحنى التكرارى الاعتدالى حين نتبين أن ٦٨٪ من أفراد المجموعة تقع فى هذا المنحنى ما بين + ١ انحراف معيارى و — ١ انحراف معيارى وأن ٩٦٪ من أفراد المجموعة تقع ما بين + ٢ انحراف معيارى و — ٢ انحراف معيارى ، وذلك فى توزيع متماثل حول المتوسط فى كل حالة .

معامل الارتباط

وعلى أية حال فالانحراف المعيارى عظيم الفائدة عند مقارنة درجات مجموعتين من الأفراد من حيث درجة التشتت ، وهنا تكون المقارنة صحيحة وليست تقريبية كما هو الحال عند الاعتماد فى المقارنة على المتوسط فحسب . ولكن هناك نوعاً آخر من المقارنات عظيم الأهمية ، ونعنى مقارنة مجموعتين من الدرجات لنفس المجموعة من الأفراد . مثال ذلك : عند مقارنة درجات تلاميذ فصل واحد فى مادتى الطبيعة والكيمياء . فمن الممكن أن تكشف المقارنة عن أن التلميذ الذى يحصل على درجة عالية فى إحدى المادتين حاصل أيضاً على درجة عالية فى المادة الأخرى ، والعكس بالعكس . ومن الممكن ألا يكون هناك ارتباط بين درجات التلميذ فى هاتين المادتين . وتحقيق هذه المقارنة يعرف بحساب «معامل الارتباط» . فإذا كانت درجات التلاميذ فى هاتين المادتين متواكبة فى الغالب كان هناك «ارتباط موجب» . ومن الممكن فى حالة أخرى أن تكون الدرجات فى مادتين متعاكسة ، بحيث يكون المتفوق فى إحدى المادتين متخلفاً فى الأخرى والعكس بالعكس فعندئذ يكون هناك «ارتباط سالب» .

والارتباط الموجب قد يكون تاماً (+ ١) ، بمعنى أن يكون الأول فى المادة الأولى هو الأول فى المادة الأخرى ، والثانى فى المادة الأولى هو الثانى فى المادة الأخرى ، وهكذا على الترتيب . وقد يكون

الارتباط السالب تاماً (—١) فيكون الأول فى المادة الأولى هو الأخير فى المادة الثانية ، والثانى فى المادة الأولى هو قبل الأخير فى المادة الثانية وهكذا على الترتيب . ولكن لا يحصل عادة أننا نحصل على ارتباط موجب تام أو على ارتباط سالب تام عند مقارنة نتيجة اختبارين فى أية مجموعة من الأفراد .

وحساب معاملات الارتباط إنما يستند إلى « قانون التغير النسبى » عند ستيوارت ميل . ومؤداه أنه إذا كان التغير فى ظاهرة مايتبعه أو يصحبه تغير فى ظاهرة أخرى فإنه يمكن افتراض علاقة علية أو سببية . فإما أن تكون الواحدة سبباً للأخرى ، وأما أن يكون للظاهرتين معا سبب مشترك . فالتفوق فى الكيمياء قد يرجع — فى حالة الارتباط الموجب — إلى التفوق فى الطبيعة أو قد يرجع التفوق فى المادتين إلى التفوق فى الذكاء مثلا .

ولقد قام كيرت ليفين بنقد هذا التصور من حيث أنه لا يتعدى مستوى التسجيل الرقمى. وقرر أنه يتحتم على الباحث دائما أبدا أن يعيد عقليا بناء معطيات التسجيل . فالكلمة الأخيرة هى للنظرة الكلينيكية . (راجع وحدة علم النفس) .

ومن أبسط وأسرع الطرق لحساب معامل الارتباط طريقة سبيرمان . وتتلخص خطوات العمل بها فيما يلى :

(١) ترتيب مجموعتى الدرجات المراد مقارنتهما لإيجاد الارتباط بينهما ترتيبا تنازليا .

(٢) تحدد لكل درجة ترتيبها، فنعطى أعلى الدرجات الترتيب ١ ومايليها الترتيب ٢ وهكذا حتى نهاية الدرجات ، وذلك فى كل من مجموعتى الدرجات على حدة . وفى حالة حصول فردين على نفس الدرجة فى إحدى مجموعتى الدرجات نضع لكل فرد المتوسط الحسابى للترتيب المتكرر والذى يليه .

فبدلا من الترتيبين ٣ و ٣ مكرر نضع الترتيب ٣½ فى الحالتين أى (٣ + ٤) ÷ ٢ = ٣½ ثم نعطى الدرجة التالية لهاتين الدرجتين الترتيب ٥ .

(٣) نستخرج لكل فرد الفرق (ف) بين ترتيبيه فى الاختبارين .

(٤) نستخرج مربع فروق الترتيب ($ف^2$) لكل فرد .

(٥) نستخرج حاصل جمع ($ف^2$) لكل أفراد المجموعة (مجـ $ف^2$)

(٦) نستخرج معامل الارتباط (ر) حسب القانون :

$$ر = ١ - \frac{٦ \text{ مجـ } ف^2}{ن (ن^2 - ١)}$$

حيث (ر) معامل الارتباط و (مجـ $ف^2$) مجموع مربعات الفروق التى استخرجت و (ن) عدد الأفراد .

ويمكن حساب معامل الارتباط بدقة أكبر باستعمال طريقة بيرسون: فإذا افترضنا أن درجات عشرة من التلاميذ فى الجمع والقسمة هى كما يلى :

التلاميذ	ا	ب	حـ	ء	هـ	و	ز	ح	ط	ى
درجات الجمع س	١٨	١٤	١٢	١١	١٠	١٠	٨	٧	٦	٤
درجات القسمة ص	٩	١١	٨	٤	٥	٧	٣	٦	٥	٢

جدول (٤)

فإن منه يتضح أن متوسط درجات التلاميذ فى الجمع ١٠ ومتوسط درجاتهم فى القسمة هو ٦. ويتطلب تطبيق قانون بيرسون استخراج مجموع

مربعات انحرافات درجات الجمع عن المتوسط (مجـ ح^{٢} س) ومجموع مربعات انحرافات درجات القسمة عن المتوسط (مجـ ح^{٢} ص) وأيضا مجموع حواصل ضرب حس × حص. ويمكن أن يتم ذلك بواسطة الجدول التالى :

	س	ص	ح س(س—١٠)	ح ص(ص—٦)	ح^{٢}س	ح^{٢}ص	حس حص
ا	١٨	٩	+٨	+٣	٦٤	٩	٢٤
ب	١٤	١١	+٤	+٥	١٦	٢٥	٢٠
حـ	١٢	٨	+٢	+٢	٤	٤	٤
د	١١	٤	+١	—٢	١	٤	—٢
هـ	١٠	٥	صفر	—١	صفر	١	صفر
و	١٠	٧	صفر	+١	صفر	١	صفر
ز	٨	٣	—٢	—٣	٤	٩	٦
ح	٧	٦	—٣	صفر	٩	صفر	صفر
ط	٦	٥	—٤	—١	١٦	١	٤
ى	٤	٢	—٦	—٤	٣٦	١٦	٢٤
	١٠٠	٦٠			١٥٠	٧٠	٨٠

جـدول (٥)

وعندئذ يمكننا الحصول على قيمة معامل الارتباط ر بتطبيق القـانون .

$$\text{ر} = \frac{\text{مجـ حس حص}}{\sqrt{(\text{مجـ ح}^{٢}\text{س})(\text{مجـ ح}^{٢}\text{ص})}}$$

$$\therefore \text{ر} = \frac{٨٠}{\sqrt{١٥٠ \times ٧٠}} = \frac{٨٠}{١٠٢} = \text{٧٨ ر}$$

أهمية معامل الارتباط :

ولقد اضطلع « معامل الارتباط » بدور هام فى الدراسات الإحصائية فى علم النفس . فنى دراسة الوراثة مثلا تجيب معاملات الارتباط على أسئلة من قبيل ما إن كان أولاد الأذكياء أذكياء وأولاد الأغبياء أغبياء، ومن قبيل ما إن كان أولاد الفضلاء فضلاء وأولاد المجرمين مجرمين الخ .

كذلك سوف نرى أهمية الارتباط كوسيلة للتحقق من ثبات الاختبارات وصحتها (ص ٢٤٨).

وأيضاً عند دراسة سيكولوجية السمات والأنماط يستند التحليل العاملى لنتائج قياس السمات إلى معامل الارتباط . فهو تحليل يرجع الارتباطات العالية بين نتائج مجموعة من الاختبارات إلى عامل عام يعد المسئول عن تلك الارتباطات العالية .

ومهما يكن من أمر فإنه ينبغى ألا يغيب عن الأذهان أن هذه الطرائق الإحصائية لا تعد هنا محققة للفهم . فإن الذى يضطلع بالتطبيق قد لا يفهم مثلا العلة فى ضرب حاصل الجمع هاهنا فى رقم بعينه، وقسمته على آخر ، ومن ثم يقوم بإجراء العمليات الإحصائية بصورة آلية . أضف إلى ذلك أننا قد اقتصرنا فى عرضنا على أبسط المفاهيم الإحصائية ، بينما يتطلب التطبيق الدقيق إحاطة تامة بآخر ما وصلت إليه الدراسات الإحصائية فى تطورها . ومن هنا فعادة ما تخصص دورات دراسية بأكملها للراغبين فى القيام بالتطبيقات الإحصائية .

ومع ذلك فكائنة ما كانت الوسائل الرياضية المستخدمة فإن النتائج تظل عديمة الدلالة حتى يضطلع عقل الباحث ببنائها بناء جديداً يتيح الإمساك بنمط العلاقة المثالية، هذه التى تعين على «الفهم» أكثر مما تعين على «التفسير». يقول لاجاش . « إن الحكم القبلى المتعلق بالدقة الفارغة ، أى الخالية من

الدلالة، لم يكن له من أثر إلا أن أصاب بالعقم محاولات كثيرة فى علم النفس التجريبى . . . فالاختبار لايقدم لنا إلا معطيات جزئية. ويقع على عاتق النظرة الكلينيكية أن تضطلع بتحديد مكان هذه المعطيات من الكل، وباستخلاص ما للأداء من دلالة . »(وحدة علم النفس) .

معيار الثبات والصدق

معيار الثبات:

معنى ثبات الاختبار أن يكون الاختبار مماثلا لنفسه ، بمعنى أن يعطى نفس النتائج حين يطبق أكثر من مرة على فرد لم تطرأ عليه تغيرات فى الفترة الفاصلة من شأنها أن تغير من الظاهرة التى يقيسها الاختبار.

والتذبذبات التى تطرأ على نتائج تطبيق المقياس على فرد معين مرات متتابعة تسمى خطأ القياس .وعادة ماتتعرض أية درجة من درجات الاختبار لخطأ فى القياس ، لأنه يندر أن يؤدى الفرد نفس الاختبار بشكل واحد فى مناسبتين مختلفتين .

ويتم تحديد مدى ثبات الاختبار فى صورة « معامل الثبات » وهو معامل الارتباط بين درجات الاختبار فى مرتين متعاقبتين على نفس مجموعة المختبرين . ومعامل الارتباط يمكن أن يتراوح بين + ١ (المعبر عن تمام التطابق بين النتيجتين) وصفر (المعبر عن انعدام العلاقة) و — ١ (المعبر عن الانعكاس التام للعلاقة بين النتيجتين) . وكيما يكون الاختبار محل ثقة ينبغى أن لا يقل معامل ثباته عن + ٨ر. .

وصحيح أن استجابات الفرد أو إجاباته تتعرض للتغير بتغير المواقف ، إلا أنه فى حالة قياس القدرات الخاصة يقل احتمال التغير فى أداءات الفرد ،

ومن ثم ينبغى أن يعزى التغير الناتج إلى نقص فى ثبات المقياس . أما فى حالة الفواصل الزمنية الكبيرة التى تسمح بتغيرات أساسية فى النمو ،أو بتغيرات بيئية جذرية ، فإن تغير نتائج الاختبار لا ينبغى أن يعزى بالضرورة إلى نقص فى ثباته .

ولكن الأمر يختلف عن ذلك فى اختبارات الشخصية . فإن سمات الشخصية واتجاهاتها ، وإن اتسمت بشىء من الثبات فى خطوطها العريضة ، إلا أنها تنفتح مع ذلك للتبدلات بحيث لا نستطيع أن نعزو كل تغير فى نتائج القياس إلى نقص فى ثبات المقياس .ومن هنا فإن طريقة « إعادة الاختبار » لا تستخدم عادة للكشف عن ثبات اختبارات الشخصية .

ومن المألوف فى حالات « إعادة الاختبارات » استخدام صورتين متكافئتين للاختبار حتى لا تتدخل آثار الذاكرة والتعلم . وفى بعض الأحيان يتم تبين ثبات المقياس عن طريق قياس معامل الثبات بطريقة التقسيم النصفى ، مما يعرف أحياناً بمعامل الاتفاق الداخلى . وتعتمد هذه الطريقة على حساب معامل الارتباط بين مجموعتين من الدرجات التى يتم الحصول عليها من إجراء اختبار واحد . ومن أشهر صور التقسيم النصفى للاختبار طريقة الفردى والزوجى .

ويحسب معامل الثبات فى هذه الحالة ، حالة التجزئة النصفية ، بإيجاد معامل الارتباط بين درجات نصفى الاختبار وليكن ر ثم تصحيح ر باستعمال معادلة سبيرمان وبراون للتجزئة النصفية . ووفقاً لهذه المعادلة يكون

$$\text{معامل الثبات} = \frac{٢ ر}{١ + ر}$$

فاذا كان معامل الارتباط بين نصفى الاختبار = ٠ر٨ مثلا

فان معامل ثبات هذا الاختبار $= \frac{٢(٠ر٨)}{١ + ٠ر٨} = \frac{١ر٦}{١ر٨} = \frac{٨}{٩}$

$= ٠ر٨٩$

وهناك أيضاً طريقة التقسيم إلى الربعين الأول والأخير من الاختبار فى مقابل الربعين الأوسطين . فإذا حققت المقارنة بين نتائج نصفى الاختبار معامل ارتباط عالياً كان ذلك دليلا على ارتفاع معامل الثبات استناد إلى معادلة سبيرمان السالفة الذكر .

ويختلف معامل الثبات لاختبار واحد باختلاف مجموعات الأفراد التى يجرى عليها الاختبار من حيث مدى تجانسها . فمعامل الثبات لا ينطوى على نفس الدلالة فى حالة المجموعة المتجانسة وفى حالة المجموعة غير المتجانسة . فاختلاف الأعمار مثلا بين أفراد المجموعة من شأنه أن يؤدى إلى تناقص معامل الثبات . وكلما ازداد حظ المجموعة من التباين كان علينا أن نتنبه إلى احتمال تناقص معامل الثبات .

معيار الصدق أو الصحة :

تعنى صحة الاختبار مدى قياسه للمجال السلوكى أو للظاهرة التى نريد قياسها ، وذلك على نحو يتيح التشخيص الدقيق والتنبؤ . ومعيار الصحة هو محك مستقل للاختبار ضمن المجال السلوكى الذى ينصب عليه الاختبار . فاختبار القدرة الخاصة لسائقى عربات الأجرة يمكن أن نجد محكا لصحته بمقارنة نتائجه بالأداء الفعلى المهنى لعينة ممثلة من الأشخاص الذين يتقدمون لمزاولة المهنة ثم يضطلعون بممارستها . ومتى ثبتت صحة اختبار ما فلن تكون هناك حاجة من جديد إلى استخدام محك مستقل لقياس صحته .

ويرمز «معامل الصحة» لمدى صحة الاختبار، وهو عبارة عن معامل الارتباط بين درجات الاختبار ودرجات المحك المستقل، الذى يسمى أحياناً بالميزان المطلق. وبديهى أن حجم وطبيعة العينة التى نستخدمها لاستخراج معامل الارتباط هذا قد يؤثران هنا فى قيمة المعامل الذى نحصل عليه.

وأحياناً ما تستخدم فى قياس الصحة طريقة المجموعات المتضادة. بمعنى مقارنة المجموعة المتفوقة فى الاختبار بالمجموعة المتخلفة فيه وذلك فى مجال الممارسة العملية للتحقق من مدى نجاح المتفوقين ومدى فشل المتخلفين فى الاختبار (مع إهمال جماعة المتوسطين فى هذه المقارنة) . وكثيراً ما تستخدم هذه الطريقة فى قياس صحة اختبارات الانتقاء المهنى فى المصانع، وذلك بتتبع مستوى الإنتاج لمجموعة من الحاصلين على أعلى درجات الاختبار ومقارنته بمستوى الإنتاج لمجموعة من الحاصلين على أدنى الدرجات بين المقبولين. وقد يستمر هذا التتبع عاماً أو أكثر. وكلما ظلت الجماعة المتفوقة فى الدرجات متفوقة فى الإنتاج وظلت الجماعة المتخلفة فى الدرجات متخلفة فى الإنتاج، وكلما كان الفرق فى الإنتاج بين المجموعتين كبيراً، كان هذا دليلا على أن الاختبار يتمتع بدرجة عالية من الصحة.

وهنالك فى اختبارات التصفية ما يعرف « بالدرجة الفاصلة » وهى الدرجة من الاختبار التى يتحقق لنصف الحاصلين عليها نجاحاً فى الدراسة أو التدريب، بينما تفشل أغلبية من الحاصلين على أقل منها. مثال ذلك : كشفت الدراسات التى أجريت على « اختبار التصنيف العام للجيش » عن أن الأفراد الذين حصلوا على ١٤٠ درجة فأكثر استطاع ٩٠٪ منهم أن يحصلوا على إجازة الدراسة التدريبية. أما الذين حصلوا على ١١٠ درجة فقط فقد استطاع ٥٠٪ منهم فقط أن يحصلوا على هذه الإجازة بينما فشل أكثر من نصف الذين حصلو على درجات أقل من ١١٠، ولم يحصلوا على إجازاتهم. ومن هنا فقد اتخذت الدرجة ١١٠ كدرجة فاصلة.

ويعد تحقيق صحة اختبارات القدرات الخاصة عملا محدداً نسبياً بالقياس إلى تحقيق صحة اختبارات الذكاء، هذه التى تتجه إلى قياس الذكاء بصورة عامة دون ما تحديد لقدرة معينة . ومن هنا فكثيراً مايستخدم أكثر من محك واحد لتحديد صحة اختبار الذكاء . فنى المقاييس التى تستند إلى العمر تتخذمستويات الأداء فى الأعمار الزمنية المختلفة بمثابة محك للصحة . ومن المحكات الشائعة تقديرات المدرسين .وأحياناً ما تعتبر كمية الدراسة بمثابة محك، وذلك فى المجتمعات التى تكون فيها فرص التعليم متاحة للجميع . هذا إلى استخدام « طريقة المجموعات المتضادة »، وإلى استخراج معامل الارتباط بين اختبار جديد للذكاء واختبارات أخرى من قبيل اختبار ستانفورد — بينيه . وثمة محك آخر ينحصر — بالنسبة لبطارية من الاختبارات — فى إثبات وجود معامل ارتباط مرتفع بين درجات كل اختبار على حدة والدرجة الكلية للبطارية الكاملة للاختبارات . وينحصر المحك — بالنسبة إلى الاختبار الواحد — فى إثبات وجود معامل ارتباط مرتفع بين درجة كل وحدة فرعية والدرجة الكلية للاختبار . ولكن لا يجوز الاكتفاء بهذه الطريقة دون الاستعانة بمحك خارجى .

أما تحقيق صحة اختبارات الشخصية فعملية عسيرة، وذلك لصعوبة الحصول على محك مستقل يمكن الاطمئنان إليه . ولعل فى تقديرات ملاحظين مختلفين للأشخاص موضوع القياس ما يمثل خير محك فى الوقت الحاضر . وتزداد قيمة هذا المحك حين يكون الملاحظون من الكلينيكيين الذين أتيحت لهم الفرصة لمتابعة هؤلاء الأشخاص فترة كافية .

نظرية العاملين لسبيرمان

قام سبيرمان بتطبيق عدة اختبارات عقلية تحصيلية على مجموعة من الأفراد وأوجد معاملات الارتباط بين درجات هذه الاختبارات وكون ما يسمى بمصفوفة معاملات الارتباط . وقد بدأ بتحديد فكرة العامل على أنه السبب المباشر لوجود الارتباط الموجب القائم بين

درجات هذه الاختبارات. فإذا فرضنا أن الاختبارات هي ا، ب، ح، ء وكان معامل الارتباط بين درجات ا، ب هو ر اب وبين درجات ا، ح هو ر اح وهكذا . فإن مصفوفة معاملات الارتباط تكون على الشكل الآتي :

	ا	ب	ح	ء
ا		ر اب	ر اح	ر اء
ب	ر اب		ر بح	ر بء
ح	ر اح	ر بح		ر حء
ء	ر اء	ر بء	ر حء	

	٪٤٠	٪٣٢	٪٢٤
٪٤٠		٪٢٨	٪٢١
٪٣٢	٪٢٨		٪٢٠
٪٢٤	٪٢١	٪٢٠	

جدول (٦)

وقد وجد سبيرمان أن الفرق بين حاصل ضرب كل زوج من معاملات الارتباط التي تكون رؤوس مستطيل = صفر . فمثلا إذا أخذنا معاملات الارتباط الأربعة المكونة لرؤس مستطيل وهي

٪٣٢	٪٢٤
٪٢٨	٪٢١

لوجدنا أن (٣٢ر٠ × ٢١ر٠) − (٢٨ر٠ × ٢٤ر٠) = صفر .

وقد أطلق على المعادلة السابقة «معادلة الفروق الرباعية» واستنتج من ذلك أنه يوجد عامل مشترك سه يؤثر فى درجات هذه الاختبارات. فإذا أطلقنا على معامل الارتباط الجزئى بين ا، ح مع ثبوت سه، $\text{ر}_{\text{ا ح سه}}$ فإنه إذا كان معامل الارتباط $\text{ر}_{\text{ا ح}}$ ينتج عن تأثير سه فإن $\text{ر}_{\text{ا ح . سه}} = \text{صفر}$

$$\text{ر}_{\text{ا ح . سه}} = \frac{\text{ر}_{\text{ا ح}} - \text{ر}_{\text{ا سه}}\ \text{ر}_{\text{ح سه}}}{\sqrt{\left[1 - (\text{ر}_{\text{ا سه}})^2\right]\left[1 - (\text{ر}_{\text{ح سه}})^2\right]}}$$

$$\because \text{ر}_{\text{ا ح سه}} = \text{صفر} \quad \therefore \text{ر}_{\text{ا ح}} - \text{ر}_{\text{ا سه}}\ \text{ر}_{\text{ح سه}} = \text{صفر}$$

أو $\text{ر}_{\text{ا ح}} = \text{ر}_{\text{ا سه}} \cdot \text{ر}_{\text{ح سه}}$

وبالمثل $\text{ر}_{\text{ب ح}} - \text{ر}_{\text{ب سه}}\ \text{ر}_{\text{ح سه}} = \text{صفر}$

أى أن $\text{ر}_{\text{ب ح}} = \text{ر}_{\text{ب سه}} \cdot \text{ر}_{\text{ح سه}}$

$$\therefore \frac{\text{ر}_{\text{ا ح}}}{\text{ر}_{\text{ب ح}}} = \frac{\text{ر}_{\text{ا سه}} \cdot \text{ر}_{\text{ح سه}}}{\text{ر}_{\text{ب سه}} \cdot \text{ر}_{\text{ح سه}}} = \frac{\text{ر}_{\text{ا سه}}}{\text{ر}_{\text{ب سه}}}$$

وبالمثل يمكن إثبات أن $\frac{\text{ر}_{\text{ا ء}}}{\text{ر}_{\text{ب ء}}} = \frac{\text{ر}_{\text{ا سه}}}{\text{ر}_{\text{ب سه}}}$

أى $\frac{\text{ر}_{\text{ا ح}}}{\text{ر}_{\text{ب ح}}} = \frac{\text{ر}_{\text{ا ء}}}{\text{ر}_{\text{ب ء}}}$

$$\therefore \ \text{ر}_{\text{اح}} \cdot \text{ر}_{\text{بد}} = \text{ر}_{\text{اد}} \cdot \text{ر}_{\text{بح}}$$

أى أن $\text{ر}_{\text{اح}} \cdot \text{ر}_{\text{بد}} - \text{ر}_{\text{اد}} \cdot \text{ر}_{\text{بح}} =$ صفر

والمعادلة الأخيرة هى معادلة الفروق الرباعية ونتجت عن افتراض وجود عامل مشترك يؤثر فى درجات الاختبارات ا ، ب ، ح ، د .

فقد افترضت هذه النتائج وجود عامل مشترك يؤثر فى درجات جميع الاختبارات وعوامل نوعية يختص كل منها باختبار واحد . وعليه يوجد عامل عام ، أى قدرة عقلية عامة ، وتوجد عوامل نوعية ، أى قدرات عقلية خاصة . وكلما كانت الاختبارات تنصب على العمليات العقلية العليا كانت مشبعة بالعامل العام وبالتالى اعتبرت مقاييس ذكاء . فالذكاء ليس بعملية عقلية معينة وإنما هو عامل عام يسهم فى جميع العمليات العقلية بنسب متفاوتة . ويتبدى أعظم إسهامه فى استنباط العلاقات الأكثر تعقيداً أو تجريداً . فكأن الذكاء إنما هو إدراك للعلاقات المرهفة الحذقة، وفى هذا ما يقترب من نظرية الجشطلت .

التحليل العاملى

يستهدف التحليل العاملى بوسائل إحصائية الكشف عن العوامل الأولية الأولى التى تعد بمثابة العناصر الأولية المكونة لوحدات سيكولوجية من قبيل الذكاء والشخصية . يتم تطبيق عدة اختبارات وتستخرج معاملات الارتباط بين النتائج . ومعامل الارتباط كما نعلم يشير فى حالته الإيجابية إلى وجود علاقة بين متغيرين دون أن تكون هناك بالضرورة علاقة سببية. ومن هنا فمعامل الارتباط الإيجابى العالى بين عدة اختبارات يعزى إلى وجود عامل عام بينها تتم الإشارة إليه برمز من الرموز .

ويرجع إلى سبيرمان الفضل فى فتح الطريق لهذا المنهج الإحصائى

بالرغم من أنه لم يستعمل مصطلح «التحليل العاملي» بينما قام كل من ثرستون فى أمريكا وبرت فى انجلترا بوضع هذا المنهج الإحصائى فى مجال دراسة القدرات العقلية . ويختلف منهج كل منهما عن الآخر فى أن ثرستون يستخرج العوامل الطائفية أولا ثم يحصل بعد ذلك على العامل العام، ومن ثم فهو يعتبره عاملا « من الدرجة الثانية » ، بينما يبدأ برت باستخراج العامل العام ثم يقوم بعد ذلك باستخراج العوامل الطائفية ، علماً بأن المنهجين ينتهيان إلى نفس النتائج. ولا يتسع المجال هنا لشرح مفصل لكل من هذين المنهجين؛ ويمكن للقارىء أن يرجع فيها إلى كتب علم النفس الإحصائى ، وسنكتفى بعرض « للطريقة المركزية » للتحليل العاملى عند ثرستون .

التحليل العاملى عند ثرستون L.L. Thurstone

قام ثرستون بتطبيق عدد كبير من الاختبارات وقام بتحليل النتائج فكشفت عن أنها لا تقيس قدرة « عامل عام » وإنما تقيس جملة من القدرات الأولية التى تعد نسبياً مستقلة فيما بينها ، وإن تضافرت فى العمل . ومن ذلك القدرة العددية والقدرة على إدراك العلاقات المكانية الخ . . ومن هنا فإن ثرستون يعتمد على اختبارات القدرات العقلية الأوليه للكشف عن الذكاء باعتباره المتوسط لنتائج هذه الاختبارات مما لا يختلف عن القول بعامل عام . لهذا فقد انتهى ثرستون إلى الاعتراف بالعامل العام .

يبدأ التحليل العاملى بطريقة ثرستون بمصفوفة معاملات الارتباط ، وهى تشتمل على معاملات الارتباط بين الاختبارات التى يراد البحث فيها عن العوامل التى يفترض أنها السبب المفسر لهذه الدرجات .

ويمثل جدول (٧) مصفوفة افتراضية لمعاملات الارتباط بين درجات ست اختبارات عقلية ؛ وفيها نلاحظ أن المصفوفة تكون متماثلة على جانبى قطرها، ويشتمل العمود الأول أفقياً ورأسياً على معاملات الارتباط بين درجات

الاختبارات	١	٢	٣	٤	٥	٦	مجـ ر
١	—	٥٣ر	٤٠ر	٤٤ر	٦٤ر	٣٣ر	٢ر٣٤
٢	٥٣ر	—	٠٠ر	١٨ر	٨٠ر	٠٩ر	١ر٦٠
٣	٤٠ر	٠٠ر	—	٦٩ر	١٠ر	٥٩ر	١ر٧٨
٤	٤٤ر	١٨ر	٦٩ر	—	٢٨ر	٤٨ر	٢ر٠٧
٥	٦٤ر	٨٠ر	١٠ر	٢٨ر	—	١٧ر	١ر٩٩
٦	٣٣ر	٠٩ر	٥٩ر	٤٨ر	١٧ر	—	١ر٦٦
مجـ ر	٢ر٣٤	١ر٦٠	١ر٧٨	٢ر٠٧	١ر٩٩	١ر٦٦	١١ر٤٤

جدول (٧)

الاختبار الأول ودرجات الاختبارات الأخرى ، على تمثل عناصر الصف الثانى أو العمود الثانى أفقيا ورأسيا على معاملات الارتباط بين درجات الاختبار الثانى ودرجات الاختبارات الأخرى وهكذا . وتسمى عناصر القطر أو «الخلايا القطرية» — وهى التى تمثل معاملات ارتباط كل اختبار بنفسه — بالإشتراكيات Communalities وهى شاغرة فى هذه المصفوفة .

وتعرف الطريقة التى وضعها ثرستون للتحليل العاملى لمثل هذه المصفوفة بالطريقة المركزية Centroid Method ، وهى تبدأ كما هو واضح فى جدول (٧) بجمع أعمدة وصفوف المصفوفة لمعرفة مجموع معاملات ارتباط كل ختبار بالاختبارات الأخرى ، ويلى ذلك العمل على استخراج «تشبعات» العامل الأول وذلك بقسمة مجموع معاملات ارتباط كل اختبار بالاختبارات الأخرى على الجذر التربيعى للمجموع الكلى لمعاملات الارتباط ، أى أن تشبع العامل الأول بالاختبار الأول هو :

$$\text{أ}_{1} = \frac{\text{مج ر للاختبار الأول}}{\sqrt{\text{مج مج ر}}}$$

وفى المثال السابق $\text{أ}_{1} = \frac{٢ر٣٤}{\sqrt{١١ر٤٤}} = ٦٩ر$

وهكذا بالنسبة للاختبارات الأخرى . وتسمى القيم الناتجة بالتقدير الأول لتشبعات العامل الأول (أ_{1}) .

ويلى ذلك تربيع هذه القيم وجمعها مع المجموع المناظر لمعاملات الارتباط بين كل اختبار والاختبارات الأخرى، ثم إيجاد مجموع هذه المجاميع وأخذ الجذر التربيعى له ثم حساب التقدير الثانى لتشبعات العامل الأول بنفس الطريقة السابقة أى قسمة كل مجموع على الجذر التربيعى لمجموع المجاميع . وتستمر عمليات التقدير حتى نحصل على تقديرين متتاليين متماثلين وعندئذ يكون التقدير الأخير ممثلا لتشبعات العامل الأول . ويمثل الجدول التالى (جدول ٨) طريقة حساب التشبعات النهائية للعامل الأول. ويبين هذا الجدول الأخير أن التقدير الرابع والخامس لتشبعات العامل الأول متماثلة ولذلك فهى تمثل التشبعات النهائية للعامل الأول .

ويلى ذلك إيجاد مصفوفة ارتباطات قائمة على تشبعات العامل الأول (جدول ٩) ، وذلك بضرب مصفوفتين إحداهما من ست صفوف وعمود واحد والأخرى من صف واحد وستة أعمدة ؛ وهاتان المصفوفتان تمثلان تشبعات العامل الأول رأسياً وأفقياً .

	الاختبارات ١	٢	٣	٤	٥	٦	مجـ مجـ س	√مجـ مجـ س	١ / √مجـ مجـ س
مجـ س	٢ر٣٤	١ر٦٠	١ر٧٨	٢ر٠٧	١ر٩٩	١ر٦٦	١١ر٤٤	٣ر٣٨٣٦	٢٩٥٥ر
$ا_1$	٦٩ر	٤٧ر	٥٣ر	٦١ر	٥٩ر	٤٩ر	٣ر٣٨		
$ا_1^2$	٤٨ر	٢٢ر	٢٨ر	٣٧ر	٣٥ر	٢٤ر			
مجـ س + $ا_1^2$	٢ر٨٢	١ر٨٢	٢ر٠٦	٢ر٤٤	٢ر٣٤	١ر٩	١٣ر٣٨	٣ر٦٥٨	٢٥٩٥ر
$ا_2$	٧٣ر	٤٧ر	٥٣ر	٦٣ر	٦١ر	٤٩ر	٣ر٤٦		
$ا_2^2$	٥٣ر	٢٢ر	٢٨ر	٤٠ر	٣٧ر	٢٤ر			.....
مجـ س + $ا_2^2$	٢ر٨٧	١ر٨٢	٢ر٠٦	٢ر٤٧	٢ر٣٦	١ر٩٠	١٣ر٥٨	٣ر٦٨٦	٢٧١٢ر
$ا_3$	٧٨ر	٤٩ر	٥٦ر	٦٧ر	٦٤ر	٥٢ر	٣ر٦٦		
$ا_3^2$	٦١ر	٢٤ر	٣١ر	٤٥ر	٤١ر	٢٧ر			
مجـ س + $ا_3^2$	٢ر٩٥	١ر٨٤	٢ر٠٩	٢ر٥٢	٢ر٤٠	١ر٩٣	١٣ر٧٣	٣ر٧٠٦	٢٦٩٨ر
$ا_4$	٨٠ر	٥٠ر	٥٦ر	٦٨ر	٦٥ر	٥٢ر	٣ر٧١		
$ا_4^2$	٦٤ر	٢٥ر	٣١ر	٤٦ر	٤٢ر	٢٧ر			
مجـ س + $ا_4^2$	٢ر٩٨	١ر٨٥	٢ر٠٩	٢ر٥٣	٢ر٤١	١ر٩٣	٣ر٧٩	٣ر٧١٤	٢٦٩٢ر
$ا_0$	٨٠ر	٥٠ر	٥٦ر	٦٨ر	٦٥ر	٥٢ر			

(جدول ٨)

مصفوفة تشبعات العامل الأول

التشبعات		مصفوفة ١ × ٦					
		٨٠ر	٥٠ر	٥٦ر	٦٨ر	٦٥ر	٥٢ر
مصفوفة ٦ × ١	٨٠ر	—	٤٠ر	٤٥ر	٥٤ر	٥٢ر	٤٢ر
	٥٠ر	٤٠ر	—	٢٨ر	٣٤ر	٣٣ر	٢٦ر
	٥٦ر	٤٥ر	٢٨ر	—	٣٨ر	٣٦ر	٢٩ر
	٦٨ر	٥٤ر	٣٤ر	٢٨ر	—	٤٥ر	٣٦ر
	٦٥ر	٥٢ر	٣٣ر	٣٦ر	٤٥ر	—	٣٤ر
	٥٢ر	٤٢ر	٢٦ر	٢٩ر	٣٦ر	٣٤ر	—

جـــدول (٩)

ولو كانت مصفوفة تشبعات العامل الأول مشابهة لمصفوفة معاملات الارتباط الأصلية لكانت معاملات الارتباط ناتجة عن هذا العامل فقط ، ولما كانت غير مشابهة لها فإن علينا إيجاد مصفوفة بواقى العامل الأول وتحليلها للحصول على تشبعات العامل الثانى. وتستخرج هذه المصفوفة الأخيرة بطرح مصفوفة تشبعات العامل الأول من مصفوفه معاملات الارتباط الأصلية .

ويمثل الجدول التالى (جدول ١٠) مصفوفة بواقى العامل الأول :

	١	٢	٣	٤	٥	٦	مجـ
١	—	١٣ر	-٠٥ر	-١٠ر	١٢ر	-٠٩ر	٠١و
٢	١٣ر	—	-٢٨ر	-١٦ر	٤٧ر	-١٧ر	-٠١ر
٣	-٠٥ر	-٢٨ر	—	٣١ر	-٢٦ر	٣٠ر	٠٢ر
٤	-١٠ر	-١٦ر	٣١ر	—	-١٧ر	١٢ر	٠٠ر
٥	١٢ر	٤٧ر	-٢٦ر	-١٧ر	—	-١٧ر	-٠١ر
٦	-٩ر	-١٧ر	٣٠ر	١٢ر	-١٧ر	—	-٠١ر
مجـ	٠١ر	-٠١ر	٠٢ر	٠٠ر	-٠١ر	-٠١ر	٠٠ر

جدول (١٠)

ويلاحظ أن المجموع الجبرى لأى صف أو عمود فى مصفوفة بواقى العامل الأول تقترب من الصفر،حيث تدل النتائج على أن أكبر قيمة عددية لمجموع معاملات ارتباط أى صف أو عمود تساوى ٠,٠٢ كما أن عزل تشبعات العامل الأول من المصفوفة الأصلية جعل بعض مجاميع معاملات الارتباط أصبح سالباً . ويستلزم التحليل العاملى تحويل المجموع السالب إلى مجموع موجب . ويبدأ هذا التغيير بالاختبار الذى يدل على أكبر مجموع سالب وهو فى هذه الحالة الاختبارات الثانى والخامس والسادس .

وفى هذه الحالة نضع علاقة — أمام رقم الاختبار ثم نغير الإشارات السالبة إلى موجبة والإشارات الموجبة إلى سالبة فى كل من العمود والصف المناظر لهذا الاختبار حتى يصبح مجموع معاملات ارتباط هذا الاختبار موجباً .

وبعد أن يصبح مجموع معاملات ارتباط كل اختبار موجباً على هذا النحو نبدأ بتحليل المصفوفة الناتجة بنفس الطريقة السابقة حتى نحسب تشبعات العامل الثانى وهكذا حتى نحصل على بواقى تقترب معاملات الارتباط فيها من الصفر . وهكذا نحصل على تشبعات العوامل التى نتجت عنها معاملات الارتباط فى المصفوفة الأصلية .

ويلاحظ أن تشبعات أى عامل ابتداء من العامل الثانى تغير من تشبعات العوامل المناظرة للاختبارات التى غيرنا إشارتها .

ولا تنتهى عملية التحليل العاملى عند هذا الحد ، بل يجب تدوير المحاور المناظرة لهذه العوامل حتى تصبح التشبعات إما موجبة أو صفراً ، وبذلك يمكن معرفة كل مجموعة من الاختبارات تشترك فى عامل واحد .

ويأتى فى النهاية تفسير هذه العوامل تفسيراً سيكولوجيا ،بدراسة طبيعة الاختبارات التى تشترك فى كل عامل فنقول أن هذه المجموعة من الاختبارات تشترك فى صفة قياس القدرة العددية أو اللفظية مثلا .

الفصل الثامن

المقاييس النفسية

ماهو الاختبار القياسي :

يقول المعجم السيكولوجي لبيرون (ص٢٨٣): «كلمة الاختبار القياسي وهي التي استخدمها أولا كاتل عام ١٨٩٠ قد اتسع مدلولها ليدل على الاختبارات السيكولوجية ، بمعنى هذا الجانب من علم النفس الذي يحكم، في مجال المشكلات البشرية، تطبيق معطيات السيكوفسيولوجيا ومعطيات علم النفس التجريبي ، وذلك عن طريق استخدام جملة من الطرائق العملية الصارمة ، وخاصة الطرائق القياسية (السيكومترية) .» والتعريف الذي أقرته الرابطة الدولية للسيكوتكنيكا هو الآتي :

«الاختبار القياسي هو اختبار محدد ، يتضمن القيام بمهمة واحدة بالنسبة إلى جميع الأشخاص الخاضعين للاختبار ، مع طرائق محكمة لتقدير النجاح والفشل ، أو للتقدير الرقمي للنجاح . والقيام بالمهمة يمكن أن ينطوي على الاستعانة بمعارف مكتسبة (اختبارات تحصيلية) أو الاستعانة بوظائف حس – حركية أو عقلية (اختبارات سيكولوجية) » .

وعادة ما نميز من حيث التطبيق ما بين اختبارات فردية وجمعية ، وما بين اختبارات الأدوات والأجهزة واختبارات الورق والقلم، وما بين اختبارات لفظيه واختبارات غير لفظية بمعنى اختبارات أداء، وما بين اختبارات تحليلية (تتناول العناصر المكونة المفترضة لقدرة معقدة) واختبارات تركيبية (تتناول نشاطاً معقداً قريباً من النشاط المناظر للقدرة المراد قياسها)، وما بين اختبارات نمو في حالة الأطفال (وذلك عندما تكون الفروق ما بين المتوسطين المميزين

لعمرين متتاليين كبيرة بدرجة كافية بالقياس إلى مدى الفروق داخل كل جماعة من جماعتي العمر هاتين) واختبارات قدرات (وذلك عندما يكون مدى الفروق مابين أفراد العمر الواحد أكبر بصورة واضحة بالقياس إلى الفروق الراجعه لاختلاف الأعمار) . وأخيراً هنالك اختبارات الشخصية التى ، من قبيل الامتداد بالمدلول ، يندرج تحتها ما يسمى الاختبارات الإسقاطية من قبيل اختبار الإدراك الداخلي للموضوع لموري واختبار رورشاخ الخ . وهذه الاختبارات الأخيرة هي جد مختلفة عن الاختبارات التى يمكن أن نسميها قياسية نفسية .

أولا : مقاييس الذكاء

مقدمة :

١ — السلوك الذكي يبدو مقابلا للسلوك الغريزي بآليته الجامدة . ومن هنا فالذكاء يعنى المرونة التى تتخذ صورة الالتفاف أو الابتداع وصولا إلى الهدف .

٢ — السلوك الذكي يبدو مقابلا للسلوك العشوائي الذى يصل إلى الحل عن طريق الصدفة ومن هنا فالذكاء يعنى الفهم أى الاستبصار بالعناصر منتظمة فى علاقاتها .

٣ — وعليه يمكن القول بأن الذكاء هو القدرة « العقلية » على التكيف للمواقف الجديدة ، بينما التكيف هو القدرة العقلية الواقعية من حيث هى أساساً مرونة تسمح بمواجهة مواقف الحياة وخاصة الجديدة مستعينة بالقدرات المختلفة وخاصة الانفعالية منها .

تاريخ مقاييس الذكاء الإنسانى :

١ — كانت هناك محاولة لقياس الذكاء استناداً إلى قياس بعض الخصائص

البدنية كأبعاد الجمجمة . ولكن تبين حديثاً أن معامل الارتباط ضعيف جداً بين الذكاء ومثل هذه الخصائص البدنية .

٢ — بعد ذلك جاءت محاولة لقياس الذكاء استناداً إلى قياس بعض القدرات البسيطة حسية أو حركية أو عقلية، ولكن تبين قصور هذه العمليات البسيطة فى الكشف عن الذكاء . ومن هنا كان الاتجاه إلى العمليات العقلية العليا .

٣ — جاء « بينيه » فنظر إلى الفهم والإبداع والنقد الخ ، على أنها عمليات عقلية عليا تسمح بالكشف عن الذكاء . وكان هو أول من أتاح إمكانية هذا القياس . فانتهى بأن وضع لكل عمر زمنى مجموعة من الأسئلة تمثل متوسط الذكاء لهذا العمر . فطفل السادسة مثلا إذا أجاب إجابة صحيحة على مجموعة الأسئلة الخاصة بعمره الزمنى فهو متوسط الذكاء وإذا اقتدر على أن يجيب على أسئلة السابعة فيكون ذكاؤه أعلى من المتوسط وهكذا .

أجريت على المقياس جملة تعديلات وتنقيحات من أشهرها تنقيح « ترمان » عام ١٩٣٧ والذى يعرف باسم جامعته « ستانفورد » . وهذه الصورة المنقحة ترجمت إلى العربية مع التعديلات التى تقتضيها البيئة المصرية .

٤ — وبالنظر إلى قصور المقياس اللفظى فى بعض الحالات ظهرت مقاييس الأداء ومن أشهرها مقياس « بنتنر وباترسون » .

٥ — وبالنظر إلى صلاحية المقياس لفرد واحد فقط فى الوقت الواحد ظهرت مقاييس جمعية للذكاء من أشهرها مقياس الجيش الأمريكى « ألفا » اللفظى و« بيتا » الأدائى . وهناك مقاييس تصلح أن تكون فردية أو جمعية كمقياس « ميرا » الذى أعده القبانى بالعربية لتلاميذ المدارس الثانوية .

تعريف الذكاء — علاماته وعناصره المكونة :

١ — (ا) هو بصفة عامة القدرة على الفهم والإبداع .

(ب) عند « ترمان » الذكاء هو القدرة على التفكير المجرد .

(حـ) عند « شترن » الذكاء هو قدرة عقلية على التكيف للمواقف الجديدة. وكل هذا أقرب إلى العلامات الدالة والوظيفة منه إلى الطبيعة والبنية .

٢ — عند ثرستون « الذكاء هو بضع قدرات عقلية أولية . وكذلك عند « ثورندايك » . فليس هناك فى رأيه من « ذكاء عام » وإنما هناك قدرات خاصة مستقلة ، والمتوسط الحسابى لهذه القدرات هو مايسميه الناس بالذكاء.

٣ — عند « سبيرمان » الذكاء هو قدرة عامة بمعنى عامل عام يؤثر فى جميع الأنشطة العقلية المختلفة ويترجم عن نفسه فيها .

٤ — وهذا يعود بنا من جديد إلى مظاهر الذكاء ونتائجه بمعنى أن نتخذ تعريفاً أجرائياً أى عملياً بمعنى أن يشتمل التعريف على عناصر وعمليات محددة تسمح بإجراء الملاحظات والتجارب . فالذكاء هو ماتقيسه مقاييس الذكاء من عناصر وعمليات . ومقاييس الذكاء إنما تقيس ما يلى :

(ا) القدرة اللفظية والقدرة العددية والقدرة المكانية .

(ب) عمليات الإدراك والتذكر والتفكير .

(حـ) القدرة على استنباط العلاقات .

(د) المعارف السابقة والخبرات .

(هـ) القدرة على المثابرة فى سرعة .

مفاهيم أساسية في قياس الذكاء :

١ — العمر العقلي ونسبة الذكاء : عند تطبيق مقياس الذكاء يتحدد العمر العقلي أى مستوى الذكاء تبعاً لمجموعة الأسئلة التى ينجح الفرد فى الإجابة عليها . ولكن العمر العقلي لا يعنى شيئاً بغير الرجوع إلى العمر الزمنى . ومن هنا نقوم بقسمة العمر العقلي على العمر الزمنى ونضرب الناتج فى مائة تخلصا من الكسور . وبالتالى تدل مائة على الذكاء المتوسط ، وما يزيد عنها يدل على إرتفاع نسبة الذكاء والعكس صحيح .

ولقد كشفت المقاييس عن أن مستوى الذكاء ينمو سريعاً فى البداية ثم يمضى بمعدل ثابت حتى يبطىء عند سن١٣ ويتوقف عند سن ١٨ تقريباً . هذا عن العمر العقلي أى مستوى الذكاء . ولكن الإنتاج العقلي يضطرد فى الزيادة بفعل التعلم والخبرة خلال الحياة الراشدة . وكشفت المقاييس أيضاً عن أن نسبة الذكاء تظل ثابتة عند الفرد طوال حياته وأن حدث تغيير فإنه لا يجاوز عادة ١٠ درجات زيادة أو نقصاً . وباختصار فإن مستوى الذكاء متغير أما نسبة الذكاء فثابتة . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الذكاء فطرى أو هو على الأقل يكاد أن يكون كذلك فلا ينفتح كثيراً لتأثيرات البيئة .

٢ — الموهوبون وضعاف العقول : توزيع الذكاء يتبع منحنى التكرار الاعتدالى (منحنى الجرس) . فذكاء غالبية الناس متوسط مع قلة قليلة فى كل طرف ، (١ ٪ من الناس تقل نسبة ذكائهم عن ٦٠ و ١ ٪ من الناس تزيد نسبة ذكائهم عن ١٤٠) . ومن المتفق عليه عادة أن نسبة الذكاء حين تزيد على١٤٠ فهى ألمعية ، وما بين ١٢٠ — ١٤٠ فهى ذكاء عال وما بين ١١٠ — ١٢٠ ذكاء يزيد على المتوسط . أما الذكاء المتوسط فتكون النسبة فيه مابين ٩٠ — ١١٠ .

أما نسبة الذكاء ما بين ٨٠ — ٩٠ فذكاء دون المتوسط ، وما بين ٧٠ — ٨٠ غباء شديد . أما حين تقل نسبة الذكاء عن ٧٠ فيكون الضعف العقلى بمراتبه المختلفة فنسبة الذكاء حين تقل عن ٢٥ يكون صاحبها معتوها ، وحين تكون مابين ٢٥ — ٥٠ يكون صاحبها أبله ، وحين تكون مابين ٥٠ — ٧٠ يكون صاحبها أهوك .

أما العبقرى فمصطلح فنى يشير إلى قدرة الشخص على الإبداع العميق فى مجال من مجالات الحياة . ونسبة العباقرة حسب بعض الدراسات هى واحد فى المليون . ومن الناحية العملية ، وحتى تكون المنافسة مجدية ، فعادة ما تلجأ المدارس إلى عزل التلاميذ الموهوبين عن غيرهم . وعادة ما تشير نسبة الذكاء ابتداء من ١٣٠ فأكثر إلى الموهوبين .

أما ضعاف العقول فهم من الناحية العملية يعجزون عن متابعة التعليم ، ويعجزون بذلك عن تدبير شئون حياتهم دون إشراف .

فأما المعتوه idiot فيعجز حتى عن ضبط مثانته أو غسل يديه أو ارتداء ملابسه إلى آخر هذه الأفعال الإرادية ، ولغته لا تزيد عن بضع مقاطع صوتيه لاتسمح بالتفاهم . ومهما كبر فلا يزيد عمره العقلى عن طفل فى الثالثة .

وأما الأبله imbecile فيعجز عن تعلم القراءة وإن أقتدر على الكلام . ويعجز عن القيام بأى عمل ينطوى على مهارة بينما يقتدر على الأعمال البسيطة كتنظيف الأرض . ومهما كبر فلا يزيد عمره العقلى عن طفل فى السادسة .

أما الأهوك moron فيستطيع القيام ببعض الأعمال الآلية البسيطة التى تصل أحياناً إلى الكى وبعض صور النجارة كما يقتدر على شراء بعض

الأشياء . ولكنه يحتاج مع ذلك إلى شيء من الإشراف فى مجال العمل وفى الحياة بصورة عامة . فبغير هذا الإشراف يسيء التصرف فى ماله ويمكن أن ينجر إلى الفشل والسرقة أو البغاء تبعاً للجنس . ومهما كبر فلا يزيد عمره العقلى عن طفل الحادية عشرة — والأهوك لا ترجع حالته كما عند المعتوه والأبله إلى عيوب وراثية أو ولادية .

ثانيا: مقاييس القدرات الخاصة

مقدمة :

١ — القدرة مفهوم عام يشير إلى القدرة الفطرية أو المكتسبة ، إلى القدرة العامة أو الخاصة ، إلى القدرة البسيطة أو المركبة ، أما مفهوم الاستعداد فيشير إلى ماهو فطرى . فالاستعداد قدرة كامنة فطرية تصبح بالتعلم قدرة فعلية يمكن أن تبلغ حد المهارة .

٢ — تتوزع الاستعدادات فى أى مجتمع تبعاً لمنحنى التكرار الاعتدالى (منحنى الجرس) ، شأنها فى ذلك شأن الذكاء . والاستعدادات من حيث هى فطرية غالبا ما تحتاج إلى البيئة والتعلم حتى تبرز إلى حيز الواقع وإن كان التعلم كما قلنا لا يجدى إلا حين تتوفر الاستعدادات . فالحيوان لا يستطيع التعلم أن يبلغ به إلى الكلام ، والطفل عند تربيته بين الحيوانات لا يتكلم بطريقة تلقائية . وتستمتع الاستعدادات بدرجة غير قليلة من الاستقلال الذاتى تزداد عند الراشدين عنها عند الأطفال بتأثير التعلم والتمايز المطرد .

٣ — يمكن تصنيف القدرات إلى بدنية وحسية وحركية وعقلية واجتماعية الخ . . .

القدرة الميكانيكية :

١ — كشفت أبحاث التحليل العاملى عن وجود قدرة ميكانيكية عامة تؤثر فى مختلف الأنشطة الميكانيكية التى يقوم بها الفرد مما يعرف أحياناً بالذكاء الميكانيكى.

٢ — وبالإضافة إلى القدرة الميكانيكية العامة توجد ثلاث قدرات نوعية هى القدرة على التصور المكانى ، والقدرة على إدراك العلاقات المكانية ، والقدرة المعرفية من حيث هى معلومات ميكانيكية .

القدرات النفس — حركية :

١ — كشفت أبحاث التحليل العاملى عن عدم وجود قدرة عامة فى هذا المجال . وإنما هى قدرات نوعية مستقله إلى حد كبير فيما بينها بل ومستقلة عن الذكاء العام ، وعن القدرة الميكانيكية العامة ، وعن شكل اليدين أو أى أبعاد بدنية أخرى .

٢ — ولكن هناك عوامل نوعية أهمها : عامل التآزر النفس - حركى مما يشير إلى تآزر العضلات الكبرى مع التجربة الشعورية ، وعامل السرعة فى أداء حركات تترجم عن تآزر اليدين والعينين ، وعامل مهارة الأصابع من حيث هى قدرة على معالجة الأشياء فى دقة وسرعة .

القدرة الموسيقية :

١ — كشفت أبحاث « سيشور » عن أن القدرة الموسيقية تستند إلى ست قدرات أولية منها تمييز الأصوات من حيث الشدة أى الارتفاع والانخفاض ، وتعرف الإيقاع ، وتذكر الأنغام الخ . . .

٦ — هذه القدرات الست مستقلة بعضها عن بعض بل ومستقلة عن الذكاء العام .

مقاييس الذكاء ومقاييس القدرات الخاصة وتطبيقاتها

١ — مقاييس الذكاء كما رأينا تقيس القدرة العقلية العامة بقياسها لقدرات عقلية خاصة قياساً ينصب على عديد منها فى نفس الوقت . أما فى مقاييس القدرات الخاصة فإن المقياس ينصب على قدرة خاصة بعينها يتركز عليها المقياس فى مختلف جنباتها .

٢ — إن الذكاء كقدرة عقلية عامة ضرورى للنجاح فى الدراسات والمهن ولكنه لا يكفى فلابد معه فى كل مجال من توفر القدرة أو القدرات الخاصة بهذا المجال . ومن هنا فإن المصانع والجيوش والجامعات والمعاهد تستخدم مقاييس الذكاء مع مقاييس الاستعدادات ، ومقاييس القدرات الخاصة .

٣ — كشفت الدراسات عن تفوق الذكور فى بعض القدرات وتفوق الأناث فى بعض قدرات أخرى . ولكن من المحتمل أن تكون النتائج ترجمة عن التأثيرات الثقافية البيئية .

٤ — عادة ما تستخدم مقاييس الذكاء والاستعدادات والقدرات بل وأحيانا اختبارات الميول واختبارات الشخصية من أجل التوجيه التعليمى أو الاختيار التعليمى للتلاميذ .

٥ — حالات التخلف الدراسى هى الحالات التى تعجز عن متابعة الدراسة لا بسبب قصور الذكاء وأنما لأسباب بدنية أو نفسية أو بيئية ، مدرسية أو اجتماعية . ومن الأهمية هنا استخدام مقاييس التحصيل لتبين العمر الدراسى للحالة بمعنى أن تبين مستوى التحصيل بالقياس إلى تحصيل

التلميذ المتوسط من نفس عمره الزمنى . والفارق بين عمره الدراسى وعمره الزمنى يعبر عن مدى تخلفه . وعادة ما نقوم بقسمة العمر الدراسى على العمر الزمنى ونضرب الناتج فى مائة فيكون ما يعرف « بالنسبة الدراسية» .

٦ — عادة ما تستخدم مقاييس الذكاء والاستعدادات والقدرات الخاصة واختبارات الميول واختبارات الشخصية من أجل التوجيه والاختيار المهنى مما يسمح بمصالحة القدرات والرغبات مع الإمكانيات البيئيه على نحو يحقق سعادة الفرد وزيادة الإنتاج القومى . وعادة ما يتم الأمر بدراسة تحليلية للفرد تكشف عن قدراته المختلفة ، ودراسة تحليلية للمهن المختلفة من حيث ما تتطلبه كل واحدة من قدرات وسمات مختلفة الخ . . . وعملية التوجيه أو الاختيار تبعا للظروف تسمح بأن يكون الرجل الصحيح فى المكان الصحيح .

ثالثا — مقاييس الشخصية

ينبغى منذ البداية أن ننبه إلى أن الاختبار مصطلح عام يشير إلى صنفين متمايزين: أما الصنف الأول فهو المقاييس المقننة، وهى التى تستهدف التصنيف و « التفسير » وتستند أساسا إلى النزعة التجريبية . أما الصنف الثانى فيشير إلى الاختبارات الكلينيكية ، وهى طرائق تستخدم « لفهم » الشخصية دون أن تسمح أو تهتم بتحديد مكانها بالنسبة إلى مجموعة من الأفراد . والنزعة الكلينيكية تعنى الدراسة العميقة للحالات الفردية . فالكلينيكى لا يهتم أساسا بأقامة القوانين العامة ، وإنما بفهم شخصية بعينها فى اشتبا كها مع الحياة .

ومن أمثلة المقاييس المقننة للشخصية اختبار مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية MMPI ؛ ومن أشهر الاختبارات الإسقاطية اختبار الروورشاخ

وإختبار الإدراك الداخلي للموضوع T.A.T . وسنقتصر فى هذا المقام على تقديم صورة سريعة عن الصنف الأول بينما تتم معالجة القسم الثانى ضمن الحديث عن تطبيقات المنهج الكلينيكى (القسم الرابع) .

قياس الشخصية ومشكلاتها :

كان العلم فى الماضى يقوم على الوصف والتصنيف ليلصق بطاقة لفظية . فانتقل بالوسائل الرياضية — فى هذا المجال — إلى القياس والتصنيف ليلصق بطاقة رقمية . والقياس يستند أساسا إلى أن الأشياء المقاسة ومنها الأشخاص (؟ !) إنما تختلف فى صفاتها من الناحية الكمية .

غير أننا حين ننتقل إلى القياس النفسى ، فنقيس الشخصية مثلا ، فإننا لا نقيس الظاهرة مباشرة (كما نفعل مع المنضدة) وإنما نحن نقيس الشخصية عن طريق نتاجها ، عن طريق الأداء .

ولقد بدأ القياس النفسى بالقدرات العقلية فاحرز فيها نجاحا ، ولكنه عندما انتقل إلى الوحدة الكلية ، أى إلى الشخصية ، فإنه بدأ يتعثر فى تقدمه . ولم يكن هذا التعثر راجعاً فى أساسه — على نحو ما يتوهم البعض — إلى اختلافات تعاريف الشخصية . فإن الاختلاف حول تعريف الذكاء لم يعرقل تقدم مقاييس الذكاء . بل كان التعثر راجعاً هنا إلى محاولة إقامة الشخصية إبتداء من أجزائها ، سماتها أو أبعادها (راجع وحدة علم النفس ونظرية الجشطلت) بينما لم تتعثر الاختبارات الكلينيكية الطابع فيما استهدفته من فهم الشخصية ضمن مجالها ومن حيث هى وحدة كلية متمايزة . ذلك أن المقاييس تقصر حتى عن الإحاطة بهذه العناصر الأولية التى تبحث عنها . ولو سلمنا جدلا بأن هذه العناصر قد توفرت فإنه يستحيل علينا ، ابتداء من العناصر المحددة الجزئية ، أن نقيم الكل العضوى . ذلك أن الكل العضوى إنما يعطى وجوده فى نفس الوقت مع الأجزاء ، وهذه الأجزاء لا تتحدد

بصورة قبلية ، وإنما ضمن الكل وبالرجوع إليه . ومع ذلك فقد تعددت المقاييس التى تحاول قياس النواحى المختلفة للشخصية ، كالاتجاهات والميول والقيم والتكيف ، محاولة ما أمكن أن تتجه بالقياس إلى وحدات طبيعية أى إلى وحدات كلية فرعية يستمتع كيانها باستقلال ذاتى نسبى ضمن الوحدة الكلية للشخصية .

أمثلة من اختبارات الشخصية

أولا : اختبار منيسوتا المتعدد الأوجه لقياس الشخصية MMPI

يستند هذا الاختبار إلى التقييم الذاتى ، بمعنى أن يضطلع الشخص بتقييم جوانب مختلفة من شخصيته تقيما يترجم فى درجات تعين على رسم لوحة نفسية لأوجه شخصيته . ويشتمل الاختبار على ٥٥٠ عبارة تكاد تنسحب على جميع المجالات وتستقصى مختلف الاتجاهات . وينبغى التنبه إلى أن للاختبار صورة جمعية تشتمل على ٥٦٦ عبارة إذ تتكرر فيها ١٦ عبارة لأسباب فنية . وهذه العبارات أو الأسئلة مصنفة فى عشرة أقسام كلينيكية هى :

١ — توهم المرض (الهيبوكوندريا) : « تؤلمنى عيناى إذا قرأت كثيراً » ، « أشعر أحياناً بضيق فى التنفس » .

٢ — الاكتئاب : (قلق وعدم ثقة بالنفس وضيق فى الاهتمامات) : « الحياة لا قيمة لها بالنسبة لى » ، « لا أهتم بما يدور حولى » .

٣ — الانطواء : « أتحاشى الجماهير قدر استطاعتى » ، « أبذل مجهودا كبيرا لأخفى خجلى » .

٤ — السيكوباتية : (نقص فى الاستجابة الانفعالية وعدم إفادة من

الخبرة وعدم اهتمام بالمعايير الاجتماعية) : « لا يهمني مايظنه الناس عني » ؛ « أتحمل المسئولية مدة طويلة وانفض يدي منها فجأة » .

٥ — الجنسيات (الذكورة — الأنوثة) : ويكشف الاختبار عن مدى توفر سمة الأنوثة في الرجال وعن اهتمامات النساء الخ .

٦ — السيكاستنيا : (مخاوف مرضية وحصار) : «أخاف أحيانا من أشياء لا تضرني » ، «تنتابني أحيانا نوبات من الضحك والبكاء لا أستطيع أن أقاومها » .

٧ — الهستيريا : « أبكي أحيانا دون سبب » ، «أشكو من القيء والغثيان » .

٨ — الهوس : « أشعر برغبة في القيام بعمل مثير حين ينتابني السأم » ، « تتوارد الأفكار في ذهني أكثر مما أستطيع أن أعبر عنه » .

٩ — البارانويا : (تشكك وحساسية مسرفة لنقد الآخرين) : «أعتقد أن هنالك من يتتبعني » ، « لو لم يضمر لي الناس العداوة لكنت أكثر نجاحاً » .

١٠ — الفصام : (تفكك وخلط وهلوسات إدراكية) : « أجد صعوبة في تركيز فكري » ، « يبدو أحياناً أن عقلي يعمل ببطء » .

(الترجمة العربية : إعداد عطية هنا وعماد إسماعيل ولويس كامل — مكتبة النهضة) .

ثانيا : اختبار برنرويتر للشخصية Bernreuter Personslity Inventory

هو مقياس أنشأه برنرويتر عام ١٩٣٢ وهو يكشف عن العصابية والاعتماد على الذات وعن الانطوائية والانبساطية، وعن السيطرة والإذعان.

ويتكون من ١٢٥ سؤالا ويجاب عن كل سؤال بنعم أو لا أو لا أدرى . ومن أمثلة أسئلته :

« هل تميل إلى الرياضة أكثر مما تميل إلى الأمور الفكرية ؟ »

« هل يكثر ورود الأفكار إلى رأسك لدرجة تمنعك من النوم ؟ »

« هل تتجنب استشارة غيرك عادة ؟ »

ثالثا : اختبار الميول المهنية للرجال Vocational Interest Blank for Men

أنشأه سترونج E. K. Strong (الترجمة العربية للدكتور عطية هنا) . وتوجد صورة أخرى خاصة بالنساء . ويشتمل الاختبار على أقسام عديدة منها قسم يتعلق بالمهن وقسم بالمواد الدراسية وقسم يتعلق بأنواع النشاط وقسم يتعلق بالمفاضلة بين عملين .

ففى القسم الأول المتعلق بالمهن يتحتم على الشخص أن يحدد موقفه من كل مهنة مذكورة فى الجدول بوضع علامة (صـــح) أمام التقدير الذى يختاره من بين هذه التقديرات الثلاث : أحب الاشتغال بها — لا أهتم بها — لا أحب الاشتغال بها . والمهن الواردة هى : ممثل مسرحى — مشتغل بالاعلان عن البضائع — مهندس معمارى — ضابط بالجيش — فنان .

رابعا : اختبار وودورث للشخصية (١٩١٧)

Personel Data Sheet (Woodworth)

أنشىء هذا الاختبار لتبين الأفراد الذين لا تمكنهم درجة ثباتهم الانفعالى من الخدمة العسكرية فى الجيش الأمريكى حتى يعزلوا . وهو يتكون من ١١٦ سؤالا وعلى الشخص أن يجيب عن كل منها بنعم أو لا . ومن أمثلة الأسئلة الواردة فيه : هل تصاب بالصداع الشديد كثيراً ؟ هل كانت طفولتك سعيدة ؟ هل تشعر أحيانا برغبة فى إشعال النار فى شىء ما؟

هل كان أحد أقربائك مجنونا أو ضعيف العقل أو مصابا بالصرع ؟

وقد تعرض هذا الاختبار لعدة تعديلات فيما بعد .

خامسا : اختبار الشخصية لثرستون وثرستون : Personality Schedule

وضع هذا المقياس عام ١٩٤٧ وهو يتكون من ٢٢٣ سؤالا ، يجاب على كل منها بنعم أو لا أو لا أدرى . وهدفه أيضاً هو الكشف عن النزعات العصابية وتحديدها لدى الفرد .

ومن أمثلة الأسئلة الواردة فيه : هل « تسرح » بدرجة تنسى معها ما تقوم به ؟ هل تشعر عادة بأنك تعس ؟

سادسا : اختبار جيلفورد لعوامل الشخصية :

(١) قائمة العوامل Inventory of Factors TDCR

(ب) قائمة العوامل GAMIN

والقائمة الأولى تستهدف خاصة الكشف عن الانطوائية والانبساطية فى المجالات الاجتماعية والعقلية والانفعالية . أما الثانية فتنصب خاصة على الذكورة والأنوثة والسيطرة والخنوع والشعور بالدونية والعصبية .

وقد قام جيلفورد وزيمرمان استنادا إلى الاختبارين السابقين وإلى اختبار آخر بوضع اختبار « جيلفورد — زمرمان للمسح المزاجى » Temperamental Survey وهو يتكون من ٣٠٠ سؤال ويقيس عشر سمات للشخصية .

سابعا : مقياس ترمان للعوامل النفسية فى السعادة الزوجية :

Terman Psychological Factors in Marital Happiness

أنشأه ترمان للكشف عما ستكون عليه الحياة الزوجية من سعادة عند

الزواج . ولقد استند فى إنشاء هذا المقياس إلى دراسة مقارنة لاستخبار أجرى على مجموعتين : مجموعة من الأزواج والزوجات السعداء . ومجموعة من الأزواج والزوجات غير السعداء . ثم استخلص من ذلك أسئلة مقياسه. ثم قام بتحديد مدى ارتباطها مع البيانات الخاصة بالفرد قبل الزواج ومع التكيف الجنسى بين الزوجين ومع بعض اختبارات الشخصية من قبيل اختبار برنرويتر .

ثامنا : اختبار الشخصية (لشبلى وجراهام)

Personal Inventory (Shipley and Graham)

وضع هذا الاختبار أثناء الحرب العالمية الثانية لتتمكن به البحرية الأمريكية من استبعاد الحالات العصابية من الخدمة . ويشتمل الاختبار على ٤٥ سؤالا . وتوجد أيضاً صورة مختصرة للاختبار تتألف من ٢٠ سؤالا.

تاسعا : اختبار روجرز للأطفال (من ٩ — ١٦ سنة) :

وهو يكشف عن ١ — مدى شعور الطفل بالدونية ٢ — مدى تمسكه بالواقعية أو إغراقه فى أحلام اليقظة ٣ — مدى تكيفه الأسرى ٤ — مدى تكيفه الاجتماعى . والاختبار فردى وجمعى . (الصورة العربية إعداد : د . مصطفى فهمى — دار مصر للطباعة بالفجالة) .

أمثلة من الاختبارات الإسقاطية

أن الحديث عن الاختبارات الإسقاطية بإسهاب هو فى مجال « تطبيق المنهج الكلينيكى » ولكن البعض يرى إدخالها ضمن قائمة مقاييس الشخصية وإن لم تضطلع بالقياس أو بتحديد مكان الفرد من جماعته. ومن ثم فقد رأينا أن نذكر هنا أمثلة للاختبارات الإسقاطية باختصار فى هذا المقام مما يستخدم فى حالات الأطفال أو فى حالات الراشدين :

أولاً : اختبار ليديا جاكسون لقياس الاتجاهات العائلية

اختبار إسقاطي للأطفال (من ٦ — ١٢) يتكون من سبع لوحات وخلف كل صورة أسئلة استيضاحية .

ثانياً . اختبار تأويل الموضوع للأطفال : C . A . T .

اختبار إسقاطي للأطفال (من ٣ — ١٠) يشتمل على عشر لوحات ترمز فيها الحيوانات للمواقف الانفعالية الهامة .

١ — كتاكيت حول مائدة الطعام ودجاجة فى الخلف .

٢ — دبان يشدان حبلا بينهما ودب صغير بجانب أحد الدبين .

٣ — أسد بيده بيبه وفأر يطل من جحر .

٤ — كنجارو كبير يحمل زجاجة لبن وكنجارو صغير معه بالونة وآخر أكبر يركب دراجة .

٥ — سرير كبير وآخر صغير به دبان صغيران .

٦ — دبان كبيران فى نهاية الكهف وفى المقدمة دب صغير .

٧ — نمر يثب على قرد يقفز بدوره فى الهواء .

٨ — قردان كبيران يتناولان الشاى . وفى المقدمة قرد كبير يتحدث مع قرد صغير .

٩ — حجرة مظلمة بها أرنب صغير ينظر من خلال الباب إلى غرفة أخرى .

١٠ — كلب صغير يجلس على ركبتى كلب كبير ومن ورائهما دورة المياه .

فى تحليل القصة نضع فى اعتبارنا طبيعة القصة والأحداث والشخصيات التى يقدمها الطفل والنهاية التى يعطيها للقصة ، كما نهتم بالمشاعر والآمال

والمخاوف التى تدخل متصلة بنوعية الموقف الذى يبتدعه الطفل . هذا إلى محاولة الكشف عن تطابقه مع شخصية البطل أو شخصيات أخرى واتجاهه من الآب والأم والأخوة والأصدقاء والآخرين واتجاهه من مشكلات الحياة ومجالاتها كالعمل والزواج والدراسة واللعب الخ . ناهيك عن الموضوعات والشخصيات الموجودة فى الصورة التى يستبعدها الطفل وأشكال القلق وأساليب الدفاع من تجنب وهروب أو عدوان أو محاولات للتوافق، ومدى ملاءمة العقوبة للفعل الذى أتاه البطل بما يكشف عن مدى نمو الأنا العليا أو وجود مشاعر الإثم . ولنتنبه إلى أن النهاية لكل قصة تتصل بنوعية الموقف فلا يجوز جمعها لاستخلاص اتجاه عام . ومهما يكن فنهاية القصة تعبر عن الأنا ومدى فعاليتها . هذا إلى التحليل الشكلى للأسلوب والكلمات المنتقاة والمتكررة الخ . .

ثالثا: اختبار تأويل الموضوع (للبالغين). T . A . T (الإدراك الداخلى)

لوحات عددها ثلاثون ولوحة بيضاء بعضها للراشدين من الجنسين وبعضها للأطفال وبعضها للذكور وبعضها للأناث من جميع الأعمار:

١ — الولد والكمان : موقفه من آلته ومن الرغبة فى النجاح والوسيلة إليه .

٢ — الموقف من الأسرة وقيمها ومدى محافظتها الخ .

٣ — لجميع الذكور : الجاثى على ركبتيه . لجميع الأناث : الشابة المستندة إلى الحائط (يأس واكتئاب) .

٤ — العلاقة بين الرجل والمرأة والخيانة وغواية الجنس .

٥ — إمرأة ترقب من الباب داخل غرفة ، (أسرار) .

٦ — لجميع الذكور : الموقف من الأم . لجميع الأناث : الموقف من الأب .

٧ — لجميع الذكور : الموقف من الأب . لجميع الأناث : الموقف من الأم .

٨ — لجميع الذكور : عدوان وطموح . لجميع الأناث : تأملات أنثوية .

٩ — لجميع الذكور : الاتجاه من الآخرين والجنسية المثلية : لجميع الأناث : الموقف من المرأة الأخرى ، غيرة أو مثلية .

١٠ — الرجل والمرأة فى حنان .

١١ — القلق .

١٢ — للرجال : الرجل فى علاقته بالرجل والسلبية . للإناث : المرأة فى علاقتها بالمرأة الأكبر سنا . لجميع الأطفال : القارب، تفاؤل وإقبال على الحياة .

١٣ — الرجال والنساء : العلاقة الجنسية والإثم . للأطفال الذكور : مشاعر الوحدة . الأطفال الإناث : الموقف من الإعلاء .

١٤ — تأملات ومشاعر غائرة .

١٥ — الموقف من الموت وأمنية الموت .

١٦ — اللوحة البيضاء .

١٧ — لجميع الذكور : مغامرات ، لجميع الأناث : مغامرات

١٨ — لجميع الذكور : عدوانية مفاجئة . لجميع الإناث : عدوانية مفاجئة .

١٩ — قلق .

٢٠ — الانتظار تحت المصباح : عدوانيات وجنسيات .

تصنيف عملى :

القلق : لوحة ١١ ، ١٩ — الموقف من الأب والأم : لوحة ٦، ٧ —

الجنسية المثلية : لوحة ٩ ، ١٢ — الجنسية الغيرية : لوحة ٤، ١٠ ، ١٣ — مغامرات وعدوانية مفاجئة : ٨ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ — الموت والإقبال على الحياة : ١٢ ، ١٥ — جنسيات وعاطفة : ١ ، ٤ ، ١٠ ، ١٣ — الأسرة والقيم والطفولة : ١ ، ٢ ، ١٣ — الأسرار : ٣ ، ٥ ، ١٤ .

رابعا : مقاييس التحصيل

كانت الامتحانات التقليدية تنطوى على غير قليل من العيوب وعلى الأخص ما يتصل منها بإدخال عوامل من شأنها أن تؤثر على النتيجة دون أن تكون لها صلة مباشرة بالتحصيل ، وذلك من قبيل ١ — طريقة صياغة السؤال ٢ — توقف حل المسألة على خطوات تكون الأولى منها ملتبسة أو معقدة . ومن هنا كان اتجاه رجال التربية إلى العدول عن هذه الامتحانات إلى الاختبارات الموضوعة ، المعروفة بالمقاييس التحصيلية .

وامتحانات التحصيل وسيلة من الوسائل الهامة فى تقييم العملية التربوية . ولكنها كما نعلم ليست الوسيلة الوحيدة فهنالك البطاقة الشخصية والمقاييس المقننة والمقابلة الشخصية والقياس الاجتماعى وما إلى ذلك .

والاختبارات التحصيلية الموضوعية لا تقتصر على قياس مدى ما تم تحصيله من المادة الدراسية، وإنما تقيس أيضاً مدى فهم التلميذ للمعلومات ومدى قدرته على الربط بينها والانتفاع بها فى الحياة ، هذا إلى تبين أسلوبه فى التفكير وقدرته على النقد والتمحيص .

واختبارات التحصيل الموضوعية تختلف عن الامتحانات التقليدية ليس فقط من حيث هدفها وإنما أيضا من حيث صياغتها وطريقة الإجابة والتصحيح والإفادة من النتائج .

(أ) طريقة الصياغة :

كانت الأسئلة فى الامتحانات التقليدية قليلة العدد لا تغطى مسطح

التحصيل وكان تقدير صعوبتها أو سهولتها مسألة ذاتيـــة . أما اختبارات التحصيل الموضوعية فأسئلتها كثيرة قد تصل فى العدد إلى ١٠٠ ويتم التأكد من ملاءمتها من حيث درجة الصعوبة وذلك بتجربتها على عينة ممثلة من التلاميذ .

(ب) طريقة الإجابة :

كانت الامتحانات تتطلب إجابة مركبة من خطوات متتابعة ، بحيث قد يستتبع الخطأ فى إحداها استمرار الخطأ . أما الاختبارات الموضوعية فهى تتطلب إجابة قصيرة بل كلمة أو علامة . هذا إلى استقلال الإجابات بحيث لا يؤدى الخطأ فى إحداها إلى الخطأ فى أخرى . هذا إلى تدرج الأسئلة من حيث الصعوبة .

(حـ) طريقة التصحيح :

كان التصحيح فى الامتحانات عملية تقدير ذاتية ، فأصبح التصحيح فى اختبارات التحصيل عملية موضوعية بسيطة يمكن أن يضطلع بها أى شخص يملك مفتاح الإجابة .

(د) الإفادة من النتائج :

كانت حدود النجاح والرسوب فى الامتحانات التقليدية ذاتية، فأصبحت فى اختبارات التحصيل مستندة إلى معيار ثابت يوضح مراتب النجاح وييسر المقارنة ما بين التلاميذ .

وحدات القياس فى الاختبارات التحصيلية :

كانت الدرجات الخام فى الامتحانات تتحول إلى ترتيب لا تبين معه مدى المسافة الفاصلة بين ترتيب وآخر . أما فى الاختبارات الموضوعية للتحصيل فإن الدرجات الأصلية تتحول إلى درجات معيارية (بعد حساب المتوسط والانحراف المعيارى) . وحين يتم ذلك على عينة ممثلة يصبح الاختبار

التحصيلى مقننا فلا تحتاج فيما بعد إلى إعادة حساب الانحراف المعيارى . بل إن بعض الاختبارات المقننة يمكن فيها تحويل الدرجات إلى ما يقابلها من العمر التحصيلى . وبالرجوع إلى العمر العقلى للتلميذ يمكن أن تتبين مستوى تحصيله على وجه الدقة .

إعداد اختبار التحصيل الموضوعى :

يمر إعداد هذا الاختبار بالخطوات التالية :

١ — تحديد الهدف : بمعنى الناحية المراد قياسها ونوع التلاميذ الذين سيطبق عليهم .

٢ — تخطيط المضمون : بمعنى تحديد محتويات الاختبار ، ويتم ذلك بتحليل موضوعات المنهج وبيان أوزانها النسبية وذلك من زاوية الهدف ، مع الاستعانة بآراء الخبراء والمختصين فى ذلك .

٣ — صياغة الأسئلة وترتيبها : بعد تحديد مضمون الاختبار تتم صياغة الأسئلة وذلك فى صورة من صور الأسئلة الموضوعية المعروفة (بيان الصواب والخطأ — الاختيار من بين إجابات متعددة — إكمال الجمل — مزاوجة العناصر — الترتيب الخ . .)

ويجرى بعد ذلك ترتيب الأسئلة تبعاً للهدف. فقد يكون الترتيب تبعاً لتزايد الصعوبة ، أو تبعاً لوحدات المادة الخ . .

٤ — وضع التعليمات ومفتاح الإجابة : وذلك لبيان طريقة الإجابة ومكانها (تعطى عادة أمثلة توضيحية لذلك) وبيان الزمن المحدد الخ . . ثم يتم إعداد نموذج بالإجابات الصحيحة والدرجة التى تعطى لكل منها بحيث يقتدر أى شخص على تصحيح الاختبار .

٥ — تجريب الاختبار وتعديله : وذلك على عينة ممثلة ، ثم يتم تحليل النتائج بالطرق الإحصائية وعادة ما يقتضى الأمر تعديل الاختبار .

٦ — تقنين الاختبار : بمعنى التحقق من ثبات الاختبار وصحته، وذلك لإتمام تقنينه وإعداده فى الصورة النهائية .

٧ — عمل معيار للاختبار : بمعنى تحديد المستويات الملائمة للأعمار المختلفة ، وتحديد الدرجات التي يحصل عليها متوسط كل عمر ، ويتم ذلك بالطرق الإحصائية مما يعين على تحويل الدرجات إلى الأعمار التحصيلية المقابلة لها .

وبديهى أن اختبار التحصيل الموضوعى الجيد ينبغى بالإضافة إلى الصحة والثبات أن يكون سهلا فى تطبيقه والإفادة من نتائجه .

(وثمة أمثلة توضيحية عديدة لأسئلة التحصيل الموضوعيـــة يمكن الرجوع إليها فى كتاب : اختبارات التحصيل الموضوعية للدكتور محمد خليفة بركات وآخرين ، ص ٣١ وما يليها) .

خامسا : التقويم (١)

مقدمة :

أن التربية ، كما يعرفها علماء التربية ، إنما تنحصر فى إحداث التعديلات وتوجيه التغيرات بما يحقق الاتجاهات المواتية فى حقل التربية والتعليم . ومن هنا فإن العملية التربوية تضطلع بتحديد الأهداف والوسائل المؤدية إليها ثم تعمد بين حين وحين إلى تقويم ما تمخضت عنه هذه الوسائل مما يسمح بإدخال التعديلات الملائمة فى الوسائل بل وأحيانا فى الأهداف .

فتقويم العمل المدرسي لن يكون غير تطبيق للطرائق المستخدمة فى علم النفس القياسى وعلم النفس الكلينيكى ، وذلك ضمن الحقل المدرسى . ونحن إذا كنا نستخدم هذا التعبير ، تعبير الحقل المدرسى ، فما ذلك إلا لننبه إلى خطورة ما يتوهمه البعض من أن التلاميذ أو المدرسين أو النظار فئات

(١) التقويم معناه تحديد القيمة .

جامدة وأنماط قوالب . فليس هنالك نمط قالب للتلميذ أو نمط قالب للمدرس بحيث يكون سائر التلاميذ أو سائر المدرسين مجرد تكرار لنسخة أصل ، وإنما هنالك حقل مدرسى تضطلع فيه كل شخصية بدور اجتماعى محدد هو دور التلميذ أو دور المدرس . والشخصية فى حالة التلميذ وإن كانت لها فرديتها الأصيلة فإنها تتميز مع ذلك بما تشترك فيه مع غيرها فى سن معينة وفى حقل بعينه ، من خصائص خاصة . وكذلك الحال بالنسبة إلى شخصية المدرس ، فهى وإن كان لها ولا شك إسهامها الأساسى فيما تضيفه من تأويل على دور المدرس من حيث هو دور اجتماعى[1] ، فإنها تخضع مع ذلك إلى حد كبير للقيود التى يفرضها الدور فيضيق بها من هامش حريته وتلقائيته . ولو أردنا التعبير عن هذا الأمر فى صورة أدق لقلنا أن هذه الحرية والتلقائية رغم وجودهما فإنه يتحتم عليهما أن ينطلقا بين حافتى مجرى مرسوم .

وهكذا فإذا تكلمنا فى هذا المجال لغة التربيه وتحدثنا عن التلميذ وعن المدرس وعن الناظر فلا ينبغى بحال أن يغيب عن الأذهان أننا لا نتكلم عن أنماط جامدة وإنما عن عناصر متغيرة ضمن حقل سيكولوجى . كما لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان أنه يستحيل علينا أن نضطلع بتحديد قيمة الجزء أو دلالته أو نبلغ إلى فهمه إلا إذا تبينا التبعية والتبعية المتبادلة التى تربطه بسائر عناصر الحقل وبالكل الذى ينتسب إليه . فالتلميذ هو ما هو عليه ليس فحسب بالنسبة إلى تلاميذ الفصل والحقل المدرسى الذى ينتسب إليه ، وإنما أيضاً بالنسبة إلى الجو المعنوى الذى يحققه المدرس ، وهو بدوره جهاز فرعى يندرج ضمن الجو المعنوى العام الذى يضطلع الناظر بتحديد خطوطه الرئيسية والمدرس لا يخرج على هذه القاعدة . فهو ما هو عليه ليس فحسب بالنظر إلى شبكة العلاقات الاجتماعية لهيئة التدريس والتى يحتل منها — بلغة مورينو — مكان الذرة الاجتماعية كنقطة تصدر عنها وتتجه إليها علاقات

---

(١) أنظر صلة الشخصية بالدور فى تحديدها للسلوك العيانى للفرد ، المدخل إلى علم النفس الإجتماعى ، فصل دينامية الجماعة (الأنجلو) .

من المحبة والنفور ، وإنما أيضاً بالنظر إلى تلاميذه ومدى ما يسبغونه على رئاسته من سمات الزعامة . والأمر لا يقف عند الحقل الحالى بمختلف مجالاته الفرعية ووحداته الكلية المتناهية فى الصغر إلى حد « الشلة » أو الشخصية الفردية ، وإنما يتعداه إلى الحقل الزمنى . فالزمن لا يمكن إغفاله . والحاضر لا يمكن أن يتضح تمام الاتضاح إلا حين ننظر إليه كنقطة تواصل للماضى . ومن هنا فإن ما نسميه التلميذ ليس غير انتثار فردى فريد لعناصر حقل حالى يمتد بحدوده إلى أبعاد السطح الثقافى القومى كله ، مارا بحقول الأسرة والحى وجماعات أنشطته المختلفة ، وهو فى الوقت نفسه يمثل الوجه الحالى البادى « لتاريخ حياة » . وباختصار فإن الجزء هو ماهو عليه بالرجوع إلى الكل الذى ينتسب إليه (أنظر قانون العضوية فى نظرية الجشطلت) .

ضرورة التقويم ومفهومه :

يمكن تشبيه عملية التقويم بوقفة التساؤل التى يقفها المثال بعدما يفرغ من مرحلة بعينها ليسائل نفسه ما إن كان ماضياً فى الطريق التى ستنتهى به إلى الهدف الذى ينشده . وقد ينتهى من تساؤله إلى غير قليل من التعديل ، وقد يبدأ العمل من جديد ، بل قد يتحول عن هدفه إلى هدف آخر يتكشف له عبر العمل .

وبديهى أن التقويم يتطلب من ناحية وجود أهداف محددة ومن ناحية أخرى توفر معايير أو مقاييس تسمح بالكشف عن مدى تحقق هذه الأهداف ، وبالتالى عن مدى فاعلية الوسائل التى استخدمت من أجل ذلك .

وهذا التقويم لا يقتصر فحسب على مختلف الوسائل التى استخدمت من مناهج وطرائق خاصة فى التدريس ، ووسائل إيضاح معينة ، وإمكانيات مادية فى المدرسة ، وجو معنوى ، وإنما ينصب على الأخص على تقويم التلاميذ والمدرسين والإدارة بناظرها ومفتشيها .

وعادة ما يميل علماء التربية إلى إلقاء مهمة الاضطلاع بهذا التقويم على كل من يشترك فى العملية التربوية ، وتلك ولا شك ضرورة تفرضها عليهم طبيعة عملهم ولكننا مع ذلك حين نتعمق الأمر نجد أن طبيعة أعمالهم تفرض على عملية التقويم هذه أن تكون شكلية بل وذاتية وبعيدة عن التخصص . ونظرة واحدة إلى ثبت الأعمال التى يكلف بها المدرس مثلا ترينا أن الجهد الذى يستطيع أن يفيض عنه ليخصصه لهذه العملية التربوية — عملية التقويم — إنما يقضى عليها بأن تكون مجرد تسديد للشكليات . ناهيك عن أن إحاطته بعلم النفس لا تتيح له أن يبلغ من ذلك إلى التطبيق الصحيح للمقاييس واستخلاص ما تنطوى عليه نتائجها ، والتنبه إلى ما يكمن وراء المعطيات الكلينيكية . وعليه فالمشكلة فى تقديرنا إنما تتطلب المتخصص المتفرغ لهذا العمل .

كانت الامتحانات هى الوسيلة الوحيدة لتقويم التلاميذ والمدرسين والناظر والمدرسة والمنهج والطريقة ؛ مما كان يستند أساسا إلى فهم قاصر للعملية التربوية على أنها مجرد « تعليم لمعارف » واستيعاب لقدر بعينه من المعلومات ، ولكن تغير هذا المفهوم فاتخذت المعارف مكانها ضمن العملية الكلية ، عملية « التربية » . لم يعد الهدف مجرد حشد « للمعارف » ، وإنما أصبح هو « التربية » من حيث هى إتاحة الظروف التى تعمل على ازدهار عملية النمو بجوانبها المختلفة عقلية وبدنية ووجدانية واجتماعية .

وسنتناول هنا بعض جوانب عملية التقويم .

تقويم التلاميذ :

التلميذ هو موضوع العملية التربوية . ومن هنا فلابد وأن تكون الأهداف والوسائل من مناهج وتكنيكات وطرائق ، ملائمة لشخصيته وظروف بيئته .

والبطاقة المدرسية هي خير وسيلة يستعان بها فى تقويم شخصية التلميذ وتتبع جوانبها المختلفة وما يطرأ عليها من تطور أثناء فترة الدراسة .

وهذه البطاقة هى أشبه شيء بسجل للجوانب المختلفة لشخصية التلميذ . وتشتمل على عدة أقسام ، القسم الأول يختص بالنمو الجسمى والصحة العامة بما فى ذلك الأمراض وأشكال القصور . . الخ والقسم الثانى يختص بالجوانب العقلية بما تشمل عليه من نتائج مقاييس الذكاء ومقاييس القدرات والملاحظات الكلينيكية المتصلة بها. وقسم ثالث يختص بالنواحى التحصيلية وهو بمثابة تطوير لفكرة الامتحانات القديمة حيث تضطلع المقاييس التحصيلية المقننة بقياس التحصيل الدراسى فى المواد الدراسية المختلفة . وقسم رابع يختص بالصفات المزاجية والخلقية فيثبت نتائج مقاييس الاتجاهات والميول والسمات المميزة للشخصية .وقسم خامس يختص بقياس العلاقات الاجتماعية وذلك عن طريق القياس السوسيومترى لتحديد مكان التلميذ ودوره فى شبكة العلاقات الاجتماعية (١)، وأيضاً بتحديد اتجاهات التلميذ من المدرسين والمدرسة من حيث درجة الإقبال والإعراض . والقسم السادس يختص بتاريخ حياة التلميذ فيتناول أبويه وأخوته وعلاقاته بهم وظروف النشأة الأولى وما يليها حتى الوقت الحاضر مع التنبه إلى مختلف العوامل البيئية الهامة — ثقافية واقتصادية واجتماعية — التى أثرت فى التربية . ومن هنا تبرز أهمية المتخصص الذى يتفرغ لهذا العمل فيتتبع نتائج الفحوص الطبية والاختبارات التحصيلية ويطبق المقاييس ويجمع الملاحظات الكلينيكية ويستخلص ما تنطوى عليه ويقترح مايراه من حلول ويحيل الحالات النفسية وحالات الاضطراب التى تستعصى عليه إلى العيادة السيكولوجية .

وليس من شك فى أن البطاقة المدرسية تقدم صورة صادقة عن شخصية

---

(١) راجع المنهج السوسيومترى فى كتاب «المدخل إلى علم النفس الاجتماعى» : الفصل الخاص بدينامية الجماعة . (الأنجلو) .

التلميذ وإمكانياته مما يسمح بتوجيهه من النواحي التعليمية والمهنية والاجتماعية وتهيئة خير الظروف الممكنة لازدهار إمكانياته .

تقويم المدرس:

ليس من شك في أن تقويم المدرس يتيح له في الحدود الممكنة أن يعدل من اتجاهاته ونظراته ومسالكه مما يجعله أكثر تكيفاً لدوره كما يتيح للإدارة التعليمية أن تفيد من إمكانياته على أحسن نحو .

وينبغي ألا يغيب عن الذهن أن المدرس معلم ومرب . فهو يعلم مادة بعينها ، بمعنى أنه يقدم جملة من المعارف المتخصصة إلى تلاميذه على النحو الذي يسمح لهم بإساغتها، ولكنه في نفس الوقت يضطلع بدور المربي إذ ينزل من التلاميذ منزلة الوجه الأبوي ومن ثم يطرحون عليه وينقلون إليه ما كان ومالهم من اتجاهات تجاه الأبوين . هذا إلى أنهم يتطابقون معه في الحالة السوية ، ويضطلعون بمباطنة الكثير من قيمه وأحكامه ونظراته مما يتمخض عن تعديلات عميقة في شخصياتهم وميولهم. فما أكثر الحالات التي يقبل فيها التلاميذ على مادة من المواد بدافع من تعلقهم بالمدرس واعتزازهم بشخصه . وما أكثر الحالات التي ينفر فيها التلاميذ من مادة من المواد معدة على أحسن نحو وأكمله ولكنها تصدر عن شخصية لا تنزل من نفسهم منزلة التقدير . ومن هنا يمكن القول بأن المادة العلمية للمدرس إنما هي جزء تتحدد قيمته ودلالته وفاعليته بالرجوع إلى الكل الذي تنتسب إليه ، ونعني شخصية المدرس . ومعنى هذا أن المدرس يطبع المادة العلمية بشخصيته . والاتزان الانفعالي للمدرس ينعكس ولا شك على تلاميذه . فالمدرس المستبد يفرض على تلاميذه الأدوار المتممة والمشابهة . فهم يذعنون له ويمارسون الاستبداد متى واتتهم فرصة الرئاسة . وهكذا يستقر مفهومهم للسلطة واتجاههم منها. أما المدرس الذي يفتح صدره للمناقشة

ويحاول الإقناع بالمنطق والحجة إنمـــا يأخذ عنه تلاميذه هذه الطريقة ، فلا يستبدون بأمر وإنما يرجعون فيه إلى ما يقضى به المنطق السليم .

مثل هذا المدرس إذ يغرس الديمقراطية فى تلاميذه أنما يضطلع بعمل أبعد فى خطورته من تدريس العديد من المواد العلمية . ومن هنا يتضح لنا تعسف الطريقة العتيقة حين تضطلع بتقويم المدرس استناداً إلى نتائج تلاميذه فى التحصيل الدراسى .

وخلاصة هذا كله أن تقويم المدرس ينبغى أن يتم بالنظر إليه كوحدة كلية متعددة الأوجه ينسحب نشاطها على حالات عديدة . أنه يضطلع بعدة أدوار . ومن الأهمية بمكان أن نتبين طبيعة هـذه الأدوار وطريقة اضطلاعه بها . فهو رئيس يضطلع بالتعليم، ومرب يضطلع بالتربية ،وزعيم لهذه الجماعة أو تلك من الجماعات المدرسية، وعضو فى هيئة التدريس ، وزميل فى الجماعة المندرجة لمدرسى المادة ، ومرؤوس بالنسبة إلى رؤسائه . وهو بالإضافة إلى هذا كله شخصية لها نظراتها الخاصة فى الحياة بأحيائها وأشيائها ولها اتجاهاتها الخاصة من مشكلات هذه الحياة . فلابد وأن يدخل هذا كله ضمن النظرة الكلية التى تضطلع بتقويمه والتى تحاول أن تمسك به كضرب من الاتزان يتحقق بين مختلف هذه العوامل والأدوار .

وطبيعى أن الطرائق المعروفة فى علم النفس القياسى وعلم النفس الكلينيكى تعيننا على فهم شخصية المدرس وتقويم أثره . ولكننا فى حالة المدرس نستطيع أن نؤكد أسبقية الطرائق الكلينيكية على الطرائق القياسية، وذلك ليس فحسب لأن الواقع قد اضطلع من قبل بالترجمة عن ذكائه وقدراته وميوله ، وأنما على الأخص لغلبة دوره كرب للجيل على دوره كمعلم للمادة . ولما كانت المقاييس لا تسمح بالإمساك بالشخصية فى كليتها ولا بالكشف عن دوافعها الحقة فلا بد وأن تضطلع الطرائق

الكلينيكية — وخاصة الإسقاطية — بذلك سيما وأنها تضطلع بذلك بأساليب غير مباشرة لا تصدم المدرس ولا تستثير مقاومته . وفى القياس السوسيومترى أيضاً ما يسمح بتحديد مكان المدرس فى الجماعات المختلفة التى ينتمى إليها ، سيان فى ذلك جماعات المدرسين أو جماعات التلاميذ .

وليس من شك فى أن مقاييس القدرات ومقاييس الميول والاتجاهات بما فى ذلك سلالم التقدير الذاتية يمكن أن تكشف عن نتائج هامة لو أمكن للمدرس أن يتقبلها فى عمق وأن يقدم عنها إجابات صادقة . ولكن من الثابت فى علم النفس أن ثمة مسافة تفصل الاتجاهات اللفظية ، على نحو ما تتبدى فى الإجابات، عن الاتجاهات الفعلية على نحو ما تتبدى فى المسالك العيانية . وحسبنا أن نقدم بعض الأسئلة المستخدمة لتبين صعوبة الوصول إلى حقيقة الأمر :

١ — هل قرأت خمسة كتب على الأقل — من الكتب التى لا تتصل بمهنتك — فى العام الماضى ؟

٢ — هل تعيش لأطفالك فقط فى المنزل والمدرسة ؟

٣ — هل تشعر بأن الحياة مملوءة بالتغيرات وبفنون مختلفة كثيرة ؟

(كتاب الإحصاء فى التربية والتعليم للدكتور القوصى وآخرين ، النهضة ، ص ٧١) .

ففى رأينا أن المدرس الراشد لا يقدم عن هذه الأسئلة إجابات صادقة وحقيقية ، بقدر ما يقدم الإجابات التى يعتقد أن الممتحن يتوقعها . ومعنى هذا أنه لا يجيب بالرجوع إلى شخصيته وحياته وإنما هو يجيب بالرجوع إلى المفهوم الاجتماعى لدور المدرس .

وكذلك الحال بالنسبة إلى بعض الوسائل المستخدمة من قبيل الرجوع

إلى أحكام المدرسين عن المدرس ، وأحكام الناظر والمفتش والتلاميذ . فإن مثل هذه الأحكام يمكن أن تغرق فى الذاتية ، أو يمكن بالاستناد إلى القيم الثقافية أن تصدر مواتية للمدرس ، ومخالفة للواقع الذى يكون عليه . فليس لهذه الأحكام من قيمة إلا حين تنطوى على مايشبه الإجماع وحين يكون الحكم سلبيا .

وقد يكون من الطريف أن نختم هذا الحديث بالإشارة إلى أحد المعايير التى يتخذها البعض أساساً لتقييم المدرس : « مدى حرص المدرس على البقاء فى المدرسة أكبر وقت ممكن سواء طلب منه أو لم يطلب منه ذلك » .

أما البعض الآخر فيحاول فى نظرة جزيئاتية أن يرسم نمط المدرس فيسهب فيما ينبغى أن يتوفر فيه من سمات بدنية وسمات عقلية وسمات مزاجية وخلقية وسمات اجتماعية . ولكن هذه السمات كلها لا تعدو أن تكون أوصافا للشخصية السوية . فهى تصدق على المدرس صدقها على أى موظف أو عامل . وإذا كان هنالك ما يمكن أن نهتم به فى هذا المجال فهو الكشف عن الدوافع التى دفعت بالمدرس إلى مهنة التعليم وإلى اتجاهاته الحقيقية من هذه المهنة . فمثل هذا البحث كائنا ما كانت صعوبته إنما يسمح وحده بالوصول إلى وقائع ذات أهمية حقة بالنسبة إليه كمدرس ، أى كشخصية فريدة تضطلع بدور المدرس تبعاً لتأويلها الخاص لهذا الدور .

تقويم الناظر :

أما فيما يتعلق بتقويم الناظر فإن جميع الوسائل التى تحدثنا عنها بالنسبة إلى المدرسة يمكن استخدامها معه مع التنبه إلى الحكم عليـــه من الزاوية الإدارية ، ومن حيث صلاحيته للاضطلاع بدور القائد المسئول عن جماعة المدرسة كلها . ومن هنا تأتى أهمية ملاحظته إبان فترة التدريب لتبين حظه من السيطرة على الذات ، وقدرته على السيطرة على المواقف التى تعرض له ،

والطريقة التى يعامل بها الأفراد . وباختصار فإن تقويم الناظر ينبغى أن يتم من زاوية القيادة والزعامة ، وأن يكشف عن طبيعة الدوافع التى تربطه إلى هذا الموقف القيادى . فهنالك فارق كبير بين أن يصــــدر فى ذلك عن رغبة فى التسلط، أو عن تحقيق لإمكانياته الشخصية، وبين أن يصدر فى ذلك عن رغبة منه فى المساهمة مع الآخرين فى تحقيق هدف مشترك(١) . وإذا كان الأمر كذلك فإننا نتبين أهمية الطرائق الـكلينيكية عامة والمقابلة الشخصية خاصة ، ناهيك عن اختبارات المواقف(٢) واختبارات مستويات الطموح .

ومهما يكن من أمر فإن عملية التقويم هـذه ينبغى أن تتم من زاوية إنسانية محضة فلا نتناول التلاميذ والمدرسين والنظار « كأشياء » نجرى عليها القياس وإنما كـكائنات بشرية لها إمكانياتها التى تستطيع أن تتفتح وأن تزدهر حين تتاح لها الظروف البيئية الملائمة . فما من مدرس قد ولد لمهنة التدريس. ومن ثم فإن اتجاهه ودوافعه من هذه المهنة يمكن أن تتغير إلى حد كبير بتغير الظروف المحيطة .

(١) أنظر « المدخل إلى علم النفس الاجتماعى » فصل القيادة .
(٢) راجع « سيكولوجية الشخصية » فصل ١٠ « الأشخاص فى الجماعات ».

الفصل التاسع

الفروق السيكولوجية بين الجماعات

مقدمة :

جرت العادة عند الحديث فى علم النفس الفارق أن يبدأ المؤلف بالفروق السيكولوجية بين الأفراد . فإذا ما فرغ منها تحول إلى ما يعرف بالفروق السيكولوجية بين الجماعات . وهذا العنوان الأخير إنما ينفتح بطبيعته لغير قليل من اللبس . فكلمة الجماعات توحى للسامع بأن الحديث إنما يتعلق بجماعات حقيقية وبمعنى الكلمة ، بينما لا يقصد العنوان غير الجماعات من حيث هى فئات منطقية يتمخض عنها تصنيف الأفراد تبعاً لهذا المعيار الخارجى أو ذاك . ومعنى هذا أن الجماعات التى سنتحدث عنها فى هذا الفصل ليست كالجماعات الحقيقية التى يتحدث عنها علم النفس الاجتماعى فيعرض لانتظامها فى جماعات مندرجة حول أهداف مشتركة يسعى الأفراد إلى تحقيقها بدافع من وحدة الإيديولوجية ، وإنما هى أصناف من قبيل صنف الذكور فى مواجهة الإناث أو صنف البيض فى مواجهة صنف السود .

ولا يقف اللبس عند كلمة الجماعات وإنما يتخطاها إلى مصطلح الفروق السيكولوجية . فالعنوان لا يقصد بحال إلى ما قد يتطرق بصورة طبيعية إلى ذهن السامع من أن الحديث سيتناول جميع الفروق السيكولوجية . بل إن ما يحدث فى الغالب لا يعدو أن يكون عملية خفض لما هو سيكولوجى ليقتصر فحسب على القدرات العقلية بل وعلى الذكاء بصفة خاصة ، فلا نلتقى إلا بالقليل من سمات الشخصية ينظر إليها عادة ضمن إطار من النزعة الذراتية التى تكاد تغفل وحدة الشخصية .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الفهم الخاص « للفروق السيكولوجية » ما بين « الجماعات » إنما يستند إلى نظرة ميكانيكية مسرفة . فكل شيء يمضي وكأن سيكولوجية الجماعة تنحصر فى « المتوسط « الإحصائى » أو «التوزيع» البيانى لهذه الخاصية أو لتلك القدرة . فمن زاوية هذه النظرة تكون هنالك فروق سيكولوجية بين الجماعة ا والجماعة ب إذا كان متوسط الذكاء فى الأولى أعلى منه فى الثانية أو العكس ، أو إذا كانت بعض القدرات الفرعية للذكاء تتوفر فى إحدى الجماعتين أكثر من الأخرى. وبديهى أن مثل هذه الفروق لا يمكن أن تكون فروقا « سيكولوجية » ما بين الجماعات أو فروقا « كبرى » ما بين الجماعات ، وإنما هى مجرد فروق بين الأفراد نحاول أن نسندها إلى معيار خارجى كاللون أو الجنس لنقيم منها صنفاً أو « جماعة افتراضية » .

وقد يتساءل القارىء حين لا ينتهى به هذا العنوان إلى نتائج إيجابية عن العلة فى ، والجدوى من إثارة مثل هذه المشكلة . فهو يبدأ مع الفرض وتتتابع أمامه البحوث والتجارب والأرقام لتتمخض دائماً أبدا عن وهن هذا الفرض أو بطلانه . فالفرق بين أفراد الجماعة الواحدة تزيد عما هنالك من فروق بين هذه الجماعات المفترضة . وأهم من هذا كله أن الفروق التى تكشف عنها المقاييس والاختبارات والتجارب تتبدى آخر الأمر ، لا على أنها ترجع إلى معيار التصنيف ، كلون البشرة أو جنس الفرد ، وإنما إلى تأثير القيم الثقافية والأحكام القبلية والتصورات الجامدة . فهذه الجماعات ، بقدر ما يمكن أن تكون كذلك ، ليست وليدة الاشتراك فى لون البشرة أو فى هذه الخاصية أو تلك ، وإنما هى نتاج معتقدات وأحكام قبلية تجسدت مع الوقت إلى فئات اجتماعية .

وهنا ننبه إلى عظم الاختلاف ما بين الجماعة الحقة والفئة الاجتماعية . فزنوج الولايات المتحدة يكونون فئة اجتماعية ، ولكنهم لا ينتظمون فى

صورة جماعة بمعنى الكلمة . فمفهوم السلالة — على الرغم من كل الجهود الهتلرية — لم يتحقق له أى سند علمى . والذكور فى أى مجتمع يمكن أن نعتبرهم فئة اجتماعية ولكننا لا نستطيع بحال أن نجدهم فى صورة جماعة متمايزة عن جماعة الإناث . وهكذا نعود من جديد لنتساءل عن العلة فى تخصيص فصول بأكملها لندحض فرضا واضح البطلان منذ البداية ،ولنقيم مشكلة لننتهى إلى بيان عدم توافر الأدلة التى يمكن أن تسندها .

الحق أن هنالك مشكلة ، ولكنها مشكلة اجتماعية لا علمية . إنها مشكلة تهم المجتمع الأمريكى بينما تبدو لنا مجردة من كل أهمية . فهنالك فى الولايات المتحدة ثمة فئات اجتماعية من البيض والزنوج ، وثمة اعتقاد عند الأوائل بأن الأخيرين لا ينتسبون ولا ينبغى أن ينتسبوا تماما إلى نفس المستوى البشرى الذى هم فيه . ومن ثم فإن الحديث عن هذه المشكلة يستند إلى ذلك الإطار الاجتماعى ويستمد منه أهميته . فبيض الولايات المتحدة هم مايزالون — وليس العلم — فى حاجة المرة تلو المرة لإثبات بطلان مثل هذه الفروق بين الفئات . وهنالك فى الولايات المتحدة ، حيث تفتقر الوحدة القومية إلى ماض مشترك طويل من الخبرات والتقاليد يحتدم الشعور الفئاتى ضمن الأمة الخليط ، فيترجم هذا فى صورة دراسات ومحاولات علمية لتبين حقيقة الأمر .

أما مجتمعنا العربى فإنه يجهل هذه المشكلة فى حياته الاجتماعية ، أو هو على الأقل لا يعيشها ولا يعرف لها هذه الحدة الأمريكية .

وقبل أن ننتقل إلى الفروق السيكولوجية بين الجماعات بهذا المعنى الخاص الذى ذكرناه لها ، فقد يكون من المفيد أن ننبه إلى أن مثل هذا العنوان يمكن أن يتخذ دلالته المليئة حين نضطلع بدراسة الخصائص المميزة للجماعات البشرية الواقعية ، وما هنالك من فروق سيكولوجية بين هذه الجماعات. ومثل هذه الدراسة هى ما نجـــده فى العادة فى دراسات الإتنوجرافيا

والأنثروبولوجيا الثقافية[1] وما إلى ذلك مما يهتم بتحديد نمط الشخصية القاعدية وطبيعة الاتزان المتحقق ، بين أدوار الرجل والمرأة والطفل ، فى صلته بنوع العلاقة التى تربط الإنسان فى هذا المجتمع ببيئته ، وما يرتبط بذلك من قيم ثقافية ، ودينية ، وجمالية وجنسية . . الخ . ، ومن تكنيكات خاصة بتنشئة الأطفال ، وعادات وتقاليد ، وتأويلات فردية يضطلع بها الآباء فى ممارستهم لدورهم ضمن هذا الإطار[2] .

وسنعمد الآن إلى دراسة بعض الجماعات — الفئات التى فيها يتوزع الأفراد فى العادة ، باحثين عما يمكن أن يكون هناك من فروق سيكولوجية بين الفئات المتقابلة من قبيل الذكور والأناث ، والفئات السلالية ، والفئات الريفية والمدائنية[3] . ولا ينبغى أن نغفل أن الإخصائيين فى علم النفس الفارق من أمثال آن انستازى إنما يعترفون بأن هذه « التقسيمات » تعسفية ومصطنعة . بل أننا نتبين فى بعض أقوالهم ، ليس فحسب الخلط بين الجماعة الحقيقية والجماعة الفئاتية ، وإنما أيضاً محاولاتهم المنهجية لخفض سيكولوجية الجماعة إلى حاصل جمع لسيكولوجيات الأفراد . تقول آن انستازى :

« ومع ذلك فإن من الأمور الشائعة أن الناس يتوقعون من فرد معين إما الاعتماد على الغير أو الجمود أو الغباء أو سرعة التأثر أو الضعف فى الأعمال الميكانيكية . . لا لسبب إلا لأننا نعلم أن هذا الشخص رجل أو امرأة ، أو لأنه ينتمى إلى « سلالة خاصة » أو أمة خاصة . وإن انتشار مثل هذه الأفكار الشعبية المبلبلة لمما يدعونا إلى القيام بأبحاث تجريبية لدراسة الفروق بين الجماعات . . » (ميادين علم النفس ج ٢ ص ٥٨٠) .

---

(١) أنظر المدخل إلى علم النفس الاجتماعى فصل ٢ .

(٢) راجع سيكولوجية الشخصية فصل ٥ « قوى البيئة » .

(٣) نعتمد فى عرضنا هذا بصورة أساسية على الفصل الذى كتبته انستازى عن « الفروق الكبرى بين الجماعات » فى كتاب ميادين علم النفس ج ٢ ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٦ .

ومهما يكن من أمر فإن مثل هذه الدراسة تتطلب مواجهة صعوبتين . أما الأولى فتتعلق بتحديد الأفراد الذين تتكون منهم العينة التى سيجرى عليها البحث . وأما الصعوبة الثانية فتتعلق بطريقة القياس التى ستتيح لنا المقارنة بين العينات .

مشكلة اختيار العينة

حيث أنه يصعب أو يستحيل دراسة الجماعة المعنية كلها فإن ما يتبع فى العادة هو أن تقتصر الدراسة على عينة لهذه الجماعة . ودراسة هذه العينة تتيح للباحث أن يضطلع بتعميم النتائج على الجماعة كلها . ولكن هذا التعميم لا يكون صحيحاً إلا إذا كانت العينة ممثلة للجماعة تمثيلا دقيقاً . ولو أردنا الدقة التامة لكان ينبغى علينا أن نضع فى اعتبارنا أن النتائج التى نحصل عليها من العينة لن تكون هى هى بالضبط نفس النتائج التى نحصل عليها لو درسنا الجماعة كلها . ومن هنا تبرز ضرورة حسابنا « لخطأ العينة » التى نستخدمها فى البحث . وتسمح لنا الطرق الإحصائية الخاصة بقياس الثبات أن نحدد قيمة الأخطاء الراجعة لاختيار العينة .

ولو قمنا مثلا بالمقارنة بين جماعتين عن طريق عينة ممثلة لكل منهما فمن الأهمية بمكان أن نتبين ما إن كانت الاختلافات فى النتائج ترجع إلى فروق حقيقية بين الجماعتين أو أنها فحسب نتيجة أخطاء فى دقـــة تمثيل العينتين للجماعتين . وقد جرت العادة على أن نتحدث عن « الفرق الحقيق » حين تنصب الدراسة على جميع الأفراد فى الجماعتين المعنيتين ، بينما نتحدث عن « الفرق الناتج » حين تقتصر الدراسة على عينتين ممثلتين للجماعتين .

والفرق الحقيق لا يحتمل الخطأ ، بينما يتعرض الفرق الناتج بالضرورة للخطأ مما يعرف باسم « الخطأ المعيارى للفرق » Standard Error of Difference . فإذا كان الناتج عن عينتين هو س وكان الخطأ المعيارى لهذا الفرق

هو ع فإن « النسبة الفاصلة » critical ratio تكون $\frac{س}{ع}$. وقد جرت العادة على اعتبار الفرق الناتج ذا دلالة أى موضع ثقة حين تكون هذه النسبة الفاصلة $\frac{س}{ع}$ هى ٣ أو أكثر . وبلغة « نظرية الاحتمالات » يمكن القول بأنه حين تكون النسبة الفاصلة $\frac{س}{ع}$ = ٣ فإن الاحتمال فى أن يكون الفرق واقعياً يصل إلى درجة ٩٩,٧٪ . ومعنى ذلك أن الاحتمال فى خطأ النتائج لا يزيد عن ٠,٣٪ .

ومن المعلوم أن الخطأ المعيارى للفرق الناتج بين عينتين يتوقف على « حجم العينة » كما يتوقف أيضاً على مقدار التشتت بين أفراد العينة فى كل من الحالتين فكلما كبرت العينة قل احتمال الخطأ ، بحيث يكون الخطأ المعيارى للفرق صفراً فى حالة اختيار الجماعة كلها . وتتضح أهمية هذا العامل حين تنتبه إلى أن بعض الأبحاث التى أجريت لدراسة الفروق بين الجماعات إنما استخدمت عينات صغيرة الحجم مما يترتب عليه التقليل من قيمة نتائجها . فالفروق التى كشفت عنها هذه الأبحاث بين الذكور والأناث أو بين السلالات يمكن أن تكون راجعة إلى أخطاء فى العينة .

أما العامل الثانى ، عامل التشتت ، ونعنى به مدى الاختلاف بين أفراد العينة الواحدة فأنه يؤثر هو الآخر على مدى صحة النتائج . فإذا انعدم الاختلاف بين أفراد العينة الواحدة فى الصفة التى نقيسها ، كان التشتت صفراً . وبقدر ما يزيد الاختلاف بين الأفراد ، أى يكبر التشتت ، يزداد الخطأ المعيارى للفرق الناتج . ومن هنا فإن حساب الخطأ المعيارى يدخل فى اعتباره حجم العينة ومقدار التشتت بين أفرادها .

وبالإضافة إلى ما سبق فهنالك ثبت من العوامل التى تؤثر فى صحة النتائج عند المقارنة بين الجماعات . فالعينتان الممثلتان لجماعتين ينبغى — كيما تكون مقارنتهما صحيحة — أن يتم اختيارهما على أساس واحد. فلا يجوز مثلا أن تكون إحدى العينتين ممثلة لأغنياء الجماعة الأولى وتكون الأخرى ممثلة لفقراء الجماعة الثانية . فلا بد من التماثل .

وفى بعض الحالات تتدخل فى المقارنة بعض العوامل التى يصعب على الباحث أن يتنبه إليها ما لم يستعن بالنظرة الكلينيكية . ففى أحد البحوث التى أجريت فى أمريكا على الفرق بين الذكور والإناث فى مستوى التحصيل كشفت النتائج عن تفوق البنات على البنين فى المرحلة الابتدائية ، وعن تفوق البنين على البنات فى المرحلة الثانوية . وليس معنى هذا أن نركن إلى هذه النتائج . فقد اتضح من بحث سجلات التلاميذ أن المدارس الثانوية تتخلص من الذكور غير القادرين على متابعة الدراسة بأكثر مما تتخلص من الإناث المتخلفات . ويرجع هذا من جهة لانفتاح فرصة العمل الحر أمام البنين على نحو أوسع ، ومن جهة أخرى لاقتدار البنات أكثر من البنين على تحمل رتابة العمل المدرسى ومواصلة الجهد حتى النجاح .

ولقد جاء وقت توهم فيه البعض وجود اختلاف فى « التشتت » بين الجنسين . بمعنى أن الجنسين وإن كان لهما نفس القدرة العقلية العامة فى المتوسط إلا أن توزيع هذه القدرة بين الذكور أوسع منه بين الأناث ، أى أن نسبة العباقرة والبلهاء فى طرفى المنحنى تزيد عند الذكور عنها عند الأناث. ولقد استند هذا الوهم — بين ما استند إليه — إلى زيادة نسبة الذكور فى مؤسسات ضعاف العقول على نسبة الأناث. وكان ينبغى التنبه — استناداً إلى النظرة الكلينيكية — إلى أن اختلاف هذه النسبة إنما يرجع إلى تأثير عوامل اجتماعية وثقافية لا إلى اختلاف فى طبيعة الجنسين. فالأنثى فى حالة الضعف العقلى يمكن أن تبقى فى المنزل أو تعمل كخادمة أو تتزوج أو تحترف البغاء .

أما الذكور فليس أمامهم إلا ميدان العمل الذى يتطلب المنافسة والخبرة . فإذا ما حال الضعف العقلى بينهم وبين النجاح فى العمـــل لم يبق أمامهم إلا مؤسسات ضعاف العقول . ومهما يكن من أمر فلقد أتاحت بعض الدراسات الدقيقة التى أجريت على الصبيان والبنات فى كل من اسكتلندا وأمريكا الكشف عن بطلان هذا الوهم ، وهم اختلاف التشتت بين الجنسين فى القدرة العقلية .

وثمة مشكلة أخرى ونعنى مشكلة التداخل بين الجماعات . فمن الممكن أن تكون إحدى جماعتين متفوقة على جماعة أخرى فى صفة من الصفات . ولكن بالنظر إلى أن الاختلافات بين الأفراد تزيد عنها بين الجماعات فإننا نجد من أفراد الجماعة الأدنى من يتفوق على أفراد فى الجماعة الأعلى والعكس بالعكس. وخلاصة هذا أن عضوية فرد فى جماعة لا تلقى أى ضوء على مركزه فى هذه الجماعة فى أية صفة من الصفات . ومن هنا فعنـد مقارنة أى فرد فى جماعة بفرد فى جماعة أخرى فلابد وأن نتساءل « من هذا ؟ » و «من ذاك؟». ومن هنا أيضاً تقرر أنستازى : «فالمهم إذن ليس الجماعة ؛ وإنما الفرد الذى ينبغى أن يكون الوحدة التى نهتم بملاحظتها» ومعنى هذا أن المتوسط الإحصائى مهما بلغ من الدقة ، وأن قياس الفروق الفردية مهما بلغ من الإحكام ، فليس فى هذا كله ما يغنى عن دراسة الشخصية كوحدة كلية حاليـــة وزمنية معاً .

وثمة مشكلة أخرى تبرز عند مقارنة جماعات الذكور والإناث . فمن الثابت أن البنات يتقدمن نحو المراهقة بأسرع مما يتقدم الصبيان. وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغى عند مقارنة مجموعتين من الصبيان والبنات أن نأخذ مجموعتين متساويتين فى مرحلة النمو وليس فى العمر . ولكننا لو فعلنا ذلك لتدخلت عوامل أخرى . إذ أن اختلاف الأعمار فى هذه الحالة سيحمل معه اختلافاً

فى طول فترة التدريب وغير ذلك من المؤثرات البيئية . وفى هذا ما يضع جميع الدراسات التى تمت فى هذا المجال موضع شك وتساؤل . ومع ذلك فإنه ينبغى التنبه إلى أن اختلاف السرعة فى النمو الجسمى بين الجنسين لا يستتبع بالضرورة اختلاف السرعة فى النمو العقلى .

مشكلة القياس

إذا ما أتيح للباحث أن يفرغ من اختيار الأفراد لدراسة الفروق بين الجماعات ، بمعنى تحديد العينة ، فإنه يصطدم بصعوبة عزل العامل الذى يريد قياسه عن بقية العوامل . فهنالك مثلا عدة عوامل تؤثر على النمو العقلى للفرد من قبيل العادات والتقاليد والاتجاهات الاجتماعية والخبرات الشخصية . وبديهى أن جميع هذه العوامل تؤثر متشابكة فى نتائج اختبارات الذكاء ، مما يحملنا على أن نتشكك فى صحة الفرق الناتج بين جماعتين من هذه الزاوية. فالذكور والإناث ، حين ينشأون فى بيت واحد ، ويخضعون فيما يبدو لنفس العوامل البيئية فإنهم فى الواقع يتعرضون لتأثيرات مختلفة. ومن ذلك ما تنطوى عليه اتجاهات الأبوين من تمييز أحد الجنسين ، وما تحتمه القيم الثقافية من اختلاف الملبس ، وأدوات اللعب ، وهامش الحرية أو التسامح .

وكذلك الحال عند مقارنة جماعتين سلاليتين من زاوية الذكاء ، فإن العوامل الثقافية تتدخل على نحو يكاد يذهب بكل قيمة للنتائج . فالمستوى الثقافى العام يتبدى أثره واضحاً فى الإجابة على الاختبارات العقلية وخاصة على الأسئلة التى تتطلب بعض المعلومات أو تستند إلى التحصيل . فقد لا يكون فى البيئة الخاصة للفرد ما يعينه على معرفة الدراجة أو المصباح الكهربى مثلا مما تحتويه الاختبارات المصورة . وأحياناً ما تتدخل التقاليد المحلية أو الاتجاهات السائدة فتمنع الشخص مثلا من الإجابة عند مالا يثق

من صحتها ؛ أو ترغمه على أن يستشير الآخرين كما هو الحال فى بعض القبائل .

وحتى بالنسبة إلى عامل السرعة الذى اعتقد البعض أنه يصلح أساساً للتمييز بين السلالات المختلفة فقد اتضح آخر الأمر أنه يرجع فى الجملة إلى تأثيرات ثقافية ، بحيث تختلف نتائج أفراد السلالة الواحدة باختلاف البيئات الثقافية ، وبحيث تتفق نتائج أفراد السلالات المختلفة عند اتفاق البيئات الثقافية .

وثمة وجه آخر لتأثير البيئة الثقافية يتبدى فى مدى تأثر أفراد الجماعة بما يتوقعه الآخرون منهم من اتجاهات ومسالك ومستويات للأداء ومستويات للطموح . فكثيراً ما يستقر فى روح الأفراد أنهم لا يقدرون على تخطى مستوى بعينه لكونهم أفراداً فى جماعة ما ، كأن تعتقد المرأة عدم القدرة على القتال .

ولعل من أبرز صور الاختلاف التى ترجع إلى المؤثرات الثقافية ما كان وما يزال من إحجام بعض الجماعات عن الاهتمام بالتعليم المدرسى للبنات بالنسبة إلى الصبيان وللزنوج بالنسبة إلى البيض ، الخ وما يتصل بذلك من توفير الإمكانيات التعليمية اللازمة . فحتى فى أمريكا على الرغم من تقدميتها فى اتجاهها من تعليم المرأة فإنها لم تنشىء دراسات عالية للبنات قبل منتصف القرن ١٩ . وحتى فى الحالات التى يتوفر فيها التعليم للجنسين فكثيراً ما يكون لكل من الجنسين مناهج خاصة به .

ولقد كشفت أبحاث كثيرة عن وجود ارتباط إيجابى ما بين الذكاء والمستوى الاجتماعى والاقتصادى . فقد اتضح ارتفاع نسبة الذكاء عند أبناء المشتغلين بالمهن العالية عنها عند أبناء العمال غير الفنيين بما يعادل عشرين درجة .

وثمة مشكلة أخرى يتبدى فيها أثر الجو الثقافى ونعنى مشكلة اللغة. ويعظم الخطر حين يبدو الشخص فى الظاهر مالكا للغة فتطبق عليه الاختبارات اللفظية للذكاء دون العملية، بينما لا تكون إحاطته باللغة بالدرجة التى تسمح له بالمنافسة العادلة مع الآخرين . ذلك مثلا هو حال أبناء المهاجرين ممن يتحدثون لغتين ، لغة الأم فى البيت ولغـــة الدولة فى المدرسة . ومن أهم الظواهر للتدليل على العلاقة ما بين الصعوبة اللغوية ونتائج اختبارات الذكاء ما أثبتته الأبحاث من أن انخفاض النتائج فى اختبارات الذكاء اللفظية التى تجرى على الأجانب إنما يختفى أو يكاد عند تطبيق الاختبارات غير اللفظية عليهم. وهذا الترابط ما بين لفظية الأسئلة وانحطاط نتائج الاختبار قد تكشفت أيضاً فى بعض اختبارات الذكاء كاختبار ستانفورد ـ بينيه الذى يشتمل على بنود لفظية بحتة وبنود يقل فيها الاعتماد على اللفظ .

ولكن ثمة مشكلة أساسية ترتبط بالثقافة وتتصل بالمعيار ذاته . ذلك أننا عند تقديرنا « للمرتبة النسبية » لكل جماعة نميل إلى الأخذ بمعيار نتوهمه معيارا عاماً . كما نميل إلى تجاوز الحدود الدقيقة إلى الفروق العامة التى تكشف عنها النتائج . فعندما نحكم على جماعة بالتفوق على غيرها فى الذكاء فإننا قد نتخطى حدود النتائج . إذ أن كل جماعة قد تتفوق فى ناحية وقد تكون قاصرة أو متخلفة فى ناحية أخرى . فليس من الممكن من الناحية العلمية الدقيقة التعميم والحكم بالتفوق العام أو بالقصور العام على جماعة ما. وقد كشفت الدراسات عن أن درجة التفوق تختلف باختلاف اختبارات الذكاء المستخدمة بل وتبعاً لاختلاف البنود فى الاختبار الواحد . ولقد اتجه الظن إلى أن « العمليات العقلية العليا » وخاصة ما يتعلق منها بإدراك العلاقات حين يكون التعبير رمزيا بالأرقام أو الكلمات هى التى تصلح لتشخيص الذكاء ، وذلك بالقياس إلى القدرات العملية المتصلة بإدراك العلاقات المكانية ومعالجة الأشياء فى سرعة ودقة مما نجده مثلا فى عمليات الصيد والقنص، ومن ثم لا تتخذ كوسائل لتشخيص الذكاء .

ولكن أفلا يختلف معنى « الذكاء » باختلاف الأطر الحضارية ؟ إن « العمليات العقلية العليا » فى حضارتنا إنما تسبغ عليها قيمنا الثقافية منزلة الصدارة فى ثبت المسالك الذكية. ومن هنا ينبغى أن يختلف مقياس الذكاء لأفراد القبيلة البدائية عنه فى مدينة صناعية . وتؤيد الأبحاث صحة ذلك . فعند تطبيق اختبار « رسم الرجل » واختبار «رسم الحصان » على مجموعتين من الأطفال البيض والهنود تفوق البيض فى اختبار رسم الرجل وتفوق الهنود فى اختبار رسم الحصان . وفى حالة أخرى طبق اختبار رسم الحصان على أطفال من البيض كمقياس للذكاء فكان متوسط نسبة ذكائهم منخفضاً وهو ٧٤ .

والمعيار الذى يستخدم عادة للتحقق من صدق اختبارات الذكاء هو النجاح كما يفهم فى نظامنا الاجتماعى . فنتائج الاختبار تقارن بمستوى التحصيل المدرسى أو بالقدرة على النجاح فى الحياة. فلو كان معامل الارتباط عالياً اعتبر الاختبار صالحاً لقياس الذكاء والعكس بالعكس . ولا يشذ عن ذلك اتخاذ العمر العقلى معياراً للذكاء . فالقول بأن الدرجات تزيد بازدياد السن معناه فى الحقيقة أن الاختبار يقيس تلك السمات والقدرات التى تنميها حضارتنا بصورة متزايدة خلال مراحل النمو . وخلاصة هذا كله أن اختبارات الذكاء إنما تقتصر على قياس القدرة على النجاح فى حضارتنا . وكل حضارة تميل بها قيمها الثقافية إلى أن تتخذ مسالك بعينها على أنها أكثر المسالك ذكاء . وبديهى أن تغدو هذه المسالك بمثابة أهداف تحفز أبناء هذه الحضارة على تحقيقها بينما يهملون غيرها من المسالك . فمفهوم «الذكاء » يرتبط ارتباطا وظيفيا بحضارة حضارة .

وقد لا يكون من غير المفيد أن نشير إلى أن اختبارات الذكاء التى نشأت فى حضارة غريبة على البيئة العربية لا تصلح تمام الصلاحية لقياس الذكاء فى بيئتنا . فإن ما تلقاه من تعريب وتعديل لا يكاد يتخطى استبدال الأشياء أو الألفاظ الغربية بأشياء وألفاظ محلية مع إجراء تكييف إحصائى

للاختبار فى البيئة المحلية دون ما مناقشة عميقة للمعايير التى يستند إليها الاختبار وما تنطوى عليه من جوانب ثقافية .

الفروق بين الجنسين

قبل أن نبدأ فى مناقشة النتائج التى تمخضت عنها الأبحاث العديدة فى هذا المجال يحسن بنا أن ننبه إلى أمرين : أما الأول فهو أن الكثير من هذه الأبحاث لم تحدد درجة ثبات المقاييس المستخدمة ومدى تداخلها ، مما يحتم الاقتصار على النتائج العامة لهذه الأبحاث . وأما الأمر الثانى فهو أن الفروق بين الجنسين التى كشفت عنها هذه الأبحاث إنما تصدق فحسب على المجتمع الذى أجريت فيه . وسنعرض الآن لهذه الفروق من زاوية القدرات العقلية ثم من زاوية سمات الشخصية .

(ا) الفروق فى القدرات العقلية :

بديهى أن مقارنة القدرات العقلية عند الجنسين بمقارنة النتائج العامة لاختبارات الذكاء لا تلقى ضوءا على نوعية القدرات الفرعية عند الجنسين . فالإناث يتفوقن فى بعض القدرات ، والذكور فى قدرات أخرى . ومن هنا فإن الاختبارات التى لا تكشف عن القدرات الخاصة مقتصرة على القدرة العامة لا تعنينا فى هذا المجال .

وبالمقارنة بين الجنسين فى القدرات الخاصة تكشف نتائج الأبحاث عن أن الذكور يتفوقون فى القدرة الميكانيكية والقدرة المكانية والقدرة العددية الاستدلالية (الاستدلال الحسابى) . أما الإناث فيتفوقن فى الاختبارات التى تتطلب الدقة والسرعة وخاصة فى استخدام الأصابع والعناية بالتفاصيل أو تستند إلى الرتابة كأعمال الفرز والتجميع والمراجعة ، أو إلى القدرة اللفظية أو القدرة على التذكر .

(ب) الفروق فى سمات الشخصية :

تكشف مقاييس التقدير الذاتى للشخصية التى طبقت على الذكور والإناث الكبار عن وجود فروق بين الجنسين فى النواحى الانفعالية .

ولنذكر — متنبهين إلى ذاتية مثل هذه النتائج — أن هذه الاختبارات قد كشفت عن تفوق الرجال فى الثبات الانفعالى والاعتماد على النفس والسيطرة . أما النساء فيتميزن من حيث القابلية للعصاب والميل إلى الانطواء .

ومانحسبنا فى حاجة إلى الإشارة إلى فعل العوامل الثقافية فى هذه النتائج . فإنه حتى فى حالة القدرة الميكانيكية كشفت الاختبارات التى طبقت عن أن تفوق الذكور إنما يتضح شيئاً فشيئاً مع تقدم السن وبقدر ما ينصب الاختبار على « المعلومات » الميكانيكية . وفعل العوامل الثقافية يبرز بصورة أوضح فى حالة سمات الشخصية . فإن الفروق المزعومة لم تتكشف فى الاختبارات التى طبقت على أفراد الجنسين قبل سن المراهقة ، مما يكشف عن مسئولية الضغوط الأخلاقية والاجتماعية المختلفة بالنسبة إلى كل من الجنسين منذ المراهقة .

ولقد أجريت أبحاث مختلفة على أفراد الجنسين فى مختلف الأعمار من الحضانة إلى مرحلة التعليم العالى واشتملت بالإضافة إلى الاستخبارات على دراسة تواريخ الحياة والسجلات المدرسية والملاحظة المباشرة ، فتمخضت عن أن الذكور يتفوقون فى « الاعتدائية » وفى الميل إلى بذل الجهد بينما الإناث يتفوقن فى الأمور الاجتماعية . ومن الواضح أن هذه الألفاظ تنفتح للبس . فالعدوانية لا تقتصر على المظاهر الصريحة وإنما تتخذ أيضاً ، وبفعل الضغوط الأخلاقية ، كثرة من المسارب الملتوية غير المباشرة . وكذلك الحال بالنسبة إلى الأمور الاجتماعية ، فهى لا تقتصر على حب الظهور والاهتمام بالغير ، وإنما تنسحب تقريباً على كل مجالات الحياة ، بحيث لا يبقى فى مقابلها غير الانطواء .

وكائنة ماكانت الفروق التى تكشف عنها الاختبارات فإنه يتحتم فهمها فى ضوء الظروف البيئية من قيم أخلاقية وتقاليد ومتواضعات اجتماعية. وتعد دراسة مميزات السلوك لكل من الجنسين فى مختلف الحضارات وسيلة أكيدة لتبين أثر العوامل الثقافية فى توزع السمات ما بين الجنسين بحيث تحقق السمات بتنامها ليس فحسب الاتزان فيما بينها وإنما أيضاً فيما بينها وبين البيئة المحيطة.

ولقد اضطلعت مرجريت ميد فى هذا المجال بتقديم صور للانتشارات الأسرية المختلفة باختلاف البيئات. فنى قبيلة تشامبولى تضطلع المرأة بالعمل داخل المنزل وخارجه، أما الرجل فوظيفته الرقص والترفيه عن المرأة والخضوع لها. وفى قبائل أخرى يضطلع الرجل بالدور الحربى بينما تضطلع المرأة بالإذعان[١].

ويميل البعض إلى إرجاع ما يجدونه من فروق بين أفراد الجنسين إلى الاختلافات التشريحية والفسيولوجية بين الذكور والإناث. ومثل هذا الرأى قد اضطلعت الدرسات فى السنوات الأخيرة بدحضه حتى لم يعد اليوم من يجرؤ على التمسك به. فمفهوم الجنسية الثنائية عند فرويد قد احتل مكانة راسخة تكشفت معه الذكورة والأنوثة بوصفهما انتشارين للعوامل النفسية والاجتماعية ضمن الإطـــار الأسرى. وهكذا فاتجاه الذكورة يتوقف على العوامل البيئية التى يعيشها الطفل بأكثر مما يتوقف على خصائصه التشريحية أو الفسيولوجية. ومن الواضح اليوم أن الحضارة الغربية تعمل أكثر فأكثر على ملاشاة الذكورة عند الذكور وتوكيدها عند الإناث. وفى تناقص النساء من نمط «الراضيات» بالقياس إلى «المنافحات» ضمن هذا الإطار الحضارى ما يدعم هذا الرأى[٢].

---

(١) أنظر تنام الأدوار، فى المدخل إلى علم النفس الاجتماعى.

(٢) أنظر «الحياة الجنسية للمرأة» لمارى بونابارت، الترجمة العربية، دار الفكر العربى.

الفروق السلالية والقومية

أن مشكلة السلالة مشكلة بيولوجية . فمفهوم السلالة يتضمن اشتراك الأفراد فى خصائص جسمية ترجع أولا إلى عوامل وراثية مشتركة . ومن هنا تنحصر المشكلة فى تشخيص العوامل الجسمية الموروثة التى تصلح لأن تكون جامعة للأفراد ضمن سلالة ، مانعة لهم من الدخول فى سلالة أخرى . ولقد اعتمد علماء الأنثروبولوجيا على عدة معايير، منها لون البشرة، ولون العيون ، ولون الشعر وصفاته ، ومقاييس الوجه والجمجمة ، وأبعاد الجسم وفئات الدم ، ونشاط الغدد الصماء . . الخ .

ولكن تبين أن أفراد أية سلالة مزعومة يختلفون فيما بينهم بأكثر مما هنالك من اختلاف بين بعض الأفراد المنتمين إلى سلالات مختلفة وذلك بالنسبة إلى أية صفة من الصفات . هذا إلى أن هناك تداخلا بين السلالات المزعومة . بل إن الفرد الواحد قد ينتمى من حيث صفة معينه إلى سلالة ما بينما ينتمى من حيث صفة ثانية إلى سلالة أخرى . . وهكذا . وأهم من هذا كله أن الكثير من الصفات التى تعد مميزة للسلالات ووراثية لا تتغير قد تكشف أنها غير ثابتة وقابلة للتغير بتأثير عوامل البيئة . وهذا ما تعبر عنه انستازى فى قولها :

« إنه لا يمكن أن يكون لأى فرد مجموعة من الصفات تجعله ينتمى تماماً إلى سلالة خاصة » (ميادين علم النفس الاجتماعى ص٦١٥) .

وهنالك تقسيم شائع للسلالات يعتمد على عدة معايير منها قياس الجمجمة، ونوع الشعر وتوزيعه ، وهيئة الوجه ، وتناسب أجزاء الجسم . ويتضمن هذا التقسيم : الطراز القوقازى والطراز المغولى والطراز الزنجى وقسم رابع للجماعات التى لا تدخل فى أى طراز من الطرز الثلاثة السابقة .

ولكن عندما تعرض المؤلفات السيكولوجية لوصف هذه الطرز فإنها تقدم إلينا مختلف الفروق التى تمخضت عنها الاختبارات ولكنها لا تلبث حتى تكشف لنا عن أن هذه الفروق لا يمكن التعويل عليها ، لأنها ترجع إلى تأثير العوامل الثقافية والبيئية. تقول انستازى فى ختام عرضها للموضوع: « مثل هذه النتائج تجعلنا نقترح أنه لا أساس لترتيب السلالات فى النواحى العقلية ، وأن المرجع الأكبر فى الفروق بين الجماعات هو العوامل الحضارية فى مختلف البيئات » (ميادين علم النفس ص ٦٢٢) .

ومهما يكن من أمر هذه الأبحاث والدراسات فإنها تستند جميعها فى رأينا إلى مفهوم خاطىء ، ونعنى الخصائص التكوينية . ولقد تعرضنا عند الحديث عن تكوين الشخصية ونظرياتها لهذا الأمر (القسم الثانى). وحسبنا الآن أن نشير إلى أن هذه الدراسات حول السلالات قد خلطت ما توهمته من خصائص سلالية مع بعض الخصائص القومية فتمخضت عن أعظم التعقيد .

ولقد تعرض المؤتمر الذى انعقد بالقاهرة فى يوليه ١٩٦١ لبحث أسس التربية فى العالم العربى لنفس هذا الخطر حين اتجه الميل بالبعض إلى محاولة تحديد نمط ثابت السمات لشخصية « العربى » . ولكن مناقشة السمات التى اقترحت كانت تكشف دائماً أبدا عن تدخل عوامل البيئة والتأثيرات الثقافية، وعندها تحول البحث عن النظرة الاستاتية إلى تصور دينامى يحاول أن يحدد الخصائص الحالية والزمنية للحقل الذى يتواجد فيه « العربى » . ولقد تكشف هذا الاتجاه الأخير عن خصوبته لما أبان عنه من صراعات بين القيم الشرقية والغربية ومن صراعات بين القومية العربية البازغة والقوى الخارجية والداخلية المناهضة وما يتمخض عنه ذلك كله من حلول متطورة لهذه الصراعات . فمن طبيعة كل حل أن يغير من عناصر الحقل بحيث تتبدى المشكلات فى صورة جديدة ويتطلب حلها تكيفات جديدة وهكذا دواليك.

ومما يتصل بذلك ما شاع فى السنوات الأخيرة من مفهوم أجناسى « للعربى » و « للقومية العربية » مما اضطلعنا بتفنيده وبيان الحقيقة فيه فى « هيكل نظرية تفسيرية للقومية العربية »(١) .

« الفردية » وتعدد الجماعات

إن عضوية الفرد فى جماعة وانتماءه إليها إنما يتحددان بمدى تطابقه مع أهداف هذه الجماعة وإسهامه فى الجهد المشترك لتحقيق هذه الأهداف . ومعنى هذا أن العضوية لا تتحدد استنادا إلى العوامل البيولوجية من قبيل السلالة والجنس . . الخ . فإذا كان لنا أن نتحـــدث عن انتماء إلى جماعة جنسية أو سلالية فإننا لا يمكن أن نقصد من ذلك جماعة سيكولوجية ، وإنما مجرد انتماء إلى فئة منطقية تستند إلى محاولة لتصنيف الوقائع . فبهذا المعنى الأخير نتحدث عن جماعة الذكور أو جماعة الإناث ، وعن جماعة البيض أو جماعة السود الخ. وتستند هذه التصنيفات عادة إلى معايير خارجية من قبيل لون البشرة ونوع الشعر أو إلى خصائص تشريحية أو فسيولوجية كتلك التى تميز الرجل عن المرأة .

ولكن هذه المعايير والخصائص التى نتوهمها أساساً نخفض إليه الشخصية الفردية ونرد إليه سماتها المميزة لا تلبث حتى تؤثر على الواقع العيانى فتتحول الأوهام إلى حقائق اجتماعية . فإذا ماتوهمنا خصائص بعينها على أنها تمثل المرأة أو الزنجى أو الأعمى ، فإن هذه الأوهام وهى جانب متكامل ضمن النسيج الإيديولوجى للجماعة إنما تضطلع بتشكيل الأفراد وتستحيل عندهم إلى قيم واتجاهات اجتماعية وأحكام قبلية يكادون لا يملكون الخروج منها. ذلك أنهم يتبنون هذه التصورات الجامدة بالمباطنة عن طريق التطابق مع الأبوين إبان الموقف الأوديبى فى السنوات الباكرة للعمر . وهكذا يأتى

---

(١) أنظر : دراسات فى القومية ، دار الفكر العربى .

وقت يؤمن فيه الكل بحقيقة هذه التصورات ، يؤمن بها ضحاياها كما يؤمن بها غيرهم ، ويصدر الكل عنها فى أحـــكامه ومسالكه كوقائع اجتماعية لا تعلو على الشك . ولو وضعنا فى اعتبارنا أن الإدراكات إنما تنتظم مستندة إلى الاتجاهات الذاتية لتبينا أن الأفراد لن يجدوا فى إدراكاتهم إلا مايؤيد اتجاهاتهم ويدعمها . بهذا يتحول المعيار الخارجى والعامل المزعوم إلى عامل حقيقى يضطلع بتشكيل الأفراد ـ الأعضاء ، ويعمل على توحيدهم وتنميطهم .

وهذا الإطار العقيدى من التصورات الموهومة لا يختلف فى الحقيقة من حيث طريقة تأثيره عن سائر العناصر الأخرى التى تدخل ضمن الإطار الثقافى للجماعة . وهذا الإطار الثقافى لا يعدو أن يكون واحدا بين الأطر العديدة التى تحكم صياغة الشخصية . فالظروف الفيزيائية المحيطة والخصائص الجغرافية والمناخية والشروط الاجتماعية — من كثافة السكان وتوزعهم — كلها تمثل إطاراً واحداً فى الشكل أو قل بيئة بعينها تفرض ، ومن حيث هى إطار ، قانونها ، قانون الكل ، على أجزائه .

وليس معنى هذا أن الأثر التوحيدى لهذه العوامل سيبلغ بالأفراد إلى مرتبة الأنماط الصادرة عن قوالب جامدة . فإن الأجزاء العضوية تحتفظ بشىء من الاستقلال الذاتى النسبى ضمن الوحدة الكلية . وبعبارة أخرى فإن البيئة بمثيراتها الموضوعية الواحدة تتحول من الوحدة إلى الكثرة حين يعيشها الأفراد فى صورة مواقف .

والأمر لا يختلف عن ذلك بالنسبة إلى القيم الثقافيـــة والأدوار الاجتماعية . فمهما كان تحديدها واضحاً ودقيقاً فإنه يترك دائماً أبداً هامشاً للتلقائية الفردية . وهكذا فنفس العوامل التى هى بعينها موحدة من الناحية الموضوعية تستحيل إلى كثرة من التباينات الفردية . فنفس العوامل تتبدى فى انتشارات متباينة بتباين الأفراد . وهكذا يكون كل شخص ، من بعض

الأوجه ، بجميع أعضاء جماعته ، ويكون مع ذلك ، وفى نفس الوقت ، انتثارا فريدا يميزه عن سائر أعضاء جماعته . ذلك هو تكثر الوحدة وتباين الواحد .

وتفصيلا لما سبق ، وتدليلا عليه ، نقول إن الفرد الذى ينتمى إلى أمة لها تاريخها وتراثها الثقافى وتقاليدها وقيمها الخاصة إنما يكشف عن أنماط المسالك المميزة لهذه الأمة ، وإن اختلفت الدرجة من التبنى العميق والتطابق الصادق إلى مجرد المجاراة السطحية وذلك تبعاً للحالات . فالانتماء إلى جماعة لا يعنى « التواجد » بين أفرادها فقد يوجد بين الجماعة من لا ينتمى إليها ، بل من قد ينتمى فى داخله إلى أعدائها حتى على الرغم من روابط الدم واللغة والدين . . الخ . وقد يوجد بعيدا عن الجماعة من ينتمى إليها ويسهم فى العمل من أجلها ويذود عنها ضد أعدائها .

ولكن الفرد لا ينتمى فى الحقيقة إلى جماعة واحدة ، وإنما ينتمى إلى عديد من الجماعات يضطلع فى كل واحدة منها بدور من الأدوار . وجملة الأدوار التى يضطلع بها الفرد فى الجماعات العديدة يمكن أن تكون بحيث تحقق صورة من صور الاتزان فيما بينها كما يمكن أن ينشأ الصراع بين الأدوار(١) ، مما يتطلب من الفرد أن يسعى إلى حل يفض هذا الصراع .

أن الفرد بمولده ينتمى إلى جماعة معينة هى الأسرة التى تمثل مسطحا ثقافياً مندرجا ضمن المسطح الثقافى القومى ، هذا الذى يتشابك مع المسطحات الثقافية الأخرى ضمن الجماعة البشرية الكبرى .

ولكن الطفل يأخذ فى النمو فتتعدد انتماءاته وتتكثر ولاءاته لعديد من الجماعات، من جماعات مدرسية وجماعات الزمالة والرياضة والهواية .. الخ وذلك فى الطريق إلى الجماعات المهنية والأحزاب السياسية والاتجاهات الفكرية .

---

(١) أنظر : المدخل إلى علم النفس الاجتماعى فصل دينامية الجماعة (الأنجلو) . وأنظر أيضاً : دراسات فى القومية ، (دار الفكر العربى) .

وليس من العسير على أى واحد منا أن يتنبه إلى صراع الأدوار الذى نعيشه حين نأخذ بقيم الثقافة الغربية ونرغب مــــع ذلك فى التمسك بالقيم الشرقية . وأننا لنتبع اليوم أسلوباً من المصالحة نخفف به من حدة الصراع بأن نكون غربيين فى مظهرنا شرقيين فى مخبرنا .

وفى داخل الجماعة القومية الواحدة يمكن للتصورات السلالية الموهومة أو لاختلاف العقائد الدينية أن يتمخض — كما رأينا — عن قيام جماعات فعلية تزيد من فرص الصراع بين الأدوار . ولعل من أهم الأمور المسئولة عن ذلك ميلنا الطبيعى إلى أن نفكر بلغة الفئات ، وإلى أن نقيم الأصناف التى تسمح بإساغة الحالات الفردية ، مما يسبغ على الوقائع معقولية زائفة، ولكنها معقولية ترضينا على أية حال لما تتيحه من اقتصاد فى الجهد . فهذه امرأة كسائر النساء ، وهـذا زنجى كسائر الزنوج وهـذا أعمى كسائر العميان . . الخ .

وخلاصة هذا أن بعض المعايير السلالية أو الجنسية أوالدينية يتمخض عن تمايزات اجتماعية حقه وعن أنماط سلوكية متغايرة . وكذلك الحال بالنسبة إلى العوامل البيئية. فالعبرة إنما تكون بالتأثيرات السيكولوجية التى تسهم فى صياغة الشخصية وتشكيلها .

وعضوية الفرد فى جماعة ليس من شأنها أن تجعله فحسب يتخذالمسالك والقيم النمطية للجماعة وإنما تجعل الآخرين أيضا ينظرون إليه — شاء أو كره — كعضو من هذه الجماعة،ومن ثم يتوقعون منه مسالك خاصةويعاملونه بطريقة خاصة . وفى هذا مايدعم الخصائص المميزة لهذه الجماعات ، حتى وإن لم تستند هـذه الخصائص الى غير المعايير الخارجية أو الزائفة .

ولقد جرت العادة على أن يتحدث علماء النفس فى مشكلة تكوين الشخصية وصياغتها عن شبكة من العوامل تتداخل فيها العوامل الاجتماعية

والفيزيائية والثقافيةمع الأدوار التى يضطلع بها الفرد والمواقف التى يعيشها . وتذهب انستازى[1] إلى أن الفرد يعد بمثابة محصلة لمختلف الجماعات التى ينتمى إليها . ولكن من الأصح أن ننظر إلى الفرد على أنه نتاج مختلف العوامل التى ذكرناها . فإن هذا « الانتماء » لايكون فعالا بمعنى الكلمة إلا حين يجيب على « تلقائية » الفرد ويساير رغباته . وليس هنالك اليوم من ينكر أثر الجماعة فى تشكيل شخصية أعضائها وما للجماعة من قوة الإلزام بالنسبة إلى أفرادها . ولكن هذا لا يعنى بحال أن الأثر هو هو دائماً وأنه يكون دائماً فى نفس الاتجاه . ذلك أن العوامل الواحدة تنتظم فى انتظامات متباينة بتباين التكوينات والشخصيات الفردية . ومن هنا فقد يتمخض انتظام العوامل عن الثورة فى وجه قيم الجماعة . وقد تكون هذه الظاهرة صريحة أو خفية ، فردية أو شبه جماعية ، مما نتبينه من دراسة ديناميات الجماعة .

والفكرة الأساسية التى نريد أن نبرزها هنا هى أن الفرد ليس محصلة هذه القوى الجماعية بمعنى أنه نتيجة محتومة هى هى بعينها فى كل حالة .وتميل انستازى — فى سندها لذلك — إلى الاعتقاد بأن الخبرات المشتركة هى أكبر أثرا من الخبرات الفردية الصرفة . ولكن هذا الادعاء يصعب تقبله إذ ما من خبرة مشتركة إلا ويعيشها الشخص — إن قليلا أو كثيراً — من زاويته الخاصة وعبر شخصيته . والقيم الثقافية تختلف ، ليس فحسب فى دلالتها ، وإنما أيضاً فى أوزانها وألوانها باختلاف الأشخاص . ونحن لا نتكلم — كما يقول جان فال — نفس اللغة ، وإن استخدمنا نفس الألفاظ. فالحب عند الواحد استبداد وعند الآخر تعاون وعند الثالث إذعان وعند الأغلبية مزاج من هذه العناصر ، مزاج تتباين أوزان العناصر فيه فى حالة حالة من الحالات الفردية .

وتتساءل الباحثة عن الكيفية التى يمكن بها تفسير فردية الفرد على الرغم

(١) ميادين علم النفس الاجتماعى ص ٦٢٣ — ٦٢٦ . (دار المعارف) .

من خبراته المشتركة . إن الواقع يرينا أن الاختلافات بين أفراد الجماعة الواحدة تزيد عنها بين الجماعات المختلفة . وتجيب الباحثة بأن التعدد الهائل للجماعات التي ينتمي إليها الفرد إنما يجعل المحصلة جد خاصة بل وقاصرة عليه . فالعضوية السيكولوجية في كثرة من الجماعات المختلفة هي التي — في رأيها — تفسر الفردية بل وتفسر الثورة . ومثل هذا المفهوم يظل في رأينا غامضاً ، بل وميكانيكي الطابع في تصـــوره للتفاعل . فإذا كان للأجزاء والعوامل المختلفة أن تتمخض عن آثار مختلفة فإن ذلك لا يتأتى إلا بفضل ما لها من وظائف جديدة ضمن الفردية الثائرة . وهكذا فإن الفرد لا يتحول إلى الثورة باستقباله لتأثيرات من جماعات عديدة وإنما لأنه يعيش هذه التأثيرات — في ظل انتثاره الفريد — ثورة ورغبة في تغيير القيم وقلب الأوضاع . إن الجماعي إذ يكمن في أحضان الفردي يصطبغ بصبغته تماما كما اصطبغ الفردي بالجماعي في ظل الأسرة إبان الطفولة . وليس هنالك مجال لخفض الواحد إلى الآخر .

والمؤلفة لا تحل المشكلة حين تقرر « إن العضوية في كثير من الجماعات غير المتشابهة تحرر المرء من القيود الثابتة وغيرها من القيود التي تضعها كل جماعة لنفسها » (ص ٦٢٦) . فمن الواضح أن مثل هذا الأثر لا يحدث عند كثير من الأفراد . . ونحن نذكر مع ليبمان[١] كيف أن الاتجاهات المتناقضة يمكن أن تعيش في الشخصية جنباً إلى جنب، وكيف يمكن للعالم — في بعض الحالات — أن يضطلع بالدراسة العلمية وأن يسهم في نفس الوقت مع الآخرين في بعض التقاليد الخرافية أو شبه الخرافية .

أننا ننتمي كما قلنا للثقافة الغربية وللثقافة الشرقية . ولكن ليس معنى هذا أننا نميل إلى الثورة والتحرر من القيود التي تفرضها الجماعة . فلا بد إذن لفهم ذلك من أن نتصور الأمر صراعا بين الأدواد ، صراعاً يتحقق

---

(١) راجع : كتاب الدعاية السياسية ، قوانين الدعاية .

عند بعض الأشخاص فى حدة خاصة - بالنظر إلى شخصياتهم الفريدة - فيتمخض عندهم عن سلوك الثورة لحل هذا الصراع وإنهاء التوتر . ولكن هذا البعض لن ينجح فى مهمته إذا لم تكن تغيرات الجماعة - فى بنيتها التحتية على الأقل - تسمح بذلك . فالثائر الزعيم ليس محصلة للقوى الجماعية ، لا ولا هو تلقائية غريبة عن المجتمع تأتى بالتغيرات، وإنما هو وفى نفس الوقت نتيجة وسبب، يتأثر بالجماعى - من حيث هو فردية فريدة - على نحو يحمله على أن يؤثر فى هذا الجماعى . ولو شئنا الدقة لقلنا أنه جزء عضوى مركزى من البنية الاجتماعية التى بلغ بها التطور حافة التبدل الوضعى[١] ، بحيث تتغير الوظائف القيادية « لأعضائها » إلى طليعة لركب التغيرات الشاملة اللاحقة .

---

(١) راجع قانون التبدل الوضعى فى كتاب : نظرية الجشطلت وعلم النفس الاجتماعى .

خــــلاصة

الفروق السيكولوجية بين الأفراد والجماعات

علم النفس الفارق يجيب على أسئلة ثلاثة :

١ — ما هى طبيعة ومدى الفروق السلوكية ؟ تجيب على ذلك دراسة السلوك فى ظروف بيئية وبيولوجية متغيرة دراسة تحليلية مقارنة .

٢ — ما أسباب هذه الفروق أى ماهى العوامل المختلفة المحددة لها وما مدى تأثير كل عامل منها ؟ يجيب على ذلك ربط الفروق الملاحظة بالعوامل المصاحبة مما يسمح بتحديد أثر كل عامل . والعوامل التى تحدد هـذه الفروق هى الوراثة (عمر ، جنس ، سلالة) والبيئة (تأثيرات ثقافية كالقيم والاتجاهات، أو اجتماعية ككثافة السكان ، أو اقتصادية كالبترول ، أو فيزيائية كالجو ، أو تدريبية كالتعلم السابق) .

٣ — ماهى السمات أو الأنماط أو العوامل التى يمكن أن ترد إليها هذه الفروق ؟ (ألمعية أو ضعف عقلى ، انبساطية أو انطوائية ، تحررية أو تقليدية) . تجيب على ذلك تحليلات إحصائية لاستخراج العوامل .

نشأة علم النفس الفارق :

(ا) أول قياس للفروق الفردية هو فى عـلم الفلك باسم « المعادلة الشخصية » (الفرق بالثوانى بين تقدير ملاحظين) .

(ب) أنشأ فونت أول معمل لعلم النفس التجريبى فى ليبزج سنة ١٨٧٩ (التحول من علم النفس العام إلى دراسة الفروق الفردية) .

(حـ) بعد ثلاث سنوات أى سنة ١٨٨٢ ينشىء جولتون المعمل الانثروبولوجى أى معمل القياس البشرى ويقوم بدراسة الوراثة عن طريق

دراسة الفروق الفردية فى التمييز الحسى والقدرات الحركية وجولتون أول من استخدم الطرق الإحصائية فى تحليل نتائج قياس الفروق الفردية (أى أول من اهتم بالسؤال الثالث) .

(ء) بعد ثمانى سنوات سنة ١٨٩٠ كان كاتل أول من يستخدم مصطلح اختبارات عقلية . ولقد جمع بين تجريدية فونت وقياسية جولتون (اختبارات حس – حركية) .

(ه) بعد ١٤ عاماً أى سنة ١٩٠٤ ظهر مقال سبيرمان عن نظرية العاملين . وتقوم على التحليل الإحصائى لنتائج المقاييس .

١ — سنة ١٩٠٥ ظهر أول مقياس للذكاء لبينيه وسيمون ، وظهر العمر العقلى أى مستوى الذكاء سنة ١٩٠٨ ، وظهرت نسبة الذكاء سنة ١٩١٦ . ومن جملة تعديلات ومراجعات وترجمات تطورت مقاييس الذكاء فامتدت للرضع والبالغين ، وأصبحت لفظية أو أدائية ، وظهرت صورها الجمعية .

٢ — فى البداية كان قياس الذكاء يتم عن طريقة قياس القدرات الحس — حركية اعتقاداً بإمكانية خفض العمليات العقلية إلى حسية . ولكن تبين بعد ذلك أن العمليات العقلية العليا أكثر صلاحية للكشف عن الفروق الفردية وخاصة فى الذكاء . ومن هنا استخدمت مقاييس القدرات العقلية الخاصة لفظية وعددية ومكانية إلخ للكشف عن الفروق فى الذكاء . ثم ظهرت مقاييس للقدرات الخاصة كالقدرة الميكانيكية والحركية والموسيقية ، وذلك لأن الخبراء تبينوا أن مقاييس الذكاء تجد مايكملها فى مقاييس القدرات الخاصة .

٣ — ثم امتدت المقاييس إلى السمات الانفعالية والاجتماعية فظهرت اختبارات الشخصية (ظهرت الاستخبارات وسلالم القياس أو التقدير

واختبارات المواقف والاختبارات الإسقاطية) للكشف عن سمات من قبيل السيطرة أو الإذعان،أو الانبساط أو الانطواء ،أو التحررية أو التقليدية ، أو الأمانة أو الغش الخ .

طبيعة الفروق الفردية

١ — علم النفس الفارق يهدف إلى تفسير السلوك عن طريق التحليل المقارن للسلوك فى ظروف بيئية وبيولوجية متغيرة (البغاء والإجرام مثلا مع الفقر أو الوراثة أو السلالة) . فارتباط الفروق الملاحظة بعوامل بيئية أو بعوامل بيولوجية تنتهى بالباحث إلى تحديد القدر الذى يسهم به كل عامل من هذه العوامل فى تحديد السلوك. فالارتباط الذى تكشف عنه الدراسات القياسية والإحصائية هو السند الذى يستند إليه الباحث فى اعتبار العامل مسئولا عن السلوك (المنهج التجريبى).

٢ — إذا كانت العوامل الوراثية هى الثوابت ، أى متشابهة ، فالفروق تعزى إلى العوامل البيئية ، أما إذا كانت العوامل البيئية هى الثوابت ، أى متشابهة ، فالفروق تعزى إلى العوامل الوراثية . ولكن :

(ا) العوامل الوراثية لا تتشابه إلا فى حالة التوأمين المتحدين وحالة التزويج الانتقائى أو الخاضع للضبط فى سلالات حيوانية ، ومع ذلك فالخصائص الوراثية لا تنتقل وفق نظام يسهل تبينه ،والمورثات تعمل تبعاً « لقانون الكل أو لا شىء » وقد يتوقف تأثيرها لعدة أجيال .

مثال١ — دراسة تجريبية: الهدف هو تبين أثر الوراثة من زاوية الذكاء عن طريق قياس قدرة الفيران على اجتياز المتاهة . تقسيم الفيران إلى قسمين تبعاً لعدد الأخطاء فى التعلم كدليل على الذكاء. والقيام بتزويج الفيران الذكية فيما بينها ثم اختبار الأبناء. وتقسيمهم من جديد وهكذا. بعد ٢٢ جيلا

أصبحت نتائج المجموعتين متميزة واستمرت فى ذلك .وعندما أعيد تزويج المجموعتين فيما بينهما عادت النتائج إلى منحنى الجرس . ولكننا مع ذلك لا نستطيع القول بوجود مورثات خاصة بالقدرة على تعلم المتاهة .فالعوامل الوراثية تؤثر على بعض الخصائص التكوينية كالصحة العامة والقوة العضلية والاتزان الفردى مما يؤثر على تعلم المتاهات .

مثال ٢ — دراسات تتبعية لبعض الأسر تكشف عن سريان النبوغ والإجرام والإدمان على الخمر الخ . ولكن ليس من السهل التثبت من نقاء السلالة ؛ هذا إلى أهمية التأثيرات البيئية وخاصة التطابق .

مثال ٣ — دراسات تستند إلى المقاييس واستخراج معامل ارتباط تكشف عن التقاء بين التوأمين المتحدين عنه بين المتآخيين وفى هذه الحالة عنه بين مجرد الأخين . ولكن فى هذه النتيجة الأخيرة ما يضع الأمر موضع الشك مشيراً إلى أهمية التأثيرات البيئية .

(ب) العوامل البيئية لا تتشابه إلا فى الظاهر بينما تختلف كمواقف مما نجده فى وهم القنينة والعصاب التجريبى .

(حـ) وصحيح أن علم النفس الفارق لا يتحيز فى تحليله للعوامل البيئية أو الوراثية وإنما يعتبرها مسئولة معاً ؛ ولكنه إذ يحصر عمله الأساسى فى تحديد القدر النسبي الذى تسهم به هذه العوامل وتلك إنما ينظر إلى هذه العوامل وكأنها عناصر مكونة أولية شأنها شأن الإحساسات والأفعال المنعكسة الشرطية. وباختصار عجزت الدراسات عن عزل العوامل البيئية عن الوراثية وبالتالى عن القياس الدقيق لأثر كل منها . إن التدريب لا يخلق القدرة ؛ فالاستعداد الفطرى حين يبلغ النضج يميل تلقائياً إلى التعبير عن نفسه ما أمكن،أما التدريب فيستطيع أن يبلغ بالقدرة إلى أقصى حدود إمكانياتها (فلا تحسين ولا خلق) أى إلى مهارات تنتقل بفعل أثر التدريب إلى مجالات أخرى . ما من نضج

بغير تعلم وما من تعلم إلا بقدر ما يسمح النضج . الوراثة لا تستبين إلا فى إطار بيئى والبيئة لا تعمل إلى على أساس من الوراثة . فليس هناك إمكانية حقيقية للعزل .

مدى الفروق الفردية

١ — عادة مانصنف الفرد ونحدد نمطه بالرجوع إلى خصائصه وقدراته البارزة عنده، مغفلين هذه التى يقترب فيها من المتوسط (تصور كيفى) . والحقيقة أن كل فرد له مكانه الذى يقع فيه ما بين الطرفين القطبين. (أهمية المفهوم الكمى) مثال المبصر والأعمى .

٢ — ومن هنا فالقياس والإحصاء هما وسيلة علم النفس الفارق لتحديد مكان الفرد من الآخرين .

صناعة المقاييس:

١ — العينة: (ا) الاختبار السيكولوجى هو مقياس فى ظروف موضوعية مقننة لعينة من السلوك .

(ب) أهمية افتراض التجانس أى أن تكون العينة ممثلة للكل . ومن هنا فالقيمة التشخيصية للاختبار تتوقف على درجة تمثيل العينة للكل (فاختبار الحساب لاينبغى أن يقتصر على الطرح مثلا) .

٢ — التقنين : وضع شروط موحدة لتطبيق الاختبار (تقنين التطبيق) وشروط موحدة فى تقويم الإجابات (تقنين التقييم) .

(ا) تقنين التطبيق : تثبت جميع العوامل ليكون الفرد هو المتغير

الوحيد الذى تصدر عنه النتيجة: نفس التعليمات ، نفس الجو الودى ، نفس الإضاءة والصوت الخ .

(ب) تقنين التقويم : توحيد المعيار الذى نرجع إليه فى الحكم على الإجابات أو الاستجابات . وحيث أنه لا يوجد معيار سابق فإننا نلجأ إلى مقارنة استجابات الأفراد . ويعتبر الأداء المتوسط فى الجماعة هو المعيار . من هنا أهمية منحنى التوزع والمتوسطات والانحراف المعيارى . (أنظر العمر العقلى كمعيار للذكاء) . وعادة ما نقيس الانحراف المعيارى أى نقيس التشتت، بمعنى مدى البعد عن المتوسط، لمجموع درجات الاختبار مما يمكننا من حساب الدرجة المعياريه للفرد .

(أ) فى تقنين التطبيق :

معيار الثبات ومعيار الصدق :

١ — الاختبار الثابت ينبغى أن يعطى نفس النتائج حين يطبق أكثر من مرة على فرد لم تطرأ عليه تغيرات فى الفترة الفاصلة من شأنها أن تغير من الظاهرة التى يقيسها الاختبار فى مرتين متعاقبتين (معامل ارتباط موجب تام + ١ ، أو لا ارتباط صفر ، أو ارتباط معكوس تام — ١) . ومن المألوف عند إعادة الاختبار أن نستخدم صورتين متكافئتين للاختبار حتى لا تتدخل آثار الذاكرة والتعلم .

٢ — الاختبار الصادق أى الصحيح : هو الاختبار الذى يقيس فعلا الظاهرة التى نريد قياسها ويستخدم الأداء الواقعى كمحك لصدق الاختبار (حالة سائقى العربات) . ومعامل الصدق لاختبار ما هو معامل الارتباط بين درجات الاختبار ودرجات المحك المستقل .

(ب) فى تقنين التقويم :

١ — المنحنى الجرسى أى التكرارى الاعتدالى : من زاوية ما إذا قمنا بتمثيل النتائج فى منحنى فهنا نجد الغالبية فى الوسط ويقل الأفراد كلما اتجهنا إلى الطرفين فى توزيع متصل. ويكون التوزيع على جانبى الخط المركزى متماثلا. أما المنحنى الملتوى فيكون فى حالة عدم صلاحية الاختبار أو عندما نقيس سمات تتصل بمسايرة القيم الاجتماعية أو الأخلاقية .

٢ — المتوسطات : إن القيمة المتوسطة هامة بسبب النزعة المركزية أى ميل الغالبية للاتجاه للتوسط . فالوسط الحسابى = $\frac{\text{مجموع الدرجات}}{\text{عدد الأفراد}}$

أما الوسيط فهو القيمة التى تقع فى الوسط بعد ترتيب جميع الدرجات تنازليا أو تصاعديا. وأما المنوال فهو القيمة أى الدرجة الأكثر شيوعاً فى التوزيع وهذه المتوسطات الثلاث تنطابق فى حالة المنحنى التكرارى .

٣ — قياس التشتت : أشهر مقاييس التشتت هى الانحراف المعيارى وهو يقيس التشتت بمعنى مدى البعد عن المتوسط لمجموع درجات الاختبار .

٤ — معامل الارتباط : مثال : مقارنة درجات تلاميذ فصل فى الطبيعة والكيمياء . حساب معاملات الارتباط يستند إلى قانون التغير النسبى عند ستيوارت ميل. والتحليل الإحصائى يستند أساسا إلى معاملات الارتباط .

٥ — التحليل العاملى: تحليل يرجع ارتباط الاختبارات أى الارتباط الموجب بين نتائجها إلى عوامل مشتركة يفترضها ، كالعامل العام فى مقاييس القدرات العقلية . فالتحليل الإحصائى يكشف عن العوامل الأولية الأولى التى هى بمثابة العناصر الأولية المكونة لوحدات سيكولوجية كالذكاء والشخصية .

المقاييس النفسية

تصنيف :

(ا) من حيث التطبيق : فردية وجمعية .

(ب) ومن حيث الأدوات : اختبارات أدوات وورقة وقلم .

(حـ) ومن حيث المهمة : اختبارات أداء أو لفظية .

(ء) ومن حيث الأولوية: اختبارات نمو أواختبارات قدرات (قياس فروق بين الأعمار أو فروق بين الأفراد) .

(هـ) من حيث الموضوع : ذكاء وقدرات عقلية خاصة أو قدرات خاصة أو اختبارات شخصية .

مقاييس الذكاء

١ — التعريف : (ا) الذكاء مقابل الفطرى الآلى إبداع ، ومقابل المفاجىء العشوائى فهم ومن ثم قدرة عقلية على التكيف للمواقف الجديدة ومن ثم قدرة على التجريد وإدراك العلاقات .

(ب) بعد محاولة قياس الذكاء استناداً إلى الخصائص البدنية أو القدرات البسيطة حسية أو حركية ، جاء بينيه فحاول ذلك عن طريق العمليات العقلية العليا . . . وضع بينيه لكل عمر زمنى مجموعة من الأسئلة تمثل العمر العقلى لهذه السن دون أن يهتم بتعريف الذكاء .

(حـ) ثرستون نظر إلى الذكاء لا من حيث العلاقات الدالة عليه وإنما من حيث العناصر الأولية المكونة والمستقلة نسبياً ، وكذلك ثورندايك . فالذكاء عنده هو

المتوسط الحسابى لعدد من القدرات العقلية الخاصة . أما عند سبيرمان فالذكاء عنده عامل عام يؤثر فى جميع القدارت العقلية الخاصة وإن اختصت كل قدرة بعامل خاص (لفظية ، عددية ، مكانية) (إدراك ، تذكر ، تفكير) (استنباط العلاقات) (معارف سابقة ومثابرة وسرعة) . فالذكاء ليس عملية عقلية معينة وإنما عامل عام يتبدى فى أنشطة عقلية مختلفة وخاصة أدراك العلاقات المجردة المرهفة الخبيثة .

المفاهيم الأساسية هى :

١ — العمر العقلى : يتحدد تبعا لمجموعة الأسئلة التى يجيب عليها الشخص (مستوى الذكاء) ويتغير مع النمو حتى ١٨ سنه .

٢ — نسبة الذكاء ثابتة $\frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر الزمنى}} \times ١٠٠$. فالذكاء المتوسط هو ١٠٠ ومن ١١٠ — ١٢٠ فوق المتوسط ، ومن ١٢٠ — ١٤٠ عال بعد ذلك ألمعية ؛ من ٧٠ — ٨٠ غباء ومن ٨٠ — ٩٠ دون المتوسط وأقل من ٧٠ ضعف عقلى (حتى ٢٥ معتوه ، من ٢٥ — ٥٠ أبله من ٥٠ — ٧٠ أهوك) .

مقاييس القدرات الخاصة

١ — القدرة عامة أو خاصة فطرية أو مكتسبة ، بسيطة أو مركبة . أما الأستعداد ففطرى كامن يصبح بالتعلم قدرة فعلية تصل حد المهارة . وتتوزع الأستعدادات فى أى مجتمع تبعاً للمنحنى الاعتدالى .

٢ — القدرة الميكانيكية : التحليل العاملى يكشف عن عامل عام هو الذكاء الميكانيكى . هذا إلى عوامل نوعية ثلاثة (أدراك المكان — علاقات مكانية — معرفية ميكانيكية) .

٣ — القدرات النفس — حركية : لا يوجد عامل عام وإنما عوامل نوعية مستقلة إلى حد كبير (تآزر نفس — حركى . تآزر يدوى بصرى . مهارة الأصابع من حيث الدقة والسرعة) .

٤ — القدرة الموسيقية : لا يوجد عامل عام وإنما يحدد من القدرات الخاصة : تمييز الأصوات من حيث الشدة ، تعرف الإيقاع ، تذكر الأنغام؛ وهى قدرات مستقلة عن بعضها وعن الذكاء العام .

٥ — عادة ما تستخدم مقاييس الذكاء والقدرات الخاصة والشخصية فى عمليات التوجيه والانتقاء (تحليل قدرات الشخص وميوله لمصالحتها مع إمكانيات البيئة بعد تحليل الأعمال من حيث ما تتطلبه من قدرات) .

٦ — التخلف الدراسى : هو تخلف عن متابعة الدراسة رغم أن الذكاء يسمح بذلك. نطبق مقاييس التحصيل لنتبين العمر الدراسى للحالة أى مستوى التحصيل عنده بالقياس إلى متوسط التحصيل عند التلاميذ من نفس عمره الزمنى . والفارق بين عمره الدراسى وعمره الزمنى يعبر عن مدى تخلفه .

$$\text{النسبة الدراسية} = \frac{\text{عمر دراسى}}{\text{عمر زمنى}} \times ١٠٠$$

مقاييس الشخصية

١ — المقياس السيكولوجى يحدد مكان الفرد بالنسبة إلى الجماعة . ومن هنا فإن اختبارات الشخصية التى تهدف إلى فهم الشخص دون تحديد لمكانه إنما هى مقاييس من قبيل المجاز .

٢ — صعوبة اختبارات الشخصية لأنها وحدة كلية لا تتضح بتجميع

القدرات الجزئية . يتمثل الحل فى قياس وحدات فرعية ضمن الوحدة الكلية (اتجاهات وميول وقيم ومجالات تكيف . . إلخ) .

٣ — من أشهر الاختبارات : اختبار مينيوستا المتعدد الأوجه للشخصية (تقييم ذاتى يترجم فى درجات تعين على رسم لوحة نفسية لأوجه الشخصية؛ عشرة أقسام كلينيكية للاختبار هى زوايا للنظر إلى الشخصية من حيث توهم المرض ومن حيث الاكتئاب والهستيريا . . . إلخ) .

وهناك اختبار روجرز للأطفال ينصب على زوايا الدونية والواقعية والتكيف الأسرى والتكيف الاجتماعى ؛ وهناك T. A. T والرورشاخ .

مقاييس التحصيل

١ — عيوب الامتحانات التقليدية (إعتماد خطوات الإجابة على الخطوة الأولى) أدت إلى ظهور الاختبارات الموضوعية أى مقاييس التحصيل .

٢ — مقاييس التحصيل رغم أسمها لا تقتصر على قياس التحصيل وإنما تقيس أيضاً مدى الفهم والقدرة على الربط وإمكانية الانتفاع بها فى الحياة ، والقدرة على النقد .

٣ — تختلف المقاييس التحصيلية عن الامتحانات التقليدية :

(ا) صياغة الأسئلة : أسئلة كثيرة تغطى المسطح ويتم تجربتها على عينة للتأكيد من عدم صعوبتها بدلا من أسئلة قليلة وصعبة .

(ب) الإجابة المطلوبة قصيرة بكلمة أو علامة ، ومستقلة عن بعضها ومتدرجة فى الصعوبة .

(ح) طريقة التصحيح : أصبحت بالتالى سهلة موضوعية يقوم بها صبى يملك مفتاح الإجابة .

(ء) تحديد النتيجة : بعد أن كانت الدرجات الخام تتحول إلى ترتيب

لا يكشف عن المسافة الفاصلة أصبحت تتحول إلى درجات معيارية تستند إلى الانحراف المعيارى ويتم إجراؤها على عينه بحيث يكون الامتحان التحصيلى مقنناً .

٤ — خطوات إعداد الامتحان التحصيلى : تحديد الهدف وتخطيط المضمون بالرجوع إلى الأوزان المختلفة لمجالات المنهج ، ثم صياغة الإجابة، ثم تجربة الاختبار وتعديله إن لزم الأمر ثم التحقق من صدقه وثباته .

القسم الرابع

فى الطرائق الكلينيكية لفهم الشخصية

الفصل العاشر

المنهج الكلينيكي والمقابلة الشخصية

لفظة « كلينيكى » مشتقة من اليونانية، حيث « كلينيكوس » تعنى مختلف أوجه العلاج الطبي التى تبذل للمريض فى فراشه وحيث « كليني » يعنى الفراش وحيث « كليناين » يعنى يضطجع . ولكن هذه اللفظة قد اتسع معناها فنحن نجدها أولا تشير إلى هذا الفن الذى ينحصر فى استجواب وفحص وملاحظة المرضى ، وإجراء التشخيص لهم ، واستشفاف التطور المقبل للمرض ، وتحديد العلاج اللازم له . ولكننا نجد اللفظة بعد ذلك تشير إلى الدراسة العميقة للحالات الفردية .

أهمية المنهج الكلينيكى :

من المعلوم أن علم النفس قد أحرز منذ بدايه القرن العشرين تقدماهائلا فى طرائقه التجريبية التى تعتمد على القياس والتقنين والمعايير ، حتى أننا نجد اليوم مايزيد على الألفين من مختلف المقاييس والاستخبارات وسلالم التقويم . ولكن على الرغم من تعدد هذه المحاولات وتباينها فإنها تظل قاصرة أمام تعقد الكائن البشرى وثراء بنيته ومن ثم عن الإمساك بشخصيته وفهمها . فالمقاييس والاستخبارات وإن اتسمت بالتقنين الكمى الذى يكسبها مظهر الدقة الموضوعية ، وما إلى ذلك من أشكال الصنعة العلمية ، وذلك بالتقنين الكمى الذى يكسبها مظهر الدقة الموضوعية ، من حيث أنها تقدم النتائج فى أرقام يسهل مقارنتها وتصنيفها بالرجوع إلى الدراسات الإحصائية ، فإنها مع ذلك تقتصر على تحديد هذا الوجه أو ذاك من الأوجه الجزئية للشخصية ، تمسك به «هاهنا وفى اللحظة الحاضرة» دون

أن تقيم حسابا للشخصية من حيث هى وحدة كلية حالية ووحدة كلية زمنية وقوى تتمخض صراعاتها عن محصلات هى المسالك والميكانيزمات الدفاعية .

فإن هذه الطرائق القياسية حين تريد أن تبلغ إلى نظرة إجمالية عن الشخصية فإنها تلتجىء إلى رص وإضافة هذه الأوجه بعضها إلى بعض وكأن الشخصية لا تعدو أن تكون مجرد حاصل جمع لهذه الاوجه . وأكثر من ذلك أن هذه الطرائق لا تضع فى اعتبارها الدينامية والصبر ، وما ينطوى عليه الوجه الواحد الذى تقيسه من إمكانيات كامنة مضمرة يمكن أن تتكشف أو تتطور مع الزمن . هذا إلى ما يتسم به موقف التجريب والقياس من طابع مصطنع يحتم علينا التريث قبل أن نسحب نتائجه بحسبانها تصدق على مواقف الحياة الحقة التى يعيشها الشخص .

يتضح هذا مما حدث عند تطبيق المقياس الخاص بالمهارة اليدوية على واحد من أشهر الجراحين فكشف المقياس عن انعدام المهارة اليدوية عنده . ولما كان واقع حياته كجراح ناجح يقدم الدليل على كذب المقياس فقد ابتدع البحاث لتفسير هذه الظاهرة ما أسموه « بحشد القدرة » ، بمعنى أن الجراح قد حشد مهارته اليدوية فى مجال الجراحة فخلت من هذه المهارة المجالات الأخرى . وفى هذا ما يرينا ضرورة النظر إلى الشخصية كوحدة كلية حالية يتحتم علينا أن نستطلع مجالاتها المختلفة والوظائف المختلفة لهذه المجالات فى صلتها بعضها بالبعض وفى صلتها بالوحدة الكلية للشخصية . وذلك حال الإخصائى الاجتماعى الذى يضطلع بدراسة حالة من حالات البطالة ، فقد يقتصر على مجال العمل بينما قد يكمن الدافع الحقيقى لبطالته فى أحد المجالات الأخرى . فلقد ظهر فى أحد هذه الحالات — وعلى الرغم مما كان يدعيه الشخص ويتعلل به من ظروف خارجية — أنه لا يريد أن يعمل حتى لا يتيح مزيداً من الرغد لزوجته هذه التى كان يمقتها من أعماقه . كان يرى أن فى معاشه ما يكفيها .

لم يكن ينتوى الزواج منها ، فقد عرفها من قبيل التسلية لاغير أثناء الحرب العالمية الأولى وتصادف أن حملت منه ثم أصيب فى أحد المعارك وساقته مشاعر الإثم التى كان يفهم من خلالها إصابته إلى أن يتزوج من الفتاة إصلاحاً للخطأ الذى أنزله بها. هو إذن لم يكن فى حياة زوجية وإنما فى هيكل يضطلع فيه بالتكفير عن آثامه لسنوات طويلة .

مسلمات المنهج الكلينيكى

كلمة « كلينيكى » كانت تعنى فى الأصل كما قلنا شتى مظاهر العلاج الطبى التى تبذل للمريض فى فراشه . ولكن تطور المعنى فأصبح يشير إلى فن استجواب وملاحظة المريض وتشخيص المرض والتنبؤ بتطوره وتحديد العلاج . وتطور المعنى بعد ذلك حتى صار إلى ما هو عليه الآن . فالمنهج الكلينيكى يعنى اليوم الدراسة العميقة للحالات الفردية بصرف النظر عن انتسابها إلى السوية أو المرض . وثمة مصادرات ثلاث يستند إليها المنهج الكلينيكى :

(ا) تستند المسلمة الأولى إلى التصور الدينامى للشخصية بمعنى أن ننظر إليها وإلى المسالك التى تصدر عنها على أنها نتاج تفاعل الأجهزة المختلفة أو قل نتاج الصراع ما بين القوى المختلفة . فالدراسة السيكولوجية للشخص ليست فى الواقع غير دراسة لصراعاته . فكل كائن بشرى بل وكل كائن حى يوجد دائماً فى موقف صراع. فليست الحياة غير سلسلة متصلة من الصراعات ومحاولات حلها ، أو قل من ضياع الاتزان ومحاولة إعادة الاتزان . والكائن المتكيف هو الذى يستطيع أن ينهى صراعاته بمعنى أنه يزيل توتراته ويشبع حاجاته . أما الكائن غير المتكيف أو عديم التكيف فهو هذا الذى لا يبلغ إلى إنهاء التوترات فليتجىء إلى الدفاع ضدها . وينطوى مفهوم الدفاع فى أشكاله غير

الناجحة على النكوص مثلما يحدث عندما يعجز الجيش عن مواجهة العدو فيتقهقر حتى يصل إلى هذه النقطة من خطوطه التى كان قد ترك عندها فى تقدمه أكبر عدد من قواته . ولو عبرنا عن ذلك بلغة علم النفس لقلنا أن الكائن البشرى الذى لا يقتدر على التكيف فى المستوى الراشد إنما ينكص إلى هذه المرحلة من مراحل تطوره والتى ترك عندها أكبر جانب من طاقته أى إلى مرحلة التثبيت . وفى الحالة التى ينكص فيها الكائن البشرى إلى مرحلة من مراحل الطفولة، بمعنى أنه يواجه المشكلة من زاوية الطفولة ، فذلك هو العصاب أو المرض النفسى . أما إذا بلغ الشخص فى نكوصه إلى هذه المرحلة السابقة على التمايز ما بين الذات والعالم الخارجى ، ومن ثم يلغى المشكلة بالغائه للعالم الخارجى من حيث هو كذلك ، فذلك هو الذهان أو المرض العقلى .

مثال يتضح منه كيف أن فهم الشخصية هو فى صميمه كشف عن نوعية القوى المصطرعة عندالشخص وما تتمخض عنه الصراعات من مسالك هى بمثابة الميكانيزمات الدفاعية أو محصلات القوى ، وذلك هو ما يعبر عنه البعض من زاوية أخرى حين يقرر أن فهم الشخصية يتحقق بالكشف عن المواقف النوعية التى تثير عند الفرد مشاعر القلق والوسائل الدفاعية الخاصة التى يستخدمها هذا الفرد فى مواجهة القلق .

يتضح هذا من حلم لشاب فى الخامسة والعشرين من عمره تقريباً ، وهو فى مرحلة العلاج النفسى . فى المشهد الأول يرى نفسه يجرى مسرعا وراء القطار ولكنه يعجز عن اللحاق به ، فيعود إدراجه إلى منزله . فى المشهد الثانى يدخل على شقيقته الكبرى (وهى التى يتشبث بها عاطفياً بعد وفاة أمه) فيجدها تمسك سكيناً تنظف بها كمية من سمك الثعابين . وكان فى يدها سمكة ثعبان كانت قد شقتها بضربة سكين فى جنبها . ونقتصر على هذا القدر من الحلم .

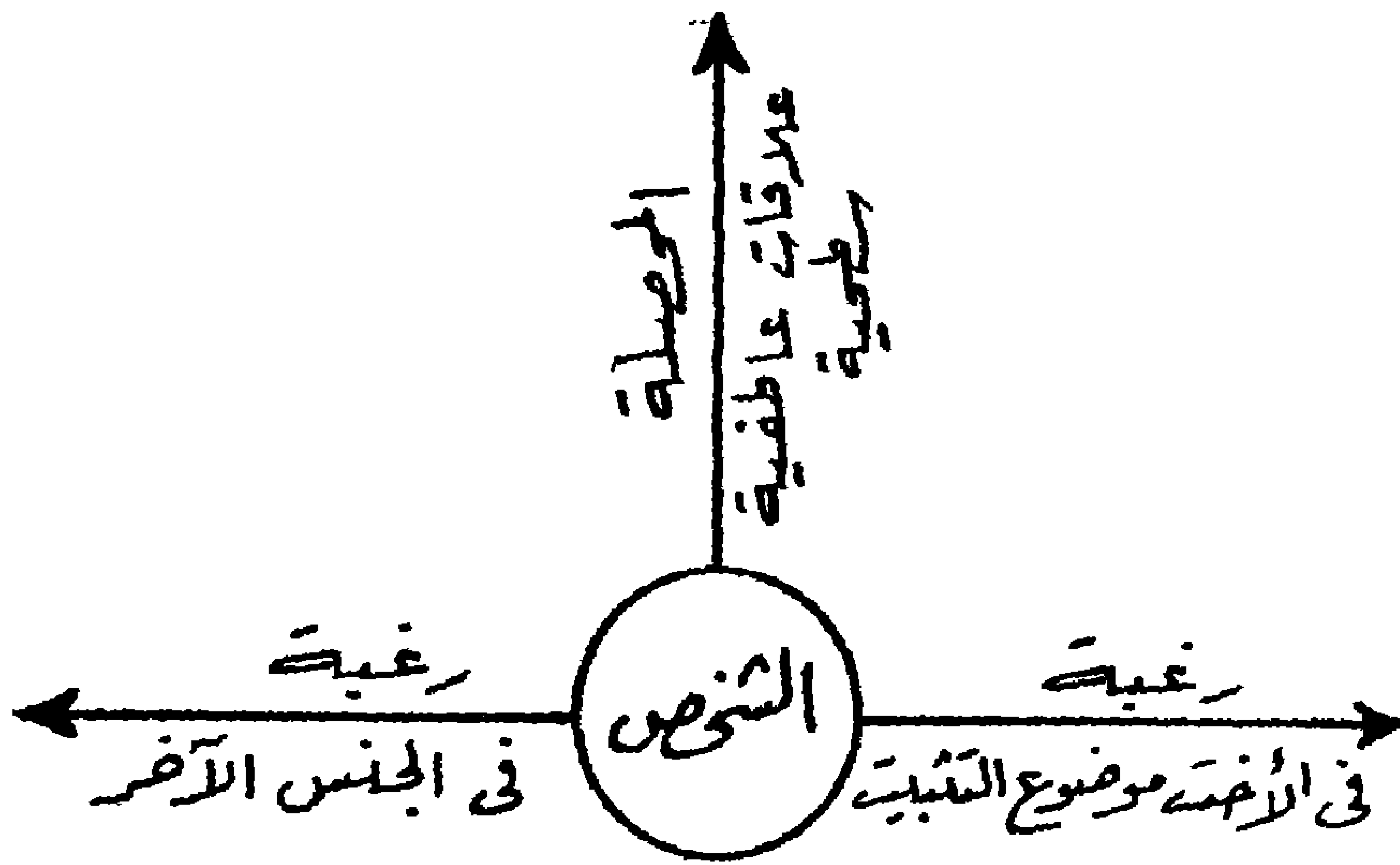
يتضح من المشهد الأول وبالرجوع إلى المعطيات العديدة الأخرى قيام صراع بين قوتين . فمن ناحية الرغبة الجنسية التى تتبدى فى محاولة اللحاق بالقطار . ومن ناحية أخرى مضاد لهذه الرغبة يتمثل فى تثبيت على الأخت. ومن هنا كان عدم اللحاق بالقطار هو سبيله ليعود أدراجه إلى الأخت . محصلة هاتين القوتين المتعارضتين تتمثل فى حياته فى علاقات مع عدد كبير من الفتيات ، دون أن تبلغ أية علاقةمنها شيئاً من العمق العاطفى . كان يبدو وكأنه يفتش بين أكبر عدد من الفتيات عن واحدة يستطيع أن يستجيب لها . ولكنه كان بذلك يموه على نفسه حقيقة تثبيته ويبدو لنفسه وكأنه غير مقصر فى التفتيش والبحث والتقصى ، ولكنه لم يوفق ،ومن هنا انكفاءته وعودته إلى الأخت .

العلاقة السطحية غير العاطفة تمثل محصلة بين الرغبة فى الجنس ومضاد هذه الرغبة الذى يشدة تثبيتاً إلى الأخت .

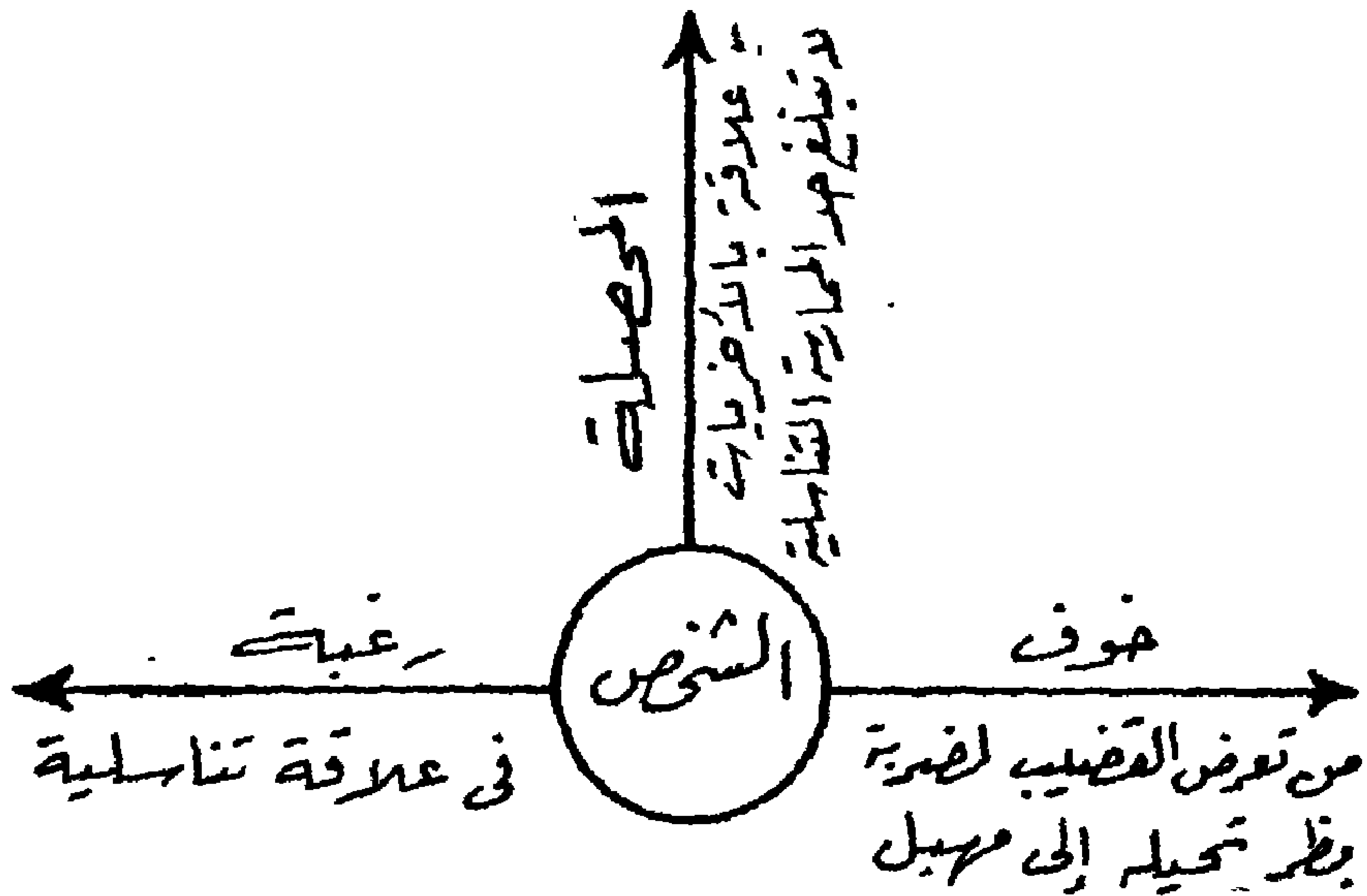
وفى المشهد الثانى تتبين هذا الصراع على مستوى أعمق . فسمك الثعابين تعبير رمزى عن القضيب ،أما تصوره للمرأة على نحو ما تبرز فى موضوع حبه الأصلى (الأخت) فهى امرأة خاصية . بل وأكثر من ذلك أن الاتصال العميق معها فى المستوى التناسلى يعرض القضيب للخصاء ، والذكورة للضياع . وضربة السكين فى جنب السمك الثعبان ، وهو جنب مصمت حاد ، تحيله إلى فتحة مستطيلة ذات شفرين ، تحيله إلى مهبل .

وهكذا يتكشف الصراع فى أعماقه : رغبة فى الجنس الآخر ومضاد للرغبة يتمثل فى مخاوف الخصاء التى يتعرض لها عضوه عند الدخول لو أنه دخل فى علاقة حيمة مع العضو الذكرى الحاد للمرأة . وتبدو المحصلة منطقية معقولة من حيث هى سلوك مغازلة الكثير من الفتيات دون أن تبلغ العلاقة قط لا إلى عمق عاطفى (بسبب التثبيت على الأخت) ، لا ولا إلى المستوى التناسلى (بسبب مخاوف الخصاء) .

المستوى الأول



المستوى الثاني



رسم توضيحي لصراع عميق بين دافعين ينتهي إلى محصلة وسط بينهما

ولو نظرنا إلى هـــذا كله من زاوية المواقف النوعية التى تثير القلق ، والوسائل الخاصة التى يتبعها الفرد دفاعاً ضد هذا القلق ، لرأينا أن موقف المواجهة أمام مهبل المرأة يثير فى هـذه الحالة قلقاً شديداً ، وأن وسيلته الأساسية للدفاع هى أن يتجنب لعلاقته مع الفتاة أن تتخطى حدود السطحية .

وفى حالة أخرى نجد مثل هذا الموقف النوعى ، وهو الخوف من المهبل ، يدفع الفرد إلى اتخاذ الجنسية المثلية الإيجابية سبيله للدفاع ضد هذا القلق بحيث يضمن لجنسيته أن تظل دائماً أبدا بعيدة عن هذا الخطر الذى يمثله المهبل (فى حلم ، يسير وقد أمسك غابة طويلة ، ومن نافذة فى بيت مدير حدائق الحيوان تمد غوريلا يدها فى حركة فجائية تريد أن تجذب الغابة وتكسرها . فى أحلام أخرى : سقوط فى الماء حيث التمساح برأسه المثلث الشكل يفتح فمه وتلمع أسنانه فى تهيؤ لابتلاعه ويصحو مذعوراً .)

(ب) وتنحصر المسلمة الثانية فى النظر إلى الشخصية كوحدة كلية حالية . فقد كانت العناية فى البداية تقتصر على مجرد الأعراض الخاصة بالمرض فى انعزال عن الشخصية ، وكأن هذه الأعراض لا تنتسب إلى شخص بعينه يعيش فى بيئة بعينها . أما المنهج الكلينيكى اليوم فليس للأعراض عنده من دلالة أو معنى إلا بالرجوع للوحدة الكلية للشخصية فى صلتها بالعالم . ومعنى هذا أن النظرة الكلينيكية لا تقتصر على قطاع أو قطاعات سلوكية بعينها وإنما تضع موضع الاعتبار كافة الاستجابات التى تصدر عن الشخص من حيث هو « كائن عيانى مكتمل مشتبك فى موقف » . ومهمة الكلينيكى تنحصر فى محاولة تحديد مكان هذا السلوك أو هـذا العرض ضمن وحدة الشخصية ككل ، بمعنى أنها تحدد دلالته ووظيفته .

(ح) أما المسلمة الثالثة فتنصب على الشخصية كوحدة كلية زمنية . فاستجابة الشخصية بإزاء موقف مشكل إنما تتضح فى ضوء تاريخ حياة الشخص

بل واتجاهه بإزاء المستقبل . فالتشخيص يستهدف الإمساك بلحظة من لحظات تطور الكائن البشرى .

يترتب على هذه المصادرات أن يشتمل المنهج الكلينيكى بالضرورة على ركيزتين :

١ — الركيزة الأولى هى ملاحظة السلوك على نحو يسمح بتبين الوحدة الكلية الحالية للشخصية فى استجابتها للموقف النوعى الذى هو موقف الفحص .

٢ — الركيزة الثانية هى الحديث الذى يتيح لنا من المعطيات التاريخية ما يسمح بتحديد مكانة المعطيات الحاضرة من إطارها التاريخى . ومعنى هذا أن هذه الركيزة تحاول رسم حياة الشخص ، وهى تبلغ إلى ذلك إما عن طريق الاستجواب الذى يذكرنا فى شكليته بالمحضر البوليسى وإما عن طريق المحادثة الطليقة التى لا تتقيد بخطة مسبقة .

المقابلة الشخصية

إن المقابلة الشخصية أو المحادثة الشخصية يمكن أن تتخذ جملة من الأشكال التى تتراوح مابين الصورة المقننة للاستجواب ، أى صورة الاستجواب المنهجى ، والصورة الطليقة للتداعى ، وهى السائدة فى التحليل النفسى ، والتى لا تتقيد بخطة سابقة أو بأنموذج مرسوم ومحدد . وسوف نعرض بعد قليل لهذين الأسلوبين البارزين : الأسلوب المقيد والأسلوب الطليق للمقابلة .

ويعد المنهج الكلينيكى فى صورته الاستجوابية منهجاً قديما . فمنذ عام ١٩٣٣ ينصح كورديه باتباع الدبلوماسية تجنبا للأسئلة الحرجة وما يلحق بها من أكاذيب، ولكنه كان يحصر همه فحسب فى دراسة تاريخ المرض وتتبعه . إن رسما كهذا لتاريخ الحياة لا يختلف فى شىء عن هذا الذى ينتهى إليه الطبيب البيطرى باستجوابه للرجل صاحب حمار أو كلب مريض. وهذا هو ما يشير إليه سجوين حين يرى أن هذه الطريقة لا تنظر إلى المريض قط بحسبانه شخصاً كاملا وكلا متكاملا . وخلاصة هذا كله أن إقامة الصلة الطيبة مع المريض لهى اليوم بالأمر الذى لابد منه. فالصلة مابين الطبيب والمريض تعد غاية فى الأهمية نظراً لما يطبعها من خصائص مميزة، فلو شعر المريض مثلا ولو شعوراً غامضاً بأن الطبيب لا يحفل به أو أنه قد غفل ، فإن المريض لا يدلى بل ولا يستطيع الإدلاء بكل المعطيات اللازمة للتشخيص الحق . فالمقابلة ينبغى أن تتم فى إطار يتسم بالود ، تبدأ بمصافحة اليد وتنتقل إلى عمل المريض وهواياته وأعماله ومشاغله . . الخ ففى هذا مايسمح بتحقيق الارتخاء النسبى ، من حيث أنه يتيح له التخلص من بعض توتره وبالتالى يسمح له بأن يتحدث فى حرية . هذا هو الأثر التنفيسى للمقابلة من حيث هى فرصة تسنح للمريض كيما يتخلص عن طريق الإفراغ اللفظى والاعتراف بالسر من بعض ما يثقل نفسه .

أهـــــداف المقابلة

ينبغى للمقابلة تبعاً لما يراه فلاندرز دنبر عام ١٩٤٣ أن تكشف عن النقاط الثلاث الآتية :

(أ) استجابات المريض السابقة منها والحالية تجاه :

١ — ذاتة وجسمه ٢ — عائلته ٣ — عمله

٤ — بيئته الاجتماعية فى مراعاة للوضع الاقتصادى والعقيدة والأصدقاء .

٥ — حياته الجنسية (ذاتية أو مثلية أو غيرية)

٦ — مرضه الحالى .

(ب) مدى استعداد المريض وتهيئه سبقاً كتربة للمرض وذلك بكشف :

١ — الصراعات النفسية الهامة ٢ — التكوين الجسمانى

٣ — العوامل الوراثية .

٤ — العلاقة الزمنية ما بين الأحداث الصدمية أو فترات التوتر وبين لحظة انبثاق الصراع أو ظهور الأعراض .

٥ — الأعراض التى هى مظاهر يتبدى خلالها الصراع . وهى فى الوقت نفسه وسائل دفاع ضد هذا الصراع .

(حـ) مدى رغبة المريض فى الشفاء ،وذلك بكشف :

١ — اتجاهه وموقفه من الأمراض الحالية والسابقة .

٢ — المزايا والفوائد التى يكسبها من وراء المرض .

٣ — الهدف والدلالة الخاصة للأعراض .

٤ — حظ المريض من القدرة على حل الصراع .

أولا : الأسلوب المقيد للمقابلة ، أنموذج الاستجواب :

يستند هذا الأسلوب إلى أنموذج محددلاستجواب الشخص أو المريض فى صورة استخبار مقنن ونكتفى هنا بأن نقدم هذا الأنموذج الذى أورده ألبرتو سجوين عام ١٩٥٠ ، وهو يقتصر على رءوس موضوعات فى أثنى عشر ميدانا للبحث :

(أ) المرض الحالى : ينبغى أن نترك المريض يتحدث فى حرية عن أعراض مرضه فلقد جاء من أجل ذلك .

ينبغى أن نلح حتى نتبين متى كان إحساسه وكيف كان إحساسه بالأعراض الأولى ، ثم ماذا كان منه عند ذلك وما الذى ترتب على ذلك .

ينبغى ألا نقع فى خطأ الإيحاء للمريض بإجابة ما ، فلا ينبغى مثلا أن نسأله ما إن كان يستشعر هذا العرض أو ذاك من الأعراض المرضية التى لم يتحدث عنها .

(ب) الأسرة : نسأل المريض عما إذا كان والده لا يزال حيا ، وعن عمره وصحته وعمله ، وعن أى نمط من الرجال هو ، وعما إن كان يسرف فى الشراب الخ . فإذا ما انتهينا من الأسئلة المتعلقة بالوالد أعدناها فيما يختص بالوالدة فالإخوة والأخوات والأجداد والجدات . نسأل المريض عما إذا كان قد عاش حتى اليوم بين والديه ؛ فإن أجاب بالنفى سألناه عن الأشخاص الذين عاش معهم مكررين الأسئلة السابقة . نسأله عن الطريقة التى تمت عليها تربيته ومدى ما كانت تتسم به من تسامح أو صرامة .

نسأله عما إذا كان قد نزل به العقاب؛ فإن أجاب بالإثبات سألناه لماذا وكيف وممن . نسأله كيف كانت استجابته . ونسأله عمن كان أكثر الأشخاص تدليلا له . ونسأله عما إن كان يفضل فى حبه والده أو والدته ملحين عليه حتى نبلغ إلى الإجابة ، فهناك دائماً اختلاف فى درجة الحب . نسأله عمن كان يحظى بتفضيل الأب وعمن كان يحظى بتفضيل الأم . نسأله عما كان عليه تفاهمه مع أخوته وأخواته ، وعما كان عليه تفاهم الوالدين فيما بينهما، ونسأله فى النهاية ما إن كان يشعر بالسعادة بين أهله .

(حـ) الطفولة : نسأل المريض عن طفولته وعن أى نمط من الأطفال كان فى طفولته من حيث الهدوء أو الشراسة . . الخ . نطلب إليه جميع المعطيات المتصلة بتطوره الجسمانى والنفسانى مبتدئين فى ذلك من الحمل للولادة لننتقل إلى الفطام فالمشى فالكلام الخ . نسأله عن السن التى انتهى عندها تبليله لفراشه؛ ونستفسره عما إذا كان قد مارس قضم أظافره . نطلب إليه ما إن كان قدمر بنوبات عصبيه .

(د) سنوات التعليم : نسأل المريض عن السن التى ذهب فيها إلى المدرسة وعما كانت عليه استجابته . نسأله هل كانت له كثرة من الأصدقاء ، وعن طبيعة اللعبة التى كان يحب أن يمارسها . نسأله هل كان يشعر بالميل إلى تزعم الغير أم إلى إقتفاء أثرهم . نسأله عن الحد الذى انتهى إليه ووقف عنده فى دراسته وعن المادة التى كانت تحظى بشغفه واهتمامه ، وعن المهنة التى كان يتمنى أن يزاولها حين يكبر .

(هـ) العمل : نسأله عن عمله الأول ، طبيعته وماكان عليه ، ومدى ماكان يشعر به من تعلق تجاهه . نطلب إليه الدافع الذى دفعه إلى هذا العمل والفترة التى زاول خلالها هذا العمل، ثم نطلب إليه السبب فى تركه له أو إرتحاله عنه . نستفسره عما إذا كان شغوفاً بعمله الحالى وعما إذا كان راضياً عنه . ولما

نسأله عما يطمح إليه نطلب إليه ما إن كان قانعاً بأجره راضيا بمرتبه . هذا إلى الأسئلة الأخرى التى نحاول بها الكشف عن موقف المريض تجاه ظروف حياته من مشاكل مادية وصراعات انفعالية وصدمات نفسية تتعلق بالعمل .

(و) مكان الإقامة : نسأله عن تاريخ ارتحاله لأول مرة عن مكان ميلاده ، وعن السبب الذى دعا إلى ذلك ثم نطلب إليه ما إن كان محل الإقامة الجديدة ينزل من نفسه منزلة الرضا . تتكرر الأسئلة بالنسبة إلى كل مكان أقام فيه .

(ز) الحوادث والأمراض : نتناول بالأسئلة كل حادث على حدة حتى نأتى عليه بالفحص منتبهين إلى ظروف الحادث بالنسبة إلى الحالة النفسية التى كان عليها الشخص وقتها ؛ ففى ذلك ما يكشف لنا عن مدى استعداده السابق تجاه الحوادث من حيث هو استعداد يرجع إلى دافع لاشعورى . نسأل عما كانت عليه استجاباته كما نسأله عما يراه من رأى تجاه العاهات . نستعرض الأمراض التى نزلت به محاولين بذلك أن نبلغ إلى وصف دقيق لأعراض المرض واستجابات المريض النفسية تجاهه فإذا ما بلغنا هذا الحد من الاستجواب اتخذنا من الأسئلة المنصبة على الأمراض الجنسية ما يعيننا كمعبر على الدخول إلى صميم الحقل الجنسى .

(ح) الحقل الجنسى : ويعد هذا الميدان أصعب الميادين تناولا بالاستجواب ، وإن كان بوسعنا مع ذلك أن نبلغ بالمريض إلى أن يتحدث عنه فى حرية بل وأن يشعر فى حديثه بكثير من الراحة والتخفف . يتأتى هذا حين نوفق إلى تخطى هذه المسافة النفسية التى يشعر بأنها تعزله عنا وذلك بتحقيق جو من الثقة والفهم بعيداً عن الحياء المصطنع والاستطلاع الشغوف . ويمكن القول بأن الصعوبة التى يشتهر بها هذا الحقل الجنسى ترجع إلى اتجاه الإخصائى وموقفه منه أكثر مما ترجع إلى مقاومة المريض وعناده .

فمما يتصل بالرجل نسأله عما إن كان يشعر بميل قوى تجاه النساء ، وعن الوقت الذى بدأ فيه حياته الجنسية . وفى ذلك ما يدفعه إلى الحديث عن تجارب المراهقة والفترة السابقة عليها . نسأله هل كان يشعر إبان الطفولة وبداية الصبا بالرغبة القوية فى استكشاف مجاهل الحياة الجنسية ،ونطلب إليه ماإذا كان قد حدث له أن حضر مشهد اتصال جنسي. نسأله فيمانسأله عن الوقت الذى استطاع فيه أن يدرك لأول مرة وجود فارق بين الجنسين . ونطلب إليه ما كانت عليه استجابته تجاه ذلك . نسأله عما كان عليه اعتقاده فيما يتصل بميلاد الأطفال ، وعما كان عليه رأيه تجاه الزواج . نطلب إليه أن يحدد الوقت الذى بدأ فيه الاستمناء؛ولا ينبغى أن يتخذ السؤال صورة الاستفهام الحيادى بمعنى ما إن كان الشخص قد قام به أم لا . نسأله بعدذلك عن أحلام اليقظة التى كانت تصاحب عملية الاستمناء وتعين عليها . نسأله ما إن كان يستمنى بين حين وآخر حين تسنح له الفرصة . ونسأله عن الوقت الذى باشر فيه العملية الجنسية لأول مرة وكيف حدث ذلك ؟ ومع من حدث ذلك ؟ نحاول أن نتبين ما إن كان الاتصال الجنسى الأول قد تم بفعل المبادأة الشخصية أو نتيجة لغواية الأصدقاء إلى آخر ذلك من الدوافع . نساله بعد ذلك عن نوع الأثر الذى خلفه فى نفسه هذا الاتصال الأول . ونسأله عن الطريقة التى أتبعها عند مباشرته للفعل الجنسى من حيث اعتمادها على العاطفة أو دفع مقابل مادى .

ننتقل بالأسئلة إلى الاستفسار عن اتصالاته الجنسية الحالية . فنتبين معدل تكرارها ومدى تبدل موضوعها وما قد يكون من قذف مبكر أو تعذر أو استحالة النشوة . . . إلخ . نسأله عن استجابته عقب الفعل الجنسى .

نطلب إليه بعد ذلك ما إن كان قد شعر بميل قوى إلى أن يعيش تجربة الحب . ونسأله عن أول مغامرة غرامية له محاولين أن نبين كيفية انبثاقها

وفترة استمرارها وطبيعتها ونهايتها . نكرر الأسئلة بالنسبة إلى كل مغامرة من مغامراته العاطفية .

ننتقل بعد ذلك إلى الزواج بالنسبة إلى الشخص المتزوج ، فنسأله عن الكيفية التي تم بها اللقاء والتعارف مع زوجته ، وعن الفترة التي قضاها في مغازلتها. ونسأله عما يعتقد أنه الدافع الذى دفع به إلى حبها . وينبغى أن نلح عليه بهذه الأسئلة حتى ننتهى إلى الكشف عن الدافع الذى يكشف لنا بدوره عن الجوانب العميقة للشخص. وهناك فارق بين قوله بأنه قد أكره على ذلك، أو أنه ينبغى له أن يستقر ويجد الزوجة التى تستطيع أن تسهر على راحته ، وبين قوله بأنه كان يحبها من أعماق قلبه . . إلخ .

نسأله عما إن كان يتشاجر كثيراً مع زوجته، ولا ينبغى أن يتخذ السؤال صورة الاستفهام الساذج عما إن كان متفاهماً مع زوجته . نطلب إليه ما إن كان لديه أطفال . فإن أجاب بالإيجاب استرسلنا معه فيما كان عليه الحمل والوضع وما كانت عليه تنشئة كل منهم . فإن أجاب بالنفى طلبنا إليه سبب ذلك . نسأله عما يراه فى مدى تفاهمه الجنسى مع زوجته . نسأله بعد ذلك عما إن كان يحدث له أن يتصل جنسياً بين حين وآخر بغير زوجته؛ فإن أجاب بالإيجاب طلبنا إليه أن يتحدث عما يدفعه إلى ذلك . نسأله أخيراً عن رأيه فى النساء على وجه العموم .

أما فيما يتصل بالمرأة فمن المهم أن نسأل عن السن التى بدأت عندها دورة الطمث وعما إن كانت قد هيئت لذلك من قبل أم أن الأمر كان بالنسبه إليها مفاجأة ومصدر ذعر . نسألها هل كانت على إلمام بالأمور الجنسية قبل أن يأتيها الحيض .

وينبغى علينا بعد ذلك أن نوجه إليها نفس الأسئلة التى توجه إلى الرجال فيما يتصل بالجنسية إبان الطفولة والصبا . نطلب إليها ما أن كان لها

كثرة من المعجبين والمحبين، وكم كان عمرها حين أحبت لأول مرة. ثم نوجه إليها نفس الأسئلة التي توجه إلى الرجال فيما يتصل بكل مغامرة من مغامراتها العاطفية. نسألها تبعاً للحالة عما إن كان لها صديق في الوقت الحاضر أو عن السبب الذي دفع بها إلى الزواج. نطلب إليها ما كانت عليه استجاباتها ليلة الزفاف ثم نستطرد موجهين إليها نفس الأسئلة التي توجه إلى الرجل فيما يتعلق بالحياة الزوجية والأطفال . نسألها ألم يدر بخاطرها قط أن من الجائز أنها كانت تكون أكثر سعادة مع رجل آخر . ونسألها بعد ذلك عما إن كانت قد حاولت تبين ذلك .

نختتم الأسئلة طالبين إليها ماتراه من رأى في الرجل على وجه العموم .

(ط) العادات والمشارب : نسأل المريض عما يفعله خارج ساعات العمل . نسأله عما إن كان له كثرة من الأصدقاء المقربين . وكيف يقضى الوقت معهم. وفي حالة ما يجيب المريض بأن ليس له من أصدقاء نسأله عن سبب ذلك . نسأله عما إن كان يؤمن بعقيدة من العقائد الدينية وعن السبب الذي دفعه إلى اختيار هذه العقيدة أو استبدالها بأخرى إن كان هناك ثمة اختيار أو إبدال . كما نسأله عن مدى ممارسته لعقيدته . نطلب إليه بعد ذلك ما إن كان يسرف في الشراب، والنوع الذي يشربه، والمكان الذي يشرب فيه . ونطلب إليه ما إن كان الإسراف في الشراب لا يضره . وينبغي علينا أن نعيد السؤال فيما يتصل بالتدخين فتعاطى المخدرات . نطلب إليه آراءه السياسية بعد أن نفهمه أن اهتمامنا لا يتعدى مجال الحدود المهنية . نطلب إليه فلسفته في الحياة بمعنى المبادىء التي يهتدى بهديها في سلوكه .

(ى) اتجاهه من أسرته : نطلب إلى المريض أن يحدد الأفراد الذين يعيش معهم والسبب في تواجدهم معه . نسأله عما إن كان يعانى الكثير

من المضايقات فى بيته . ونسأله عن طبيعة العلاقة التى تربطه ببقية أفراد أسرته . . إلخ .

(ك) اتجاهه من المرض الحالى : نسأل المريض عما يعتقد أنه السبب الذى يمكن أن ينسب مرضه إليه . ونسأله عما يعتقد أنه السبيل لتحقيق شفائه نطلب إليه ما ينتوى فعله حين يتحقق له الشفاء . الإجابة على هذا السؤال تتضمن على وجه الدقة ما لا يرغب المريض فى أعماقه أن يفعله .

(ل) الأحلام : نسأل المريض عما إن كان ينام جيداً وعما إن كان يعانى الكابوس . نطلب إليه ما إن كان يحلم ونلح عليه حتى يقدم إلينا على سبيل المثال بعض أحلامه .

ثانيا : الأسلوب الطليق للمقابلة الشخصية :

يرفض فريق من النفسانيين استخدام الاستجواب المنهجى مفضلين سلسلة من الأحاديث الحرة الطليقة التى لا تتقيد بأنموذج أو خطة سابقة . فهم يتركون الشخص ليتحدث فى حرية كيفما يشاء وبما يشاء .

— ويستند هذا الأسلوب إلى ما لدى الفرد من ميل تلقائى للتفتح المنطلق بل وللاعتراف والتخفف .

— وتعد هذه الطريقة ضرباً من العلاج النفسانى غير الموجه إذ تلح بالأهمية على الجانب الانفعالى من الشخصية أكثر منها على الجانب العقلى .

— بل تتشابه هذه الطريقة مع ما يسمى التحليل النفسانى الفعال من حيث

أنها تتجه بالاهتمام إلى الموقف الحاضر أكثر مما تفعل بالنسبة إلى التجارب العديدة الماضية .

— وتتميز العلاقة مابين المعـــالج والمريض بالتلقائية والتفتح ، بمعنى أن المعالج يعمل من جانبه على إزالة مامن شأنه أن يعترض سبيل هذا التفتح عند المريض. ومهما يكن من أمر فإن هذه الطريقة تمتاز بما تتيحه من معرفة عميقة بالشخصية سيما بدوافعها اللاشعورية . ولـكن يعاب عليها مع ذلك ما تتطلبه من جلسات كثيرة ومن ثم زيادة فى الوقت والجهد . هذا إلى احتياجها إلى محلل نفسانى فهو وحده الذى يقتدر على تأويل المعطيات واتخاذ موقف حيادى يحمى التأويل مماقد يتهدده .

فنيات المقابلة الشخصية (الاستبار)

الإطار المعنوى للمقابلة :

تتباين المقابلة كموقف عيانى تبعاً للـكلينيكى الذى يتيح للفرد أن ينبسط جسمانياً ونفسانياً وقولا ، أو يضيق عليه فى إطار من التوتر شبيه باستجوابات البوليس . فكنسى يرى أن الموقف من حيث هو إطار عيانى ينبغى أن يكون ألطف ما يمكن حتى يسترسل الفرد على سجيته فى غير ما اضطراب.ويسمى هذا طريقة صاحب البيت (المضيف) ؛بينما يفضل البعض الآخر إطاراً ينطوى التوتر بحيث يرغم الشخصية على أن تكشف عن أعماقها ؛ ويتمسك البعض الثالث بإطار يتسم بالحياد حتى تأتى الاستجابات تلقائية بعيدة عن كل تأثير . وبديهى أن خصوبة المقابلة تتطلب الكشف فى عمق عن جنبات الشخصية،ويتأتى هذا حين يندمج الفرد فى الموقف . ويعين على ذلك حديثه عن حياته العائلية وحالته الاقتصادية قبل أن يصل إلى مشاكله العاطفية والجنسية . وكثيراً ما يكتم الفرد أو يقمع هذه المعلومات وأحياناً ما تغيب عنه بفعل الـكبت .

مشكلة التسجيل :

هل ينبغي كتابة مايدور من حديث أولا بأول فى صورة سؤال وجواب؟ قد يكون فى هذا ما يزعج الكلينيكى الذى يجد نفسه مضطراً إلى أن يوزع انتباهه ما بين الاستجواب والكتابة .ومع هذا فى هذه الطريقة ما يضمن له عدم نسيان أو إغفال نقطة من النقاط . ويتوهم البعض أن ليس فى هذه الطريقة ما يزعج المريض أو ليس فيها على الأقل ما ينبغى أن يزعجه .فحسبه أن يقتنع باهتمام الإخصائى به وعمله على مصلحته . ولكن يرى أصحاب هذا الرأى مع ذلك أن تتوقف الكتابة حين يصل الاستجواب إلى الأوجه الخاصة الأليمة أو غير السارة من الحقل الجنسى أو غيره تفاديا لابتعاث قلق المريض وازدياد مقاومته، وخاصة حينما يرى أسراره الدفينة تسجل ، ويتوهم بالتالى إمكانية أن تنتقل يوما إلى العلانية .

وهناك اتجاه أمريكى إلى استخدام أجهزة التسجيل الصوتية والمرئية دون إعلام الشخص ؛ ولكن هذا يتعارض مع الأوليات الأخلاقية .

مشكلة الشخص الثالث :

هل نسمح بالحضور لشخص ثالث ؟ يتوهم البعض أن هذا لا يؤثر على سير الاستجواب سيما حين يكون هذا الشخص ممرضاً أو ممرضة يضطلع بالاختزال. ويتوهم هذا البعض إمكانية إقناع المريض أو على الأصح العمل على إقناعه بأن مثل هذا الشخص قد اعتاد الاستماع إلى مثل هذه الأمور . ولكن الحق هو خلاف ذلك ، فلابد من تجنب التدوين أمام المريض وعدم السماح لثالث بالتواجد على أى نحو من الأنحاء ،وذلك بالنظر إلى ما يطرأ على الموقف من تغير فى الحالين من حيث هو موقف اجتماعى يتسم بدلالة خاصة تتحكم إلى حد بعيد فى مقاومة المريض من حيث مداها ومظهرها .

إن الثقة لابد منها كيما يستطيع المريض أن يتحدث فى حرية تامة صادقة عن مشاكله الشخصية العميقة. ومن هنا ضرورة الإلحاح منذ البداية بحيث يستبصر المريض بالموقف ويفهم أن جميع الأسئلة التى توجه إليه لا مفر من توجيهها والإجابة عليها للإمساك بمرضه.

فإذا ما تبينا أثناء الاستجواب ما يكشف عن التجاء المريض إلى تزييف الوقائع وتلفيقها كان علينا أن ننبه من جديد إلى ضرورة الإجابة الصادقة.

التقنين والتلقائية :

أما فيما يتصل بتقنين الحديث فينبغى التمييز بين الحديث الذى يستهدف موضوعات معينة كالناحية الجنسية عند كنيسى، وبين الحديث الذى يستهدف فهم الشخصية.

ففى هذه الحالة الأخيرة لنا أن نترك الشخص يتكلم فى حرية أو نضعه أمام استخبار شامل ودقيق. وقد حاول البعض تقنين المقابلة فى استخبارات ليبلغ بذلك إلى قدر أعظم من الموضوعية مع تيسير فى الوقت نفسه لفنيات الحديث. ولكن الحق هو أن إقامة استخبار محدد لا يعنى تقنين الحديث وتثبيته بالمعنى التجريبى للكلمة. فهذا مجرد وهم. فالاستخبار فى هذه الحالة يصاغ قبلا استناداً إلى الباحث وفى إغفال لفردية الشخص موضوع البحث. هذا إلى خطر آخر ينحصر فيما تتوهمه هذه النظرة من أن السؤال الواحد له عين القيمة ونفس الوزن بالنسبة لجميع الأفراد. فمن الواضح أن سؤالا بعينه قد يكون جوهريا للواحد وخلواً من الأهمية للآخر، بحيث ينبغى فى الحالة الأولى أن يطرد البحث فى هذا الاتجاه بكثرة كثيرة من الأسئلة. فالموقف شبيه بحالة المهاجم الذى يتلمس ثغرة فى الخط الدفاعى

للعدو حتى يستطيع أن ينفذ منه . ومن هنا ينبغي الإعراض عن تقنين الحديث .

ذلك أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ؛ بل لابد للكلينيكي من أن يحسن اختيار الكلمات تبعاً لنوعية الموقف . فالتعبير اللفظي مثلا يختلف باختلاف الطبقات . فلئن كان من الخطأ فى الحالات العادية التحدث بالمصطلحات الفنية فإنه يستحسن مع ذلك فى بعض الحالات الالتجاء إلى هذه المصطلحات الفنية لتفادى المقاومة عند الشخص . ذلك أن المصطلحات الفنية كاللغة الأجنبية تسهل على الفرد التخلص من قيد التابو . ومن هنا تبدو أهمية ذلك فى الميدان العاطفي .

وإذا كنا قد رفضنا تقنين الحديث فى صورة استخبار جامد، فليس هناك ما يمنع من تحديد رؤوس الموضوعات التى تهم البحث منذ البداية .

المقاومة والطرح :

وبديهى أن يترك ترتيب الأسئلة ليتكيف مع سياق الحديث وأن تتعدد الأسئلة تبعاً لأهمية الموضوع ووزنه عند الفرد . فبعض الأسئلة تثير عند بعض الأشخاص مقاومة كبيرة . فمن الخطأ أن نبدأ بمثل هذه الأسئلة بل الأفضل أن تترك مثل هذه الأسئلة حتى يعتاد الشخص موقف الحديث فينطلق فى غير كثير من المقاومة . ينبغى أن يتم الأمر تبعاً لمواطن المقاومة بحيث يمضى من مجال المقاومة الضعيفة إلى مجال المقاومة الأشد فالأشد. فترتيب الأسئلة إذن ينبغى أن يساير المقاومة الشخصية للفرد .

تأخذ المقاومة صوراً مختلفة . فمن صمت، إلى تردد، إلى حركات تعبيرية لا إرادية (لازمات) ، إلى شعور بالحرج ونظرات خافضة إلخ . ومهما يكن من أمر فلا يمكن حصر المظاهر المختلفة التى تأخذها المقاومة

ولا سبيل إلى التغلب عليها بعدد من النصائح ، فتلك مسألة من صميم عمل الـكلينيكى الذى يجد فى إعداده وخبراته ما يمكنه من القيام بذلك .

وإننا لا نكاد نلمس الدوافع العميقة حتى يعبىء الشخص أعنف مقاومة مدافعا بشكل لا شعورى ضد كل محاولة تستهدف كشفها . ومن هنا يلجأ بعض الـكلينيكيين إلى استخدام وسائل الضغط من إحداق النظر والانهيال على الشخص بسيل من الأسئلة السريعة والمحددة التى لا تسمح له بتحريف الحقيقة أو المبالغة فيها ، مما يسمى بالحديث البوليسى . ولـكن هذه وسيلة خطرة قد يتحداها المريض بالصمت فيضيع كل شىء . إن قيمة الحديث تتوقف على قيمة الـكلينيكى المضطلع به ، ذلك أنه يتعين على الـكلينيكى أن يحسن الاستماع فهو ينصت ويعين الشخص على أن يتكلم فى حرية ممسكا مع ذلك بزمام الحديث يوجهه حسبما يرى . فالـكلينيكى لا ينبغى فحسب أن يبعث الثقة فى نفس الشخص فيعينه بذلك على الـكلام وإنما ينبغى أن يعينه على أن يتكلم بحرية فى الاتجاه المحدد . والـكلينيكى المتمرس هو وحده الذى يستطيع أن يدير دفة الحديث فى مهارة وفعالية . فهو يوجه الحديث وإن تجنب ما قد يوحى إلى الشخص باتخاذ إجابات معينة ؛ وهو ينتقل من التجربة الحية إلى المستويات العميقة ؛ ويتبين من مقاومة المريض بنوعيتها هـذا الذى تحاول دفاعاته أن تتجنبه .

وينبغى أن يكون الـكلينيكى بادى الاهتمام بالحالة وبالاستحال الطرح . ولـكن هذا الاهتمام ينبغى أن يكون شعوراً صريحاً لا ضمنياً حتى لا يفلت من زمام الـكلينيكى بل يخضع لإرادته (مضاد الطرح) .

وكيما نقف على دوافع الشخص العميقة ينبغى أن نصل به إلى التحرر والانطلاق ، مما يجد خير عون له فى الطرح الموجب على الـكلينيكى . ولـكن هذه المشاعر لا تنشأ بصورة آلية ، بل تتوقف على ثبت من العوامل كالسن والجنس والحالة الاقتصادية والهيئة الجسمانية ونبرات الصوت وتعبيرات

الوجه . . إلخ . هذه العوامل تلعب دورها فيما يتصل بالطرح وتحكم بالتالى إجابات الفرد واستجاباته . فتعبير أو إجابة بعينها تختلف من حيث الدلالة تبعاً لموقف الكلينيكى من حيث هو محايد أو صارم عبوس . فالابتسامة فى إطار من العبوس تختلف عنها فى إطار من البشاشة من ناحية الدوافع ، وبالتالى من حيث القيمة والوزن . وكذلك تختلف دلالة الإجابة أو الاستجابة تبعاً لاتجاه المريض من الكلينيكى وهو الاتجاه الناجم عن الطرح موجباً كان فى صورة محبة أو سالبا فى صورة كراهية .

الملاحظة والتأويل :

وكذلك ينبغى للكلينيكى أن يحسن الملاحظة فيسجل رد الفعل العارض السريع وزلات اللسان ونوعية الحركات المصاحبة للحديث عن موضوع بعينه. فهو يقوم بتأويل مظاهر السلوك وخاصة الصريح والواضح منها ولكنه يفتنيه أيضاً إلى ما يسىء الشخص التعبير عنه فيترجمه الكلينيكى إلى مايريد الشخص أن يعبر عنه وإلى ماحال بينه وبين التعبير عنه . وهناك أيضاً مالا يستطيع الشخص أن يعبر عنه دون أن يعينه الكلينيكى. وينبغى للكلينيكى أن يتبين ماحذفه الشخص نتيجة لمجرد القمع أو بفعل الكبت . وينبغى . . وينبغى . . وكل هذا يتلخص فى أن قيمة المقابلة الشخصية تعكس قيمة الكلينيكى ، هذا الذى يحتاج بالإضافة إلى الاستعداد إلى إعداد وخبرة .

وبالنسبة إلى التشخيص فإن الكلينيكى ينبغى أن يتجنب الحل السهل بلصق بطاقة على الحالة وأنما يضع فرضا ابتداء من معلوماته . ويترك للواقع مهمة التأييد أو النفى أو التعديل .

الفصل الحادي عشر

الاختبارات الإسقاطية

استخدم فرانك مصطلح الإسقاط عام ١٩٤٠ ليشير به إلى الاختبارات التي هي من قبيل الرورشاخ . وكلمة الإسقاط فى الحقيقة تشير إلى جملة من المعانى المتميزة .

فالإسقاط عند فرويد هو ميكانيزم دفاعى محدد ينحصر فى أن يلصق الإنسان بغيره مشاعره الأليمة ودوافعه الغريزية المستهجنة . ويجد هذا النمط من الدفاع القائم على طرد الأفكار غير المقبولة من الذات إلى العالم الخارجى أنموذجه الجسمانى الأول فى عملية بصق الفم للأشياء الكريهة . فالجندى المقاتل الذى يستشعر مشاعر الخوف قبل بدء المعركة ، ويرفض لنفسه أن يستشعر الخوف من القتال فيتصف بالجبن ، قد يدافع عن نفسه ضد هذه المشاعر بأن يسقطها على زميله فيبدو له هذا الزميل وكأنه شاحب اللون يرتعش من فرط خوفه بينما لا يشعر هو بشىء . ولعل أوضح مثل لهذا الإسقاط من حيث هو ميكانيزم دفاعى مانجده عند المرضى المصابين بالهذاء (البارانويا) . فالمريض يستشعر مشاعر المحبة تجاه أحد أفراد جنسه ولكنه لا يستطيع بالنظر إلى القيم الخلقية أن يسمح لمثل هذه المشاعر من الجنسية المثلية أن تغدو شعورية . ومن هنا فإنه لايلبث حتى يستحدث مشاعر الكراهية ضد هذا الشخص ليدافع عن نفسه ضد المشاعر الأثيمة المتصلة بجنسيته المثلية (كبت + تكوين مضاد) . ولكن مشاعر الكراهية بدورها لا يمكن أن تغدو شعورية دون أن تستتبع من جانبه الشعور بالإثم . ومن ثم فإنه يسقط مشاعر الكراهية هذه على الشخص

موضوع حبه الأصلي ، فلا يلبث حتى يرى هذا الشخص كارها له بل عاملا ما وسعه الجهد على اضطهاده . ومن هنا يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يستشعر الكراهية وأن يقابل الاضطهاد بالاضطهاد من جانبه .

ثمة معنى آخر من معانى الإسقاط يجعل منه عملية من العمليات التى تدخل ضمن الإدراك. ويستند هذا المعنى إلى دينامية الحقل النفسى. فسلوك الشخص وإدراكاته إنما هى نتاج التفاعل ما بين شخصيته والبيئة الخارجية. ومعنى هذا أنه ليس لموقف من المواقف ولا لمثير من المثيرات دلالة ثابتة محددة بالنسبة إلى جميع الأفراد . فدلالة المواقف إنما تتحدد بالرجوع إلى الخصائص المميزة للشخص القائم بالإدراك . وإذا كان لنا أن نفصل هذه الفكرة فى شيء من الدقة لقلنا أن بعض المثيرات إنما تكون من التميز والثبات والوضوح بحيث يستحيل أن يختلف الأفراد الأسوياء فى ادراكها . فتلك منضدة وهذه ورقة من محاضرات علم النفس إلى غير ذلك . فإذا افترضنا أن الإدراك يمثل عشر وحدات وكان الإدراك كما نعلم نتاج التفاعل ما بين الشخصية والموقف فإننا نستطيع أن نمثل الموقف فى هذه الحالة بعشر وحدات بينما يقتصر إسهام الشخصية على وحدة واحدة (١٠ = ١٠ × ١).
أما فى الحالة التى يكون فيها الموقف غير محدد بمعنى أن تكون المثيرات غير واضحة أو متميزة فإن الشخص فى إدراكه لهذا الموقف أو لهذه المثيرات إنما يضفى عليها من عنده . فدوافع الشخص وما يغلب عليه من اتجاهات تجعله يدرك الموقف ويرى المثيرات بطريقة خاصة به . فهذا الشيء الذى يسعى فى ظلمة المساء يدركه العاشق وكأنه طيف العشيقة التى تسعى إليه ؛ ويدركه اللص وكأنه طيف الشرطى الذى يتربص به ؛ وقد يدركه العاشق على أنه طيف المنافس الغاضب ؛ وقد يدركه اللص على أنه صيد سمين يسوقه القدر. فكل ذلك إنما يتوقف على المشاعر الذى تغلب عليه والدوافع التى تهيمن على شخصيته لحظة الإدراك. فى مثل هذه الحالة يقتصر إسهام المواقف أو

المثيرات على وحدة واحدة بالنظر إلى الوحدات العشرة التى افترضناها ممثلة للإدراك . ومعنى هذا أنه يتحتم على الشخصية أن تسهم بعشر وحدات فتصبح المعادلة عكس ما كانت عليه تماما (١٠ = ١ × ١٠) .

وهكذا فبقدر ما تكون بنية الموقف فقيرة غير محددة تتدخل الشخصية بالقدر نفسه لتسبغ على الموقف دلالته ومعناه . ذلك هو الأساس الذى تستند إليه الاختبارات الاسقاطية حين نقدم إلى الشخص مثيرات غير محددة الدلالة فنطلب إليه أن يصفها أو يصنع منها قصة أو غير ذلك بما ينطوى على إدراك هذه المثيرات من خلال شخصيته . وهو إذ يضطلع بإدراكها إنما يسهم بشخصيته فى تحديد دلالتها فيتيح لنا أن نمسك بالخصائص المميزة لشخصيته . ولعل هذا يتضح من التشبيه الذى يقدمه فرانك : فالاختبار أشبه شىء بآلة السينما ، والشخصية هى الفيلم ، وصور الشاشة هى المعطيات التى نحصل عليها . وهذا المعنى من معانى الإسقاط كعملية من العمليات الداخلة فى الإدراك إنما هو المعنى الأساسى الذى تستند إليه الاختبارات الإسقاطية .

وثمة معنى ثالث من معنى الإسقاط يعد أشمل بكثير من سابقيه . فإذا كان الشخص يكشف فى بعض إدراكاته عن السمات المميزة لشخصيته فما ذلك إلا لأن السلوك بصفة عامة — وما الإدراك غير ضرب من السلوك — إنما هو نتاج التفاعل ما بين الشخصية والموقف . ومعنى هذا أن عملية الإسقاط لا تقتصر فحسب على مستوى الإدراك وإنما تتخطاه إلى مختلف مظاهر السلوك . فالشخص فى انتقائه لملابسه وكتبه وصحفه وأنديته ومسارحه وأثاث منزله إلى غير ذلك إنما يكشف عن بعض الخصائص المميزة لشخصيته فكل سلوك يرجع بطابعه الفريد إلى الخصائص المميزة للشخصية التى صدر عنها . والإسقاط بهذا المعنى الواسع يستند أيضاً إلى السلوك التعبيرى . فكما أن تعبيرات الوجه تعبر عن الحالة النفسية التى يعيشها الشخص أو التى يريد أن يقنع الغير بأنه يعيشها ، فكذلك الحال بالنسبة إلى التعبيرات الصوتية

والحركات الجسمية . فالصوت قد يعبر عن الرقة أو الغلظة ، كما قد يعبر عن رغبة الشخص فى أن يبدو رقيقاً أو غليظاً . وكذلك الحال بالنسبة إلى هذه اليد التى تمسك بيدك أثناء التحية فقد تعبر فى صراحة تعبيراً صادقاً عن موقف الشخص ما بين الرقة والغلظة ، كما قد تعبر عن نقيض ما يستشعره الشخص . فاذا كان الشخص يتكلم بجسمه على حد تعبير واطسون — فإنه يستطيع بلا شك أن يصدق أو يكذب فى حديثه . ولكننا إذا وضعنا فى أعتبارنا هذه الأهمية البالغة التى توليها القيم الثقافية للتعبير الوجهى لأمكننا أن نقرر بأن الشخص إنما يكذب أكثر ما يكذب فى مجال التعبير الوجهى على حين لا ينتبه تمام الانتباه إلى تعبيرات صوته أو حركات جسمه . ومن هنا نستطيع أن نقول من قبيل المجاز بأنه يسقط بعض نفسه وما تنطوى عليه من مشاعر ودوافع فى الكثير من مسالكه سيما التعبيرية منها . ولكن الإسقاط هنا لا يعنى أن يتخلص الشخص من قبيل الدفاع من بعض مشاعره الأليمة بأن يلصقها بالغير ، ولا يعنى أن الشخص يسهم بما يميز شخصيته من خصائص ودوافع فى تحديد الدلالة لموقف غير محدد ، وإنما يعنى فحسب أن الشخص يعبر عن بعض خصائصه فى بعض مسالكه بمعنى أن سلوك الشخص ينم عنه ؛ ذلك ما يعبر عنه القول الشائع « كل أناء ينضح بما فيه » .

ومهما يكن من أمر ، فان التمايز النظرى بين هذه المعانى الثلاثة للإسقاط لا يعيننا بحال على أن نحكم بمدى ما تنطوى عليه أو لا تنطوى عليه أية عملية إسقاطية من دفاع ، سواء كان ذلك فى مجال الإدراكات أو المسالك العادية أو حتى فى مجال الاختبارات الإسقاطية ذاتها .

وهذا يجرنا إلى الحديث عن بعض المسالك النمطية التى تعبر بتكرارها وتكرر تعبيرها عن بعض الخصاص المميزة للشخصية . فأسلوب اللغة التى نكتبها ونتكلمها يعبر عن فردية الشخص . فالكلمات لا تعبر فحسب عن الأفكار والوقائع وإنما تعبر أيضاً عن شخصية الشخص الذى يستخدمها .

ولو تحدث العقاد وطه وتحدثت أنت معهم عن نفس الأفكار والوقائع لما تحدث الواحد منكم كغيره وإنما بطريقة تنم عن شخصيته . وليست الكلمات التى تلبسها الأفكار هى التى تعبر وحدها عن الشخصية . فإن الملابس التى يلبسها الشخص لتكشف أحياناً عن الكثير من جوانب شخصيته . وقل مثل ذلك فى الأصوات المنطقية أو الخطوط المكتوبة . فلكل فرد صوته المميز وكتابته اليدوية المميزة . وغالبا ما تؤخذ خصائص الكتابة أو الأصوات إلخ على أنها ممثلة للميول العامة للسلوك . والكتابة المنتظمة كاللهجة الهادئة فى الكلام وكالألوان الوقورة فى الملابس والألفاظ المعتدلة فى التعبير عن الفكرة من حيث أنها غالبا ما تترجم عن سيطرة الشخص على ذاته فى غير ما كف أو اندفاعية . ولقد استعان البعض بالتقييم فراحوا يقومون سمك الحروف وطولها إلى غير ذلك؛ ولكن هذه المحاولات تمخضت عن نتائج جزئية. فجميع هذه المجالات تنطوى على شىء من الحقيقة ولكنها لا تكفى من الناحية العملية لأن تكشف فى يقين عن بعض خصائص الشخصية . فليس للرموز من دلالة ثابتة وإنما تتحدد دلالاتها تبعاً للتجارب التى يعيشها الفرد . ومن هنا فلابد لفهمها من الرجوع إلى تاريخ حياة الشخص . وهكذا يحق لنا أن ننتهى مع «نوتكات» Nottcut إلى القول بأن علم النفس العام ينبغى أن يخلى السبيل أمام دراسة الحياة الفردية وذلك إن أردنا أن نبلغ من النتائج شيئاً أكثر مما هو «تقريبى» ، «وعلى وجه الجملة» ، « وبصفة عامة » فالفردية تنتصب حقيقة عنيدة تضيق من الحد الذى يمكن معه تطبيق القواعد العامة فى علم النفس . فهذه القواعد هى مستويات إحصائية أكثر منها قوانين بالمعنى الدقيق . فإذا كان هنالك احتمال كذا فى المائة بأن يستجيب الشخص على الإحباط بسلوك عدوانى فإننا لا نستطيع أمام شخص بعينه أن نتنبأ بنوع الاستجابة التى تصدر عنه قبل أن نضطلع بدراسة تاريخ حياته ، أى قبل أن نضطلع بالدراسة الكلينيكية وما قد نستعين به من تكنيكات إسقاطية .

ويرى البعض أن الحديث هنا عن «الاختبارات» أمر يجانبه التوفيق لما توحى

به كلمة الاختبار من فكرة القياس والمقاييس المقننة . فالاختبار يهدف عادة إلى جمع أكبر عدد من الإجابات المنوعة فى وقت محدد حتى نستطيع بالرجوع إلى المعايير الإحصائية أن نحدد مكان الفرد بالنسبة إلى الجماعة . أما ما يسمى الاختبار الإسقاطى فهو كوسيلة فنية يستند إلى تصور دينامى للشخصية ويهدف إلى « فهم » هذه الشخصية دون أن يحفل بتحديد مكانها بالنسبة إلى الآخرين. فالمعطيات التى نحصل عليها إنما تتحدد قيمتها ودلالاتها بالرجوع إلى البنية الخاصة للشخصية فى غيرما استعانة بمعيار إحصائى على نحو ما يحدث فى الاختبارات المقننة . والاختبارات الإسقاطية تختلف أيضا عن الاستخبارات ، هذه التى نصل فيها إلى النتيجة الكلية عن طريق جمع النتائج الجزئية . فبينما نجد معطيات الاختبار الإسقاطى تنطوى مباشرة على دلالتها فإن الاستخبارات لاتحفل بالجانب الدينامى أوهى تنظر إلى الشخصية وكأنها حاصل جمع بعض القدرات مثلا . فالاستخبارات كالاختبارات المقننة إنما هى مقاييس تسمح لنا بأن نتناول الأشخاص كما تتناول علوم الطبيعة الأشياء ؛ ومعنى هذا أنها تسمح لنا بمقارنتهم فيما بينهم وبأن نصنفهم وفقا للنتائج . ويتضح الاختلاف من أنه فى حالة التكنيكات الإسقاطية لا تكون للمعطية الواحدة دلالة ثابتة ، وإنما تتحدد دلالتها بالرجوع إلى كافة المعطيات الأخرى . ويمكن تلخيص الأمر فى أن المقاييس والاستخبارات وسلالم التقدير هى فنيات ملائمة لسيكولوجية السمات بينما الاختبارات الإسقاطية فنيات تلائم النظرة الدينامية هذه التى تستند إلى العلاقة المتبادلة والتى لا يسهل الإمساك بها ما بين الشخصية والبيئة . فالطرائق الإسقاطية تتيح لنا من المعطيات ما يكشف عن شخصية الشخص دون أن ينتبه هذا الشخص إلى أنه يكشف بهذه المعطيات عن خصائص بعينها لشخصيته . ومن هنا يعد استخدام مادة إثارة مبهمة أو غير منتظمة البنية من بعض الأوجه خاصية أساسية فى جميع الاختبارات الإسقاطية . فبينما نجد فى اختبار الذكاء مثلا إجابة واحدة ومحددة تقريباً

لكل سؤال فإن لكل مشكل فى الاختبارات الإسقاطية أكثر من إجابة ممكنة . فالأهمية فى الاختبار الإسقاطى تنحصر من ناحية فى قدرته على إثارة الاستجابات الفردية ومن ناحية أخرى فى القواعد التى تتبعها فى تأويل هذه الاستجابات . وعادة ما يعتبر الرسم بالأصبع واللعب الحر والرسم الطليق من الوسائل الإسقاطية . فكل موقف يتسم فيه الإدراك أو طريقة التناول بما يعبر من فردية الشخص يمكن أن يستخدم كأساس لاختبار إسقاطى. وبديهى أنه كلما قل الانتظام البنيوى للمثير اتسع مدى التعبير عن فردية الشخصية مما يتضح من مقارنة بقع الروورشاخ أو سحب شترن بلوحات مورى .T. A. T . فكلما كانت عوامل الانتظام الخارجية قوية مستقرة ضاق المجال أمام تدخل العوامل الداخلية والعكس صحيح. فالصورة التى لا تسمح بحيز من الإبهام وإساءة الفهم لا تسمح بمجال للتعبير عن الذات . ولكن ليست العبرة فقط بالإبهام وما يستثيره من إجابات عديدة متنوعة وإنما أيضاً بالقدرة على تأويل هذه الإجابات والإفادة منها ، وخاصة حين تتسم بالبساطة والثراء. وأبسط صورة للإجابات هى عندما ينتقى الشخص إجابة من جملة إجابات محددة كما هو الحال فى الروورشاخ الجمعى ، أو بعض اختبارات تداعى الكلمات أو إكمال الجمل ، أو اختيار صورة من بين صور الأوجه فى اختبار تسوندى . ولعل أكثر الإجابات ثراء ما تمدنا به لوحات مورى ، حيث يضطلع الشخص بتأليف قصة فى خمس دقائق ، وما تمدنا به مناظر هومبرجر التمثيلية حيث يبتدع الشخص منظراً مستعيناً باللعب والنماذج الصغيرة للأثاث ، ناهيك عما تمدنا به الرسوم الطليقة .

وكلما اتسمت الإجابات بالثراء صعب تقويمها وتصنيفها . لقد أنشأ كينت وروزانوف لاختبارهما الخاص بتداعى الكلمات طريقة للتقويم تنحصر فى حساب مرات التكرار الخاص بكل إجابة من الإجابات . وأصبح من الممكن عند مقارنة إجابات شخص ما بالقائمة الإحصائية المقننة أن نحدد عدد ألفاظه الشائعة وعدد ألفاظه النادرة . وكانت العصابية وقتئذ تقاس

فى أمريكا يميل الشخص إلى إنتاج استجابات فردية ونادرة . أما اختبار رورشاح فإن المشتغلين به قد رفضوا إخضاعه للمعايير بالمعنى الأمريكى المألوف وإنما اقتصروا على تحديد الإجابات الشائعة والإجابات الفريدة .

ولكن رغم عناية الباحثين فى الرورشاخ بالمناهج الكمية وبتحديد الدرجات فانهم يأبون ربط هـــذه الدرجات بأية دلالة واضحة معينة .

ومن المفيد أن نتبين أهمية هذه الاختبارات الإسقاطية والدافع الذى دفع إلى ابتداعها . فالاختبار الإسقاطى لا ينكشف هدفه للشخص بطريقة صريحة فيفهم ما سينتهى به إليه ، بل يكشف الشخص فيه عن نفسه دون أن ينتبه إلى أنه يفعل ذلك أو على الأقل دون أن ينتبه إلى الكيفية التى يفعل بها ذلك والقدر الذى يفعل به ذلك . لقد جاء وقت يئس فيه علماء النفس من الحصول على إجابات صادقة لأسئلتهم ومقاييسهم واستخباراتهم. فحتى فى الحالات التى يصدق فيها الأشخاص من الناحية الشعورية فكثيراً ما تكون هذه الإجابات سطحية تحجب وراءها الأعماق الحقيقية . لم يعد من الممكن أن يكتفى علماء النفس بالقيمة الظاهرية للإجابات؛ فقدكان ولابد لهم من طريقة تسمح بتخطى الأكاذيب أو الإجابات الزائفة بفعل الكبت وما إلى ذلك من ميكانيزمات الدفاع . وهكذا اتضح قصور المقاييس والاستخبارات وسلالم القياس التى تستند إلى المواجهة المباشرة الصريحة لمشكلات الشخصية . وإذا كان الأشخاص يأخذون حذرهم بطريقة شعورية أو غير شعورية عندما توجه إليهم أسئلة مباشرة فلم يعد بد من استخدام طريقة لا ينتبهون معها إلى ما نستهدفه فتتعطل بذلك وسائل دفاعهم . ففى اختبار الرورشاخ مثلا يستحيل على غير الإخصائى أن ينتبه إلى كيفية استخلاص أية نتيجة من النتائج ابتداء من الإجابات التى يقدمها الشخص . وإذا كان الاختبار الذى لا يقدم إلينا أكثر مما يعرفه الشخص عن نفسه اختباراً

تافهاً ، وكان الشخص كما يقول أسبينوزا أبعد الكائنات عن نفسه ، فإننا نستطيع أن نتبين الأهمية البالغة للاختبارات الإسقاطية .

ومن حيث تأويل المادة الإسقاطية فإنه يتم بالرجوع إلى المضمون أو بالرجوع إلى الشكل أو بالرجوع إلى الأمرين جميعا . فى حالة لوحات مورى ينصب الاهتمام على تحليل المضمون وإن لم نغفل تحليل الأسلوب والشكل . أما فى الرورشاخ فينصب التأويل أساسا على أساليب الشخص فى الإدراك بمعنى ما إذا كان يدرك البقعة كلها فى إجمالها أو جزءا من أجزائها ، وما إن كان يستند فى إدراكه إلى شكل البقعة أو لونها ، وما إن كان يدركها كشىء ثابت أو متحرك الخ .

وتأويل لوحات مورى يستند أساسا كما نعلم إلى تحليل المضمون الإسقاطى ومن هنا يهتم مورى أكثر ما يهتم بالتعرف على البطل أو الأبطال الذين يتطابق الشخص معهم حتى يستشف من الوقائع المنسوبة إلى البطل الخصائص المميزة لشخصية الشخص . وليس ذلك بالأمر اليسير ، فقد يتطابق الشخص جزئيا مع بطل وجزئيا مع بطل آخر . وقد يتطابق أحيانا مع بطل من غير جنسه .

هذا إلى أن تطابق الشخص يمكن أن يكون تعبيراً عن الشخص « كما هو » ويمكن أن يكون تعبيراً عن الشخص « كما كان » ، ويمكن أن يكون تعبيراً عن الشخص « كما يود أن يكون » كما يمكن أن يكون تعبيراً عن الشخص « كما يخشى أن يصير » . والحق أنه ليست هناك طريقة واحدة بعينها لتحليل لوحات مورى . فليست هناك مجموعة من الرموز لها دلالات ثابتة وإنما نتوقع من الشخص أن يسقط نفسه فى حكاياته . ومن هنا نحاول أن نكشف عن تطابقاته .

أما « تومكنز » فلا يوجه عنايته إلى التطابقات بقدر ما يهتم بنوع

المواقف التى ينتقيها الشخص ومقارنة الحكايات فيما بينها . ومعنى هذا أنه يحاول الكشف عن اتجاهات الشخص بالنسبة إلى بعض مجالات الحياة ، كالعائلة والحب والجنس والزواج والعمل والجريمة . . . الخ . وخلاصة هذا هو أن طريقة « تومكينز » تهتم بالحكم أو الاتجاه الذى يكشف عنه الشخص إزاء الموقف أو المجال أكثر مما تهتم بالتلميحات الدالة على التجارب الواقعية .فهى لا تحاول تحديد التطابقات فى دقة بقدر ما تحصر الاهتمام فى تحديد دلالة المواقف عند ابتداع الحكايات. وكما أن الاتجاهات تعبر عن الرغبات والدفاعات ضدها أو كما يقول « ريفرز » تعبر عن صراع معين وتكشف عن اتجاه الشخص منه ، فكذلك الحال بالنسبة إلى حكايات ا ت .أ . ت من وجهة نظر « تومكينز » . ومن الممكن تطبيق وجهة النظر هذه على كثرة من المواد الإسقاطية كالرسوم الطليقة ومواقف اللعب عند الأطفال وبعض ضيع الإنشاء . ولقد حاول البعض تقنين هذه الاختبارات وتقويم الإجابات بالرجوع إلى قائمة أو أخرى من قوائم متغيرات الشخصية ، ولكن المحاولة لم تصل إلى حد وضع درجات أو معايير كما هو الشأن فى اختبارات الذكاء، وذلك لأن النفسانى الذى يألف العمل مع الحالات العيانية لا يستطيع أن يطمئن إلى النتائج القاطعة، فهو لا يرضى بالأرقام بدلا عن التجربة الحية والاتصال المباشر بالشخص . أنه لا يستطيع أن يتخلى عن حريته فى استقبال الوقائع ليحصر نفسه ضمن خطة ثابتة للتحليل،وذلك حتى لا يتعرض لهذا الخطر الذى ينحصر فى تجاهله أو تعاميه عن الوقائع التى لا تساير الخطة المرسومة سبقا .

أما فى حالة التأويل المنصب على الأسلوب والشكل فإن اهتمام النفسانى ينحصر فى الطريقة النوعية التى بها يدرك الفرد ويسلك فى موقف الاختبار بحسبانها ممثلة لطريقته فى معالجة جملة من المواقف المتكافئة الدلالة. فالتأويل هنا لا ينصب على الأفكار والمعانى التى يسقطها الشخص فى إجابته وأنما

ينصب على عملية الإجابة ذاتها من حيث هى طريقة خاصة للاستجابة . فقد كان رورشاخ يهتم بالإجابات من بعض جوانبها الشكلية فحسب ، ومن هنا فقد استخدم رموزاً اصطلاحية للدلالة على الفئات التى يوزع الإجابات بينها مما سنوضحه .

كانت تأويلات رورشاخ فى البداية تنصب أساسا على التشخيص الفارق لمختلف صور الذهان وذلك استناداً إلى دراسة العمليات الإدراكية. ولكن الاختبار يطبق اليوم وبنفس الفاعلية على جميع الأفراد . وثمة اتجاه حديث يميل إلى تأويل الرورشاخ استناداً إلى المضمون بالرجوع إلى مفاهيم التحليل النفسى ، وذلك بدلا من اتباع الوسائل التقليدية للتأويل .

تبينا ولا شك من عرضنا جملة من الطرائق الإسقاطية المختلفة . ولعل من حسن الحظ ألا يكون من الضرورى أن نختار بينها . فبوسعنا أن نستخدم الاختبارات التى تنصب على تأويل المضمون أو تلك التى تنصب على تأويل الشكل. بوسعنا أن نستخدم فى هذه الحالة وتلك بعض الاختبارات التى تستند إلى منبهات سمعية وبعضها الآخر الذى يستند إلى منبهات بصرية، فغالباً ما تكمل هذه الاختبارات بعضها البعض بصورة مفيدة . ومهما يكن من أمر فليست العبرة بجمع مادة كثيرة وإنما باستخلاص خير ما يمكن استخلاصه من المادة المتاحة لنا . وسنعرض الآن لبعض الاختبارات ذات المنبهات السمعية قبل أن ننتقل إلى أهم الاختبارات ذات المنبهات البصرية .

بعض الاختبارات الإسقاطية الشهيرة

إختبار تداعى الكلمات :

تعد هذه الطريقة أول طريقة إسقاطية استخدمها البحاث . وربما

يرجع هذا إلى ما كان للارتباطات والنظرية الترابطية Associationism من أهمية فى علم نفس القرن التاسع عشر. فبقدر ما تتلازم ا، ب، حـ أو قل بقدر ما تتكرر متجاورة، فإنها تترابط فيما بينها مما يسمح بتذكرها. ولقد كانت هذه الفكرة تستند إلى ما يتوهمه البحاث من قيام وصلات بين النقط الثلاث المقابلة لها فى القشرة الدماغية وأن هذه الوصلات تشتد وتقوى بفعل التكرار مما يسهل عملية التذكر. ولقد اضطلع يونج بمحاولة ليجعل من هذه الوسيلة طريقة منهجية تسمح بالكشف عن مواطن الصراع. يتم ذلك فى العادة بأن نقدم للشخص قائمة من الكلمات الواحدة بعد الأخرى طالبين إليه أن يجيب بأول كلمة ترد إلى ذهنه بعد سماعه لكلمة القائمة. وتختلف هذه الطريقة عن الطريقة البوليسية المستخدمة فى كشف الأكاذيب. فإذا كان الأمر فى الحالتين يستند إلى قائمة من الألفاظ ويطلب إلى الشخص أن يجيب بأول كلمة ترد إلى ذهنه مع الاستعانة بقياس بعض الوظائف الفسيولوجية إلا أن الأهمية تتجه فى هذه الحالة وجهة غير هذه التى تتجه إليها فى الحالة الأخرى. فنى الطريقة البوليسية ينصب الاهتمام على الكلمات التى يحاول الفرد منعها ومن ثم ينطق بها بعد تردد أو بعد زمن رجع طويل نسبياً أو مصاحبة لبعض المظاهر الفسيولوجية من قبيل سرعة النبض أو التنفس أو تصبب العرق إلى غير ذلك من الاستجابات التى لا تتحقق فى حالة الكلمات التى لا تتصل بالجريمة. وتستند هذه المظاهر إلى حاجة الشخص إلى السيطرة على بعض الكلمات لما لها عنده من صلة وترابط مع موقف يحرص على إخفائه. أما فى الطريقة الإسقاطية فإن الاهتمام ينصب أكثر ما ينصب على هذه الكلمات التى أفلتت من رقابة الشخص مما يجعل الإجابات جميعها ذات دلالة وإن تفاوتت هذه الدلالة فى القيمة.

يطلب الإخصائى إلى الشخص كما رأينا أن يجيب على الكلمة المقترحة

بأول كلمة ترد إلى ذهنه، ويسجل الإخصائى الإجابة وزمن الرجع وبعض الملاحظات المتصلة بالسلوك الإجمالى للشخص . ولكن هذه الطريقة لاتستخدم فى الوقت الحاضر إلا نادراً . يستوى فى ذلك الطريقة القديمة التى تستند إلى قوائم من الكلمات المعدة من قبل، والطريقة الحديثة حيث تقود الكلمة المعطاة إلى كلمة أخرى يجيب بها فنقدمها إليه من جديد فتقود إلى كلمة جديدة ؛ فكلاهما قليل الفاعلية بالقياس إلى طرائق أخرى متوفرة تتميز بالسهولة والثراء . وإذا كان لهذا الاختبار أن يكشف عن بعض خصائص الشخصية فإنما يرجع هذا فى نظر البعض إلى الترابطات التى نشأت أثناء التعلم نتيجة لتجاور بعض العناصر ضمن خبرة بعينها . فالاختبار ينصب على آليات الذاكرة حيث يتاح لنا أن نفيد منها بعيداً عن هيمنة الرقابة وتدخل الأحكام الشعورية . ولا تكاد تختلف قاعدة التداعى الطليق عند فرويد عن هذه الطريقة إلا من حيث النظرة التفسيرية . فالتداعى فى نظر التحليل النفسى يكشف عن العناصر المنسية أو المكبوتة التى عاشها الشخص (مبدأ الحتمية النفسية) . أما التداعى فى الحالة الثانية فهو يترجم عن مجرد الترابط الميكانيكى لا الترابط الوظيفى بين عدد من العناصر المتجاورة فى التجارب الماضية . وعلى أية حال فإن قياس زمن الرجع فى اختبار تداعى الكلمات يعيننا على أن نتبين مواطن المقاومة . ويخطىء البعض ولا شك حين يتوهم الظاهرة بسيطة ومباشرة . فإن تدخل ميكانزمات الدفاع يبعد بها عن بساطة التداعيات البحتة . فحين تتلاحق الكلمات المقترحة بصورة سريعة يمكن للدفاعات أمام الكلمة الهامة أن تضطلع بتأجيل الاستجابة الحقيقية فيستجيب فى التو بكلمة حيادية بينما يستجيب الشخص بعد كلمتين أو ثلاث بالكلمة التى اضطلعت المقاومة بتأخيرها . ومعنى هذا أن الإجابة الحقة لا تظهر أمام كلمتها وإنما أمام كلمة أخرى من الكلمات التالية .

وثمة صور أخرى للمقاومة منها أن يجيب الشخص بكلمة مرادفة أو باسم النوع الذى تدخل الكلمة تحته أو بتعبير من التعبيرات الثقافية الشائعة وما إلى ذلك من استجابات منطقية دفاعية . وينبغى أن تتنبه إلى موقف الاختبار من حيث هو موقف مصطنع ينطوى على الإحباط بالنسبة للكثيرين . فالإضاءة خافتة والهدوء شامل وعلى الشخص أن يجيب بأول كلمة وهو يشعر شعوراً واضحاً بأنه يخضع للفحص والاختبار . ويقل الشعور بالإحباط وبالطابع المصطنع للموقف بقدر ما يتقبل الشخص الاختبار كضرب من التسلية يتيح له شيئاً من التنفيس والتخفف الانفعالى. وعلى أية حال فهذه الطريقة تنطوى ولا شك على قيمة تشخيصية ولكنها لا تبلغ القدر الذى يتوهمه البعض .

إختبار إكمال الجمل وإتمام القصص :

تقدم للشخص فى العادة جملة ناقصة تشتمل على كلمة هامة ضمن إطار موجه ؛ مثال ذلك « أشعر بالقلق عندما . . . . . » ، « يعترينى الخزى إذا . . . . . » ، « يعد الخوف خصلة . . . . . » الخ . وكذلك الحال بالنسبة إلى إتمام القصص ؛ مثال ذلك « وانطلقت بنا السفينة من الشاطىء وقد أشرفت الشمس على الغروب . . . . . » ، « وأخيراً استطاع أن يحصل على العصا السحرية فأمسك بها . . . . . » .

وهذه الاختبارات تفيد ولا شك فى تقديم فكرة استطلاعية عن الشخص ناهيك عن سهولة اندماج الشخص فيها على نحو ينسى معه الطابع المصطنع لموقف الاختبار . ومن الممكن تطبيقها عن طريق الكتابة وبصورة جماعية . ولكنها على أية حال تعد محدودة النتائج بالقياس إلى اختبارات أخرى .

اختبار التوتوفون :

ابتدع سكنر Skinner عام ١٩٣٦ جهازاً كالحاكى يخرج مقاطع صوتية إيقاعية مبهمة فقيرة البنية . ولقد كان روزنزفايج أول من فكر فى استخدام هذا الجهاز كاختبار إسقاطى ، وذلك بأن يطلب إلى الشخص أن يحكى ما يسمعه . وحيث أن الشخص لا يسمع كلمات محددة المعانى وإنما مجرد مقاطع فإنه يسقط شخصيته من خلال إدراكه السمعى . فما يفهمه الشخص أو ما يتوهم أنه سمعه ليس إلا ما يريد أن يسمعه ، أو ما يخشى أن يسمعه . وفى وسعنا أن نستخدم صوراً صوتية مبهمة فتكون بمثابة لوحات صوتية من الـ ت . أ . ت T.A.T. .

ومن المنتظر أن يكون لمثل هذه الصور الصوتية أهمية كبرى فى المستقبل وذلك لما هنالك من صلة وثيقة بين المجالين الصوتى والانفعالى . ولعل من الطريف أن بعض الإذاعات قد رتبت مسابقة من هذا القبيل ، فقدمت للمستمعين صوراً صوتية طلبت إليهم تحديد ما تعبر عنه ؛ وكان مما يستلفت الانتباه مثلا أن توزعت تأويلات المستمعين بالنسبة إلى أحد الأصوات ما بين تأويل الصوت على أنه صوت زجاجة الشمبانيا وهى تفتح وتأويله على أنه صوت طلق نارى ينطلق من مسدس .

اختبار صور السحب :

ابتدع شتيرن هذا الاختبار ليتجنب بعض أوجه القصور التى يأخذها على الرورشاخ ؛ من قبيل ذلك ما تتسم به بقع الرورشاخ من تناظر كامل وما يطبعها من حدود قاطعة مما لا يتفق فى رأيه مع ما ينبغى للاختبار الإسقاطى من بعد عن التحدد . ففى اختبار صور السحب نقدم للشخص ثلاث سحب ونطلب إليه وصف ما يراه فيها . ويميز شتيرن فى الإجابات بين ما هو منطقى نمطى وما هو حدسى وما هو ابتكارى .

اختبار اللوحات الأربع :

يعد هذا الاختبار الذى ابتدعه « فان لينيب Van Lennep تمهيداً لاختبار مورى . تمثل إحدى اللوحات المكتب ،وتمثل الثانية غرفة النوم، والثالثة جولة التنس ، والرابعة رجلا وحيداً فى الطريق يستند إلى شىء . نطلب إلى الشخص أن يبتدع قصة بالنظر إلى هذه اللوحات . وتشير اللوحات تبعا للمؤلف إلى أربعة مواقف اجتماعية محددة : الشخص ينفرد بنفسه فى غرفة النوم ، وحين يجد نفسه وحيداً فى الطريق ، وحين يلعب الرياضة مع آخر، وحين يعمل مع آخر. وليس هناك ترتيب بعينه للوحات .أما التأويل فينصب أساسا على المضمون . ويستند الاختبار إلى افتراض قيام الشخص بالتطابق مع البطل ، فيكشف بذلك عن مشكلات حياته الأساسية . وفى الحالة التى يعجز الشخص عن تأليف قصة واحدة تأتلف فيها اللوحات الأربع نطلب إليه أن يبتدع قصة لكل لوحة . فإذا ما فرغ من ذلك طلبنا إليه أن يضطلع بالتأليف ما بين القصص فى قصة واحدة .

اختبار الرورشاخ Rorschach

تتلخص فكرة الرورشاخ فى استخدام بقع الحبر للكشف عن العمليات النفسية التى تميز شخصية الفرد الذى يقوم بإدراكها . ولقد كان تأويل البقع يستخدم فى القديم للتنبؤ بالمستقبل مما نجد بعض مخلفاته فى تأويل رواسب القهوة والزاج الأبيض (الشبه الزفرة) . ولقد نبه بارتلت عام ١٩٠٦ إلى وجود صلة بين نوع الإجابة التى يقدمها الشخص وبين حياته العاطفية الخاصة .

ومن المعلوم أن رورشاخ قد انتهى إلى لوحاته العشر بعد عشرة أعوام من التجريب. ويستند هذا الاختبار أساساً إلى تأويل العمليات فلا يلعب تأويل المضمون إلا دوراً ثانوياً . وعلى الرغم مما يطبع هذا الاختبار من اهتمام بالدرجات والتقويم فإنه مع ذلك اختبار دينامى فى صميمه ، وذلك لأنه يهدف إلى الكشف عن العمليات التى أدت بالشخص إلى أن يقدم ما قدمه من إجابات .

تعتبر هذه الإجابات بمثابة عينة لطريقة الشخص فى الاستجابة إزاء جملة من مواقف الحياة المختلفة . لقد كانت تأويلات رورشاخ كما قلنا تستهدف فى البداية التشخيص الفارق لمختلف صور الذهان ، فكان ينتهى إلى تشخيص نوع الذهان عند الفرد . ونظراً لأن لوحات الاختبار لا تتيح تدخل الدفاعات فقد وفق الرورشاخ إلى حد كبير فى تحقيق ما كان يستهدفه .

ومن الصحيح أن رورشاخ قد نحا بتفكيره منحنى أقرب إلى النظرية النمطية منه إلى الدينامية . ولعل هذا يرجع إلى ما كان سائداً فى ألمانيا من دراسات تنميطية تستهدف تصنيف الشخصيات فى أنماط . فعلى سبيل المثال نجد أن تأويل الإجابات تأويلا يستند إلى المنطقة يساير النزعة الشائعة عند

علماء الأنماط والتى ترى فى الإجابات الإجمالية التى تنصب على البقعة كلها مايشير إلى الميل إلى التجريد والتعميم، بينما تفضيل الأجزاء يشير إلى المشارب العملية، والإغراق فى التفاصيل يشير إلى عدم السوية. وكذلك فكرة التقابل مابين الشكل واللون فإنها من الأفكار الشائعة فى علم النفس الألمانى حيث يرتبط اللون بالانبساطية والهستيرية بينما الشكل يرتبط بالانطوائية والحصار. أما الإجابات التى تستند إلى الحركة (الكنيستيزيا) فتشير إلى ثراء الإمكانيات والاستعدادات الطبيعية. ولكن مهما يكن من أمر هذه النظرات المنمطة والاعتماد على الأرقام والإحصاء، فان الاختبار يستند فى أساسه إلى الأساليب النوعية التى يستجيب بها الشخص إزاء مواقف الحياة على نحو ما تتكشف فى إدراكاته. ويتضح ذلك من أن الاختبار لا ينتهى إلى مجرد تحديد نمط للشخص وإنما يقدم عنه لوحة كلينيكية ثرية.

تتباين طريقة استخدام هذا الاختبار على الرغم من محاولات عديدة لتوحيدها إلى حد أن الرموز المستخدمة مازالت تختلف من بلد الى آخر. فبينما يفضل البعض أن يستلقى الشخص أثناء إجابته نجد البعض الآخر يفضل أن يجلس الشخص فى مواجهته ويفضل البعض الثالث أن يكون إلى الوراء من الشخص ليستطيع النظر إلى اللوحة فى استبعاد للخجل أو الحرج.

وتحرص الغالبية على استبعاد العوامل الدخيلة التى قد تؤثر على طبيعة الإجابات وذلك كالأصوات أو الإضاءة غير العادية. وأما قياس زمن الرجع فيتم بدقة بالنسبة إلى كل إجابة وكل لوحة.

إن صعوبة إفهام الشخص ماينبغى أن يفعله فتدفع البعض إلى التضحية باللوحة الأولى ليتخذها مثالا يشرح عليه. ولكن هذا يؤثر على التأويل فى تتابعه التلقائى الذى أراده له رورشاخ. ومن هنا فإن الغالبية تتبع طريقة كلوبفير فى التوضيح بعبارة كهذه: «كثير من الناس يرى فى هذه البقعة

كثرة من الأشياء فماذا ترى أنت ؟ » . وينبغى أن يحرص الإخصائى على أن يتبع طريقة موحدة بعينها فى تقديم اللوحات إلى الشخص فلا يقدم الواحدة مثلا معدولة والأخرى مقلوبة وإن كان عليه أن يترك الحرية للشخص فى أن يغير من اتجاه اللوحة كما يشاء .

وثمة مشكلة تتصل بصعوبة تحديد الشكل بمعنى تحديد المنطقة التى ينصب عليها إدراك الشكل . فلو طلبنا الى الشخص أن يحدد المنطقة فى نهاية لوحة فإن ذلك سيؤثر ولا شك على تتابع الإجابات . أما إذا طلبنا إليه ذلك فى نهاية الاختبار فستتعرض تحديداته لتأثير الذاكرة والنسيان . ومع هذا فالغالبية تفضل اتباع هذا الحل الأخير . أما فيما يتصل بالأشكال الشائعة فإن البعض لا يتحرج من أن يوحى الى الشخص بها حتى يتبين ما إن كان الشخص قد رآها وأحجم عن الإدلاء بها لتفاهتها وظهورها الواضح أو أنه حقاً لم ينتبه إليها .

ويتم تسجيل الإجابات باستخدام الرموز . فلو أدرك الشخص البقعة كلها فى إجمالها سجلنا بالإنجليزية W أو بالفرنسية G . ولو انصب إدراكه على جزء كبير سجلنا D . أما فى حالة جزء تفصيلى أو قليل الأهمية فنسجل dd . وهذه الحالة الأخيرة يمكن أن تتخذ صوراً مختلفة فلو أدرك الشخص أرضية اللوحة على أنها الشكل سجلنا dd-bl إلى غير ذلك.

أما عن العوامل المحددة للإدراك فننظر إليها من زاوية الشكل واللون والحركة والتظليل. فالشكل يمكن أن يكون هو العامل الذى حدا بالشخص إلى أن يدرك ما أدركه . لحين تبدو البقعة مطابقة للإجابة « خفاش مثلا » نسجل +F . وحين تكون عكس ذلك نسجل — F وحين تكون بين بين نسجل ±F . وازدياد نسبة الأشكال الحسنة +F يترجم عن ارتفاع الإمكانيات العقلية للشخص .

والإجابة التى يقدمها الشخص إما أن تكون شائعة أو فريدة تتسم بالأصالة.

ويتم ذلك بالرجوع إلى النتائج الإحصائية . فإذا رأى الشخص الشكل فى حالة حركة سجلنا بالإضافة إلى K « كنستزيا » الرمز الخاص بالإنسان H أو الحيوان A أو الأشياء O تبعاً للمضمون. أما اللون فإننا نسجل مدى ما اضطلع به فى تحديد الإدراك الذى أدركه الشخص وذلك بالقياس إلى عامل الشكل . فلو انفرد اللون بتحديد الإدراك سجلنا C ولو تغلب اللون سجلنا CF ولو تغلب الشكل سجلنا FC . وتعد الصلة بين اللون والحركة غاية فى الأهمية . فحسبما تكون هذه الصلة يتحدد ما يسمى نمط حياة الشخص ErlebenTypus . أما عامل التظليل فقد أضيف بعد رورشاخ ويتصل بالفاتح والقاتم أى بتباين الدرجات اللونية من الرمادية إلى الأسود .

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ السلوك الإجمالى للشخص وما يصدر عنه من أمارات التعجب أو الصدمة أو الدهشة أو تعليقات أو استغراق نسبى فى الصمت أو رفض اللوحة. كذلك فإن عدد الإجابات التى يقدمها الشخص لها أهمية فى هذا الاختبار . فهى تتراوح عند الشخص العادى فى اللوحات كلها ما بين عشرين وثلاثين إجابة ، وقد تنخفض إلى خمس عشرة ، وقد ترتفع إلى السبعين . وتشير كثرة الإجابات عندما تكون حسنة إلى الذكاء والخيال .أما حين تكون كثيرة وفقيرة فغالباً ما تكون فى حالات الفصام (أسكيزوفرينيا) . وزمن الرجع عند الشخص العادى هو حوالى نصف دقيقة من الرؤية إلى الإجابة . وهناك نسبة شبه ثابتة تتوزع بينها الإجابات من حيث المنطقة عند الشخص العادى .فى ثلاثين إجابة عادة ما نجد حوالى سبع إجابات تنصب على البقعة فى إجمالها أى G ونجد عشرين اجابة تنصب على الأجزاء D وثلاث اجابات على التفاصيل dd . وعادة ما تشير كثرة الإجابات من النوع الأخير إلى وجود القلق أو التأخر العقلى .

فإذا ما انتهينا من تسجيل الإجابات وإفراغها فى « البروتوكول » مستخدمين الرموز الاصطلاحية ، ومبينين العوامل المحددة ، فإننا نشرع فى عملية التفسير وذلك بتعيين نمط الحياة عند الفرد . يتحدد هذا النمط تبعاً للنسبة ما بين عدد

الإجابات التى ترجع إلى عامل الحركة وعدد الإجابات التى ترجع إلى اللون؛ إذ تشير الأولى إلى حياة باطنية ثرية تتسم بالروية بينما تشير الثانية الى الانفعالية التى تتسم بالاندفاعية . وهنالك أربع أنماط : النمط المنبسط عندما تكون إجابات اللون أكثر من إجابات الحركة ، والنمط الباطنى عندما تكون إجابات الحركة أكثر من إجابات اللون ، والنمط الفقير عندما تتساوى هذه الإجابات وتلك فى ضآلة عددها ، والنمط الثرى عندما تتساوى هذه الاجابات وتلك ولكن فى ثراء وكثرة .

واختبار الرورشاخ وإن لم يكن اختبار ذكاء إلا أنه يستطيع أن يقدم لنا صورة كلينيكية لارقية عن ذكاء الشخص. فالإجابات الإجمالية تكشف عن الذكاء النظرى بينما تشير الجزئية إلى الذكاء العملى. هذا وتكشف الاجابات ذات الأشكال الحسنة + F ،أى هذه التى تنطبق تماماً على البقعة، عن ارتفاع الذكاء .كذلك يكشف عنه تواتر الترتيب لمناطق الإجابات،بمعنى أن يبدأ الشخص بإجابات إجمالية وينتقل إلى الجزئية وينتهى بالتفصيلية فى كل لوحة .كذلك يكشف تعدد إجابات الحركة عن ارتفاع مستوى الذكاء عند الشخص .

وفى الحالات التى يقلب فيها الشخص اللوحة بصورة منتظمة بحيث يبدأ دائماً بتأويل مناطقها السفلى فكثيراً ما يكشف ذلك عن ميول إلى الجنسية المثلية .

وحين تكثر التأويلات ذات الطابع العلمى أو المدرسى فمن المحتمل أن يكون ذلك من الشخص محاولة لدفع مشاعر النقص أو رغبة منه فى العرض .

أما الإجابات التشريحية الطابع فقد تصدر فى حالة اهتمام الشخص بصحته .

وينبغي أن تنتبه إلى أسلوب اللغة عند الشخص وماقد ينطوى عليه من تعبيرات التأكيد أو الشك أو التعجب أو التعليق فى غير موضعه .

ومهما يكن من أمر فإن تطبيق هذا الاختبار على نحو مفيد إنما يتطلب إخصائيا قضى السنوات فى تعلمه وممارسته . ولقد حاول البعض تبسيط هذا الاختبار باستخدامه كاختبار جمعى ، فتظهر اللوحة على شاشة العرض بينما توزع على الأشخاص كراسات ذات رسوم تخطيطية يحددون عليها إجاباتهم . ولكن هذه المحاولة تكشفت عن قصورها .

اختبار الـت . أ . ت — T. A. T. أو الإدراك الداخلى للموضوع

ابتدع مورى ومورجان هذا الاختبار عام ١٩٣٥ . وهو يتألف من ثلاثين لوحة تشتمل كل واحدة فى الغالب على منظر به شخص أو جملة أشخاص فى مواقف غير محددة مما يسمح بإدراكها على أنحاء مختلفة، وبينها لوحة بيضاء . بعض اللوحات خاصة بجميع الذكور وتحمل الرمز BM «ص.ر» . وبعضها الآخر خاص بالذكور فيما فوق ١٤ سنة وتحمل الرمز M « س » بينما بعضها خاص بالذكور تحت ١٤ سنة وتحمل الرمز B «ص».وهناك لوحات خاصة بجميع الإناث ويحمل الرمز GF « ب. إ» . بينما توجد لوحات خاصة بالإناث فوق ١٤ سنة وتحمل الرمز F « إ » ، ولوحات خاصة بالإناث تحت ١٤ سنة وتحمل الرمز G « ب » .

نطلب إلى الشخص أن يبتدع قصة عن منظر اللوحة ونفهمه أن القصة لابد وأن تنطوى على ماض تتبين منه ما حدث حتى أصبح الموقف على ما هو عليه الآن، كما لابد وأن تنطوى القصة على نهاية توضح ما ستنتهى إليه الأحداث.نعطى اللوحات العشرين على جلستين تستمر كل منها ساعة، ولا يحدد عادة وقت لكل لوحة، ولكننا نحاول عندما يقف الشخص عند مجرد وصف اللوحة أن تستثيره وذلك بأن نطلب إليه تبعا للظروف «كيف؟» «ومتى ؟» و«ما السبب ؟» و « ثم ماذا ؟ . . . » الخ . أما فيما يتصل باللوحة البيضاء فنطلب إلى الشخص أن يتخيل بنفسه المنظر ثم يبتدع بعد ذلك قصة عنه .

وينبغى أن تكون الإجابة كتابة لما ينطوى عليه الشطب والخطأ والتصحيح من دلالة .

وينبغي تسجيل ملاحظات عن السلوك الإجمالى للشخص ، وعن فترات التردد أو الصمت وعلامات الدهشة والتعليقات المختلفة . ويمكن بعد الإنتهاء من الاختبار أن نستوضح الشخص ما نرى ضرورة استيضاحه من نقاط ، ولابد لفهم الإجابات وتشخيص الحالة من أن نطلب إلى الشخص الكثير من المعطيات عن تاريخ حياته . وينبغي أن ننظر إلى الإجابات وسلوك الشخص بحسبانهما وحدة كلية .

وليس هناك كما نعلم تفسير مقنن للإجابة ، لا ولا دراسات إحصائية خاصة بهذا الاختبار ، فهو اختبار كلينيكى بمعنى الكلمة ، يحتاج إلى إخصائى ليضطلع به ، بل إن قيمة النتائج المستخلصة تعكس إلى حد بعيد قيمة الإخصائى ومدى تعمقه . ومن الواضح أن هذا الاختبار يختلف تماما عن المقاييس المقننه والاستخبارات وسلالم التقدير التى يستطيع صبى المعمل أن يضطلع بتطبيقها واستخراج نتائجها بعد قراءته للتعليمات .

مرة أخرى ننبه إلى ضرورة النظر إلى الإجابات فى إجمالها وفى صلتها بنوعية مجالات الحياة . صحيح أن النهاية التى تغلب على قصص الشخص تشير إلى ما يغلب عليه من تفاؤل أو تشاؤم . ولكن لا ينبغى أن نقع فى الخطأ الذى يتورط فيه البعض عندما يحاول حساب متوسط التفاؤل أو التشاؤم . وليس لهذا الاتجاه أو ذاك من قيمة إلا بالنسبة لنوعية الموقف والمجالات التى يتكشف فيها .

وتأويل هذا الاختبار يستند أساسا كما رأينا إلى المضمون . ومن هنا كان اهتمام مورى بالكشف عن التطابقات واهتمام تومكينز بالكشف عن اتجاهات الشخص إزاء المواقف أو المجالات المختلفة . وليس معنى هذا أن نغفل تأويل الأسلوب أو الصياغة .

ولقد قام البعض بدراسة دلالة الأسلوب فى هذا الاختبار . فانتقاء الشخص لألفاظه ، وتكرار بعضها ، وطريقته فى صياغة الجمل تكشف عن خصائص هامة فى شخصيته . وغالبا ما يتناسب عدد الكلمات مع مستوى الذكاء ، والسن. وكذلك الحال بالنسبة إلى تماسك القصة أو ما يمكن أن نسميه « بالحبكة الروائية » . هذا إلى أهمية التعبيرات التى تتكرر عند الشخص كأن يميل إلى القول « يبدو لى » ، « ليس من شك » ، « من المؤكد أن » ، « إما كذا وإما كذا » ، إلى غير ذلك .

ويعد التدريب على هذا الاختبار غاية فى الأهمية فى الحالات التى نريد فيها أن يبلغ الكلينيكى إلى استخلاص الخصائص المميزة والدوافع العميقة لشخصية من الشخصيات فى مواقف الحياة العادية . ففى مثل هذه المواقف لن يتاح للشخص أن يتقدم بمقاييسه المقننة ليرغم الشخص على الإجابة . وحتى لو استطاع ذلك ففى وسع هذا الشخص أن يلوذ بالصمت أو بالكذب إن لم تسعفه الوسائل الدفاعية اللاشعورية .

وصف لفظى للوحات الـ ت . أ . ت كما يقدمه ديلاشو ونيستلى فى كتابهما

Le Test d' Aperception Thématique de Murray

السلسلة الأولى

١ — صبى صغير جالس أمام منضدة شعره متهدل على وجهه ورأسه مستندة إلى ذراعه وكوعه على المنضدة . توجد على المنضدة أمامه كمنجة وقوس . وتحت الكمنجة والقوس كراس موسيقى مفتوح . عينه اليمنى تكاد تكون مقفلة واليسرى مفتوحة نصف فتحة .

٢ — مشهد فى الريف . فى المستوى الأمامى وإلى اليسار إمرأة شابة فى يدها كتب . يبدو أنها تتطلع بعيداً، وإلى اليمين تستند فلاحة إلى شجرة. وفى المستوى الخلفى رجل عارى الصدر، يبدو وكأنه يعمل فى الحقل. ويرى حصان. رأس الرجل ورأس الحصان ينظران إلى الخلف . وفى القاع بعض المنازل والتلال .

٣ — ص . ر — شخص صغير السن منحن على نفسه (أو على الأقل شخص مذكر صغير السن) يسند رأسه على ذراعه الأيمن ، وهو متكئ على سرير ، لا يرى وجهه . وإلى يسار السرير وعلى الأرض يرى شىء لا يمكن تبينه بوضوح من الممكن أن يكون مسدساً .

٣ — ب . أ — باب مغلق وأمام الباب إمرأة شابة . إنها واقفة ورأسها مائل إلى الأمام تغطى وجهها بيدها اليمنى . ويدها اليسرى تستند أفقية إلى الباب ورأسها مستند إلى هذه الذراع .

٤ — فى المستوى الأمامى امرأة ورجل . تنظر المرأة إلى الرجل ولكن الرجل مشيح عنها بوجهه . قميصه مفتوح . المرأة تحتضنه بذراعيها ويدها اليسرى على كفه الأيمن . وفى القاع يبدو شىء يشبه النافذة . وفى أقصى اليسار تبدو امرأة جالسة وساقها فوق الأخرى. ملابسها لا تكاد تسترها. نهداها واضحان تماما من وراء الملابس . وإلى أعلى مساحة بيضاء يمكن أن تكون ورقة مطبوعة .

٥ — حجرة حديثة خافتة الإضاءة . منضدة عليها مصباح وإلى جانب المصباح إناء به زهور . رف بالحائط عليه كتب . دولاب غير مرتفع عليه بعض الكتب ، وإلى اليسار باب مفتوح . إمرأة متوسطة العمر يبدو أنها قد فتحت لتوها الباب ويدها ماتزال ممسكة بمقبضه. إنها تميل قليلا إلى الأمام تنظر داخل الحجرة .

٦ — ص . ر — إمرأة متقدمة بعض الشيء في السن رمادية الشعر في حجرة . إنها واقفة على مقربة من النافذة تنظر خلالها ونظراتها مثبتة إلى بعيد. يقف وراءها رجل أصغرمنها سنا ورأسه تجاهك . إنه يرتدي معطفا ويمسك قبعته بيديه المتدلية إلى أسفل ، وهو ينظر إلى بعيد .

٦ — ب . إ — امرأة صغيرة السن نسبياً جالسة في ركن أريكة وأمامها منضدة . تلتفت برأسها إلى رجل خلفها وإلى يسارها . والرجل منحن نحوها . يبدو أنها تتكيء بيدها اليسرى على ظهر الأريكة . في فم الرجل « بيبه » ونظراته مركزة على المرأة .

٧ — ص . ر — رجل متقدم نسبياً في السن رمادي الشعر وشاربه رمادي اللون يخفض رأسه ناظراً إلى رجل أصغر سناً ومحملق إلى بعيد .

٧ — ب . إ — امرأة متوسطة العمر جالسة على أريكة . وعلى مقربة منها بنت صغير جالسة فيما يبدو فوق ظهر مقعد وثير قريب من الأريكة . الذراع الأيمن للمرأة مستند على المنضدة . وفي يدها كتاب تنظر فيه ويبدو أنها تقرأة للبنت . ولكن نظرات البنت تبعد عن المرأة محملقة إلى بعيد . والبنت ممسكة بدمية في يديها .

٨ — ص . ر — إلى اليمين في المستوى الأمامي رجل شاب يتجه بنظره اليك . وعن يساره بندقية تظهر منها الماسورة . وفي القاع رجل على نقالة وصدره عار . وخلف هذا يقف رجلان يمسك أحدهما بآلة في يده ، ويبدو كأنه يجري عملية للرجل الملقى على النقالة . وإلى جانبه رجل يبدو وكأنه ينظر إليه . وما من شيء يظهر بصورة واضحة .

٨ — ب . إ — امرأة شابة جالسة على مقعد و تستند بكوعها على ظهر المقعد وذقنها مستندة إلى ذراعها الأيمن وتنظر إلى بعيد .

٩ — ص.ر — ثلاثة رجال يرقدون على الحشيش يبدو أنهم نائمون وعلى رؤوسهم قبعاتهم . يسند أحدهم رأسه فيما يبدو على جسم الآخر . وأمامهم على الحشيش يجلس رجل رابع لا يرى غير ظهره .

٩ — ب . إ — جذع شجرة . تقف أمامه امرأة شابة فى ثوب المساء وعلى ما يبدو ترفع الجيب وكأنها تجرى مبتعدة . ومن وراء الشجرة تنظر امرأة ثانية شابة ممسكة بكتاب أو كراسة فى يدها اليسرى وبشىء يمكن أن يكون حقيبة أو غير ذلك .

١٠ — ظلان غير محددين يبدو أنهما لرجل وامرأة فلا يرى فى الحقيقة غير الرأسين ويبدو أن أحدهما يسند رأسه على كتف الآخر ويلمس بيده الكتف الثانى . وكلا الشخصين مغلق العينين .

السلسلة الثانية

١١ — منظر يشبه حكايات الجنيات . صخور وأشجار . كل شىء قاتم غير واضح . ووسط الأرض الصخرية يوجد طريق ضيق . وفى القاع صخرة أو حائط . ومن الصخرة حيوان خرافى يمد رأسه وصدره . ويوجد حيوان مماثل فى مستوى الأرض .

١٢ — ر — رجل شاب ممدد على أريكة عيناه مقفلتان . رجل آخر واقف على مقربة من الأريكة وركبته مستندة إلى حافة الأريكة . إنه مائل قليلا على الشخص الراقد وذراعه الأيمن ممتد قليلا بحيث تبدو يده على مسافة ما من رأس الشخص الراقد .

١٢ — إ — فى المستوى الأمامى ظل لامرأة شابة رأسها متجه إليك . نظراتها غير محددة تحملق إلى بعيد . وخلفها امرأة متقدمة نسبياً فى السن وحول رأسها «ايشارب» ويدها اليمنى أمام فمها . يبدو وجهها غير مستريح بعض الشيء . تشيح بنظرها عن المرأة الشابة .

١٢ — ص.ب — منظر طبيعى. فى المستوى الأمامى شجرة مزهرة. خلف ذلك أشجار أخرى . والأرض مغطاة بالحشائش . يبدو أنه توجد بحيرة صغيرة أو « جدول ماء» وإن لم يكن ذلك من المؤكد . وعلى الأرض قارب بغير مجاديف . ليس هنالك وجه بشرى .

١٣ — ر . إ — إنها ممددة فوق سرير أو أريكة . إنها امرأة أو بالأحرى جسم امرأة . الصدر عارى النهدين وذراعها الأيمن يتدلى من فوق حافة السرير . ربما تكون جثة. يقف أمامها رجل ووجهه فى اتجاهك وذراعه الأيسر يتدلى إلى جانب جسمه وذراعه الأيمن يخفى وجهه . فى الركن الأيمن منضدة عليها كتابان ومصباح ، وخلف المنضدة مقعد .

١٣ — ص — كوخ خشبى . الباب مفتوح . صبى صغير جالس على عتبة الباب وكوعاه على ركبتيه ورأسه مستندة إلى يديه .

١٣ — ب — يبدو المنظر وكأنه سلم حلزونى . بنت صغيرة تمسك بحاجز السلم وهى تصعد .

١٤ — كل شيء مظلم . غير أن نافذة تبرز فى هذه الظلمة . وعلى حافة النافذة يجلس شخص يمسك بيده اليمنى إطار النافذة .

١٥ — منظر يغلب عليه الطابع الهندسى . أشكال يبدو أنها شواهد قبور وصلبان . فى الوسط وفى المستوى الأمامى وجه رجل نحيل وغائر

الخدين . ذراعاه متصلبان إلى أسفل ويده على الأخرى .

١٦ — صورة بيضاء . يتحتم على الشخص أن يبتدع المنظر قبل أن يبتدع عنه قصة .

١٧ — ص . ر — حائط (أو جانب من حائط) يتدلى أمامه حبل ، ويتعلق بهذا الحبل رجل عار يصعد أو يهبط على الحبل .

١٧ — ب . إ — منظر يغلب عليه الطابع الهندسي . ولا يسهل تبين التفاصيل بصفة أكيدة . ليس من شك فى أن هنا لك كوبرى فوق مجرى مائى . وعلى الكوبرى امرأة فى وضع يوحى بأنها راكبة دراجة . فالدراجة غير ظاهرة . وتحت الكوبرى منزل عند حافة الماء ومركب . عدد من الأشخاص المحملين بالزكائب فى طريقهم من المركب إلى المنزل . وأمام المنزل رجل وكأنه يشرف عليهم . الكوبرى ووراءه منزل آخر أو كوخ . وفى أعلى المنظر قرص قاتم تنبعث منه أشعة .

١٨ — ص . ر — قاع مظلم . وفى المستوى الأمامى رجل معطفه وسترته مفتوحتان ورأسه ملتفت إلى اليمين بحيث يظهر الرأس جانبيا . عيناه مقفلتان . ترى ثلاثة أيدى الواحدة فوق ذراعه الأيمن والثانية فوق كتفه الأيمن والثالثة فوق ذراعه الأيسر .

١٨ — ب . إ - سلم يستند إليه شخص ، يصعب تبين ما إن كان رجلا أو امرأة وأمام هذا الشخص امرأة تحيطه بذراعيها (وفى الحقيقة لا نرى غير اليد اليسرى والإبهام مستند على السلم)

١٩ — منظر يغلب عليه الطابع الهندسي . ويصعب أن نتبين ما يمثله . ومن الممكن أن تكون سحباً أو كتلا من الجليد . فى المستوى الأمامى شيء يمكن أن يكون كوخا .

٢٠ — فانوس يستند عليه شخص ولا نستطيع أن نتبين ما إن كان رجلا أو امرأة . فالوجه غارق فى الظلمة . بعض الأشجار تظهر من خلف الشجيرات . ما من شىء واضح ومتميز .

ملاحظة:

يشير الحرف «ص» إلى أن اللوحة خاصة بالصبية ، والحرف «ر» إلى أنها خاصة بالرجال ، والحرف «ب» إلى البنات ، والحرف «إ» إلى الإناث .

مثال تطبيق لاختبار ت أ ت

بعض الإجابات وتعليق عليها :

إجابة اللوحة رقم ١

«الربابة المكسورة : أخذ جاك الصغير من والده هذه الربابة كهدية . وابتهج جاك بها . وعند تناوله لها فى حذر قطع أحد أوتارها . كان جد مضطرب وجد آسف ، لأن الربابة كانت لا تزال جديدة . ولم يدر كيف يخبر والده بما فعله . وكانت فكرته الأولى هى أن يخفيها بعيداً ولا يذكر عنها كلمة . ومع هذا فقد ذهب أخيراً وأخبر أمه وأصلحا الربابة ، ولم يدر والده عنها شيئاً » .

(التعليق . مشاعر الخصاء واضحة من قطع الوتر ولكن يبدو اتجاه الرغبة إلى الشفاء فى إصلاح الربابة .)

إجابة اللوحة رقم ٦ ص ر،إ

«قالت مدام دوفال لابنها ريموند» :

— إذا تزوجت هوجت فأنت لست ابنى .

— ولكننا نحب بعضنا يا أماه .

— ليس لذلك علاقة بالأمر . إنى أرفض تماماً أن أتخذ هذه الشحاذة زوجة لابنى .

— ولكن يا أمى ..

— حسناً متروك لك أن تقرر ما إذا كنت تحبنى أم تحبها لأنه يستحيل أن يكون كلانا .

— يا أماه . . .

— لقد تكلمت .

— إذا لم أتزوج هوجت فلن أتزوج من أحد فى حياتى .

— ذلك كلام طفل . يوماً ما ستأتى فى طريقك الفتاة المناسبة ، وسأباركها ، ثم ستكون شاكراً لمعروفى لانقاذى إياك من هوجت .

ولكن هذا اليوم لم يأت أبداً . ولم يتزوج ريموند . وماتت مدام دوفال ولكن شبحها ظل حاكماً ريموند بقية حياته » .

(التعليق : كلمة « ظل » لم تكن واضحة الكتابة ، فهى لا تكشف عن اليقين ، مما يشير إلى الرغبة فى الشفاء . تسلطية الأم واضحة . وكذلك تثبيته المستمر على الأم .)

إجابة اللوحة رقم ٧ ص ر

« كان السيد جونسون مغرماً بابنه أريك . ولكن أريك كان ولداً مفسوداً . وكان أريك يحب راقصة كباريه . وفى يوم ما قابل أباه بشقتها

فصدم وخاب أمله . فخرج مسرعا من شقتها وذهب إلى فندق ومكث هناك. ولم يكن لديه مال ولا إمكانيات. وفجأة اضطر إلى أن يذهب راجعا إلى بيته. استقبله والده بسرور . وحاول والده أن يشرح له أنه إنما ذهب إلى هناك ليقدم المال لتلك الراقصة حتى تتركه لدراساته . ولم يصدق أريك كلمة من ذلك ، ولكنه بقى معتمداً على والده . وكان عليه أن يتظاهر أنه صدق ، ويعزى نفسه بظنه أن سوف يأخذ بثأره يوما ما » .

(التعليق : الموقف الأوديبي فى صراحة ينقلب معها الوضع : فليس الابن هو الذى يريد أن يغتصب حق الأب ، بل المرأة هنا حق للطفل ، ويلعب الأب دور الدخيل. أما الأم فهى تتخذ هنا صورة ما جنة إشارة إلى صداقتها الخفية التى يعرفها الابن . تظاهر الابن بالتصديق يعبر عن تفاهم سطحى مع الأب ، ولكنه فى الأعماق « سوف يأخذ بثأره يوما ما » .)

إجابة اللوحة رقم ٩ ص ر

« مجموعة من عمال المزرعة يستريحون بعد أن تناولوا غذاءهم فى الحقل. أحدهم جاك ذو الطبيعة المتشككة ظن أن هناك صداقة غير شريفة بين موريس وبيير . شاهد بيير يريح رأسه على ظهر موريس فتأكدت ظنونه. بدأ فى القيل والإدعاء حولهما . وما أن وصلت الأقوال إلى آذان موريس وبيير حتى تعاركا معه وأشبعاه ضرباً قوياً . وانتشرت الإشاعة وزاد انتشارها . وفى النهاية كان على صاحب المزرعة أن يطرد الإثنين ، اللذين هما فى الحقيقة جد أبرياء » .

(التعليق : الجنسية المثلية هى مجرد ظنون عند الآخرين ولا وجود لها فى الواقع . — أنظر فى تاريخ الحياة حلم العصفور الذكر — ومايعنيه هو أن يعرف الناس عنه ذلك ، ففيه ما يؤكد ابتعاده عن خطر الجنسية المحارمية .)

إجابة اللوحة رقم ١٠

« ذهب الولد الوحيد لمدام جابرييل إلى الحرب . وقضت ليالى كثيرة دون نوم فى انتظاره ، مصلية من أجل عودته بسلام . ومع ذلك فقد جرح وفقد ساقه، ولكن كان عليه ألا يحارب. وفى الحال أخلى ورجع إلى البيت لأمه التى كانت سعيدة برؤيته، حامدة الله الذى حفظ حياته من أجلها. ومنذ رجوعه لم يحفل بالوقت الذى يمكن أن تستمره الحرب حتى تنتهى . وهذا أيضاً لا يعنى شيئاً بالنسبة لها . لقد استردت الآن ابنها » .

(التعليق : الابن هنا ابن وحيد يستأثر بالأم — على خلاف الواقع — أما ثمن ذلك فهو قبول الإخصاء الذى يرمز له بتر الساق . كانت الأم تتمنى ابنة فى الواقع ، فجاء هذا الإبن مخيبا رجاءها . ومن ثم ضحى بذكورته ليستأثر بحبها .)

إجابة اللوحة رقم ١٣ ص :

« حينما حضر عم الصغير جاك إلى المنزل ليرى أم جاك أرسل بجاك الصغير إلى خارج المنزل . لم يكن لجاك أن يفهم لماذا ينبغى عليه أن يترك والدته بمفردها دائماً حينما يحضر عمه جورج . وأراد أن يسأل أباه ولكن أباه كان بعيداً ، وظهر أنه سوف لا يعود . وكره جاك عمه وقال لنفسه أنه سيذهب إلى الغابات ليسأل الجنيات حتى يقلبن عمه جورج إلى حمار . وهذا ما فعله فشعر بسعادة كبيرة . ومع هذا فلم يتغير العم جورج . كان جاك متأكدا أنه يوماً ما حينما يصبح رجلا كبيراً سيتحول العم جورج إلى حمار » .

(التعليق : الموقف الأوديبى كما عاشه فى الواقع ، وكما كان يتمناه . فالأم وإن اعتبرت أن الأب لا وجود له ، فإنها لم تتجه بحبها إلى الابن بل إلى

بديل الأب — الصديق الذى كان يناديه الابن « أو نكل » — ومن هنا كان شعوره بالعزلة وكانت كراهيته التى تجد تنفيسها فى الخيال الطموح بأن يتخطى يوماً ما فى المكانة الاجتماعية صديق الأم بحيث يبدو هذا الأخير حاراً بالنسبة إليه .)

إجابة اللوحة رقم ١٨ ص ر:

« قال بيير لصديقه جاك : « ماتت أمك » . إنهار جاك تقريباً . ولم يكن هناك أحد يواسيه غير يدى بيير الرحيمة . أصبحت حياة جاك لا معنى لها . ويعيش الآن فقط مع شبح أمه وبيير .

(التعليق : يتضح هنا الانتقال من الجنسية الغيرية المحارمية إلى الجنسية المثلية الدفاعية فمنذ أن ماتت الأم بالنسبة إليه كاشفة عن تحولها عن الأب لا إليه بل إلى غيره ، لم يكن أمامه إلا أن يستند إلى صديق من جنسه . وهو فى ذلك يتطابق مع الصورة التى أرادتها له الأم ، مستجيباً فى الواقع لدواعى الهرب من الجنسية الغيرية بما تنطوى عليه من خطر الخطيئة المحارمية — أنظر تاريخ الحالة — .)

إجابة اللوحة رقم ١٨ ب إ :

« — كيف أمكنك أن تفعلى لى هذا ؟ — قالت مدام دارنيير لابنتها جينيت — لقد ربيتك بأحسن الطرق التى قدرت عليها ، ضحيت بحياتى من أجلك ، وعشت فى فقر لأجعلك سعيدة ، وعلمتك تماما . والآن ، يا لخجلى وخوفى ، أجد ابنتى لا شىء فقط دنيئة . . »

وشعرت جينيت بالخجل والندم للحظة . ولكنها نظرت إلى أمها فى التو فى عينيها وقالت :

— لكن يا أمي إذا كنت قد أصبحت دنيئة فإن هذا فقط لأنني ينبغي أن أتبع مثالك الطيب .

فصفعتها مدام دارنيير في الحال على وجهها . وفي التو شعرت بالأسف وأمسكت بابنتها وضمتها إلى قلبها وصاحت :

— هذا يمكن إصلاحه يا ابنتي . إنك ما تزالين شابة . وحتى إذا اغتصبك هذا الوغد فأنا متأكدة أنه يوما ما سيعترض طريقك رجل رقيق ويتزوجك .

— لقد فات الوقت يا أمي . لا تحسني الظن بنفسك . من سيتزوج من ابنة مدام دارنيير قبيحة الصيت ؟ » .

(التعليق : ثورة السلبية في وجه الأم . فالسلبية تقع مسئوليتها على الأم . ومن وراء التطابق مع الأم ينشأ الاتهام بشناعة فعلتها . فقد ضيعت المستقبل وهنا تتكشف العدوانية تجاه الأم .)

إجابة اللوحة رقم ١٩ :

« حلمت أنني رأيت بومة غارقة في الجليد وحولها حطام من كل جانب وشكل قضيب يبرز من وسط الجليد . وكانت عيون البومة تشبه نوافذ بيت مسكون بالجن . وشعرت بالبرد والرعشة أثناء نومي . كانت الرياح تعصف بقوة . وكانت الأغصان المحدبة للأشجار السوداء تدفعها الرياح الغربية بقوة . حينئذ ظهر شبح رجل مقنع ، ونظر إلى بعينين مفتوحتين باتساع ، وإن لم تكن هناك عينان . حينئذ نزلت قدم من أعلى السموات لتسحقني واستيقظت » .

(التعليق : تلخيص رمزي لقصة شفائه . فالأحداث القديمة ترمز لها الأنقاض وقد غطاها الجليد . يتلخص المنظر في أم شؤم - بومة - وقضيب ضائع .

كل شيء قاتم عاصف . وهو الآن يستشعر الرعب أمام الضمير والمعالج مفتوح العينين وإن لم تكن له عينان — تمثيل بالضد فالمعالج أعمى — وهو يتوقع العقاب من هذه القدم التي تهبط من السماء .)

إجابة اللوحة رقم ٢٠ :

« وقف جاك أسفل مصباح الشارع ناظراً إلى الليل القاتم وأنوار المدنية الكبيرة . هذه الأنوار ليست من أجله ، إن له الظلام . نظر إلى الناس الأغنياء والممتلئين يتحركون في عربات ذاهبين إلى النوادي الليلية والمطاعم . ولم يكن هذا مكانه ، إن له البرد والجوع . كان مفلسا وكان جوعان . وانتظر حتى مرت امرأة بمفردها . وخطف منها حقيبة يدها وهرب . صرخت المرأة وحاولت أن تجرى وراءه ولكنها زلقت وسقطت في المجارى وأوحلت في القاذورات الجارية بالمجارى . وجلست في المجارى وخوضت . كانت عاهرة عجوزاً . وكانت تجد صعوبة في أن تجد زبائن . وهذه الليلة للمرة الأولى خلال الثلاثة أسابيع الأخيرة وقعت على زبون كريم دفع لها بسخاء . وكانت سائرة إلى منزلها تفكر في عشاء فاخر تقدمه إلى أطفالها الجائعين . أما الآن فسوف ينام أطفالها بغير عشاء . أحست أنها لا تقدر على الحركة ، لا تقدر على الذهاب إلى منزلها ومواجهة هؤلاء الملائكة الجائعين المنتظرين دون أي شيء يفرحهم ويخفف من جوعهم . لم تتمكن من أن تحرك أطرافها أي حركة . فجلست هكذا ببساطة في المجارى وصرخت » .

(التعليق : يتضح إحساسه بأنه ضحية الأحداث والقدر . ومع ذلك يتجه الاتهام إلى هذه العاهرة العجوز فيلقى بها في الوحل وقد اغتصب حبها على حساب الأخوة الذين ينتظرونها .)

تاريخ الحالة

رجل أعزب فى الثانية والثلاثين سافر بعد دراساته الجامعية إلى الولايات المتحدة حتى حصل على الدكتوراه فى مجال تخصصه .

أخبرته أمه أنها عانت الكثير أثناء حمله وتعرضت لخطر الموت ولكنها تحملت كل شيء رغبة منها فى الحصول على بنت . فقدكان لديها كثير من الذكور . وكانت تكره أصلا خلفة الذكور . «لو كنت عارفه أنك ولد كنت سقطت نفسى» .

وعلى الرغم من الواقع أصرت الأم على المضى فى أوهامها ، فعاملت الوليد على أنه بنت . فكانت تصفف له شعره الطويل وتلبسه ملابس البنات المزركشة . ولم تكن تحضر له غير لعب البنات ولم تسمح له باللعب إلا مع بنات الجيران ، وعلمته جميع أشغال الإبرة حتى أتقنها فى سن صغيرة . ودللته حتى كان يكفى أن يبكى حتى تجيب له أى مطلب . وكان فى طفولته «جميلا خفيف الظل يخلو جسمه من العضلات» .

تعرض فى الخامسة من عمره لمحاولة اغتصاب من عمه الأصغر . وأخبر أمه فحذرته من مخالطة الرجال . وفى العاشرة استبدت به الرغبة فى أن يستسلم لرجل يعطيه نقوداً ، ولكنه تراجع خوفاً من الحمل .

ظل ينفرد بالنوم إلى جوار أمه فى الفراش حتى بلغ الخامسة والعشرين . وكانت الأم مستبدة تحتقر الأب الذى لم يكن ينام إلا على أريكة . كان الأب رقيق الحال ثم وصل إلى الثراء المسرف وتدهور فجأة فأصبح معدما . ووجدت الزوجة فى هذا الوضع الأخير ما يبرر مشاعر احتقارها له ، وما يبرر أيضاً علاقة الصداقة التى نشأت بينها وبين أحد الشخصيات البارزة والثرية فى المجتمع .

لم يكن ينام إلا ورأسه فى ظهر أمه . ولقد أيقظته أمه ذات مرة من حلم ونهرته « ده عيب » ، فأدار ظهره لها . ومنذ ذلك التاريخ اختفت الهواجس العارضة النحيلة التى كانت تخطر له أحيانا متصلة بالجنس الآخر . ومضت حياته بعد ذلك سلسلة من المحاولات فى مجال الجنسية المثلية . كان يبدأ بالسلبية ليتمكن من اجتذاب الآخر إليه ثم ينقلب إلى الدور الموجب . ولكنه كان يقف دائما عند المحاولات التى لا تتمخض إلا عن القلق واحتمال الفضيحة الوشيكة ، مما قد ينعكس بشكل خطير على عمله . وكان هذا هو الذى دفعه إلى طلب العلاج . ولم يكن يقبل من العلاج فى البداية أن يحوله إلى الجنسية الغيرية بحيث يشتهى أفراد الجنس الآخر ، وإنما كان يريد باسم المنطق أن يصل أولا إلى تحقيق قدرته الجنسية مع نفس الجنس وإلى التخلص من عجزه فى هذا المجال . فإذا تم له ذلك تحول إلى الجنس الآخر .

كان يشعر أن أمه قد سدت عليه فى طفولته كل مجال أمام الذكورة . كان بحسب تعبيره أشبه شىء بكلب لم يكن من المصرح له أن يتبرز فى أى مكان فلم يكن أمامه إلا أن يبتلع برازه . كان من عادته أن يقف عاريا أمام المرآة واضعا قضيبه بين فخذيه فلا يظهر فى المرآة . وفى وقت ما كان يقوم بالاستمناء قضيبيا وشرجيا فى نفس الوقت . وكثيراً ما حاول أن يصل بقضيبه إلى شرجه ، وهو ما كان يسميه فى الجلسات « ميكانيزم الكلب » . وفى بعض الأحيان كان ينام على ظهره أثناء الاستمناء ويرفع ساقيه إلى أعلى محاولا أن يقذف فى فمه . وفى أحيان أخرى كان يستخدم الكوب التى يشرب فيها ليقذف فيها فى نهاية الاستمناء .

لم ينجح فى أية محاولة إيجابية قام بها مع فرد من جنسه . فلقد تكشفت هذه النزعة مجرد دفاع ضد رغبته الأعمق فى الجنسية المثلية السلبية ، هذه التى كانت بدورها دفاعا ضد الرغبة المحارمية المتعلقة بالأم . كان عليه فى

المستوى السطحى أن يتظاهر بالسلبية والأنوثة ليحظى بتقبل الأم . وفى مستوى أعمق كان عليه أن يتشبث بالسلبية تجنبا منه أن يتورط يوما فى فعلة شنيعة مع الأم . وكان عليه أيضا إحكاما للدفاع أن يتحول بمشاعره عن عالم النساء . من هنا كانت رغبته الجنسية المثلية السلبية التى بدت له كريهة ، فتبنى من قبيل الدفاع ضدها المثلية الإيجابية .

فى أحد الأحلام يمسك ببندقيته ويسددها إلى عصفور يقف على الأرض ، بينما تغص شرفات المنازل بالمتفرجين عليه ؛ ويطلق النار فلا يصيب العصفور الذى يتميز بنقطة قائمة على منقاره — علامة الذكورة — . وفى هذا ما يشير إلى أن المثلية الإيجابية لم تكن جادة بقدر ما كانت تتجه إلى العرض .

ولم تكن المثلية السلبية عنده تصل قط إلى حيز الواقع ، بل كانت بالحرى ترجمة عن رغبته فى الخصاء وهى المتصلة ولا شك بموقفه الأوديبى . كان كلما حلق شعر العانه استبدت به الرغبة فى أن يقطع قضيبه . وفى شبابه أثناء الدراسة قام فى الفرقة التمثيلية بأداء دور بطلة المسرحية فلقى نجاحا كبيراً ، وهو يذكر ذلك فى اعتزاز . وفى أحد الأحلام يرى نفسه وهو يمسك بقضيبه وقد انفصل عن جسمه فيحاول عبثا تثبيته فى مكانه .

وفى العلاج كان يحرص دائما على أن يدفع الأجر مقدما كدفاع ضد السلبية المرتبطة عنده بتقبل النقود ، وذلك على أرضية من طرح مشاعره الطفلية على المعالج .

كان يشعر أحيانا بالرغبة فى تقبيل المعالج تعبيراً عن فرط التعلق

به . ومع تقدم العلاج بدأ هذا الشعور يخلي السبيل لمشاعر الكراهية للمعالج مما يتضح من مستدعيات أفكاره . من ذلك حديثه عن فيلم « النمر النائم » حيث تدور القصة حول حياة منحرف كان يتابع جلسات العلاج فانتهى به الأمر إلى أن يهرب مع زوجة المعالج عشيقة له .

الفصل الثانى عشر

الهفوات والأفعال الأعراضية والأحلام

الهفوات والأفعال الأعراضية

تشتمل الهفوات والأفعال الأعراضية على :

(ا) زلات اللسان والقلم (ب) أخطاء القراءة وأخطاء السمع (حـ) النسيان الموقت لأسماء الأشخاص والأعلام والنسيان المؤقت للوعود والأعمال التى كان من المفروض تنفيذها (د) الإضاعة الوقتية لشىء من الأشياء ، وبعض التصرفات غير الموفقة التى تتم فى ظاهرها عن عدم المهارة.

والتحليل النفسى لا ينكر دور العوامل التى تعتبر فى العادة مسئولة عن هذه الظواهر ، كالتعب وشرود الذهن والتهيج والخواص الصوتية للألفاظ؛ ولكنه يعتبرها تفسيرات جزئية وعوامل مساعدة .

يرى التحليل النفسى أن نشاط الأنا فى هذه الحالات يختل بتأثير عامل طفلى . وهذا العامل يمكن أن يكون شعوريا أو قبل — شعوريا يتعرف عليه الشخص بسهولة كما يمكن أيضا أن يكون لاشعوريا لا تقبله الأنا .

ويتدخل تفسير الهفوات بصورة مستمرة فى العلاج بالتحليل النفسى كأن تعبر الهفوة عن رغبة الشخص فى الموت أو الفشل فى الوقت الذى يصر فيه على عدم وجود هذه الرغبة عنده .

وتنحصر الأهمية النظرية لهذه الهفوات فى أنها توضح الخاصة المميزة

للتفسير التحليلى فى أمثلة يسيرة الفهم عابعين على استخلاص الدلالة التى تنطوى عليها المسالك فى وحدتها الكلية الحالية والزمنية دون إنكار لقيمة العوامل الأخرى بتأثيراتها الجزئية .

بعض الأمثلة من الحياة اليومية :

إن نسيان أسماء الأشخاص مع عدم تذكرها بالمرة أو تذكرها على نحو خاطىء يشير إلى وجود دوافع خاصة تسببت فى كبت هذا الاسم . كما يشير أيضاً إلى وجود صلة معينة مع الاسم الخاص الذى احتل مكانه . فإن كان « ا » زميل «ب» وكان « ا » معروفاً بكرهيته لـ « حـ » وحدث أن نسى اسم « ب » وأحل محله « حـ » فمعنى ذلك أنه يكره « ب » . هذا الإبدال اللاإرادى يتم لتشابه الوظيفة بين العنصرين .

وقد يتم نسيان الاسم حينما يكون هناك شبه أو صلة بين الاسم وبين واقعة كريهة اضطر الشخص من قبل إلى دفعها خارج الشعور . كل شىء يتم كما لو كان المضمون المكبوت فى اللاشعور يجذب نحوه كل عنصر مشابه له أو يرتبط به يدخل إلى الشعور . ومن هنا يكون احتمال نسيان أسماء مشابهة للأسم المكربه أو متصلة به . فكثيراً ما ينسى الإنسان اسم رواية أو بطلة أو بعض فقرات من قصيدة لأنها تشير إلى وقائع تتصل بحياته واضطر شعوره فى الماضى إلى أن يتحول عنها .

وفى بعض الحالات يرجع النسيان إلى رقابة تتصل بالموقف الخارجى لا إلى دوافع الشخص المكبوتة ، كما يحدث حين ننسى نادرة من النوادر لأن سردها لو تم قد يجرح شعور أحد الحاضرين أو قد يسبب للراوى أخطاراً ممكنة ، مما يتضح فى نسيان النكبات السياسية أمام شخصيات مسئولة من الأصدقاء .

ومثال أورده فرويد ينحصر فى نسيان اسم فندق فى قرية ليس بها غير ثلاث فنادق والإصرار على وجود فندقين فقط بينما يتضح فى النهاية أن الفندق الثالث موجود بل وعلى مقربة من المكان الذى قضى فيه الشخص أجازته الصيفية فى الأعوام السبعة الأخيرة . يكشف التحليل عن طريق تداعى المعانى عن شبه بين اسم الفندق واسم زميل فى المهنة يحظى بكرهه الشديد .

مثال آخر ينحصر فى أن « ا » صديق « ب » وكلاهما يحب الفتاة « ح » . وقد حدث أن ظفر « ب » بها عماساء صديقه « ا » . ولقد انتهى الأمر بالصديق « ا » إلى أن ينسى اسم صديقه « ب » وذلك إلى درجة يضطر معها فى كل مرة يكتب إليه إلى البحث عن اسمه .

مثال ثالث : ينحصر فى أن شخصاً ألمانيا كان يتكلم بالإنجليزية مع فتاة إنجليزية تعرف عليها فى البنسيون وعندما أراد أن يقول كلمة ذهب لم يجد الكلمة الإنجليزية فى رأسه فاضطر لإفهامها إلى لمس خاتمها الذهبى . هذا مع أن الكلمة الانجليزية هى بعينها الكلمة الألمانية للدلالة على الذهب . ولكن النسيان هنا أراد أن يتيح للرجل فرصة اللمس مع الإشارة إلى ما يتمناه متصلا بخاتم الخطبة .

وكذلك الحال بالنسبة إلى المقاصد والنيات والمشاريع والمواعيد التى ينساها الشخص فيغفل عن الوفاء بها . فقصة رئيس مجلس النواب النمساوى الذى قال عند افتتاح الجلسة « حضرات السادة انى أرى اكتمال العدد اللازم من النواب الحاضرين وعليه أعلن إنهاء الجلسة » . هذه القصة تشير ولا شك إلى رغبة المتكلم فى أن يرى نهاية الجلسة على وجه السرعة .

إن الانتباه كضرب من الرقابة يحاول دون خروج أية كلمة غير مناسبة . ومن هنا كان اصطناع الوسائل لإضعاف الرقابة عن طريق المخدرات أو التخدير

أو الإجهاد أو الاستجواب أثناء النوم أو بعد الحرمان من النوم لفترة طويلة . ومعنى هذا أن وقائع التجارب الحية تنتظم داخل الشخص كما عاشها . ولكن الحياة الاجتماعية والواقع يفرضان عليه ألا يكشف من نفسه عن كل شيء بل هو يعرض منها ما يريد في ظروف معينة وفي لباس معين . ومن هنا كان دور الرقابة حتى لا تفلت بعض الوقائع الكريهة أو الخطرة . فاذا ضعفت الرقابة أو غفلت ، انطلقت المعاني يتداعى بعضها في أثر بعض .

مثال شهير يورده فرويد ينحصر في أن زوجة كانت تتحدث عن زوجها المريض وقد رفعت عنه قيود الرجيم فتقول أن الطبيب قد صرح له بأن يأكل ما يعجبني (بدلا من « ما يعجبه ») . وبديهي أن هذه الهفوة تكشف عن رغبتها السيطرية في علاقتها بزوجها .

إن بعض الأفعال الأعراضية تبدو في ظاهرها مجرد صدفة أو انعداما للمهارة بينما تكون في الواقع نوعاً من المهارة اللاشعورية تتيح لبعض الدوافع الخفية أن تعبر عن نفسها .

من ذلك حالة الفتاة وقد دعاها زميلها إلى فنجان من القهوة في بيته للقيام ببعض الأعمال العلمية ولم يكن الفتى يشعر بما تكنه الفتاة له من مشاعر الإعزاز والحب ولم يكن خجلها يسمح لها حتى بالتلميح . وعند ما قدم لها الشاب القهوة ارتجفت يدها على غير عادتها وسقطت القهوة على ملابسها ، عندها كان على الشاب أن يعرض عليها خدماته ويقدم إليها بعض ملابسه ريثما يمكن تنظيف ملابسها وتجفيفها . وكان في هذا ما لفت انتباه الشاب إليها وما أتاح لها أن تخرج عن إطار المناقشات العلمية إلى موقف آخر مختلف .

ومن ذلك أيضاً حالة المدرس المجد . أهدته تلميذاته في نهاية العام

وبمناسبة نقله إلى بلدة أخرى منفضة سجاير من الكريستال . ولقد فرحت زوجة المدرس بهذه الهدية وكانت تحرص على تنظيفها بنفسها . ومع ذلك لم يكن يسرها فى أعماقها أن يحتفظ زوجها بهدية من تلميذاته . وجاء يوم أفلتت فيه منفضة السجاير من يدها فوقعت على الأرض فتحطمت ، وتخلصت بذلك من الجسم المادى لأية ذكريات يمكن أن تكون حية فى رأس زوجها .

كل هذا فى الواقع ليس بجديد على الناس . يرتبك الشخص أحياناً فى مناقشاته العادية فيزل لسانه وينطق بنفس ما يحاول أن يدفعه بالألفاظ . عندئذ غالباً ما يستفيد الخصم من ذلك مشيراً له بمثل هذه العبارات « والنبى تسمع نفسك — أنت مش عارف تكدب — هو أنت اللى قايلها واللا أنا — كلمة الحق طلعت » . فى هذا ما يشير إلى الفهم الشعبى لدلالة الهفوات والأفعال الأعراضية . فالناس يتشاءمون حين تفقد الخطيبة خاتم الخطبة ، والمرأة تعرف حين ينسى حبيبها موعدها أنها لم تعد على باله ، وربما تشير إلى الجديد الذى أخذ عقله إلى آخر هذه الأمور المعروفة .

ومنذ وقت طويل لاحظ شوبنهاور أن التجار الذين يخطئون فى جمع المبيعات يخطئون غالباً فى صالحهم ، وأن أخطاء البائع أحياناً فى صالح المشترية تعبر عن رغبة لا شعورية فى أن يكرمها بأن يقدم لها شيئاً .

وقد أشار فرويد بصفة خاصة إلى أخطاء الروشته وخطورة علاج الطبيب لأقاربه ومعارفه . كان طبيب يكره أمه فكان يكتب روشتات خطيرة لكل امرأة مسنة . مثال آخر من أخطاء الكتابة ينحصر فى أن شخصا يكتب إلى صديقه كتابا فيختمه مع تحياتى إلى زوجتك ونجلها لأنه يعلم من الإشاعات أن هذا النجل هو فى واقع الأمر من صديق للزوجة .

وكذلك حالة من يعد عن إكراه أو حرج بإعارة كتاب أو تأدية خدمة أو زيارة فينسى أو يتأخر أو يضل الطريق . وقصة الزوج الذى يعيش مع زوجته فى انعدام للعاطفة منذ سنوات وتهديه زوجته كتابا فيشكرها ويعدها بقراءته ويضعه فى المكتبة . ولكن يستحيل عليه بعد ذلك أن يعثر عليه حتى تمرض أمه وتعنى زوجته بها فيأخذ العرفان بالجميل عند الزوج صورة الحب ، وإذا بيده تقوده على نحو آلى وهو يعبث بكتبه إلى الكتاب الضال .

إن المهارة اللاشعورية التى تضع نفسها فى خدمة الدوافع اللاشعورية تذكرنا بما يأتيه النائم الماشى من أفعال . من ذلك حالة الطالب الخجول الذى لا يعير اهتماماً للفتاة التى تسكن الطابق الذى يقع تحته، ومع ذلك يخطىء أحياناً فيطرق بابها على أنه بابه محتجاً بالتعب والشرود . وقد حدث لفرويد أن كسر محبرته عن غير قصد بعد ملاحظة من أخته تشير إلى عدم اتساقها مع ما حولها مما يفهم منه أنها تنوى إهداءه محبرة أخرى فى أول فرصة . ومن هنا يكون فعله المنطوى على عدم المهارة اليدوية وسيلة ماهرة للتعجيل بفرصة الهدية . وقد يكون كسر الأشياء بدافع من العقاب . مثال : فرويد يتسلم خطاب توبيخ كان فيه الآخر على حق ويسقط القلم من يده فيقع على شيء ثمين، فيأتى جزئياً على قيمته . ومثال الفتاة التى انتوت على الرغم منها أن تعمل لتعيش . تنزلق قدمها على درجة السلم وهى تغالب نفسها لتذهب إلى موعد عمل لتوظيفها . وعليه فعدم المهارة الجسمانية هو فى الواقع مهارة فى استخدام عدم المهارة الظاهرة فى الوصول إلى الغرض . كمن يرتبك على رصيف ضيق حين تكون هناك فتاة فى مواجهته بحيث ينتهى على الرغم منه إلى أن يصطدم بها .

كذلك الحال حين يقطع الإنسان أصبعه عن خطأ أثناء استخدام السكين،

أو حين تنطلق رصاصة عن غير قصد فتقتل آخر . فالتحليل يكشف عن رغبة في العقاب أو عدوانية تجاه الآخر . وكذلك أيضاً حالة العمال الذين تنزل بهم حوادث العمل مرة بعد مرة .

وخلاصة القول أن هناك حتمية نفسية تحكم جميع مظاهر السلوك التي تبدو وكأنها غير إرادية أو غير مرتبطة بدوافع معينة .

الأحـــلام

الحلم هو الطريق السلطانى الذى يوصلنا إلى أعماق الشخصية ؛ هو المفتاح الذهبي الذى يفتح أمامنا أسرار النفس البشرية .

ولكن كيما نفهم الحلم يجب أن نتبين وظيفته وهذا يتم بفهمنا للنوم . أن فهم الحلم لا يختلف عن فهم الهفوات وكثرة من الأخطاء الصغيرة التى تقع فى الحياة اليومية ؛ كما أن فهم الحلم لايختلف عن فهم الأعراض النفسية. فالفكرة الأساسية هى أن الأنا تهيمن على مسرح الشعور وتفرض رقابة دفاعية على جميع العناصر التى يمكن أن تدخل إليه من أعماق النفس (اللاشعورية) . وكذلك تفرض رقابة على جميع العناصر الشعورية فلا تسمح لها بالتعبير الخارجى إلاحين ترى صلاحيتها لذلك وإلا فإنها تقمعها .

ما هو النوم ؟

النوم سلوك وكل سلوك له دافع . والنوم من حيث هو سلوك دافعه هو الحاجة إلى الراحة . معنى هذا أن النوم الهادىء يمثل أقصى صورة لخفض التوتر عند الكائن الحى .

ومن الناحية النشوئية يعتبر العلماء ظاهرة النوم عودة إلى رحم الأم . ويتضح ذلك من الظروف التى نحرص على تحقيقها أثناء النوم ومن الأوضاع التى يتخذها البدن فى نومه . فنحن نحرص على درجة من الدفء وعلى توفر الظلام وانعدام المثيرات . ويتخذ الجسم وضعاً يقترب به من الوضع الذى كان عليه فى الرحم .

أما دلالة النوم فهى الإعراض عن الواقع . معنى هذا أن النوم يمثل بالضرورة حالة تكون الأنا فيها ضعيفة نسبيا لأن الأنا هى المختصة بالواقع والتكيف مع الواقع . هذا الضعف النسبى للأنا أثناء النوم معناه تقوية

نسبية أثناء النوم للجهازين الآخرين « الهى » و « الأنا العليا » . والهى كما نعلم تشتمل على الغرائز الجنسية والعدوانية كما تشتمل أيضا على جميع العناصر التى لم تقبلها الأنا ، وبالتالى قامت بطردها عن طريق ميكانيزماتها الدفاعية ، أى قامت بإبعادها خارج مسرح الشعور أى قامت بكبتها داخل جهاز الهى. هذه العناصر المكبوتة أو المكبوتات تميل إلى العودة من حيث أتت ، تميل إلى أن تعود إلى مسرح الشعور ولكن دفاعات الأنا تقف فى وجهها وتمنعها. هذه الدفاعات أو الرقابة تكون أثناء النوم أكثر تساهلا ، لأن الدوافع المكبوتة لو خرجت فلن تنتقل إلى حيز الفعل وذلك بالنظر إلى أن النائم يشبه سيارة ينعزل فيها المحرك عن العجلات ، تنعزل فيها الأفكار عن التعبير الحركى والسلوك الخارجى فى صورة الفعل .

لكن ليس معنى هذا أن يصل التساهل إلى الحد الذى يسمح للدوافع المكبوتة بأن تخرج كما هى دون تمويه وتنكر إلى مسرح الشعور .

تقول الرقابة للدوافع المكبوتة : بوسعك الخروج إلى مسرح الشعور أثناء النوم ما دام فى ذلك ما يحقق لك الاشباع ولكن ينبغى أن تتبرقعى بحيث لا تتعرف عليك الأنا وبحيث تعجز عن معرفة هويتك إذا تذكرت مع الصباح ما تتابع على مسرحها الشعورى . ومن هنا فعادة ما يكون الحلم تعبيراً عن هذه الدوافع المكبوتة فى براقعها الدفاعية التنكرية . أما إذا كانت الدوافع غير مكبوتة سيان كانت مقموعة أو شعورية لم يكتب لها الواقع الإشباع فهذه لا تستثير مقاومة من الأنا وبالتالى يمكن أن تحصل فى الحلم على الإشباع بصورة مباشرة صريحة دون حاجة إلى تمويه أو تنكر .

وعليه فتحقق النوم معناه التغيب النسبى للحاجة إلى الراحة على الحاجات الأخرى . أما اضطراب النوم فمعناه على العكس تغلب الحاجات الأخرى على الحاجة إلى الراحة . معنى هذا أن النوم الذى لا يحقق الراحة وكذلك

الأرق يرجعان إلى تغلب الحاجات الأخرى وضغطها من حيث هي توترات مزعجة :

(١) فبعض حالات اضطراب النوم ترجع إلى انفعالات حالية من قبيل الهموم الشعورية الشديدة . من ذلك الغضب الشديد أو التهيج الجنسي أو الحزن البالغ أو الفرح المسرف أو حتى التوقع لأحداث سارة أو محزنة .

(ب) وبعض حالات اضطراب النوم ترجع إلى انفعالات قديمة مكبوته. ذلك أنه ما دام النوم يمثل حالة ضعف نسبي للأنا يصل بها إلى حد الشلل والعجز فهناك إذن ما يبعث على الخوف من أن تنتهز المكبوتات هذه الفرصة فتجتاح الأنا أثناء النوم. ومن هنا يكون التشبث بالأرق والهروب في الأرق دفاعا ضد الاجتياح الممكن للدوافع المكبوته وذلك من قبيل الرغبة القديمة المكبوته في قتل آخر أو الخوف من التعرض للقتل انتقاما وثأرا للمشاعر العدوانية أو الخوف من الاستمناء أو الاحتلام إلخ .

ولكن ينبغي أن ننتبه إلى أن النوم يكون أحياناً عند أشخاص آخرين على العكس من ذلك تماما ، بمعنى أن يكون وسيلة يتخذها الشخص للدفاع ضد إحباطات الحياة ؛ وهذا هو الهروب في النوم .

ما هو الحلم :

الحلم سلوك ، وكل سلوك له دافع، والحلم من حيث هو سلوك دافعه هو خفض التوترات التي تتهدد النائم بالإيقاظ . معنى ذلك أن الحلم يهدف إلى المحافظة على النوم بإتاحة إشباعات أحلامية (غير واقعية) للدوافع الملحة التي يمكن أن توقظ الشخص من نومه . ومن الممكن أن تكون هذه الدوافع قديمة مكبوته، ومن الممكن أن تكون شعورية . فالحلم هو حارس النوم يحرسه ويبقى عليه ضد الدوافع التي تتهدده وذلك بتقديم إشباعات أحلامية لها .

وحين تكون الدوافع شعورية بمعنى إنها لا تستثير معارضة من جانب الأنا وبالتالى لم تلجأ إلى كبتها ، نقول حين تكون الدوافع شعورية ولم يمكن الواقع من اشباعها مع شدتها وأهميتها وإلحاحها فمن الممكن للحلم أن يتيح لها هذا الإشباع حتى لا تؤدى إلى إزعاج النوم بإلحاحها . فى هذه الحالة تكون الأحلام مباشرة وشفافة (الجعان يحلم بسوق العيش . والراغب فى التخرج من الطلبه يرى نفسه موظفا قد تسلم العمل) .. الخ . مثل هذه الأحلام تسمى بالنمط الطفلى للأحلام لأنها شبيهة بأحلام الأطفال . ومن هذه الأحلام ذات الطابع الطفلى ما نجده عند الراشد من أحلام تحدث بتأثير الحاجات الفسيولوجية من قبيل العطش أو الحاجة إلى التبول أو الجوع فيحصل النائم على إشباعات أحلامية تتيح للنوم أن يستمر وللراحة أن تتحقق .

وإذا كان الإشباع فى الأحلام من النمط الطفلى يمكن أن يتم بصورة مباشرة وبغير تنكر أو تمويه فإن الأمر يختلف عن ذلك فى حالة الدوافع المكبوته التى تستثير بالتالى معارضة الأنا . فى هذه الحالة لا يستطيع الحلم أن يقوم بوظيفته وهى المحافظة على النوم إذا لم يتم تمويه هذه الدوافع المكبوتة وتنكرها بحيث يصعب التعرف عليها . من هنا يتحتم فى حالة الدوافع المكبوته أن يأتى الحلم متنكراً فى معناه مستغلقا على الفهم العادى . فإذا فشلت عملية التنكير والتمويه بحيث تخرج الدوافع المكبوته عارية صريحة فإن القلق ينبثق عندئذ فى مسرح الشعور شارة إنذار بهذا الخطر . ذلك هو الكابوس واليقظة المفاجئة .

وعلية فإن ميكانيزمات صياغة الحلم ينحصر عملها فى التوفيق ما بين الدوافع المكبوته ومتطلبات الأنا بحيث يكون الناتج أشباعا للدوافع المكبوته على نحو تجهله الأنا . وميكانيزمات صياغة الحلم هى :

(ا) التكثيف: بمعنى أن المحتوى الظاهر فى الحلم هو اختزال للمحتوى الكامن . وهذا يعنى التحتيم بأكثر من سبب واحد. فكل عنصر من العناصر الظاهرة فى الحلم يرجع إلى عدة أفكار كامنة · كأن يكون القيء فى الحلم تعبيراً

عن التقزز من الجنسية وفى نفس الوقت تعبيرا عن الرغبة فى الحمل .

(ب) الرمزية: بمعنى استخدام الحلم للرموز كوسيلة للتعبير . هذه الرموز قد تكون عامة عند كل الناس (الأسد أو الذئب كرمز للأب ، والمركبات والمياه كرمز للجنسية) الخ . وقد تكون خاصة بثقافة بعينها ، وقد تكون خاصة بخبرة الفرد . ومن الرموز الشهيرة فقدان الشعر أو فقدان البصر أو بتر يد أو قدم أو فقد سنة كرمز للخصاء؛ ومن قبيل ذلك أيضاً كل ما هو مدبب فى رمزه لعضو التذكير، وكل ما هو مجوف فى رمزه لعضو التأنيث. فمنقار البط مثلا يرمز لعضو التذكير .

(حـ) الإزاحة : بمعنى أن تنفصل الخاصية الوجدانية عن موضوعها الحقيق وتنصب على موضوع آخر فرعى . وذلك من قبيل الإزاحة من عضو التأنيث إلى الفم .

(د) الإخراج المسرحى : ويعنى أن الحلم يعبر عن الفكر التصورى المجرد بصور مرئية تماما كاللغة الهيروغليفية عند قدماء المصريين . فيعبر الحلم عن المعنى الذى يريده كما يحدث فى الفيلم الصامت، إذ تتتابع الصور البصرية، ونادرا ما تتدخل الأصوات والحوار . ومن قبيل ذلك أن إحدى الفتيات رأت هذا التتابع فى حلمها : تصعد على سلالم كوبرى يمتد فوق مجرى ماء ثم تهبط من الناحية الأخرى بضع درجات لا تصل بها إلى نفس مستوى الأرض من الضفة الأخرى وإذا بها ترى ذكر بط وحشى رأسه رأس إنسان ولكنه أصلع وله منقار طويل . يهجم عليها فترتبك ولا تدرى ماذا تفعل، وإذا بذكر البط يدخل منقاره فى فمها فتشعر بالتقزز وتقىء . ويتغير المنظر فترى نفسها تحمل طفلا رضيعا وإلى جانبها زميل لها فى الدراسة أعمى بمركز المكفوفين وتشعر فى الحلم أن هذا الطفل هو ابنها .

(هـ) التصفية الثانوية : بمعنى أن حالة الحالم بقدر ما تكون قريبة من اليقظة

تضفى على هذا النتـاج منطقية ومعقولية فيبدو متماسـكا كالقصة المترابطة التى ذكرناها .

تفسير الحلم :

يحتاج الحلم إلى جهد لتفسيره . وكان فرويد يوصى بتقطيع الحلم إلى إجزاء وذلك لنطلب من الحالم مستدعيات أفكاره عن كل جزء من الأجزاء على حده وبذلك نصل من العناصر الظاهره فى الحلم إلى المحتوى الكامن وراء كل عنصر من العناصر . وفى هذا التقطيع للحلم ما يخلصنا من المعنى الظاهر ومن المعقولية والمنطقية الظاهرة .

أما تفسير الحلم اليوم فيقتصر على عمل مستدعيات الأفكار بالنسبة إلى بعض عناصر الحلم أو أجزائه وذلك لأن الرمزية العامة ، عادة ماتكفى لفهم غالبية الأجزاء والعناصر الظاهرة . ويمثل تفسير الأحلام جانبا هاما فى العلاج النفسى وعادة ما يحاول المعالج أن يمسك بدلالة الحلم ضمن سياق العملية العلاجية . فقد يكون الحلم تعبيرا عن مقاومة للعلاج أو تعبيرا عن تغيير فى الدوافع العميقه أو عن إصرار . والمعالج فى تفسيره للحلم يرجع إلى الشخصية فى حاضرها وتاريخها . وفى بعض الحالات لا يكتمل تفسير الحلم إلا بعد ظهور معلومات جديدة . من قبيل ذلك حلم المريضة التى رأت المعالج واقفاً فى مكانه عند استقبالها كالعادة ولكن يوجد ببطلونه شق طولى فى المنطقة التى توجد فيها الأزرار . فقد اتضح معناه من حلم بعد ذلك رأت فيه أخاها الأكبر الذى كان ينزل من نفسها منزلة الوالد وكانت تعتمد عليه فى طفولتها وتلقى عليه بمسئولياتها ، رأته بعد وفاته يرقد حيا فى فراشه رأسه هى هى تماما ولكن بدنه عند ما لمسته وجدت أنه جسم أمها . ومن هنـا فهى فى طرحها لمشاعرها الطفليه تجاه هذا الأخ على المعالج قد قامت بإحداث التغيرات اللازمة حتى يصبح المعالج نسخة من تصورها الطفلى لأخيها الأكبر : شخصية قوية تقتدر

على الحماية، وجسم أنثوى من الناحية التشريحية ؛ وبالتالى كان الحلم الأول تعبيرا عن عملية الطرح على المعالج .

الحلم المؤلم والكابوس :

إن الحلم لاينجح فى وظيفته وهى المحافظة على النوم إلا حين ينجح النشاط الدفاعى فى عمله التمويهى الذى يجعل الدوافع المكبوته متنكرة . أما إذا فشل النشاط الدفاعى للأنا فى عمله فذلك معناه فشل الحلم ؛ عندئذ تدخل الدوافع المكبوته عارية صريحة فينبعث القلق فى الحلم شارة إنذار بهذا الخطر ، ويشتد القلق إلى الحد الذى يقطع النوم بيقظة مفعمة بالقلق مما يحدث فى المخاوف الليليه للأطفال . هذا الأرق المفاجىء وسيلة للدفاع ضد هذا الخطر ؛ إذ تستعيد الأنا باليقظة قوتها على المواجهة ، هذه التى كانت قد ضاعت بالنوم .

وهناك أحلام أخرى تكون أليمة فى محتواها الظاهر بحيث يبدو من الغريب فهمها على أنها تحقيق لرغبة وإشباع لدافع : من قبيل ذلك المرأة التى ترى زوجها أو والدها يقوم بضربها بشكل مبرح فى الحلم وتتألم وتبكى . ومن قبيل ذلك أيضاً الشخص الذى يرى قبل الامتحان أنه دخل إلى الامتحان وظهرت النتيجة معلنة رسوبه .

فى مثل هذه الحالات يتضح أن الحلم على الرغم من طابعه الأليم يحقق رغبة عند الشخص قد تكون حاجته إلى العقوبة بالفشل تهدئة لمشاعر إثم يعانى منها، وقد تكون العقوبة البدنية فى الحلم إشباعاً المازوشية الأنثوبة عند الشخص .

وهناك أحلام أخرى أليمة يصعب فهمها على أنها تحقيق لرغبة وإشباع لدافع ؛ ونعنى هذه الأحلام التى هى تكرار المرة بعد المرة لصدمة أو حادث صادم عاشه الشخص . من قبيل ذلك أن يحلم الجندى عدة مرات بالموقف

الذى حدثت له فيه الإصابة وفقد بصره . والذى يحدث هنا هو أن الأنا تقوم فى مثل هذه الأحلام بتكرار إيجابى لما سبق أن عانته سلبياً . وفى هذا التكرار ما يسمح للأنا بتحقيق إفراغات جزئية آجلة وما يتيح للنوم أن يستمر على الرغم من التوتر الداخلى. وفى هذا التكرار أيضا ما يحقق الألفة والتعود مما يمكن الأنا من أن تتهيأ للتكرار العقلى فى اجترارات أحلام اليقظة، وذلك قبل المواجهة الصريحة للموقف .

وخلاصة القول أن الحلم تحقيق لرغبة هى رغبة الأنا فى النوم ؛ ويتحقق ذلك بتقديم إشباعات أحلامية للدوافع المطرودة . ومن هنا فالحلم هدفه خفض التوترات ، هذه التوترات التى يؤدى ارتفاعها بصورة مسرفة أو صدامها مع الأنا إلى القلق والكابوس واليقظة الفجائية .

بعض أمثلة من الحياة اليومية :

الحـــالة (أ)

حـــلم :

يرى الشخص نفسه وهو يجرى لاهثا للحاق بالقطار ، ولكنه على الرغم من الجهد لا يستطيع أن يلحق به . وينتقل المنظر فيرى نفسه عائداً إلى منزله حيث يدخل فيجد أخته الكبرى وهى الأخت الوحيدة وأمامها « سمك ثعابين » وقد أمسكت بواحدة وفى يدها الأخرى سكين تضرب بها السمكة فتشقها رأسيا .

هذا الحلم لشاب قد تخطى الثلاثين وله علاقات عديدة مع عدد كبير من الفتيات يتبادل معهن الرسائل العاطفية ويخرج معهن فى مقابلات أو نزهات ولكنه يشكو من أنه لم يجد بينهن جميعاً من تستطيع أن تشعره حقا بعاطفة الحب . واحدة فقط من بينهن هى التى استطاعت أن تحصل على إعزازه ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يشعر نحوها بارتباط حقيقى عميق . وهو مع ذلك لم يشعر برغبة فى الزواج . وعلى الرغم من الفرص التى اتيحت

له مع غيره من الشباب فقد كان يحجم دائما عن أى محاولة ، لشعوره بخطر هذه المسألة .

التفسير :

إن القطار يذكره بهذه الفتاة التى بلغت من نفسه منزلة الإعزاز ولكنها لم تصل به إلى حد العاطفة الحقيقية . كان برودة ولا شك أن يبادلها الحب (والآلما جرى وراء القطار) ولكن قوة أخرى قد حالت بينه وبين أن يرتبط بها فنعته من أن يلحق بالقطار (وإلا للحق بالقطار فى حلمه) . فما هى هذه القوة الأخرى التى حالت بينه وبين الارتباط العاطفى بتلك الفتاة ؟ ؟ يتتابع الحلم ويرينا أنه لم يلحق بالقطار لأنه يريد أن يتجه إلى الأخت . والأخت هنا هى أخت كبرى وحيدة تنزل من نفسه منزلة الأم وتحظى بحبه منذ وفاة الأم . وحيث أن طاقة الحب كلها مرتبطة بهذه الأخت فليست لديه طاقة أخرى يستطيع أن يرتبط بها مع أى فتاة أخرى . لابد وأن يتخلص من حب الأخت وينتزع الطاقات المستثمرة فيها إن كان له أى يوظف هذه الطاقات فى موضوع حب جديد . وذلك هو السبب الحقيقى فى عجزه عن الارتباط العاطفى مع أى فتاة على الرغم من تعددهن . أنه فى تثبيت على الأخت كبديلة للأم .

ولكن ما موقفه من المرأة ؟ إن الأخت تمسك بالسكين ، وفى هذا ما يرمز إلى الصورة الخطرة للمرأة فى ذهنه . هى صورة عميقة مستقرة منذ الطفولة تمثل صورة للأنوثة من حيث هى خطر بل وخطر يحيل الرجولة إلى أنوثة ، مما يتضح فى المصير الذى ينزل بسمكة الثعبان . ذلك هو السبب الحقيقى فى أحجامه عن الزواج وفى إحجامه عن كل محاولة أخرى أتاحتها الفرص له . فالجنسية خطرة تهدد رجولة الرجل بالتحول إلى أنوثة .

حلم ثان :

يرى نفسه فى المنام يقف على ماسورة يغطيها المـــاء ولا يراها

أحد . إن الماء يغطى جانباً صغيراً من قدميه وهو يشعر برغبة فى النزول إلى الماء ولكنه يشعر بان هذ الماء ملىء بسمك القرش الذى يتاهب لالتهامه. أما أخته فيراها فى الماء تسبح فى مهارة وتقوم بحركات أكروباتيه .وبوده أن ينزل إلى الماء ولكن الخوف يشله .

التفسير :

هنا أيضاً نرى ما رأيناه من الحلم السابق والمياه تشير إلى الحياة الجنسية شأنها شأن جميع المركبات فى الحلم . إنه فى الماء لمن ينظر إليه من بعيد ،ولكنه فى حقيقة الأمر ليس فى الماء .ذلك ما يظهر من علاقاته العديدة مع الفتيات وخروجه معهن بحيث يتوهمه الناس غارقا فى الحياه العاطفية الجنسية بينما هو فى حقيقة الأمر يختلف عن ذلك ، فالماء بالكاد يغطى جانبا من قدمية . أخته تسبح بمهاره فى الماء بلا خوف مما يعنى أن الجنسية ليست خطرة بالنسبة للمرأة . أما هو فبوده لو نزل ولكنه يخاف من سمك القرش الذى ينتظره ليبتلعه وهذا تصور آخر لخطر الأنوثة الذى يتربص بالرجولة .

حلم ثالث :

يرى الشخص نفسه واقفاً فى طريق يريد أن يستقل مركبة ولكنه يرى جميع المركبات وجميع العربات فى الطريق تمضى كلهافى اتجاه واحد . وأغرب من هذا أن العربات لا تمضى فهى لا تتحرك بنفسها وإنما الأرض نفسها هى التى تتحرك فتحمل العربات كلها إلى نهايه الطريق حيث يوجد شارع عمودى عليه . هذا الشارع قد تحول فى الحلم إلى نهر عميق، والطريق المتحرك يحمل جميع العربات ليلقى بهـا فى هذا النهر العميق .كل العربات تمضى إلى هذا المصير المحتوم وهو يرقب ذلك فى رعب .

التفسير :

إن الشارع الذى تحول فى الحلم إلى نهر شارع واقعى كان يسكن فيه

مع عائلته أيام كانت أمه تنبض بالحياة وبالحب له، وبعد وفاتها انتقلت الأسرة من هذا الشارع إلى شارع آخر. إنه يود لو دخل الحياه العاطفية الجنسية. يود لو أستقل عربة ولكنه لايستطيع لأنه يرى جميع العربات تنتهى إلى شيء خطير. يرى الجنسية تتأدى به فى حتمية صماء إلى جنسية محارمية.

فالطريق هى التى تتحرك والعربات لاتملك حرية الحركة. وحركة الطريق تنتهى بجميع العربات إلى حتفها. معنى ذلك بالنسبة إليه أن الجنسية فى فهمه لو بدأها فستنتهى به حتما إلى خطر لاحق هو أن يغرق فى جنسية محارمية شنيعة؛ ومن هنا فإن الوسيلة الوحيدة لتجنب هذا الخطر هو الإحجام عن كل جنسية.

الحـــالة (ب)

حـــلم:

هو فى منطقة ضيقة بين جبلين متقاربين أحدهما على يمينه والآخر عن يساره ويشعر أنه وقد وقع فى هذه المنطقة ويريد الخروج ولا يجد وسيلة. يصعد محاولا تسلق الجبل الأيمن فيصيبه الإعياء. ويهبط ثانية ويأخذ فى المشى فى الوادى الضيق فتلوح له نافذة فى الجبل عن يمينه فيتجه إليها بعد أن يلتقط ثمرة جوافة خضراء يجدها فى طريقه. يدخل من النافذة ومعه ثمرة الجوافة الخضراء فيجد طفلا جميلا فيعطيه ثمرة الجوافة الخضراء التى تتحول فى يد الطفل إلى شيء جميل شهى يقبل عليه فى فهم واستمتاع. ويتغير المشهد فيرى نفسه يدخل فى مستشفى ويجد زوجته الأولى التى توفيت ترقد حية فى السرير وهى ترتدى ملابس بيضاء؛ وعند القلب فى جنبها الأيسر يرى فتحة على وشك الالتئام ويسألها عن حالها فتجيبه أنه بعد أسبوع سيتم الشفاء.

هذا الحلم لرجل فى السابعة والأربعين يعيش الآن مع زوجته الثانية ومع أولاده الأربعة من الزوجة الأولى. وهذا الرجل طموح فقد كان

ترتيبه فى الدراسة الأول على الدوام . واصل جهاده العلمى حتى حصل على الماجستير وهو الآن قد توقف بسبب مرضه عن إعداد الدكتوراه ولكنه يصر فى نفسه على إتمامها . وكانت زوجته الأولى مدرسة تهتم بالمال ولا تحفل بالدراسات العلمية . كانت تعطى دروسا خصوصية فى المنزل مما جعله يضيق بحياته الزوجية التى لاتوفر له الراحة بل وتعوق طموحه العلمى .

مرضت زوجته بالكبد بعد أسابيع من العلاج بالمستشفى انفق فيها الكثير من المال والجهد حتى فقد عشرين كيلوجراما من وزنه . توفيت زوجته ، ولم يمض شهر حتى كان قد تزوج من زوجته الحالية وسافر معها إلى دولة عربية . وهناك بدأت المتاعب النفسية تضيق عليه الخناق وأستولى عليه أعتقاد قهرى بدنو أجله فحزم أمتعته عائدا إلى مصر على الرغم من عظم دخله هناك . يعذبه اليوم الأرق ويستبد به الضيق بالحياة والإعراض عن كل شيء ، فلم يعد يطيق العلم ولا الحياة. زوجته الحالية أقل جمالا فى مظهرها من الزوجة الأولى . كانت الأولى بيضاء البشرة تتميز باتساق تقاطيع البدن أما الزوجة الحالية فسمراء ممتلئة البدن بارزة الردفين ولكنه يشعر معها بسعادة كان يفتقدها مع الأولى؛ وكان يمكنه أن يسعدها لولا هذه المتاعب النفسية. وهو يسكن حالياً نفس المسكن الذى يسكن فيه منذ سبع سنوات. وبالمنزل حديقة بها شجرة جوافة ، ومنذ أسابيع ولأول مرة أخرجت شجرة الجوافة ثمرتها الأولى ففرح بها الجميع رغم أنها خضراء ، وقالت الزوجة مداعبة « ده قدمى عليك» .

التفسير :

من الواضح أن الجوافة الخضراء ترمز إلى الزوجة الحالية فمظهرها يبدو متواضعاً من الناحية الجمالية ولكنها فى حقيقة الأمر شهية ممتعة. أما الجبلان فيشيران إلى ذلك إذ يرمزان إلى الردفين . وليس الطفل الصغير فى الحلم

إلا الرمز الذى يعبر عن عضو الحالم . ولكنه رغم استمتاعه يريد أن يغادر المكان مما يشير إلى صراعه الأساسى . فالمتعة تشده إلى زوجته الحالية بينما يشده عنها شعور إثم تجاه الزوجة الأولى التى توفيت . ومن هنا ينتقل الحلم فى المشهد التالى إلى التكفير فتبعث الرغبة الدفينة زوجته الأولى إلى الحياة ويشعر أن جرح قلبها قد أوشك على الالتئام وأنها ستعود إليه بعد أسبوع .

حلم ثان :

هو فى غرفة النوم فى الفراش مع زوجته الحالية . ينفتح الباب فجأة ويدخل الرئيس ويقطع الغرفة متجهاً إلى باب آخر يطل على عنبر به عدد كبير من الجنود ويتأكد فى نظرة يلقيها عليهم بعد أن يفتح الباب أنهم على استعداد للقتال . عندئذ تمتلىء الغرفة بالدخان أو بشىء أو بقطع لا حصر لها من زغب القطن ويصبح الجو خانقا لا يحتمل . فتطلب زوجته منه أن يدعها تنصرف إلى بيت أخيها أما هو فيتلو فى ذعر شديد آيات من القرآن .

التفسير :

يمثل هذا الحلم صراع المنظمات الثلاث لجهازه النفسى . هو يرمز للأنا بينما ترمز الزوجة للغريزة أما الرئيس فيرمز إلى الأنا العليا . ومن هنا فإن الحلم يعبر عن رغبة فى أن تنزل به العقوبة تهدئة لمشاعر الأثم . إن القيم الأخلاقية على استعداد الهجوم ، فقد كان فى دخول الرئيس ما يعلن عن ذلك . بل إن هذه القيم قد بدأت بالفعل الهجوم فأحالت حياته جواً خانقا لا يحتمل ، بحيث تعمد الزوجة من نفسها إلى أن تطلب الرحيل عنه . ولكن ليس فى هذا ما يكفى ، ومن هنا تلاوة القرآن تكفيراً وطلبا لمعونة الله . فالحلم يعبر عن رغبته فى أن تعرب الزوجة عن رغبتها فى الانصراف وذلك بعد تحقيقا لرغبته فى معاناة العقاب فتكون حياته جواً خانقا .

وبالإضافة إلى ذلك جملة من الأحلام تعبر كلها عن الشعور بالذنب

والتكفير. فهو يؤدى الصلاة بانتظام منذسنوات بعيدة. ولكنه بدأ فى الفترة الآخيرة يرى أحلام الصلاة تتكرر، فهو يحلم أنه يصلى فى خشوع فى الحسين أو فى السيدة. وذهب مرة ليصلى وأراد الوضوء فمنعه البعض من استخدام الصنبور مشيرين إليه بضروره وضوئه من البحر. وفى مرة أخرى حلم أنه يصلى فى جامع السعودية مع أنه لا يعرف فى الواقع جامعا بهذا الاسم. وكان قبل الحلم بأيام يفكر فى السفر فى العام القادم إلى السعودية ليؤدى فريضة الحج لعل الله أن يذهب عنه ضيق نفسه.

اقــــرأ للمؤلفين

مؤلفات

— المدخل إلى علم النفس الاجتماعى ، الأنجلو .

— فى الاشتراكية العربية ، ماركس يدحض الماركسية ، الدار القومية .

— دراسات فى القومية مع هيكل نظرية تفسيرية ، دار الفكر العربى .

مترجمات

— علم نفس الجشطلت ، لبول جييوم ، سجل العرب .

— وحدة علم النفس ، لدانييل لاجاش ، الأنجلو .

— سيكولوجية الإشاعة ، لأولبورت وبوستمان ، دار المعارف .

— علم الاجتماع عند ماركس الشاب ، لجيرفيتش ، الأنجلو .

— الدعاية السياسية ، لدوميناك ، الأنجلو .

— الحياة الجنسية للمرأة ، لمارى بونابارت ، دار الفكر العربى .

— سيكولوجية الشخصية ، لنوتكات ، الأنجلو .

— العمى ، للأب كارول ، مؤسسة فرانكلين .

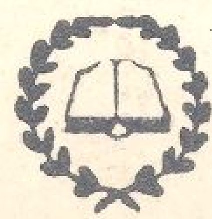
— مقالات الاشتراكية فى دوائر المعارف العلمية (تحت الطبع) .

— نظرية التحليل النفسى فى العصاب ، لأوتو فينخل (تحت الطبع) .

واقرأ للدكتور مخيمر

- سيكولوجية الموضة ، الأنجلو .
- شائعات معركة يونيو ١٩٦٧ ، الأنجلو .
- نحو نظرية ثورية فى التربية ، الأنجلو .
- نظرية الجشطلت وعلم النفس الإجتماعى ، الأنجلو .
- المجال الفيزائى والمهنى للمكفوفين ، الأنجلو .
- تاريخ تأهيل المكفوفين ، الأنجلو .
- الأنماط الانفعالية للمكفوفين ، الأنجلو .
- فى مجال الحياة الوجدانية الاجتماعية للمكفوفين (تحت الطبع) .

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١



مكتبة الأنجلو المصرية